

أول دورية إلكترونية مُحكَمة ربع سنوية

متخصصة في الدراسات التاريخية

تأسست غرة جمادى الأول 1429 هـ

صدر العدد الأول سبتمبر 2008 م

ISSN: 2090 - 0449

23

السنة السابعة

مارس (أذار) 2014م - جمادى الأولى 1435هـ

Kan historique périodique

www.kanhistorique.org

info@kanhistorique.org

رقمية الموطن ■ عربية الهوية ■ عالمية الأداء





أول دورية عربية مُحكّمة ربع سنوية متخصصة في الدراسات التاريخية تصدر في شكل إلكتروني ، تأسست غرة جمادى الأول ١٤٢٩ هجرية ، وصدر العدد الأول منها في سبتمبر (أيلول) ٢٠٠٨

دورية كان التاريخية

- تدعو كل المهتمين بالمحافظة على تاريخ الوطن العربي إلى إثراء صفحات الدورية بالموضوعات التاريخية.
- ترحب هيئة التحرير بإسهامات الأساتذة ، والباحثين ، والكتاب المتخصصين ، من مقالات ودراسات وبحوث تاريخية.

موضوعات الدورية

- الدورية متخصصة في المواضيع العلمية و الأكاديمية البحتة التي تخص أساتذة وطلاب الجامعات العرب ، وأصحاب الدراسات العليا ، والباحثين في الدراسات التاريخية والعلوم ذات العلاقة ، والمهتمين بالقراءات التاريخية.
- الموضوعات المنشورة بالدورية تعبر عن وجهة نظر كاتبيها ، ولا تعبر بالضرورة عن جهة نظر دورية كان التاريخية ، أو هيئة التحرير.

حقوق الملكية الفكرية

الإشعار القانوني

دورية كان التاريخية غير مدعومة من أية جهة داخلية أو خارجية أو حزب أو تيار سياسي ، إنما هي منبر علمي ثقافي مستقل يعتمد على جهود المخلصين من أصحاب الفكر ومحبي الثقافة الذين يؤمنون بأهمية الدراسات التاريخية.

أعداد الدورية متوفرة عبر:



دار ناشري للنشر الإلكتروني – الكويت
أول دار نشر ومكتبة إلكترونية عربية مجانية
تأسست يوليو ٢٠٠٣
www.nashiri.net



أرشيف الإنترنت الرقمي العالمي
منظمة غير ربحية (سان فرانسيسكو)
www.archive.org

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

الترقيم الدولي المعياري للدورية

كان التاريخية مسجلة وفق النظام العالمي لمعلومات الدوريات ، وحاصلة على الترقيم الدولي المعياري الموحد للدوريات:

ISSN: 2090 – 0449 Online

الراعي الرسمي



سلسلة المؤرخ الصغير ، هي سلسلة كتب علمية تاريخية ، تهدف إلى توفير المعلومة العلمية حول الموضوعات التاريخية التي تهم الباحثين ، بأسلوب أكاديمي موثق يتوافق مع متطلبات البحث العلمي. وتستهدف السلسلة الطلاب والباحثين لإرشادهم في طريق البحث العلمي ، والإعلامي والمُعلم والمثقف العربي لمساعدتهم على نشر الوعي التاريخي.

علاقات تعاون

ترتبط دورية كان التاريخية بعلاقات تعاون مع عدة مؤسسات عربية ودولية بهدف تعزيز العمل العلمي في المجالات ذات الاختصاص المشترك ، وتعظيم الفائدة من البحوث والدراسات التي تنشرها الدورية ، وتوسيع حجم المشاركة لتشمل الفائدة كل أنحاء الوطن العربي.

النشر الورقي

- يحق للكاتب إعادة نشر المقال (البحث) بصورة ورقية أو إلكترونية بعد نشره في الدورية دون الرجوع لهيئة التحرير.
- يحق للدورية إعادة نشر المقالات والبحوث بصورة ورقية لغايات غير ربحية دون الرجوع للكاتب.

المراسلات

توجه المراسلات والاقتراحات والموضوعات المطلوبة للنشر باسم رئيس تحرير دورية كان التاريخية على البريد الإلكتروني:

mr.ashraf.salih@gmail.com

موقع الدورية على شبكة الإنترنت

لمزيد من التواصل بإمكانك مطالعة الدورية والأرشيف بالكامل على الموقع الإلكتروني بالإضافة إلى مزيد من التفاعل .. نحن بانتظاركم




www.kanhistorique.org
www.historicalkan.co.nr

دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية

علمية عالمية مُحَكَّمَة ربع سنوية

السياسات والقواعد والإجراءات

ترحب دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية بنشر البحوث الجيدة والجديدة المبتكرة في أي من حقول الدراسات التاريخية، أو العلوم المساعدة ذات العلاقة، ويشمل ذلك كل العلوم نظرًا لطبيعة الْتَّارِيْخ كعلم يتناول النشاط الإنساني كافة. مع مراعاة عدم تعارض الأعمال العلمية المقدمة للنشر مع العقائد السماوية، وألا تتخذ أية صفة سياسية، وألا تتعارض مع الأعراف والأخلاق الحميدة، وأن تتسم بالجدّة والأصالة والموضوعية، وتكتب بلغة عربية سليمة، وأسلوب واضح.

سياسات النشر

تسعى دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية إلى استيعاب روافد كل الأفكار والثقافات ذات البعد التاريخي، ويسعدها أن تستقبل مساهمات أصحاب القلم من الأساتذة الأكاديميين والباحثين والكُتَّاب المثقفين الأفاضل، ضمن أقسام الدورية: البحوث والدراسات، عروض الكتب، عروض الأطاريح الجامعية، تقارير اللقاءات العلمية.

هيئة التحرير:

- تُعطى الأولوية في النشر للبحوث والعروض والتقارير حسب الأسبقية الزمنية للورود إلى هيئة تحرير الدورية، وذلك بعد إجازتها من هيئة التحكيم، ووفقًا للاعتبارات العلمية والفنية التي تراها هيئة التحرير.
- تقوم هيئة التحرير بالقراءة الأولية للبحوث العلمية المقدمة للنشر بالدورية للتأكد من توافر مقومات البحث العلمي، وتخضع البحوث والدراسات والمقالات بعد ذلك للتحكيم العلمي والمراجعة اللغوية.
- يكتفي بالإجازة من قبل اثنين من أعضاء هيئة التحرير لنشر مراجعات الكتب، والأطاريح الجامعية، وتقارير اللقاءات العلمية.
- يحق لهيئة التحرير إجراء التعديلات الشكلية على المادة المقدمة للنشر لتكن وفق المعيار (IEEE) تنسيق النص في عمودين، مع مراعاة توافق حجم ونوع الخط مع نسخة المقال المعياري.
- تقوم هيئة التحرير باختيار ما تراه مناسبًا للنشر من الجرائد والمجلات المطبوعة والإلكترونية مع عدم الإخلال بحقوق الدوريات والمواقع وذكر مصدر المادة المنشورة.

هيئة التحكيم:

- يعتمد قرار قبول البحوث المقدمة للنشر على توصية هيئة التحرير والمحكمين؛ حيث يتم تحكيم البحوث تحكيمًا سريًا بإرسال العمل العلمي إلى المحكمين بدون ذكر اسم الباحث أو ما يدل على شخصيته، ويرفق مع العمل العلمي المراد تحكيمه استمارة تقويم تضم قائمة بالمعايير التي على ضوئها يتم تقويم العمل العلمي.
- يستند المحكمون في قراراتهم في تحكيم البحث إلى مدى ارتباط البحث بحقل المعرفة، والقيمة العلمية لنتائجه، ومدى أصالة أفكار البحث وموضوعه، ودقة الأدبيات المرتبطة بموضوع البحث وشمولها، بالإضافة إلى سلامة المنهاج العلمي المستخدم في الدراسة، ومدى ملاءمة البيانات والنتائج النهائية لفرضيات البحث، وسلامة تنظيم أسلوب العرض من حيث صياغة الأفكار، ولغة البحث، وجودة الجداول والأشكال والصور ووضوحها.
- البحوث والدراسات التي يقترح المحكمون إجراء تعديلات جذرية عليها تعاد إلى أصحابها لإجرائها في موعد أقصاه أسبوعين من تاريخ إرسال التعديلات المقترحة إلى المؤلف، أما إذا كانت التعديلات طفيفة فتقوم هيئة التحرير بإجرائها.
- تبذل هيئة التحرير الجهد اللازم لإتمام عملية التحكيم، من متابعة إجراءات التعديل، والتحقق من استيفاء التصويبات والتعديلات المطلوبة، حتى التوصل إلى قرار بشأن كل بحث مقدم قبل النشر، بحيث يتم اختصار الوقت اللازم لذلك إلى أدنى حد ممكن.
- في حالة عدم مناسبة البحث للنشر، تقوم الدورية بإخطار الباحث بذلك. أما بالنسبة للبحوث المقبولة والتي اجتازت التحكيم وفق الضوابط العلمية المتعارف عليها، واستوفت قواعد وشروط النشر بالدورية، فيُمنح كل باحث إفادة بقبول بحثه للنشر.
- تقوم الدورية بالتدقيق اللغوي للأبحاث المقبولة للنشر، وتقوم هيئة التحرير بعد ذلك بمهمة تنسيق البحث ليخرج في الشكل النهائي المتعارف عليه لإصدارات الدورية.

البحوث والدراسات العلمية

- تقبل الأعمال العلمية المكتوبة باللغتين العربية والإنجليزية التي لم يسبق نشرها أو تقديمها للنشر في مجلة إلكترونية أو مطبوعة أخرى.
- تقبل البحوث والدراسات المنشورة من قبل في صورة ورقية، ولا تقبل الأعمال التي سبق نشرها في صورة رقمية: مدونات/ منتديات/ مواقع/ مجلات إلكترونية، ويستثنى من ذلك المواضيع القيمة حسب تقييم رئيس التحرير.
- يجب أن يتسم البحث العلمي بالجَوْدة والأصالة في موضوعه ومنهجه وعرضه، متوافقًا مع عنوانه.

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

- التزام الكاتب بالأمانة العلمية في نقل المعلومات واقتباس الأفكار وعزوها لأصحابها، وتوثيقها بالطرق العلمية المتعارف عليها.
- اعتماد الأصول العلمية في إعداد وكتابة البحث من توثيق وهوامش ومصادر ومراجع، مع الالتزام بعلامات الترقيم المتنوعة.

إرشادات المؤلفين (الاشتراطات الشكلية والمنهجية)

ينبغي ألاّ يزيد حجم البحث على ثلاثين (٣٠) صفحة، مع الالتزام بالقواعد المتعارف عليها عالميًا بشكل البحوث، بحيث يكون المحتوى حسب التسلسل: ملخص، مقدمة، موضوع البحث، خاتمة، ملاحق: (الأشكال/ الجداول)، الهوامش، المراجع.

- **عنوان البحث:**

يجب أن لا يتجاوز عنوان البحث عشرين (٢٠) كلمة، وأن يتناسب مع مضمون البحث، ويدل عليه، أو يتضمن الاستنتاج الرئيسي.

نبذة عن المؤلف (المؤلفين):

يقدم مع البحث نبذة عن كل مؤلف في حدود (٥٠) كلمة تبين آخر درجة علمية حصل عليها، واسم الجامعة (القسم/ الكلية) التي حصل منها على الدرجة العلمية والسنة. والوظيفية الحالية، والمؤسسة أو الجهة أو الجامعة التي يعمل لديها، والمجالات الرئيسة لاهتماماته البحثية. مع توضيح عنوان المراسلة (العنوان البريدي)، وأرقام (التليفون- الموبايل/ الجوال- الفاكس).

- **صورة شخصية:**

ترسل صورة واضحة لشخص الكاتب لنشرها مع البحث، كما تستخدم بغرض إنشاء صفحة للكاتب في موقع الدورية على شبكة الإنترنت.

- **ملخص البحث:**

يجب تقديم ملخص للبحوث والدراسات باللغة العربية في حدود (١٠٠ - ١٥٠) كلمة.

البحوث والدراسات باللغة الإنجليزية، يرفق معها ملخص باللغة العربية في حدود (١٥٠ - ٢٠٠) كلمة.

- **الكلمات المفتاحية:**

الكلمات التي تستخدم للفهرسة لا تتجاوز عشرة كلمات، يختارها الباحث بما يتواكب مع مضمون البحث، وفي حالة عدم ذكرها، تقوم هيئة التحرير باختيارها عند فهرسة المقال وإدراجه في قواعد البيانات بغرض ظهور البحث أثناء عملية البحث والاسترجاع على شبكة الإنترنت.

- **مجال البحث:**

الإشارة إلى مجال تخصص البحث المرسل "العام والدقيق".

- **المقدمة:**

تتضمن المقدمة بوضوح دواعي إجراء البحث (الهدف)، وتساؤلات وفرضيات البحث، مع ذكر الدراسات السابقة ذات العلاقة.

- **موضوع البحث:**

يراعي أن تتم كتابة البحث بلغة عربية سلمية واضحة مركزة وبأسلوب علمي حيادي. وينبغي أن تكون الطرق البحثية والمنهجية المستخدمة واضحة، وملائمة لتحقيق الهدف، وتتوفر فيها الدقة العلمية. مع مراعاة المناقشة والتحليل الموضوعي الهادف في ضوء المعلومات المتوفرة بعيدًا عن الحشو (تكرار السرد).

- **الجداول والأشكال:**

ينبغي ترقيم كل جدول (شكل) مع ذكر عنوان يدل على فحواه، والإشارة إليه في متن البحث على أن يدرج في الملاحق. ويمكن وضع الجداول والأشكال في متن البحث إذا دعت الضرورة إلى ذلك.

- **الصور التوضيحية:**

في حالة وجود صور تدعم البحث، يجب إرسال الصور على البريد الإلكتروني في <ملف منفصل> على هيئة (JPEG)، حيث أن وضع الصور في ملف الكتابة (Word) يقلل من درجة وضوحها (Resolution)

- **خاتمة (خلاصة):**

تحتوي على عرض موضوعي للنتائج والتوصيات الناتجة عن محتوى البحث، على أن تكون موجزة بشكل واضح، ولا تأتي مكررة لما سبق أن تناوله الباحث في أجزاء سابقة من موضوع البحث.

- **الهوامش:**

يجب إدراج الهوامش في شكل أرقام متسلسلة في نهاية البحث، مع مراعاة أن يذكر اسم المصدر أو المرجع كاملاً عند الإشارة إليه لأول مرة، فإذا تكرر يستخدم الاسم المختصر، وعلى ذلك فسوف يتم فقط إدراج المستخدم فعلاً من المصادر والمراجع في الهوامش. يمكن للباحث إتباع أي أسلوب في توثيق الحواشي (الهوامش) بشرط التوحيد في مجمل الدراسة، وبإمكان الباحث استخدام نمط "APA Style" الشائع في توثيق الأبحاث العلمية والتطبيقية (American Psychological Association)، حيث يُشار إلى المرجع في المتن بعد فقرة الاقتباس مباشرةً وفق الترتيب التالي: (اسم عائلة المؤلف، سنة النشر، رقم الصفحة)، على أن تدون الإحالات المرجعية كاملة في نهاية البحث.

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

- **المراجع:**
يجب أن تكون ذات علاقة فعلية بموضوع البحث، وتوضع في نهاية البحث، وتتضمن قائمة المراجع الأعمال التي تم الإشارة إليها فقط في الهوامش، أي يجب ألا تحتوي قائمة المراجع على أي مرجع لم تتم الإشارة إليه ضمن البحث. وترتب المراجع طبقًا للترتيب الهجائي، وتصنف في قائمة واحدة في نهاية البحث مهما كان نوعها: كتب، دوريات، مجلات، وثائق رسمية، ...الخ، ويمكن للباحث إتباع أي أسلوب في توثيق المراجع والمصادر بشرط التوحيد في مجمل الدراسة.

عروض الكتب

- تنشر الدورية المراجعات التقييمية للكتب "العربية والأجنبية" حديثة النشر. أما مراجعات الكتب القديمة فتكون حسب قيمة الكتاب وأهميته.
- يجب أن يعالج الكتاب إحدى القضايا أو المجالات التاريخية المتعددة، ويشتمل على إضافة علمية جديدة.
- يعرض الكاتب ملخصًا وافيًا لمحتويات الكتاب، مع بيان أهم أوجه التميز وأوجه القصور، وإبراز بيانات الكتاب كاملة في أول العرض: (اسم المؤلف/ المحقق/ المترجم، الطبعة، الناشر، مكان النشر، سنة النشر، السلسلة، عدد الصفحات).
- ألا تزيد عدد صفحات العرض عن (١٢) صفحة.

عروض الأطاريح الجامعية

- تنشر الدورية عروض الأطاريح الجامعية (رسائل الدكتوراه والماجستير) التي تم إجازتها بالفعل، ويُراعى في الأطاريح (الرسائل) موضوع العرض أن تكون حديثة، وتمثل إضافة علمية جديدة في أحد حقول الدراسات التاريخية والعلوم ذات العلاقة.
- إبراز بيانات الأطروحة كاملة في أول العرض (اسم الباحث، اسم المشرف، الكلية، الجامعة، الدولة، سنة الإجازة).
- أن يشتمل العرض على مقدمة لبيان أهمية موضوع البحث، مع ملخص لمشكلة (موضوع) البحث وكيفية تحديدها.
- ملخص لمنهج البحث وفروضه وعينته وأدواته، وخاتمة لأهم ما توصل إليه الباحث من نتائج.
- ألا تزيد عدد صفحات العرض عن (١٥) صفحة.

تقارير اللقاءات العلمية

- ترحب الدورية بنشر التقارير العلمية عن الندوات، والمؤتمرات، والحلقات النقاشية (سيمنار) الحديثة الانعقاد في دول الوطن العربي، والتي تتصل موضوعاتها بالدراسات التاريخية، بالإضافة إلى التقارير عن المدن والمواقع الأثرية، والمشروعات التراثية.
- يشترط أن يغطي التقرير فعاليات اللقاء (ندوة / مؤتمر/ ورشة عمل/ سيمنار) مركزًا على الأبحاث العلمية، وأوراق العمل المقدمة، ونتائجها، وأهم التوصيات التي يتوصل إليها اللقاء.
- ألا تزيد عدد صفحات التقرير عن (١٠) صفحات.

قواعد عامة

- تُرسل كافة الأعمال المطلوبة للنشر بصيغة برنامج مايكروسوفت وورد Microsoft Word ولا يلتفت إلى أي صيغ أخرى.
- المساهمون للمرة الأولى من أعضاء هيئة التدريس بالجامعات يرسلون أعمالهم مصحوبة بسيرهم الذاتية العلمية "أحدث نموذج".
- ترتب الأبحاث عند نشرها في الدورية وفق اعتبارات فنية لا علاقة لها بمكانة الباحث أو قيمة البحث.

حقوق المؤلف

- المؤلف مسئول مسئولية كاملة عما يقدمه للنشر بالدورية، وعن توافر الأمانة العلمية به، سواء لموضوعه أو لمحتواه ولكل ما يرد بنصه وفي الإشارة إلى المراجع ومصادر المعلومات.
- جميع الآراء والأفكار والمعلومات الواردة بالبحث تعبر عن رأي كاتبها وعلى مسئوليته هو وحده ولا تعبر عن رأي أحد غيره، وليس للدورية أو هيئة التحرير أية مسئولية في ذلك.
- ترسل الدورية لكل صاحب بحث أُجيز للنشر، نسخة من العدد المنشور به البحث، ومستلة من البحث على البريد الإلكتروني.
- يحق للكاتب إعادة نشر البحث بصورة ورقية، أو إلكترونية بعد نشره في الدورية دون الرجوع لهيئة التحرير، ويحق للدورية إعادة نشر المقالات والبحوث بصورة ورقية لغايات غير ربحية دون الرجوع للكاتب.
- يحق للدورية إعادة نشر البحث المقبول منفصلاً أو ضمن مجموعة من المساهمات العلمية الأخرى بلغتها الأصلية أو مترجمة إلى أية لغة أخرى، وذلك بصورة إلكترونية أو ورقية لغايات غير ربحية.
- لا تدفع المجلة أية مكافآت مالية عمّا تقبله للنشر فيها، ويعتبر ما ينشر فيها إسهامًا معنويًا من الكاتب في إثراء المحتوى الرقمي العربي.

الإصدارات والتوزيع

- تصدر دَّوريةُ كَان الْتَّارِيْخية أربع مرات في السنة: (مارس- يونيو – سبتمبر – ديسمبر).
- الدورية متاحة للقراءة والتحميل عبر موقعها الإلكتروني على شبكة الإنترنت.
- ترسَل الأعداد الجديدة إلى كُتَّاب الدورية على بريدهم الإلكتروني الخاص.
- يتم الإعلان عن صدور الدورية عبر المواقع المتخصصة، والمجموعات البريدية، والشبكات الاجتماعية.

المراسلات

- تُرسَل الاستفسارات والاقتراحات إلى البريد الإلكتروني:
info@kanhistorique.org
- تُرسَل الأعمال المطلوبة للنشر إلى رئيس التحرير:
mr.ashraf.salih@gmail.com

علمية. عالمية. مُحكَّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

محتويات العدد

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

حكمة التاريخ والتنبؤ.. الماضي والمستقبل

مما لاشك فيه أن استلهام أحداث الماضي يساعد إلى حد كبير في فهم الحاضر والتنبؤ بالمستقبل، وهي رؤية تتسم بالحيوية والحركة وليست ثابتة في مكانها أو جامدة، تعتمد على فهم وتحليل تفاصيل الوقائع والأحداث الفريدة التي مضت وانقضت. فالماضي يلعب دوره الواضح في تحريك الحاضر، ولا يتوقف الأمر على ملامح تكوين الذات المجتمعية، بل يتخطاها إلى الظهور في صلب ملامح التجديد، لاسيما المظهرية والذوقية منها.

والإلمام بما قد مضى لا يعني امتلاك الإنسان بعض القصص والحكايات التي تسليه في أوقات فراغه، أو تجعله قادرًا على أن يتباهى أمام أصدقائه بما لديه من معلومات عمن رحلوا، وإنما هو وسيلة مهمة بالنسبة له لقياس ما يجري أمام عينيه الآن أو ما يتوقع حدوثه في المستقبل على ما حدث لآخرين، كي يحاول أن يتفادى الأخطاء التي سقطوا فيها، ويستفيد من الصواب الذي سلكوه، فعلى رغم اختلاف السياق، أو الزمان والمكان، فإن بعض الممارسات الإنسانية تتشابه بل قد تتطابق حتى لو فصلت بين الواحدة والأخرى قرون من الزمن أو آلاف من الأميال. ولذا يقول البعض إن «التاريخ يعيد نفسه»، وهو قول فيه بعض من الصواب، ولكن صوابه يزيد كلما تعلق الأمر بظاهرة السلطة وما تنتجه من أقوال وأفعال.

ومع هذا، فهناك من بين عوام الناس من يسخر من علماء التاريخ، وهم يقولون إن في استطاعتنا أن نخرج من الماضي بكثير من العظات والدروس، ويصرخ في وجوههم: «التاريخ لا يعيد نفسه». وهنا يرد عليهم الأنثروبولوجي الكبير ويليام هاولز في كتابه «ما وراء التاريخ» قائلاً لهم: «هذا قول يماثل في الغباء والسخف الزعم القائل بأن: الصاعقة لا تصيب المكان نفسه مرتين. فالمؤكد أن القولين يتمتعان بقدر واحد من الصحة والصدق. وربما كانت الصاعقة لا تصيب الشيء ذاته مرتين، ولكنها تعرف على أية حال الأشياء التي تحب أن تصيبها. ولذا كانت تصيب برج Empire State كلما هبت إحدى العواصف الرعدية. وإذا كان التاريخ لا يكرر الدور نفسه بالدقة نفسها فذلك راجع إلى أن الثقافة المتغيرة تغير الموقف كله. ولكن هذا لم يمنع أحد الساسة المؤرخين مثل تشرشل من أن يتنبأ بما ستفعله بريطانيا في المستقبل مما فعلته في الماضي».

ومزج «الحكمة الكلية للتاريخ» مع ما يجود به العقل والفؤاد من قدرة على التبصر يجعل باستطاعتنا التنبؤ بما سيجري، ولذا يقول جان ج. تايلور في كتابه «عقول المستقبل»: «من المؤكد أن المستقبل يخبئ للإنسان إنجازات أخاذة، ولكن أهمها سيتعلق بتلك الميزة الخاصة التي يمتلكها، ألا وهي تدوين خبراته حتى يستفيد منها الآخرون. فهذه القدرة الفريدة تسمى الترميز Symbolization، وبها تكون الكلمات المكتوبة رموزاً للأفكار.. وبالمزج بينها وبين الخيال يستطيع الإنسان أن يخطط للمستقبل عن طريق إدراكه الواقعي لنتائج حدث معين مختار من بين عدد من البدائل والاحتمالات».

ويتفق دليل بيرنز، الذي أتى على رأي مهم في ثنايا كتابه «المُثل السياسية»، مع الرأي السابق، إذ يقول إن: «التاريخ هو تفسير للكيفية التي نفعل بها ما نحن فاعلون. واهتمامنا بما حدث يرجع أكثر ما يرجع إلى رغبتنا في فهم ما هو حادث الآن، وهذه الرغبة بدورها نابعة إلى حد كبير من حاجتنا إلى التأثير فيما سيحدث في المستقبل، وعلى ذلك يصبح التاريخ عديم الجدوى ما لم يمدنا بجانب من المعرفة له قيمة عملية، فمهمته أن يبين لنا الوسيلة التي تمكننا من أن نجعل من الحاضر مستقبلاً أفضل، وذلك بفهم الطريقة التي أصبح بها الماضي حاضرًا... ويجب أن ننظر إلى الماضي كأنه كان ذات يوم مستقبلاً، وأن نفكر فيما حدث من تغير كما لو كان يتحرك أمام نظرنا لا كشيء ذهب وانقضى... ونحن إذ نلتفت إلى الوراء فإنما نفعل ذلك كي نتجه بأبصارنا إلى الأمام».

ولا ينبغي أن يقتصر الأمر على تاريخ البشر وما ينتجونه من ظواهر إنسانية متعددة، وإنما من الضروري أن يمتد إلى تاريخ الأفكار. فالمعرفة ذات طابع تراكمي، وسيكون من الحماقة أن نبدأ من الصفر في التعامل مع أي مشكلة نريد حلها، أو قضية نسعى إلى الإلمام بمختلف جوانبها، بل من الضروري أن نبدأ من حيث انتهى الآخرون، ونضع لبنة جديدة فوق كل ما تركه لنا أولئك الذين سبقونا على درب العلم.

ولكن، وفق إسماعيل نوري الربيعي، تبقى هناك مشكلة في نقل المعرفة الجاهزة من سياقها الزمني ودمجها في تفاعلات ثقافية واجتماعية شديدة الاختلاف، لاسيما ما يتعلق بالآليات التي تفرضها طريقة التفاعل المباشر مع الوقائع والأحداث، سواء شفاهة أم كتابة.. فالمؤثرات التي تفرزها كل مرحلة تكون لها مقاييسها الخاصة، ورؤاها المرتبطة بطبيعة الممارسات السائدة، والوظائف الخاصة للمعاني من خلال حقبة تاريخية معينة. ومع هذا تبقى لمعرفة ما جرى في الماضي، للبشر أو للأفكار، أثرها المهم في تخيل ما سيأتي.

وعلاوة على تاريخ الفعل أو السلوك الإنساني وما ينتجه من وقائع وأحداث وظواهر وتاريخ الأفكار، يجب أيضًا استقراء تاريخ الخبرة الشخصية والنفسية عبر «الاستبطان»، الذي يزاوج فيه الإنسان بين التجريب والحدس في تحصيل معرفة بديهية للأشياء القائمة أو تخيل الخطوة القادمة، سواء بالبحث داخل النفس والتحقق من الأمور التي يحملها الذهن ويحتفظ بها، أو بتفحص بعض الخبرات الذاتية. من هنا فإن الإلمام بحكمة التاريخ غاية في الأهمية في معرفة ما سيأتي، أو التنبؤ به. فالماضي عنصر أساسي في تحديد المستقبل.

د. عمار علي حسن



مرجعية المصادر العربية في أخبار بلاد السودان
تاريخ منسا موسى نموذجًا



أ.د. محمد دوكوري

عميد كلية الشريعة والقانون
أستاذ باحث الدراسات الإسلامية
الجامعة الإسلامية – جمهورية النيجر

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

محمد دوكوري، مرجعية المصادر العربية في أخبار بلاد السودان: تاريخ منسا موسى نموذجًا.- دورية كان التاريخية.- العدد الثالث والعشرون؛ مارس ٢٠١٤. ص ٩ – ١٦.

www.kanhistorique.org

كان التاريخية: رقمية الموطن .. عربية الهوية .. عالمية الأداء

مُلَخَّصْ

تبقى كتبُ التاريخ العربية المصادرَ الوحيدة لتاريخ بلاد السودان (إفريقيا جنوب الصحراء الكبرى) للحقبة الممتدة من الفتح الإسلامي إلى فترة الكشوف الجغرافية الأوروبية إلى تلك البلاد التي بدأت من القرن السادس عشر الميلادي، وأي مرجع آخر غير عربي في تلك الحقبة فهو ثانوي، وقد استقى الأوروبيون من المصادر العربية معلوماتهم التاريخية والجغرافية المتعلقة بتلك الحقبة من تاريخ بلاد السودان. وقبل التعرض لموقف المؤلفين الأوروبيين من تلك المصادر دراسة ونقدًا؛ يتوجب على مثقفي إفريقيا جنوب الصحراء – وخاصةً "المستعربين" منهم – أن يحققوا ما في تلك المصادر من معلومات تتعلق ببلادهم في تلك الحقبة المهمة من تاريخهم، ولهم الآلات المناسبة لذلك. وأهم عمل في ذلك يتمثل في أمرين: جمع كل ما يمكن جمعه مما ورد في المصادر العربية المشهورة وغير المشهورة عن تاريخ بلاد السودان، ثم نقد ودراسة الحصيلة، في ضوء القواعد المنهجية المتينة المنتهية إلى علم أو ظن بالوقائع التاريخية التي يُنطلق منها لفهم الحاضر وبناء المستقبل. ونطرح هنا مثالاً لمرحلة الجمع الموضوعي الشامل: تاريخ منسا موسى، سلطان بلاد مالّي، ورحلته المشهورة إلى الحج في آخر الربع الأول من القرن الثامن الهجري (آخر الربع الأول من القرن الرابع عشر الميلادي). وحاولنا دراسة مواضع ذكره في المصادر العربية المقارنة والمقاربة لفترة حياته وحجته، مع قليل من النقد الضروري.

مُقَدِّمَةْ

في حقبة ما قبل الكشوف الجغرافية، وما تلاها من الاستعمار الغربي لبلاد السودان؛ تبقى المصادر العربية مراجع ضرورية لكل باحث جادّ في أخبار بلاد السودان وتاريخها؛ وقد أفاد من تلك المصادر باحثون غربيون في تاريخ بلاد السودان، فرنسيون وغيرهم، من أمثال موريس ديلافوس (Maurice Delafosse 1926)، وبول مارتي (Paul Marty 1938)، وشارل مونتي (Charles Monteil 1949)، ريموند موني (Remond Mauny 1994) وغيرهم؛ نهلوا من تلك المصادر معلومات أساسية لبناء علومهم في أخبار بلاد السودان وتاريخها. ولهم أساليب ومناهج في تناول الأخبار الواردة في المصادر العربية عن بلاد السودان، وكثيرًا ما ينتقدونها في مرجعيتها وفي منهجها وأساليب عرضها واستنتاجاتها.

ولئن كان تناول الغربيين لتلك المصادر بحاجة إلى دراسة واستجلاء؛ فإن من أهم ما يجب على المستعربين من أبناء بلاد السودان قبل ذلك؛ تحقيق ما كُتب باللغة العربية من أخبار بلاد السودان وتاريخها، سواء في كتب التاريخ والجغرافيا أم في كتب التراث الإسلامي العام؛ وذلك مجموعٌ تُشكِّل مرجعية مهمة لبلاد السودان، نظرًا إلى العلاقة الوثيقة التي ربطت بلاد السودان – وخاصةً المسلمين– ببلاد العالم الإسلامي في الشرق الأوسط وفي شمال القارة الإفريقية، وتزداد أهميتها في عدم أو قلة المصادر التي كتبها علماء بلاد السودان عن تاريخها.

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية

ISSN: 2090 – 0449

والواجب متجه أكثر للمستعربين المتخصصين في العلوم الإسلامية والإنسانية، لكي يقوموا بفحص مصادر تلك العلوم باعتبارها مظان أخبار تراث مسلمي بلاد السودان، وجردها لاستنطاق مضامينها واستخراج كنوزها، مما سيلقي ضوءًا ساطعًا، ويثمر نتائج منظمة لفائدة حقبة كبيرة من تاريخ بلاد السودان، انفردت المصادر العربية - أو كادت- بالمرجعية فيها. والمستعرب من أبناء بلاد السودان مهيَّأ للقيام بهذه المهمة؛ بعلمه بثقافة بلاده، وبخبرته بالتراث العربي الإسلامي، وبإجادته اللسان العربي، وبالبضاعة الثقافية التي جمعها من خلال تقلبه في مراتب التعليم المختلفة.

ومن أهم مراحل تحقيق أخبار بلاد السودان وتاريخها في المصادر العربية: جمع المعلومات حول موضوع مِعين، لتتلوها مرحلة الدراسة النقدية، وسنعرض هنا نموذجًا لجمع المعلومات، على أن نتبعه بنموذج الدراسة النقدية في فرصة أخرى إن شاء الله، على أن المرحلة الأولى لا تخلو من شيء من النقد. والموضوع المختار هو: السلطان منسا موسى وحَجَّته المشهورة التي قام بها في نهاية الربع الأول من القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي)، وهو موضوع تناولته مصادر عربية أولية وثانوية، بنسب وكميات وأساليب مختلفة. وأهم المصادر التي تحدَّثت عن منسا موسى وحجّته سنة ٧٢٥ (١٣٢٥م)، تقع في حدود ثلاثة قرون بعد الأحداث؛ أما المؤلفات بعد ذلك فهي بعيدة جدًا عن زمان الحدث، وليس فيها زيادات ملحوظة، وإنما قد يستفاد من بعضها في تحقيق مواضع من المصادر السابقة عليها، مثل نسخ المخطوطات التي تأخذ أهميتها من كونها راجعة إلى مِلك علماء، وذلك - في سياق موضوعنا- مثل كتاب "الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى" للناصري السلاوي؛ بالمقارنة مع تاريخ ابن خلدون، وكتاب البدر الطالع للشوكاني، مع الدرر الكامنة لابن حجر. ولنسرد المصادر التي تناولت حجة منسا موسى مع بيان حجم التناول وأسلوبه؛ ليكون نموذجًا مطروحًا لطريقة جمع المعلومات عن موضوعٍ ما من أخبار بلاد السودان وتاريخها في المصادر العربية.

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب،[١] للنُوَيْري (ت.٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م)

وهو أحمد بن عبد الوهاب بن محمد، شهاب الدين النُّوَيْري، كان مقرَّبًا إلى السلطان محمد بن قلاوون المقلب بالملك الناصر، الذي حجَّ في أيامه منسا موسى، وتقلّد النويري بعض الوظائف السلطانية داخل البلاد المصرية وخارجها، توفي في القاهرة.[٢] ذكر النويري منسا موسى في حوادث سنة ٧٢٤هـ (٥٤/٣٣)، في خمس وأربعين كلمة، وسماه: "المِلك مُوسى، مُتَمَلِّك بِلاد التَّكرور"؛ فذكر وصوله إلى مصر؛ للحج، ورجوعه سنة ٧٢٥هـ، وألمح إلى الذَّهَب الكثير الذي كان معه، وأنه صرفه كله حتى استدان قبل رجوعه إلى بلده. ومع كون النويري أقدم مصدر وقفنا عليه في حجة منسا موسى؛ فلم يُسْعِفنا بتفصيل مناسب لحجم كتابه وقيمته؛ فلا هو حدَّد أو قرَّب مقدار الذهب الذي حمله، ولا تطرق للقائه مع السلطان.. ولا اختص بذكر شيء عنه ليس عند غيره، وكأنه ينقل من بعيد، أو أن مرور منسا كان وهو خارج مصر؛ فقد سبق في ترجمته الإشارة إلى تولّيه بعض المناصب خارج البلاد المصرية، وأنه لم يتسع له الوقت بعد رجوعه، كي ينقل عن شهود مرور منسا موسى، مثل المهمندار وغيره؛ فوفاته بعد رجوع منسا موسى بثمان سنوات.

(٢) العِبَر في خبَر مَنْ غَبَر،[٣] للذهبي (ت.٧٤٨هـ/١٣٤٧م)

وهو محمد بن أحمد بن عثمان، أبو عبد الله شمس الدين الذهبي، من كبار العلماء في الحديث والتاريخ وغيرهما، اختصر مصدرنا (العبر) ومصنفه الآخر (سير أعلام النبلاء) من كتابِه الحافل "تاريخ الإسلام"، الذي انتهى فيه إلى حوادث سنة ٧٠٠هـ؛ وُلِد الذهبي سنة ٦٧٣هـ، ودخل مصر في طلب الحديث، ثم رجع إلى الشام من رحلته المصرية قبل سنة ٧٠٠هـ، والمذكورون من شيوخه في مصر وفاتهم قبل مرور منسا موسى، وفاة الذهبي بدمشق.[٤] والظاهر أنّ الذهبي لم يَلقَ منسا موسى؛ لرجوعه إلى الشام قبل وصوله للحج، ولم تذكر مصادر ترجمته عودته إلى مصر بعد سنة (٧٠٠هـ). ولم يَذكر الذهبي في "تاريخ الإسلام" أخبارَ منسا موسى؛ بسبب ما سبق أنه قطع تسلسل حوادثه بسنة سبعمائة (٧٠٠هـ)، ولكن أورد أخباره في مصدرنا (العِبَر)، في موضعين:

الموضع الأول في حوادث سنة ٧٢٤هـ **(٦٩/٤)**، في نحو خمسين كلمة: ذكر وصوله للحج، وَذَكَر اسمه وعددَ مَنْ حَجّ معه، وبيَّن أثَرَ حجه على سعر الذهب، وتَطَرَّق إلى لقائه بالسلطان محمد بن قلاوون، وتبادُلَ الهدايا بينهما، وذكر شيئًا من صفاته وأخلاقه، ونبّه على مذهبه المالكي.

الموضع الثاني في حوادث سنة ٧٢٥هـ **(٧٢/٤)**، في خمس عشرة كلمة؛ ذكر رجوعه إلى بلده، وتَطَرَّق إلى تبادل الهدايا بينه وبين السلطان محمد بن قلاوون بعد عودته من بلاد الحرمين.

ولم يذكر الذهبي مصدره في أخبار منسا موسى وحَجَّته، ويظهر من كثير ممن أتى بعده من مصادرنا -مثل ابن الوردي، والصفدي، واليافعي، وابن كثير- أنهم ينقلون عنه أخبار منسا موسى وحجته، إما من العبر أو من كتاب آخر، بعباراته أو قريب منها.

(٣) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار،[٥] لابن فضل الله (ت.٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م)

وهو أحمد بن يحيى بن فضل الله العُمَري، ولد سنة ٧٠٠هـ، من شيوخه ابن قاضي شُهبة وابن تيمية وأبو حَيّان، ولد ونشأ في دمشق، ودخل مع والده مصر؛ فكتب بها الإنشاء مدة، ثم اعتُقل سنة ٧٣٩هـ، وأفرج عنه سنة ٧٤٠هـ؛ فرجع إلى دمشق سنة ٧٤١هـ وكتب بها الإنشاء مدة، ثم توفي بها.[٦] وكتاب ابن فضل الله هذا أهمّ مصادرنا في هذا الموضوع؛ فهو يذكر منسا موسى وبلاده بتفصيل لا يُوازَى، ويَنقل إقامته المصرية عن مصادر أولية التقى هو

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

بهم، وقد دخل ابن فضل الله العُمَري مصر بعد أقل من عشر سنوات من مرور منسا موسى.[٧]

فيَنْقُل عن أبي أحمد بن الجاكي، المِهْمَنْدار، الذي كان مختصًا بتلقّي الوفود في بلاط سلاطين مصر حين حجَّ منسا موسى؛ فهو الذي تلقّاه عند قدومه من بلاده إلى مصر، وراوَده للطلوع إلى السلطان ولقائه، وتلقّاه كذلك عند رجوعه من الحجاز إلى مصر، في طريق عودته إلى مَالّي.

وينقل كذلك عن الأمير علاء الدين عليٍّ، المعروف بابن أمير حاجب؛ كان أبوه من أمراء المماليك، وقرَّره السلطان محمد بن قلاوون في ولاية القاهرة، وكان أميرَ القرافة التي كان بها القصر الذي نزل فيه منسا موسى، وقد توطّدت علاقتهما، وحدّثه منسا موسى كثيرًا عن نفسه وعن بلده، مات ابن أمير حاجب سنة ٧٣٩هـ، بعد أربع عشرة سنة من حجة منسا موسى، وذلك كاف لنقل حكايات الحجة، إلى ابن فضل الله الذي أدركه في مصر.[٨]

وينقل ابن فضل الله مشافهة عن مهنّا بن عبد الباقي العَجْرَمي، الدَّلِيل، وكان في صُحبة منسا موسى في حجه. وعن أبي الروح شرف الدين عيسى بن مسعود بن منصور الزواوي المالكي، ولد سنة ٦٦٤ في بلاد المغرب، ثم ارتحل في المشرق والمغرب إلى أن حلّ في الديار المصرية وتَرَأَّسَ بها علماء المالكية، ثم توفي في القاهرة سنة ٧٤٣هـ.[٩] وينقل ابن فضل الله أخبار بلاد مَالّي عن أبي سعيد الدّكالي، ويذكر أنه سكن عاصمتها خمسًا وثلاثين سنة.

خصص ابن فضل الله الباب العاشر من كتابه (١٠٧/٤-١٢٩) في ذكر "مملكة مَالّي وما معها"، تحدث فيه عن بلاد مَالّي: عن موقعها، وسكانها من السودان مسلمين وكفار، ومن البربر، وذكر سلطانها ووصف مَجلسه، وذكر أقاليمها، وعاصمتها عرضًا وطولاً، وما فيها من أبنية، وذكر تضاريسها، وأقواتها، وحيواناتها، ولباس أهلها، ثم تطرق مطولاً إلى حجة سلطانها (منسا موسى)، ناقلاً عن ابن أمير حاجب والمهمندار ومهنا العجرمي؛ فذكر عنهم لقاء منسا موسى بالسلطان محمد بن قلاوون، وتبادُلَ الهدايا والتكريم بينهما، وما أنفقه هو وقومه في مصر، وأثر ذلك على سعر الذهب، وذكر -مِن حكايته هو- كتابًا ورد من منسا موسى إلى السلطان محمد بن قلاوون، أرسله مع بعض خواصه.

ولابن فضل الله كتاب آخر، باسم "**التعريف بالمصطلح الشريف**"،[١٠] لم يتحدَّث فيه عن حجّ منسا موسى، ولا تحدث عنه ولا عن مملكته بالتحديد والتصريح، لكنه لما أتى على ذكر صيغ مكاتبة الملوك مِنْ وَإلى ديوان سلاطين مصر، كان يُقَدِّم الكلام على المكاتبة: بذكر موجز عن المملكة المتحدَّث عنها؛ فذكر فيه (ص٢٧-٢٨) "مَلِكَ التَّكرور وصاحب مالي"، وحدودَ مملكته، وكثرة الذهب ببلده، وتطرَّق لادعائه النسب العلوي. وما ذكره ابن فضل الله في كتابه "مسالك الأبصار" عن منسا موسى وحجته، وما ذكره كذلك القلقشندي في صبح الأعشى، يغلِّب على الظن أنه في ذكره صاحب "مالي" في كتابه "التعريف"؛ يقصد منسا موسى أو أحد خلَفَه؛ منسا مغا أو منسا سليمان.

(٤) التاريخ،[١١] لابن الوردي (ت. ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م)

وهو عمر بن المظفَّر بن عمر، زين الدين أبو حفص المعَرِّي الحَلَبي، توفي في طاعون حَلَب.[١٢] ذكر ابن الوردي في مقدمة تاريخه أنه اختصره من كتاب "المختصر في تاريخ البشر" لأبي الفداء عماد الدين،[١٣] وأنه ذيَّله من سنة تسع وسبعمائة (٧٠٩)، حيث توقف صاحب حماه؛ فأخبار منسا موسى وحجته المشهورة، من تذييل ابن الوردي، لا من أصل كتاب أبي الفداء. وابن الوردي وابن فضل الله العُمَري، شاميان توفيا في سنة واحدة، لكن ابن فضل الله دخل مصر واتصل بشهود حجة منسا موسى، ولم نعرف من مصادر ترجمة ابن الوردي دخوله مصر. تحدث ابن الوردي عن حجة منسا موسى في حوادث ٧٢٤هـ (٢٦٦/٢)، في تسعين كلمة: ذكر تاريخ قدومه مصر، واسمه، وعدد مَن كان معه، وسعة مملكته، والملوك التابعين له، ولقاءه بسلطان مصر، وتبادل الهدايا بينهما، وحدّد منزله بالقرافة. ولم يتطرق إلى خبر عودته في حوادث سنة ٧٢٥هـ.

(٥) أعيان العصر وأعوان النصر،[١٤] للصَّفَدي (ت. ٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م)

وهو خَليل بن أَيْبَك بن عبد الله، أبو الصفاء صلاح الدين الصَّفَديّ، وَلِيَ ديوان الإنشاء في صَفَد والقاهرة وحَلَب، مات بدمشق، بعد حجة منسا موسى بأربعين سنة.[١٥] أتى الصَّفَديّ في كتابه (٤٧٧/٥-٤٧٨) على ترجمة منسا "موسى بن أبي بكر"؛ فذكر اسمه، وحدَّد تاريخ وصوله مصر للحج، وذكر منزله فيها، ولقاءه بسلطان مصر، وتبادل الهدايا بينهما، وذَكَر صفاته وأخلاقه، ونبّه على مذهبه المالكي. ويختص الصَّفَديّ بأنه يحدِّث عن أحد شيوخه: محمد بن إبراهيم، شمس الدين ابن الأكفاني، نقل عنه الصَّفَديّ تفاصيل طريقة أهل مَالّي في تحية سلطانهم، وقد أهدى منسا موسى إلى ابن الأكفاني في مصر، ذَهَبًا كثيرًا.[١٦] والتشابه واضح بين كلام الصفدي في كتابه هذا، وبين كلام ابن الوردي في تاريخه المذكور قبلُ، وقد اتَّهم الصَّفَديّ ابنَ الوردي -لما أتى على ترجمته[١٧]- بأنه يَخْتَلِس منه ومِن غيره، لكن ابن حجر ذكر أن المتبادر إلى الذهن، عكس ما ذكره الصفدي،[١٨] ووفاة ابن الوردي قبل وفاة الصفدي بنحو خمس عشرة سنة.

(٦) مِرآة الجِنان وعِبْرة اليقظان في معرفة ما يُعْتَبَر مِن حَوادِث الزَّمان،[١٩] لليافعي (ت. ٧٦٨هـ/ ١٣٦٦م)

وهو عبد الله بن أسعد بن علي اليافِعِيّ اليَمَني، نزيل مكة، ولد سنة ٦٩٨هـ تقريبًا، وحج سنة ٧١٢هـ، وعاد إلى اليمن، ثم عاد للحج سنة ٧١٨هـ، وجاور بمكة وتزوج، وأقام بها أكثر من عشرين سنة؛ متجردًا ملازمًا للعلم، وتردَّد في تلك المدة بين الحرمين، ثم رحل إلى الشام ومصر سنة ٧٣٤هـ، وكان أكثرُ إقامته في مصر بالقرافة، ثم توفي في مكة.[٢٠] فكان دخوله مصر بعد حجة منسا موسى بعشر

علمية. عالمية. مُحكَّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

سنوات. وقد ذكر اليافِعيّ منسا موسى وحجّته في كتابه هذا في موضعين:

الموضع الأول في حوادث سنة ٧٢٤هـ **(٢٠٤/٤)**، في ثماني عشرة ومائة كلمة: فذكر قدومه وعدد من كان معه، وتأثُّر سعر الذهب، وتبادل الهدايا بينه وبين سلطان مصر، وذكر بعض أوصافه، ونص على مذهبه المالكي، ثم تطرَّق إلى الفتنة التي كادت أن تتطاير شرارتُها بين عسكره وعسكر المماليك الذين كانوا يحكمون بلاد الحرمين في ذلك العصر، وبباشر حكمها نيابة عنهم بعض أشراف الحجاز. **والموضع الثاني** في حوادث سنة ٧٢٥هـ **(٢٠٦/٤)**، ذكر فيه عودته من الحج وهديته إلى سلطان مصر، في خمس عشرة كلمة.

ويختصّ اليافعي بأن منسا موسى وصل مكة للحج وهو مُجاوِرٌ بها، كما يؤخذ من مصادر ترجمته، ولكن غالب الأخبار التي أوردها، يَغْلِب على ظَنّنا أنه يَنقُله عن غيره، وما أورده يشبه ما ذكره الذهبي في العِبَر، ويؤكد وجودَ اليافعي في مكة حين حج منسا موسى، ما انفرد بنقله من أحداث في مكة لا توجد عند غيره من مصادرنا، وهي الفتنةُ التي شبَّت بين أهل مَالّي وبين عسكر سلطان مصر، وتطرق في حكايتها إلى ذكر منزل منسا موسى في مكة؛ في رِباط الخُوزِيّ عند باب إبراهيم، غرب الحَرَم المكي.

(٧) البداية والنهاية،[٢١] لابن كثير (ت. ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م)

وهو إسماعيل بن عمر، الحافظ عماد الدين ابن كثير الدمشقي، ولد حوالي سنة ٧٠٠هـ، ونشأ بدمشق، ثم دخل مصر لطلب العلم، وأجاز له فيها: الواني، علي بن عمر بن أبي بكر، المتوفى في محرم سنة ٧٢٧هـ، والختني، يونس بن إبراهيم بن عبد القوي فتح الدين أبو النون الدبابيسي، المتوفى سنة ٧٢٩هـ.[٢٢] فابن كثير دخل مصر وطلب بها العلم، وتوفي شيخان أجازاه مِن علماء مصر، بعد حجة منسا موسى، وكان لابن كثير، حين حج منسا موسى، خمسٌ وعشرون سنة؛ فلا يبعد أن يكون حاضرًا في مصر عند قدوم منسا موسى أو قريبًا، ولكن لم يظهر لنا شيء من ذلك في خصوص ما ذكره في كتابه.

ذكر ابن كثير حج منسا في حوادث سنة ٧٢٤هـ **(٢٤٠/١٨-٢٤٢)**؛ فحدَّد شهر قدومه مصر، وذَكَر منزله فيها، وعَدَدَ مَن حضر معه مِن قومه، ومِن المغاربة، ووَصَفَهُ، وذَكَر سعةَ مُلكه، ولقاءه بسلطان مصر، وتبادل الهدايا بينهما. ولم يذكر ابن كثير عودة منسا موسى في حوادث سنة ٧٢٥هـ. وبعض ألفاظ ابن كثير في كتابه، قريبة من ألفاظ كلٍّ من ابن الوردي في تاريخه والصفدي في أعيان العصر؛ فلا يبعد أن يكونا من مصادره في أخبار منسا موسى وحجته، يؤكِّده أن ابن كثير ينقل عن الصَّفَديّ في مواضع أخرى كثيرة من كتابه، ويصرِّح باسمه، وقد روى عنه مشافهة في موضعين من كتابه المذكور.

(٨) الرحلة[٢٣] (تحفة النظّار في غَرائِب الأمْصار وعَجائِب الأسْفار)، لابن بطوطة (ت. ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م)

وهو محمد بن عبد الله بن إبراهيم الطَّنْجِي، أبو عبد الله ابن بطوطة، من أشهر الرَّحَّالة؛ جاب بلادًا كثيرة: الهند والصِّين واليَمَن والحِجاز وغيرها، في رحلات مشهورة ختمها ببعثة رسمية إلى بلاد السودان، ثم استدعاه صاحب فاس وأمره بتدوين رحلته، قال الحافظ ابن حجر: "قَرَأْتُ بِخَطّ ابن مَرْزُوق، أنَّ أبا عَبْد الله بن جُزَي نَمَّقَها وَحَرَّرَها بأمر السُّلطان أبي عنان [المريني]".[٢٤] وقد ذكر ابن بطوطة منسا موسى وحجته في موضعين من رحلته، وينقل مشافهة عن بعض مَن رافقه في رحلة الحج، والتقى هو به في رحلته إلى بلاد السودان، وكان دخول ابن بطوطة بلاد مَالّي سنة ٧٥٣هـ (١٣٥٣-١٣٥٤م)، بعد عودة منسا موسى من الحج بثماني عشرة سنة:

الموضع الأول (٢٤٥/٢): ذكر فَربا مَغا، وكان حاكمًا على بعض نواحي مَالّي القريبة من عاصمتها، وذكر أنه مِمَّن حَجّ مع منسا موسى؛ نقل عنه حكاية السرقة التي ادَّعاها أحد مرافقي منسا في طريق ذهابه إلى الحج. **الموضع الثاني (٢٤٧/٢)**: اختصَّ فيه ابن بطوطة مِن بين مصادرنا، بتفصيلٍ أكثر في أخبار سراج الدين ابن الكُوَيك، مِن تُجّار الإسكندرية؛ فذكر دخوله بلاد مَالّي لاقتضاء دينه من منسا موسى، ووفاته بها.

(٩) التاريط (ديوان المبتدأ والخَبَر في تاريط العَرَب والبَرْبَر ومَن عاصَرَهُم مِن ذوِي الشَّأن الأكبَر)،[٢٥] لابن خلدون (ت. ٨٠٨ هـ/ ١٤٠٥م)

وهو عبد الرحمن بن محمد، المعروف بابن خلدون، تقلّب في بلاد المغرب والأندلس، وكان مقرَّبا إلى سلاطينها، في تنافس ودسائس ووشايات عليه مِمَّن يُحيط بالسلطان، حتى قَدِم البلاد المصرية سنة ٧٨٤هـ؛ فولي بها قضاء المالكية إلى أن توفي بالقاهرة، ونقل الشوكاني عن ابن حجر ما يدل على أن لتاريخ ابن خلدون نسخةً رجع عنها، وفيها أخبار لا توجد في النسخ الموجودة زمن الحافظ ابن حجر.[٢٦] وقد تحدّث ابن خلدون في تاريخه عن منسا موسى وحجَّته في أكثر من مَوضع ومناسبة، وهو من أهمّ مصادرنا بعد "مسالك الأبصار" لابن فضل الله العُمَري؛ يروي في تاريخه عن مصادرَ مشافِهةً يُعيّنهم: منهم مِن السودان مَنْ قال عنه: "الشيخ عثمان، فقيه أهل [غانة] وكبيرهم علما ودينا وشهرة، قَدِم مصر سنة تسع وتسعين [٧٩٩] حاجًا بأهله وولده، ولَقِيتُه بها"؛ ومنهم مَنْ وصفه بقوله: "الحاج يونس ويمال، تُرْجُمان هذه الأمة بمصر"؛ وفي سياق ذكر بلاد مَالّي، نقل سلسلةَ سلاطينها وأخبارَهم عن "أبي عبد الله محمد بن وانسول"، وقال إنه "مِن أهل سِجِلْماسة، كان أَوْطَنَ أرض كَوْكَوْ مِن بلادهم".

الموضع الأول من مواضع ذكر منسا موسى في تاريخه فصْلٌ عنوانه: "حَجُّ مَلِكُ التَّكْرُور" **(٤٩٥/٥-٤٩٦)**، بدأ بذكر ممالك السودان،

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

وعرّج على تاريخ دخول الإسلام فيها، وكيف تحوَّلت السَّيطرة على المنطقة من شعب إلى آخر، حتى سَيطر "أهل مالي"، وذكر أول مَن حَجّ مِن ملوكهم، ومَن حَجّ بعده منهم، ثم انتهى إلى حَجّة منسا موسى؛ فذكر الطريق التي سلكها، ووصولَه مصر، ولقاءَه بسلطانها في مجلسه، وتبادل الهدايا والتكريم بينهما في ذهابه إلى الحج وبعد عودته، وذَكَر كثرةَ ما كان معه من الذهب، ونفاذَ ذلك كله، واقتراضَه من ابن الكُوَيك وغيرِه من التجار. وفي هذا الموضع، تفرد ابن خلدون مِن بين مصادرنا؛ بذكر نَكْبَةٍ أصابَتْ منسا موسى وقومه في الحجاز، في طريق عودتهم من الحج، ونَصَّ ابن خلدون على أن وفاة ابن الكُوَيك سنة ٧٣٤هـ كانت قبل وفاة منسا موسى، وهو أكثر ما ذكر في مصادرنا في تقريب سنة وفاة منسا موسى.

الموضع الثاني: ذكر فصلاً كبيرًا عنوانه "الخَبَر عَن مُلُوك السُّودان المجاوِرين لِلمَغْرِب مِن وَراء هَؤُلاء المُلَثَّمِين وَوَصْف أحْوالِهِم والإلْمام بما اتَّصَل بِنا مِن دَوْلَتِهِم" (٦/٢٦٤-٢٧٠)؛ فبدأ بذكر تعاقب شعوب المنطقة في السيطرة عليها، حتى أتى على الحديث عن مَالِّي (ص٢٦٦)؛ فذكر تَغَلُّبَهم على جيرانهم من ممالك السودان، وأرّخ دخول الإسلام فيهم، وذكر ملوكهم الذين تعاقبوا على الحكم، ثم ذكر تحوّل الملك من عَقِب سُنْجَتَ إلى عقب أخيه أبي بكر (ص٢٦٧-٢٦٩)؛ فذكر منهم منسا موسى، وذكر أخلاقه، وسَنَةَ حجّه، ولقاءه في موسم الحج أبا إسحاق الساحلي، وعودته معه إلى بلده، واستيطانَه بها، وذكر أن منسا موسى لَقِيَه أحدُ دعاة الحكم من الموحّدين في غدامس في طريق عودته، وأنه استنصر به، فاستصحبه منسا موسى إلى بلده، وتوطّدت العلاقة بين الثلاثة (منسا موسى والساحلي والموحّدي)، ثم ذكر كثرة الذهب الذي كان معه في رحلته، وذكر أن الساحلي بنى في عاصمة مَالِّي قبةً رائعة، وأن منسا موسى أغدق عليه بسبب ذلك، ثم تطرّق إلى العلاقة بين سلطان مَالِّي وأبي الحسن من سلاطين بني مَرِين، وتبادل السفارة بينهما، وذكر مدة حكم منسا موسى، ثم تابع في ذكر بقية ملوك مَالِّي بعده.

الموضع الثالث: تطرق فيه إلى ذكر منسا موسى تبعًا لا أصالة، وذلك في معرض حديثه عن استيلاء أبي الحسن المريني على تلمسان وقتله سلطانها من بني عبد الواد (٧/١٥٢)؛ فتطرق لذكر رجالات الدولة المغْلوبة، ومنهم هلال القطلوني، مولى سلطان تلمسان؛ فذكر أخبار هلال، وأنه حج سنة ٧٢٤هـ (سنة حج منسا موسى)، وأنه لقي في طريق الحج جموع حج منسا موسى، وتوطّدت العلاقة بينهما.

الموضع الرابع: ذكر فصلاً عنوانه "الخبر عن هدية السلطان [يعني أبا الحسن المريني] إلى ملك مَالِّي من السودان المجاورين للمغرب" (٧/٣٥٢-٣٥٣)؛ فذكر استيلاء أبي الحسن المريني على تلمسان وقتل سلطان بني عبد الواد، وأن سلطان مَالِّي أرسل إليه هدية بتلك المناسبة، وأن أبا الحسن المريني أرسل سِفارةً بِرَدّ الهدية ومعها هدية قيمة وصلت مَالِّي بعد وفاة سلطانها، والتقت بخَلَفه.

الموضع خامس: يحتمل هذا الموضع من تاريخ ابن خلدون، أن تكون له صلة بموضوعنا، وذلك أنه عقد فصلا عنوانه: "الخَبَر عن وَفْد السودان وهَدِيَّتِهم وإغرابهم فيها بالزرافة" (٧/٤١١)، في معرض حديثه عن السلطان أبي سالم المريني (ت٧٦٢)؛[٢٧] فبدأ بذكر الهدية التي أرسلها أبو الحسن المريني إلى سلطان مَالِّي، ومكافأة سلطان مَالِّي بهدية أراد الإغراب بها، فماتَ والهدية في حدود بلاده الشمالية، فوقع اضطرابٌ في مَالِّي وتنازعٌ على الحُكم، ثم استتبّ الأمر؛ فأمر السلطان بتنفيذ الهدية كما وجَّهها سَلَفه، فوصلت الهدية مدينة فاس، حاضرة المرينيين، في صفر سنة ٧٦٢هـ.

وقد وقع شيء من الاختلاف بين حكاية الهدية عند ابن خلدون هنا وبين حكايته لها في الموضع الرابع السابق ٧/٣٥٢؛ فيما يتعلق باسم سلطان مَالِّي، والذي يظهر لنا أن منسا موسى ليس هو السلطان صاحب المهاداة مع أبي الحسن المريني؛ نظرًا إلى تاريخ وفاة منسا موسى.[٢٨]

(١٠) صبح الأعشى،[٢٩] للقَلْقَشَنْدي (ت. ٨٢١هـ/ ١٤١٨م)

وهو أحمد بن علي بن أحمد، شهاب الدين القَلْقَشَنْدِيّ، عاش في القاهرة، وكَتَب بها الإنشاء، وكان مقرَّباً إلى رجالات الحُكم، مولده سنة ٧٥٦هـ.[٣٠] ينقل القلقشندي أخبارَ منسا موسى وحجته عن مسالك الأبصار لابن فضل الله، وتاريخ ابن خلدون، ولا يكاد يخرج عن ألفاظهما، وينقل قليلاً من أخبار بلاد السودان عن تقويم البلدان لصاحب حماه، وعن الروض المعطار للحِمْيَري:

الموضع الأول: ذَكَر ممالك السودان الواقعة جنوب مصر (٥/٢٦٣)، وأتى إلى ذكر بلاد مَالِّي (ص٢٧١)؛ فذكر موقعها وأقاليمها وملوكها وأخبارهم كما في مسالك الأبصار، ثم ذكر منسا موسى وحجه ناقلاً عن تاريخ ابن خلدون كثيرًا وعن مسالك الأبصار قليلاً (ص٢٨٣)، وتطرّق إلى دعوى النسب العلوي (ص٢٨٦)، وحاول أن يجمع بين الأقوال التي نقلها.

الموضع الثاني: ذكر فيه نماذج من الخطاب السلطاني الصادر إلى ملوك السودان (٨/٩-١٠)؛ فذكر نموذج الخطاب السلطاني إلى "مَلِك مَالِّي"، وقدَّم كلاماً عن بلاد مَالِّي وعن ملكها زمن السلطان محمد بن قلاوون، وهو منسا موسى، وأنه ورد منه كتاب إلى سلطان مصر، وكرّر النقل عن ابن فضل الله في كتابه "التعريف بالمصطلح الشريف" ادعاء "مَلِك التَّكرور" النسب العلوي، ثم ذكر نموذج الكتاب السلطاني الصادر إليه، ونبّه على أنه لا يُقَرّ له فيه بشيء من دعواه النسب العلوي، ولا يُوصف بأيّ لقب يدلُّ على ذلك.

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

الموضع الثالث: في معرض كلامه على نماذج الخطاب الوارد عن ملوك السودان إلى سلطان مصر، فأتى على ذكر "صاحب مَالِّي" (١١٨/٨)؛ فذكر شيئا من أخباره، وذكر أنه لم يطَّلِع على أي نموذج لكتابٍ وارد منه، إلا ما أشار إليه ابن فضل الله في كتابه "التعريف بالمصطلح الشريف"؛ مِن ورود خطابٍ عن منسا موسى إلى محمد بن قلاوون، وتأسّف على أن ابن فضل الله لم يُورِد نَصَّ الكتاب.

(١١) السلوك لمعرفة دول الملوك،[٣١] للمَقْرِيزي (ت. ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م)

أحمد بن علي بن عبد القادر، تقي الدين أبو العباس المقريزي، ولد ونشأ في القاهرة، وطاف في مكة والشام.[٣٢] ذكر المقريزي منسا موسى وحجَّه في حوادث سنة ٧٢٤هـ (٧٣/٣)، في سبعين كلمة؛ فذكر قدومه مصر، وإقامته تحت الأهرام، وحدَّد تاريخ قدومه، وذَكَر لقاءه بالسلطان محمد بن قلاوون، وتبادلَ الهدايا والتكريم بينهما، وتطرّق إلى أثر مروره على سعر الذهب، ولم يذكر عودته في حوادث سنة ٧٢٥هـ.

(١٢) الذَّهَب المَسْبُوك في ذِكْر مَنْ حَجَّ من الخُلَفاء والمُلُوك،[٣٣] للمقريزي (ت. ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م)

هذا كتاب آخر للمقريزي خصَّه بذكر مشاهير الخلفاء والملوك الذين أدَّوا الحج في عهد حكمهم، فقدَّم ذكر حجة النبي صلى الله عليه وسلم، ثم ذكر اثني عشرةً من خلفائه، منهم الأربعة الراشدون، ثم ذكر أربعة عشرة ملكًا، منهم منسا موسى، ذكره في الترتيب الثاني عشر. فبدأ بذكر مَن حج مِن ملوك بلاد مَالِّي قبل منسا موسى (ص١٤٠-١٤٣)، ثم ذكر حجّه؛ فذكر تاريخ وصوله إلى مصر، ولقاءه سلطانها، وتبادل الهدايا والتكريم بينهما، وخروجه من مصر إلى الحجاز، وأفاد بذكر تأخُّره بمكة بعد الحج، ونفاذ ماله واقتراضه من التجار، ثم ذكر شيئًا من عاداته.

(١٣) الدُّرَر الكامِنة في أعْيان المِائة الثامِنة،[٣٤] لابن حجر (ت. ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م)

وهو أحمد بن علي بن محمد، أبو الفضل ابن حجر العسقلاني، ولد سنة ٧٧٣هـ في مصر، ونشأ وتوفي بها.[٣٥] الحافظ ابن حجر ولد بعد حجة منسا موسى بنحو خمسين سنة؛ فالغالب على الظن لم يتمكَّن من إدراك شهود حجة منسا موسى، لكنه عاش في مصر حيث مرَّ منسا موسى، وهو عالم موسوعي الاطلاع موثوق الرواية مأمون النقل؛ فلم يَخْلُ ما ذكره من أخبار منسا موسى من قيمة علمية معتبرة، ومع كثرة نقل ابن حجر في الدرر الكامنة عن كتاب "ذهبية العصر" لابن فضل الله العمري: فالذي ظهر لنا من كلامه في الدرر عن حادثة تقبيل الأرض؛ أنه لم ينقل أخبار منسا موسى من كتاب "مسالك الأبصار" لابن فضل الله، ويدل على معرفته بكتاب المسالك، وأنه بعيد عنه، أنه قال في ترجمة ابن تيمية: "وَرَثاهُ شِهاب الدِّين ابنُ فَضْل الله، بِقَصِيدةٍ رائِيّة مَلِيحة، وتَرْجَم لَه تَرْجَمة هائِلة؛ تُنْقَلُ مِن المسالك إن شاء الله".

ذكر ابن حجر العسقلاني ترجمة منسا "موسى بن أبي بكر" (٣٨٣/٤-٣٨٤)؛ فذكر اسمه ونسبته ولقبه، ثم ذكر حجه؛ فبدأ بتاريخ قدومه، ثم ذكر لقاءه بالسلطان محمد بن قلاوون، وتبادل الهدايا بينهما، وأثر مروره بمصر على سعر الذهب، ثم ذكر شيئًا من أخباره: فذكر مَهابته، وكثرة ما جلب من الأموال، واقتراضه من التجار، وكثرة إنفاقه، ومدة مُلْكه، ومَن خَلَفه مِن الملوك.

(١٤) تاريط الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس،[٣٦] لألفع محمود كعت (ت. ٩٢٥هـ/ ١٥١٩م).

وكعت من علماء السودان، وهو مع السعدي أقرب مُؤَلِّفِي مصادرنا إلى منسا موسى دارا، ولكنهما من أبعدهم عنه زمانًا.

عقد كعت الباب الثاني من كتابه (ص ٣٢-٣٨) في منسا موسى، ويُسمّيه "كَنْكُ مُوسى": فبدأ بذكر أخلاقه وصلاحه، وحدود ملكه، ثم ذكر حجه، وانفرد بذكر دافع غريب لِحَجّه، وهو قتلُه أمَّهُ خطأً، واختصَّ كذلك بذكر أخبار رحلة حجه الواقعة في بلاد مَالِّي والسودان، لم تذكرها مصادرنا الأخرى؛ فذكر استعداداته للحج من الزاد والرجال، وذكر بعض الأخبار والحوادث في طريقه إلى مصر، وتفرد بذكر صحبة زوجته في رحلة الحج، والنَّهر الاصطناعي الذي عُمِل لها على طلبها، وذكر رجوعه من الحج بصحبة بعض الأشراف.

(١٥) بدائع الزهور في وقائع الدهور، لابن إياس (ت. ٩٣٠هـ/١٥٢٣م)[٣٧]

وهو محمد بن أحمد بن إياس، أبو البركات الحنفي المصري، من تلاميذ جلال الدين السيوطي، كان جده من أمراء المماليك.[٣٨] ذكر حج منسا موسى في سبع وعشرين كلمة فقط (١٣٨/١)، فسمّاه "مُوسى مَلِك التَّكْرُور"، وذكر هداياه الجليلة، وأن سبب مجيئه إلى مصر أنه كان في طريقه إلى الحج، وأنه حج وعاد إلى بلاده.

(١٦) تاريط السودان،[٣٩] للسَّعدي (ت. ١٠٦٦هـ/ ١٦٥٥م)

وهو عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران السَّعدي، وقد ذكر منسا موسى في موضعين من كتابه:

الموضع الأول: خصَّص الباب الثاني (ص٧-٨) من كتابه بذكر أخبار منسا موسى، ويسميه "كنكن موسى"، فذكر أنه أوّل مَنْ مَلَك سُغَيْ من سلاطين مَالِّي، وذكر أخلاقه وصلاحه، ثم ذكر حجّه، ولم يحدِّد سنة حجه، بل قَرَّبها بقوله: "أوائِل القَرْن الثّامِن"، وذكر القوّة التي رافقته، والطريق التي سلكها، وانفرد بذكر أن أهل المشرق لم يَصِفوه بجُود ولا كَرَم؛ مقلِّلا ما تصدَّق به في الحرم، وموازنا بينه وبين السلطان أسكيا محمد في حجّه، ثم ذَكَر أعماله في بلاد سُغَيْ، وقد نقل بعض أخباره عن ابن بطوطة في رحلته.

الموضع الثاني: الباب الرابع عشر في أخبار أئمة مساجد تنبكتُ (ص٥٦-٥٧)؛ فذكر أن منسا موسى هو باني الجامع الكبير في تنبكتُ

علمية. عالمية. مُحكَّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

بعد رجوعه من الحج، وذكر من أئمة الجامع: الفقيه القاضي كاتب موسى، وأنه من العلماء الذين بعثهم منسا موسى إلى فاس؛ للتعلم.

(١٧) فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور،[٤٠] للبرتلّي (ت. ١٢١٩هـ/١٨٠٤م)

وهو أبو عبد الله الطالب محمد بن أبي بكر الصديق البرتَلّي الولاتي.[٤١] ذكر ترجمة عبد الرحمن التميمي (ص١٧٦)، وأنه جاء من أرض الحجاز مع منسا موسى حين رجع من حجته.

(١٨) البدر الطالع بمحاسن مَن بعد القرن السابع،[٤٢] للشوكاني (ت. ١٢٥٠هـ/١٨٣٤م)

وهو محمد بن علي بن محمد الشوكاني، من كبار علماء اليمن، ولد بشوكان ونشأ وعاش في صنعاء.[٤٣] ذكر ترجمة منسا "موسى بن أبي بكر" (٣١٤/٢)، ولم يخرج فيما ذكره عن منسا موسى في البدر الطالع؛ عما أورده ابن حجر في الدرر الكامنة، وقد عاش في اليمن في القرن الثالث عشر، بعيدًا عن مكان الحدث، وبعيدًا عن زمانه بخمسة قرون.

(١٩) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى،[٤٤] للناصري (ت.١٣١٥هـ/١٨٩٧م)

وهو أحمد بن خالد بن حماد الناصري الدرعي، شهاب الدين السلاوي، مؤرخ ولد وتوفي في مدينة "سَلا" في المغرب الأقصى.[٤٥] ذكر الناصري في كتابه منسا موسى وحجته، وينقل كثيرًا عن ابن خلدون في تاريخه، بألفاظه أو قريبا منها:

الموضع الأول بدأ الكلام فيه عن منسا موسى (١٥١/٣)؛ فذكر عظمةَ مُلكه، وعلاقتَه بأبي الحسن المريني، وتبادل الوفود والهدايا بينهما، ثم ذكر أنه جلب من الحج أبا إسحاق الساحلي الذي بنى له قبة في عاصمته. **الموضع الثاني** ذكر فيه منسا موسى ومنسا سليمان، والعلاقة بينهما وبين أبي الحسن المريني (٣٤/٤)، وأعاد ذكر بناء أبي إسحاق الساحلي القبة العجيبة. **الموضع الثالث** في سياق ذكره ممالك السودان (١٠٠/٥-١٠١)؛ فذكر مملكة "مَالّي" وملوكها، ومنهم منسا موسى، كما عند ابن خلدون.

خاتمة

نختم البحث بعرض بعض نتائجه:

- المصادر العربية في حقب مهمة من تاريخ بلاد السودان (إفريقيا جنوب الصحراء)، يضطر كل باحث أن يعتمد عليها؛ لأنها الوحيدة تكون أولية في تلك الحقبة التاريخية.
- لمثقفي بلاد السودان دور مهم في إلقاء الضوء على أهمية المصادر العربية في بيان تاريخهم، ومن ثم العلاقة الوطيدة التي ربطت بلادهم بالبلاد الإسلامية الأخرى في المشرق والمغرب.
- منسا موسى، أحد سلاطين إمبراطورية مالّي، شخصية تاريخية سودانية، تناولته مصادر عربية كثيرة بمعلومات لا توجد في أي مصدر بلغة أخرى.
- الحجة الذهبية لمنسا موسى طبعت الأذهان، وشغلت الإخباريين، وأشاعت غنى بلاد السودان في كل العالم من آسيا وأوروبا.
- أكبر مؤرخي إمبراطورية مالي: ابن فضل الله العمري، وابن خلدون.

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

الهوامش:

(١) حققه مفيد قمحية وجماعة، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٤/٢٠٠٤.

(٢) ترجمته في الدرر الكامنة لابن حجر، والأعلام للزركلي. **كتب التراجم المرتبة على المعجم**، لم نذكر أجزاءها ولا صفحاتها عند الإحالة إليها في هذا البحث؛ اكتفاء بأن الرجوع إليها يُسهّله ترتيبُها على حروف المعجم، نظرا لتعدد الطبعات التي قد نرجع إليها في التراجم المذكورة في هذا البحث.

(٣) حققه أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

(٤) ترجمته في طبقات الشافعية لابن السبكي، والدرر الكامنة لابن حجر.

(٥) الجزء الرابع في ممالك اليمن والغرب الإسلامي وقبائل العرب، حققه حمزة أحمد عباس، ونشره المجمع الثقافي، أبو ظبي – الإمارات العربية المتحدة، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

(٦) ترجمته في الدرر الكامنة لابن حجر، والأعلام للزركلي.

(٧) يؤخذ ذلك (١٢٢/٤، ١٢٥) مِن ذكره استمرار انخفاض سعر الذهب بسبب مرور منسا موسى إلى حين قدومه هو إلى مصر.

(٨) ترجمة ابن أمير حاجب في الدرر الكامنة لابن حجر، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي.

(٩) ترجمته في حسن المحاضرة للسيوطي ٤٥٩/١-٤٦٠، والبدر الطالع للشوكاني.

(١٠) نسخة مصورة عن طبعة قديمة بمطبعة حوش الشرقاوي بمصر سنة ١٣١٢هـ.

(١١) تاريخ ابن الوردي، زين الدين عمر بن مظفر الشهير بابن الوردي، دار الكتب العلمية ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م لبنان - بيروت.

(١٢) انظر: ترجمة ابن الوردي في طبقات الشافعية لابن قاضى شهبة، وطبقات ابن السبكي.

(١٣) المعروف بصاحب حماه، وهو مؤلِّف كتاب "تقويم البلدان"، توفي سنة ٧٣٢هـ/ ١٣٣١-١٣٣٢م.

(١٤) حققه د. علي أبو زيد وآخرون، دار الفكر المعاصر، دمشق – سوريا، ودار الفكر، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

(١٥) ترجمته في الدرر الكامنة لابن حجر، والأعلام للزركلي.

(١٦) ترجمة ابن الأكفاني في أعيان العصر للصفدي ٤٧٧/٥.

(١٧) انظر: أعيان العصر، ترجمة ابن الوردي "عمر بن مظفر".

(١٨) انظر: الدرر الكامنة، ترجمة ابن الوردي "عمر بن المظفر".

(١٩) وضع حواشيه خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.

(٢٠) ترجمة اليافعي في المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، لابن تغرى بردى.

(٢١) تحقيق د. عبد الله التركي، هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، القاهرة، مصر.

(٢٢) انظر: ترجمة ابن كثير وشَيْخَيْه المذكورَيْن في الدرر الكامنة.

(٢٣) الطبعة الأولى سنة ١٣٢٢، بالمطبعة الخيرية.

(٢٤) ترجمته في الدرر الكامنة.

(٢٥) تحقيق أ. خليل شحاده، دار الفكر، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

(٢٦) ترجم لنفسه ترجمة حافلة ومفصلة في آخر تاريخه، وترجمته أيضا في البدر الطالع.

(٢٧) قُتل في شهر ذي القعدة من السنة المذكورة، إثر فتنة وثورات داخلية. انظر الاستقصاء للسلاوي الناصري ٧/٤، ٣٨.

(٢٨) وفاة منسا موسى تؤخذ من نص ابن خلدون في تاريخه (٤٩٥/٥) أن وفاة ابن الكويك سنة ٧٣٤هـ كانت بعد وفاة منسا موسى، كما يؤخذ من سلسلة ملوك مَالّي التي ذكرها ابن خلدون (٢٦٨/٦-٢٧٠)، بتناقص سني وفياتهم؛ أن منسا موسى توفي سنة ٧٣٣هـ.

(٢٩) نشر دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى ١٩٨٧م، تحقيق د. يوسف علي طويل.

(٣٠) ترجمته في الضوء اللامع للسخاوي، وشذرات الذهب لابن العماد، وفيات سنة ٨٢١هـ.

(٣١) تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية ١٤١٨هـ/١٩٩٧ بيروت.

(٣٢) ترجمته في الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، للسخاوي.

(٣٣) تحقيق د. جمال الدين الشيال، مكتبة الثقافة الدينية بورسعيد، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.

(٣٤) دار الجيل، بيروت – لبنان، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

(٣٥) ترجمته في الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، للسخاوي.

(٣٦) تاريخ الفتّاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس، تأليف القاضي ألفع محمود كعت بن الحاج المتوكل كعت الكرمني التنبكتي الوعكري، وذيْله لبعضٍ مِن حَفَدته، وقف على طبعه السيد هوداس مدرس اللغة العربية في باريس، وشاركه في ذلك السيد دلافوس مدرس اللغات السودانيات.
LIBRAIRIE D'AMERIQUE ET D'ORIENT Adrien MAISONNEUVE J. MAISONNEUVE, succ. 11, rue St-Sulpice PARIS 1981.

(٣٧) من منشورات كتاب الشعب، مصر.

(٣٨) ترجمته في الأعلام للزركلي.

(٣٩) أخرجه هوداس مدرس اللغة العربية، باريس، فرنسا، ١٩٨١،
Librairie d'Amérique et d'Orient, Paris 1981.

(٤٠) تحقيق محمد إبراهيم الكتاني ومحمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

(٤١) انظر: ترجمته في مقدمة محقق الكتاب نقلاً عن أحد تلاميذه.

(٤٢) طبعة قديمة بمطبعة السعادة بالقاهرة، الطبعة الأولى ١٣٤٨هـ.

(٤٣) ترجمته في الأعلام للزركلي.

(٤٤) تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري دار الكتاب ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧ الدار البيضاء.

(٤٥) انظر: ترجمته في الأعلام للزركلي، (السلاوي).

علمية. عالمية. مُحكَّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449



حركة أبو الفتح ميرزا سالار الدولة (١٩١١ – ١٩١٣) من حركات التمرد المسلح في إيران دراسة وثائقية



د. أحمد شاكر عبد العلاق

مدرس التاريخ الحديث والمعاصر
قسم التاريخ – كلية الآداب
جامعة الكوفة – جمهورية العراق

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

أحمد شاكر عبد العلاق، حركة أبو الفتح ميرزا سالار الدولة (١٩١١ – ١٩١٣) من حركات التمرد المسلح في إيران: دراسة وثائقية.- دورية كان التاريخية.- العدد الثالث والعشرون؛ مارس ٢٠١٤. ص ١٧ – ٢٧.

www.kanhistorique.org

كان التاريخية: رقمية الموطن .. عربية الهوية .. عالمية الأداء

مُلَخَّصْ

تُعدّ حركة "سالار الدولة" من حركات التمرد المسلح والتي استمرت لوقت قارب الثلاث سنوات وكلف استمرارها وبالتالي السيطرة على تداعياتها وإفرازاتها من قبل الحكومة الإيرانية والقوى الأخرى خسائر مادية وبشرية كبيرة. فلقد قوضت حركة "سالار الدولة" أسس الدولة الإيرانية الفتية بشكل أو بأخر، بحيث أنها مثلت مشكلة داخلية بحد ذاتها أضيفت إلى سجل المشاكل والمعوقات التي واجهتها حكومة طهران إبان تلك المدة، ومما يزيد من تعقيد المسألة هو التصعيد المسلح الذي شهدته العديد من المدن والمقاطعات الإيرانية لاسيما الشمالية منها (مناطق كردستان إيران)، وبعض المناطق المتاخمة لحدود روسيا القيصرية، وبالتالي تركت هذه الحركة أثرها في تقييم العلاقات الإيرانية – الروسية إبان السنوات الأولى من تاريخ الحركة الدستورية الإيرانية. ومما يعزز أهمية هذه الدراسة هو أنها جاءت دراسة وثائقية اعتمدت بشكل كلي تقريبًا على أرشيف الوثائق البريطانية المترجمة إلى اللغة الفارسية، وبعض الوثائق الفارسية المهمة.

مُقَدِّمَةْ

تُعدّ الحركة الدستورية (١٩٠٥ - ١٩١١م) من أبرز التوجهات السياسية التي طغت على أنظمة الحكم في إيران، بحيث أصبحت تمثل وجه جديد وبداية حقيقية أظهرت الجوانب والمسارات الصحيحة التي كانت دول الشرق الأوسط بحاجة إلى تطبيقها عمليًا بغية الوصول إلى صيغة نظام سياسي لائق وتوجهات المرحلة التي عاشتها المنطقة. ومنذ أوائل آب ١٩٠٩م دخلت الحكومة الإيرانية برئاسة "سبهدار اعظم" مفاوضات مع الحكومتين البريطانية والروسية حول مصير الشاه المخلوع استمرت حتى ٢٥ آب ١٩٠٩م، حيث تم التوقيع على بروتوكول بين الأطراف المعنية نص على أن يقوم الشاه بتسليم الحكومة الإيرانية ما بحوزته من وثائق وأملاك مقابل تعهد الأخيرة بالمحافظة على حياته وتسديد ديونه الخارجية مع تخصيص راتب تقاعدي مقداره ١٠٠,٠٠٠ تومان سنويًا على أن يغادر البلاد ومَنْ معه خلال أيام من توقيع الاتفاق. غير أن الشاه لم يلتزم بالميثاق المذكور لاسيما وأنه تلقى مساعدات من قبل روسيا لاسترجاع عرشه، حيث برزت حركة معاضدة قوية لحركته بزعامة أخويه كل من "سالار الدولة"، و"شعاع السلطنة"، وقيادتهم حركة تمردية واسعة النطاق ضد الفجوات والمراكز العسكرية المتاخمة لحدود طهران.

وعلى هذا قُسم البحث إلى مقدمة ومبحثين وخاتمة، وقد بينت المقدمة أهمية دراسة موضوع حركة "سالار الدولة"، وبيان أبرز المصادر التي اعتمدت عليها الدراسة. وجاء المبحث الأول ليسلط الضوء على أهم الأحداث السياسية التي عصفت بإيران خلال سنوات القرن التاسع عشر، وحتى انطلاقة أحداث الحركة الدستورية، والمبحث الثاني سلط الأضواء على الأسباب والعوامل التي دفعت بسالار الدولة لإعلان تمرده المسلح، والمبحث الثالث بين

مواقف الحكومات الإيرانية المتعاقبة من الحركة والتصعيد العسكري المسلح بين قيادات فرق القوزاق الإيراني وجموع المتمردين بقيادة "سالار الدولة"، وأخيرًا جاء المبحث الرابع ليوضح نهاية حركة "سالار الدولة". فيما جاءت الخاتمة لتبين أبرز الاستنتاجات التي توصلت إليها الدراسة. لقد اعتمدت الدراسة بدرجة أساسية على العديد من الوثائق البريطانية المترجمة إلى اللغة الفارسية والعديد من الوثائق الفارسية التي تخص أرشيف وزارة الداخلية الإيرانية، إبان تلك الحقبة، وبعض المصادر والمراجع الفارسية المهمة.

المبحث الأول:

التطورات السياسية الداخلية في إيران منذ نهاية القرن التاسع عشر وحتى سنة ١٩٠٩م

شهدت إيران منذ السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر، تغيرات وتطورات اجتماعية واقتصادية وسياسية، تركت آثارها على مجمل الواقع السياسي الإيراني، وذلك بحكم موقعها الاستراتيجي، الذي يشكل جزءًا من الجنوب الغربي لقارة آسيا، وامتلاكها ساحلاً طويلاً على الخليج العربي، فضلاً عن سواحلها المطلة على المحيط الهندي. وقد أولت الدول الأوربية لاسيما روسيا القيصرية وبريطانيا اهتمامًا كبيرًا بالشأن الإيراني، من خلال موقعها الإستراتيجي، حيث رغبة روسيا القيصرية الوصول إلى المياه الدافئة في منطقة الخليج العربي والمحيط الهندي، من خلال التغلغل والنفوذ داخل إيران،[١] أما بريطانيا فكانت أهدافها الهيمنة على إيران، لكي تجعل منها دولة حاجزة أمام الأطماع الروسية لاسيما الوصول إلى الهند (درة التاج البريطاني) لضمان مصالحها هناك.[٢]

كان الواقع السياسي الإيراني صورة عاكسة للواقعين الاقتصادي والاجتماعي، إذ شهدت البلاد سلسلة من حركات الاحتجاج والانتفاضات والثورات، كان أبرزها الانتفاضة ضد امتياز التبغ سنة (١٨٩٠-١٨٩٢)،[٣] خلال عهد ناصر الدين شاه (١٨٤٦-١٨٩٦م)،[٤] إلا إن رد فعل القوى الوطنية كان واضحًا في أحداث انتفاضة التبغ، فكانت تعبيرًا حيًا لمدى الاستياء الشعبي وبشكل علني في مواجهة استبداد النظام القاجاري.[٥]

وخلال عهد مظفر الدين شاه (١٨٩٦-١٩٠٧م)[٦] دخلت البلاد فيما يُعرف في أدبيات تاريخ إيران بـ (الحركة الدستورية ١٩٠٥-١٩١١م)، وقد سلك الشاه الجديد نهج أبيه السياسي على الصعيدين الداخلي والخارجي. فعلاوةً على تصاعد الأزمة الاقتصادية التي كانت تعصف بالبلاد،[٧] ازداد نفوذ رجال الأعمال الأجانب عن طريق حصولهم على الامتيازات الأجنبية لاسيما الروس والبريطانيين،[٨] فضلاً عن أن سوء الإدارة وعدم القدرة على تدارك أوضاع البلاد أدى إلى انحدار رأس الدولة بسبب السياسة الفردية لبعض وزراء الحكومة الإيرانية،[٩] ونتيجة لذلك ومنذ سنة ١٩٠٥م تكونت الفئة المثقفة الإيرانية التي تجلى دورها بأوضح صورة أثناء أحداث الحركة الدستورية إذ شكلوا "رأس رمح"[١٠] بوجه القهر القاجاري عن طريق سعيها لتشكيل عدد من الجمعيات والأحزاب السرية، فكان منها (الجمعية السرية)،[١١] (انجمن مخفي)، و(المكتبة الوطنية)،[١٢] (كتابخانه ملي)، وغيرها من التنظيمات الأخرى التي أجبرت الشاه على إقرار دستور للبلاد.[١٣]

وبسبب تفاقم الأزمة الاقتصادية في البلاد، وتصاعد حدة المعرضة الشعبية لحكمه اضطر مظفر الدين إلى الإعلان عن إقرار دستور جديد للبلاد وتأسيس دار العدالة (مجلس نيابي) بتاريخ ٧ تشرين الأول ١٩٠٦م.[١٤] وعقب وفاة مظفر الدين شاه تسلم عرش البلاد ولده محمد علي شاه (١٩٠٧-١٩٠٩م)[١٥] بتاريخ ١٩ كانون الثاني سنة ١٩٠٧م، وقد عرف عنه عدائه للحركة الدستورية ومناصريها، فقد مرت إيران في عهده بمدة تعد من أحلك فترات تاريخها الحديث. بالمقابل قام أنصار المشروطة من رجال الدين وأحزاب وجمعيات بمسيرات واعتصامات منددة بما قام به أنصار المستبدة في مدن إيران الكبرى كطهران ورشت وتبريز وغيرها.[١٦]

بيد أن ذلك لا يعني نهاية الأزمة السياسية في البلاد، بل خلاف من ذلك حيث جاءت محاولة اغتيال الشاه يوم ٢٨ شباط ١٩٠٨م[١٧] لتصب ما تبقى من الزيت على إضرام نار الحرب من جديد بين الشاه والحركة الوطنية. فأعلنت الأحكام العرفية وتم تنصيب العقيد الروسي "لياخوف" (LYakhoof)[١٨] حاكمًا عسكريًا على طهران، وأصدر الشاه مرسومًا في ٢٢ حزيران ١٩٠٨م، يقضي بحل المجلس النيابي وقصف بنايته يوم ٢٣ حزيران ١٩٠٨م وفق خطة مدروسة ومجهزة من قبل "لياخوف" معززًا إجراءات بنفي عدد غير قليل من كبار الوطنيين الإيرانيين، واعتقال آخرين إلى جانب تشديد الخناق على الصحف الوطنية، وتعليق عدد من الجمعيات المناوئة له،[١٩] فتجددت الاصطدامات من جديد في شوارع طهران مخلفة وراءها العديد من القتلى بعد أن استخدم لياخوف قوات القوزاق للقضاء على احتجاج الدستوريين،[٢٠] وبرز نتيجة لذلك مطلع تموز ١٩٠٨م مجلس إسلامي شكله مؤيدو الشاه ليتخذوا منه غطاءً رسميًا للعمل ضد المجلس النيابي المنتخب.[٢١]

ولكن كانت حادثة استهداف مبنى مجلس الشورى الوطني بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير، فتوحدت القوى الوطنية في جميع أنحاء البلاد وشكلت ما يشبه الحكومات المحلية في المدن والأقاليم الإيرانية كافة بعد أن تم طرد ممثلي الشاه منها، وأخيرًا استجمعت تلك القوى طاقاتها وزحفت بما تملك من عدة وعدد صوب العاصمة طهران لإنهاء حكم الشاه محمد علي، وفعلاً وعقب مناوشات ومقاومة فاشلة من قبل موالي الشاه سقطت طهران بيد الثوار بتاريخ ١٦ تموز سنة ١٩٠٩م، وأعلن عن خلع محمد علي وتنصيب ولده أحمد شاه (١٩٠٩-١٩٢٥م)[٢٢] - الذي كان لا يزال قاصرًا- ملكًا على إيران، وعليه ابتدأت مرحلة جديدة من مراحل الصراع بين أبناء العائلة القاجارية.

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

المبحث الثاني:
حركة سالار الدولة، دراسة في الأسباب

أدى رواد الحركة الوطنية الإيرانية من زعامات المؤسسة الدينية بالتعاون مع رجال البازار وأبناء النخبة المثقفة دورًا ملموسًا في بلورة مفاهيم الحراك السياسي في البلاد بالتزامن مع انهيار حكم محمد علي شاه، وقد انحصرت مهمتهم في التأكيد على مدى قابلية الشارع الإيراني استقبال فكرة إنشاء مؤسسة برلمانية مستقلة تمثل كافة أطياف المجتمع الإيراني، بعيدًا عن التدخل المباشر من قبل حكومة البلاط في إيصال من توافرت فيهم مفردات التأهيل السياسي.

بعد دخول المعارضة الشعبية العاصمة طهران بتاريخ السادس عشر من تموز سنة ١٩٠٩م، والإعلان رسميًا عن خلع محمد علي شاه وتنصيب ولده أحمد شاه ملكًا ورائيًا تحت الوصاية،[٢٣] بدأت التناقضات والتحزبات والانقسامات تبرز إلى الوجود بين الفئات والتكوينات العشائرية، يدعمها في كثير من الأحيان قوى وأيادي خارجية روسية وبريطانية، بهدف زعزعة الوضع القائم وما وصلت إليه حركة المعارضة الجماهيرية من إحساس بالمسؤولية تجاه وضع دستوري جديد للبلاد. وقد برزت أولى تلك التوجهات، في الحركة التي قام بها الشاه المخلوع محمد علي شاه ومحاولاته الرامية لإرجاع العرش الإيراني بدعم وإسناد من لدن حكومة روسيا القيصرية وبالتعاون مع قوات عشائرية تقطن في شمال البلاد.

وبغية وضع حد لتحركات الشاه الأخيرة، وتلافيًا لتداعيات مواقف القوى العشائرية الداعمة له، دخلت الحكومة الإيرانية برئاسة "سبهدار اعظم"[٢٤] منذ أوائل آب سنة ١٩٠٩م، في مفاوضات مع الحكومتين البريطانية والروسية حول مصير الشاه المخلوع استمرت حتى الخامس والعشرون من الشهر نفسه، حيث تم التوقيع على بروتوكول بين الأطراف المعنية (روسيا، بريطانيا، إيران) نص على أن يقوم محمد علي بتسليم ما بحوزته من وثائق وأملاك للحكومة الإيرانية، مقابل أن تتعهد الأخيرة بالمحافظة على حياته وتسديد ديونه الخارجية مع تخصيص راتب تقاعدي مقداره ١٠٠,٠٠٠ تومان سنويًا،[٢٥] على أن يغادر البلاد ومَنْ معه خلال أيام من توقيع الاتفاق، وقد حذرت المادة الثانية من البروتوكول المذكور "محمد علي" من أي عمل مضاد لحكومة طهران فإذا "ثبت أنه مارس مثل هذه التصرفات، فسيكون من حق الحكومة الإيرانية أن توقف راتبه التقاعدي"،[٢٦] وبالتالي اتخاذ إجراءات حاسمة من شأنها أن تعرقل مسيرة المصالح الأجنبية في إيران.

وعلى هذا الأساس غادر الشاه إيران بتاريخ العاشر من أيلول سنة ١٩٠٩م، متوجهًا إلى جزيرة أوديسا على شاطئ البحر الأسود، وعند خروجه أطلقت إحدى السفن الروسية الراسية في ميناء انزلي إحدى وعشرون قاذفة مدفع على شرفه.[٢٧] غير أن ذلك لا يعني نهاية مطامع محمد علي ومحاولاته في العودة وتسلم عرشه في إيران، لاسيما وأنه وجد دعمًا منقطع النظير من قبل الحكومة الروسية بعد فشل أو تعثر عدد من مشاريعها الاستعمارية في بلاد فارس، خاصةً بعد مجيء الخبير الأمريكي مورغان شوستر[٢٨] (Morgan shostar) إلى البلاد ورغبته في إصلاح ما يمكن إصلاحه من حالات التدهور المالي الذي شهدته البلاد خلال تلك المدة، وتجاوزه على المقاطعات الشمالية الروسية المقررة وفق اتفاق آب سنة ١٩٠٧م المبرم بين بريطانيا وحكومة روسيا القيصرية.[٢٩] رافقه الدور الكبير الذي بدأ أنصار الشاه بتنفيذه عبر زعزعة الأمن وخلق فرص إنجاح المشروع الملكي الذي كان محمد علي يهدف إلى تنفيذه مما أتاح الفرصة أمام أنصار الدستور بسحب الثقة من حكومة رئيس الوزراء "سبهدار اعظم" الذي اتهم في حينها بالتأمر مع أنصار الشاه، وبالتالي تشكيل حكومة يرئسها صمصام السلطنة[٣٠] بتاريخ التاسع عشر من آب سنة ١٩٠٩م، كانت باكورة أعمالها شن حملة اعتقالات واسعة بين مَنْ يشك بتعاونه مع الشاه وتهيئة القوات النظامية لمواجهة تحركات مَنْ بقي تحت المراقبة.[٣١]

ومن جانب آخر؛ حاول محمد علي التقرب أكثر من الروس عن طريق تحقيقه لقاءً سريًا مع القنصل الروسي في استراباد ايفانوف (Ivanov) مطلع شهر تموز سنة ١٩١٠م، اقتصر على المداولة في مناقشة عدد من القضايا التي تخص الوضع السياسي القائم في إيران، والتعهد من لدنه إذا ما حصل على المساعدة الروسية المرجوة فإنه على أتم الاستعداد لتغيير نشاطه على صعيد العلاقات الخارجية بما يتلاءم وتوجهات مصالح الحكومة الروسية في إيران.[٣٢]

ولتحقيق ما تم الاتفاق عليه خلال الاجتماع المذكور وبعد توجه محمد علي منذ أواسط تموز سنة ١٩١٠م مدعومًا بقوات مسلحة تجاه الأراضي الإيرانية، بعث المفوض الروسي في طهران باكلوسكي (Bakloski) تعميمًا لجميع القنصليات الروسية ابلغهم فيه عن أنباء وصول محمد علي، وأن عليهم أن يحافظوا على أرواح الرعايا الروس وأموالهم، وأن لا يتدخلوا في الصراع الذي سوف يدور بين الحكومة الإيرانية ومحمد علي، لأن الأخير "بدء محاولة جديدة لاستعادة عرشه".[٣٣] بمعنى أن حكومة روسيا القيصرية قد بدأت تلعب على محورين؛ الأول صورة التعاقد والتحالف مع حكومة طهران الرسمية، في سبيل مشاركة بريطانيا مشاريعها وامتيازاتها في إيران، والمحور الثاني تمثل بالدعم والإسناد العسكري والسياسي لحركة التمرد التي قادها محمد علي، وبالتالي تقويض أسس الدولة الإيرانية الجديدة.

وبعد عمليات عسكرية مريرة بين القوات الإيرانية وقوات الشاه المخلوع في مناطق كردستان إيران، وبعد التعاون الذي وجدته قوات محمد علي من قبل الولايات الشمالية، أصبحت قواته على مشارف العاصمة طهران،[٣٤] وفي هذه الأثناء برزت حركة قوية "معاضدة" لحركة محمد علي شاه بزعامة أخويه كل من "سالار الدولة"، و"شعاع السلطنة"،[٣٥] وقيادتهم حركة مسلحة واسعة

النطاق ضد المواقع والمراكز العسكرية المتاخمة لحدود العاصمة طهران.

و"سالار الدولة" هو أبو الفتح ميرزا المعروف بسالار الابن الثالث لمظفر الدين شاه، ولد في تبريز سنة ١٨٨١م، وتعلم فيها، منحه ناصر الدين شاه[٣٦] لقب سالار الدولة (سيد الدولة) سنة ١٨٨٤م، وخدم في الجيش الإيراني برتبة سهدار (عميد) مدة سبع سنوات، عُين سكرتيرًا لحاكم كرمنشاه حسام الملك سنة ١٨٩٨م. ووصفت طباعه من قبل السفير البريطاني في طهران جورج باركلي (J. Barklay) بأنه "شخص غير عادي متلون المزاج ليس له عقيدة ومنهج عمل ثابت ..."،[٣٧] حتى أن الأهالي في كردستان إيران اضطروا إلى الخروج أجمعهم بما فيهم التجار وأبناء الطبقات الارستقراطية إلى استقباله عندما بعث لحكم الإقليم. حيث وصف أحد المؤرخين الإيرانيين طريقة استقبال الأهالي له بما نصه "بعد عزل ناصر الملك [حاكم الإقليم السابق] توجه ميرزا أبو الفتح سالار الدولة ... لحكم كردستان واضطر كل أهالي الإقليم بما فيهم التجار والأعيان إلى التجمع في إحدى الساحات الكبرى في منطقة صلوة أباد لاستقباله..".[٣٨] ففي سنة ١٨٩٩م، استقر لسالار الدولة الحكم في مناطق كردستان إيران بعدها استطاع أن يوسع دائرة نفوذه في عدد من الولايات والمقاطعات الغربية، وأضحى يفكر في التاج بعد أبيه، معتقدًا أنه يستحق هذه المكانة والحظوة. حيث وصفت سياسته حينها بالاستعلائية والعدوانية ضد رعاياه وموظفيه، في رغبةً منه لتحقيق المجد والسلطة حتى على حساب أبيه مظفر الدين وأخيه ولي العهد محمد علي شاه، عن طريق استدراج العديد من رجال الدولة إلى صفه، فلقد حاول رئيس وزراء أبيه آنذاك عين الدولة[٣٩] مرارًا وتكرارًا عزل محمد علي عن ولاية العهد وتنصيب سالار محله، غير أن محاولاته باءت بالفشل.[٤٠]

ويؤكد الباحث الإيراني أحمد كسروي، بأن سالار الدولة كان يحلم بالملكية وبالتاج الإيراني، ففي ذروة الصراع الدائر بين الشعب وأخيه محمد علي شاه حاول سالار مرارًا وتكرارًا الهجوم على الأطراف الشمالية للبلاد، وكسب ود القبائل القاطنة هناك لاسيما القبائل الكردية.[٤١] حتى في الوقت الذي كان فيه البلاط وممثلوه بأمس الحاجة لخدماته، لم يألو جهدًا من الوقوف في صف المعارضة ليمهد وصوله إلى السلطة، وبعد عزل محمد علي شاه، ولما كان سالار لا يعتبر نفسه من المتضررين من المشروطة فقد كان يتوقع أن يسند إليه العرش[٤٢] مقابل ما بذله من نفقات ومجهودات في سبيل إنجاح دولته المشروطة.

بعد تطورات الأحداث ودخول المعارضة الشعبية العاصمة طهران بتاريخ السادس عشر من تموز سنة ١٩٠٩م، وخلع محمد علي، وتنصيب ولده أحمد شاه ملكًا دستوريًا، وعلى الرغم من موقف سالار المحايد من تطورات الحركة الدستورية، حيث مَثَل دور المتفرج الذي ينتظر أي جهة أو قوة ترجح كفتها حتى ينحاز لجانبها. فيذكر المؤرخ الإيراني مهدي ملكزاده ما نصه "بعد خلع محمد علي شاه ... لم يتضح بعد موقف سالار الدولة من تداعيات حركة المشروطة ... كان ينتظر ويراقب عن كثب أي من أقطاب القوى ينتصر في الأخير حتى يلتف عليه ويعاضده...".[٤٣] ولكن على الرغم من ذلك، أُلقي القبض على سالار وأخيه شعاع السلطنة باعتبارهم من العائلة المالكة وأشقاء الشاه المخلوع، وزج بهم في سجن مدينة "عشرت آباد"، ذاق على أثرها الأمرين وذهبت أحلامه في تسلم دستة الحكم أدراج الرياح، لأن المعارضة كانت على يقين تام بأن ما قام به سالار من دعم وإسناد مادي ومعنوي في سبيل دولة الدستور لم يكن إلا مجرد لعبة حاول سالار أن يجتاز بها للوصول إلى أهدافه ومبتغاة، غير أنه وبسبب برقياته "الودية" الموجهة إلى نائب السلطنة عضد الملك،[٤٤] تمكن أخيرًا من نيل استحسان الحكومة المركزية والإفراج عنه وعدد من أنصاره مقابل التعهد بعدم التعرض لأي جهة رسمية أو التكتل مع جهات تسعى إلى زعزعة الأمن العام في البلاد.[٤٥] في الوقت الذي وجدت فيه الحكومة الروسية خير من يمثل مشاريعها المستقبلية في إيران بهدف الحيلولة دون إنجاح المشاريع البريطانية، متخذةً من المقاطعات الشمالية المتاخمة لحدودها مراكزً عسكرية لقوات سالار الدولة وأنصاره.[٤٦]

المبحث الثالث:

موقف الحكومة الإيرانية من حركة سالار الدولة والتداعيات على الصعيد الداخلي والخارجي

بعد أن وجد سالار أن العمل العسكري الذي يقوم به أخيه المخلوع محمد علي ضد حكومة طهران، يصب في مصلحة السياق الذي يبغي تحقيقه والروس في إيران، شرع هو الآخر بالتعبير عن مدى رغبته في إسقاط حكم ابن أخيه القاصر. فمنذ ٢٤ تموز ١٩١١م غادر "سالار الدولة" كردستان إلى منطقة كرمنشاه، والتي وصل إليها يوم ٣٠ تموز، حيث قام بطرد جميع موظفي الدولة الحكوميين من الولاية،[٤٧] ثم أعلن أن محمد علي ملكًا من جديد، واتصل بمجلس النواب الإيراني منذ السادس والعشرون من تموز سنة ١٩١١م، يخطره برغبة محمد علي بالعودة إلى دست الحكم وانتخابه ملكًا من جديد، مما دفع الأهالي في العاصمة وما جاورها بتشكيل مراكز نقابية مسلحة ضمت عدد غير قليل من عمال المطابع والورش والحرفيين تقودها النخبة الصناعية والتجارية بعد أن تضررت مصالحهم جراء عمليات محمد علي وقواته.[٤٨]

ونتيجة للتعاون بين الهيئات الرسمية وغير الرسمية ومتطوعي العشائر والقوات الحكومية، تمكنت القوات الحكومية بتاريخ الثامن والعشرون من تموز ١٩١١م، من السيطرة على المواقع المحصنة في قرية (باغ شاهي)[٤٩] التي تقطنها أغلبية كردية ممَنْ سبق لهم وأن تعاونوا مع قوات سالار الدولة وشقيقيه،[٥٠] مما أثار حفيظة القبائل الكردية ضد السلطات الحكومية في عموم المناطق والقصبات الشمالية والشمالية الغربية.

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

وقد وافق (الخوانين)[٥١] البختيارية على إرسال مقاتلين لمواجهة "سالار الدولة"، في الوقت الذي شد فيه ناصر الملك (نائب السلطنة) من أزر زعيم البختيارية "سردار اسعد"[٥٢] بضرورة التصدي لسالار واتباعه[٥٣]، كذلك قاد حاكم كرمان المدعو (سردار محيي) جيشًا ضد الشاه المخلوع محفزًا أبناء ولايته لبذل ما بوسعهم لهذه المهمة،[٥٤] وبمشاركة الجيش الحكومي المرسل من العاصمة، استطاعت هذه القوة من القضاء على معسكرات "سالار الدولة" التي سبق أن أقيمت في قرية باغ شاه، فاستولت القوات النظامية يوم ٢٨ تموز ١٩١١م على المواقع المحصنة هناك.[٥٥]

لم تقف الاستعدادات الحكومية عند الجانب العسكري فحسب، بل شملت تخصيص جلسات لمجلس الشورى الوطني خصصت بمجملها لمناقشة تداعيات حركة "سالار الدولة". ففي جلسة مجلس النواب بتاريخ التاسع والعشرون من تموز سنة ١٩١١م، خُصصت مكافأة مالية مقدارها ١٠٠,٠٠٠ تومان لِمَنْ يقتل محمد علي، وأخرى مقدارها ٢٥,٠٠٠ تومان عن قتل "سالار الدولة" أو شعاع السلطنة، أو مَنْ يُلقي القبض عليهما،[٥٦] إذ جاء في البيان الختامي لتلك الجلسة ما نصه: "... مَنْ يقتل محمد علي ميرزا يمنح ١٠٠ ألف تومان ومن يقتل شعاع أو سالار أو يقبض عليهما يمنح عن كل واحد منهما ٢٥ ألف تومان، وإذا تعرض المتطوعون لهذا العمل إلى القتل فيما بعد، فسيمنح وريثهم المبالغ المذكورة..."[٥٧] كما شهدت الجلسة توافقًا جزئيًا بين الحزبين المتناقضين الحزب الديمقراطي،[٥٨] والحزب المعتدل،[٥٩] فصادقوا على قانون يعطي للحكومة الإيرانية برئاسة صمصام السلطنة الحق بإعلان الأحكام العرفية إذا اقتضت الضرورة،[٦٠] على أثرها شنت الحكومة موجة من الاعتقالات لعدد من الشخصيات التي يشك في تعاونها مع محمد علي[٦١] بتاريخ الثاني من آب ١٩١١م، علاوة على اتخاذها موقفًا حازمًا من عمليات التمرد الحاصلة في الأنحاء الشمالية من البلاد، من الذين استغلوا انشغال حكومة طهران بقمع حركة سالار وأخويه.[٦٢]

واستكمالاً لمشروع القضاء على جيوب تمرد سالار ومعاونيه، زجت الحكومة المركزية قواتها النظامية بحربين منفصلين، الأولى بتاريخ الحادي عشر من أيلول والثانية بتاريخ السابع والعشرون من الشهر ذاته سنة ١٩١١م، حققت خلالهما نصرًا ساحقًا،[٦٣] اضطر معه سالار للانسحاب داخل المناطق المحاذية لروسيا القيصرية متحينًا الفرص التالية.

وفي يوم ٥ تشرين الأول ١٩١١م حقق الجيش النظامي بقيادة يفرم خان[٦٤] وبالتعاون مع البختيارية نصرًا كان من شأنه أن يقوي عزيمة الحكومة الإيرانية ويثبط جهود روسيا المعارضة للبعثة الأميركية في إيران بقيادة مورغان شوستر، فقد استطاع يفرم خان من هزيمة ما يقارب ٤٠٠٠ مقاتل في منطقة باغ شاه،[٦٥] ولكن في الجهة المقابلة، أعاد محمد علي الكرة في ٢٤ تشرين الأول ١٩١١م، فتوجه إلى خراسان التي كانت تحيط بها عدد من القوات الروسية تمهيدًا لتنفيذ مخططها الرامي إلى إعادة حكمه لإيران،[٦٦] غير أن تدارك وزارة الداخلية الإيرانية لهذا الأمر وبالتعاون مع القوات المحلية في خراسان استطاعت إلحاق هزيمة جديدة بقوات محمد علي، الذي فر إلى استراباد ومنها إلى الأراضي الروسية.[٦٧]

اعتبرت روسيا القيصرية من جهتها ما حصل لقوات سالار الدولة بمثابة إهانة موجهة بدرجة أساسية إلى هيبتها العسكرية دعتها إلى إعادة النظر في طريقة تعاملها مع الحكومة الإيرانية وبصورة أقوى من ذي قبل، تمثلت هذه المرة بالإعلان عن جملة مطالب "مجحفة" موجهة إلى حكومة طهران المركزية بتاريخ التاسع والعشرون من تشرين الثاني سنة ١٩١١م، أبرزها تتعلق بالتجهيزات العسكرية للجيش الإيراني والتي يجب أن لا تخرج من يد بريطانيا وحكومتها القيصرية، ومسألة الاستعانة بالخبراء الأجانب داخل المؤسسات الرسمية الإيرانية،[٦٨] وغيرها من الشروط الأخرى.

وبعد سجالات طويلة بين الحكومة الإيرانية التي انقسمت على نفسها إلى مؤيد ومعارض للإنذار الروسي، وبين الشعب الإيراني الرافض جملةً وتفصيلاً لبنود الإنذار تقوده المؤسسة الدينية في قم، وافقت طهران على ما جاء في الإنذار من بنود بتاريخ الرابع والعشرون من كانون الأول سنة ١٩١١م،[٦٩] والذي اعتبر في وقته "خيانة عظمى لمبادئ الدين الإسلامي" من قبل رجال المؤسسة الدينية، وتهاون من جانب إيران لقوى الاحتلال الأجنبي، فحاول عددًا من المسلحين الإيرانيين اغتيال مشير السلطنة رئيس وزراء محمد علي شاه لما يختلج في نفوسهم تجاه الشاه المخلوع محتجين على أزمة الخبز التي كانت تعاني منها طهران بسبب تهديدات قوات سالار لطرق التجارة الواصلة إلى العاصمة.[٧٠] في الوقت الذي كان فيه كبار الساسة الإيرانيين يقومون بتجميع مفردات المواد الغذائية وبيعها للشعب بأسعار مرتفعة.

وعلى الرغم من موافقة الحكومة الإيرانية لبنود الإنذار الروسي، رافق ذلك اجتياح للقوات الروسية لمناطق تبريز وما جاورها مستهدفة عدد من رموز الحركة الدستورية تمهيدًا لحملة عسكرية قادها شعاع السلطنة الذي وجدته السفارة الروسية بأنه "الشخص الوحيد الذي باستطاعته السيطرة على أذربيجان كلها".[٧١] على الرغم من عدم تولد قناعة حقيقية لدى بعض ممثلي القنصلية الروسية بجدية ما تقوم به قوات بلادهما في إيران،[٧٢] على اعتبار أن التعاون مع هكذا حركات مسلحة يفقد مصداقية العلاقات الروسية البريطانية وسياستهما تجاه إيران.

غير أن ذلك لم يفت من عضد سالار الدولة وشقيقه شعاع السلطنة من مواصلة حركتهما العسكرية، فبتاريخ السادس من أيار سنة ١٩١٢م، تمكن الأول من القضاء على جيش الأمير فرمانفرما،[٧٣] مما دفع معه حكومة طهران بإرسال قوة عسكرية بقيادة القائد الأرمني يفرم خان في اليوم التالي إلى مدينة همدان لكي يعد الأوامر للمتطوعين الأرامنة لمقابلة سالار، ونظرًا لتأجيل افتتاح المجلس النيابي اعترض قادة ورؤساء الطائفة الأرمنية على

علمية. عالمية. مُحكَمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

أوامر التطوع بحجة أن مسالة التجنيد والالتحاق بالقوات الحكومية من صلاحيات مجلس النواب.(٧٤)

وبتاريخ الحادي عشر من أيار ١٩١٢م، وصل يفرم خان ومعه ما يقارب مائتا مسلح على أن يلتحقوا بقوات حاكم كرمنشاه ركن الدولة بعد ورود الأنباء بتوجه سالار ورفيقه مجلل السلطان صوب كرمنشاه والشائعات حول تمكنه من توحيد قوة عشائر الكلهر الكردية مع قوات والي بشتكوه،(٧٥) على أثرها حدث تصادم مباشر بين قوات يفرم خان وسالار الدولة بتاريخ التاسع عشر من أيار سنة ١٩١٢م، راح ضحيتها يفرم خان نفسه مع ما يقارب الثلاثون قتيل من قواته العسكرية، أما خسائر سالار فقد بلغت قرابة ثلاثمائة قتيل ومائة وعشرون أسير.(٧٦) وقد تركت هذه المعركة أثرًا كبيرًا في طريقة التعامل مع الطرف الأخر عند كلا المعسكرين، سواء القوات الحكومية التي خسرت شخصية عسكرية مرموقة والمتمثلة بشخص يفرم خان، أو قوات سالار التي كانت خسائرها البشرية قد أثخنت جراحها وأثقلت كاهل القبائل والقوى التي لازمت الحركة منذ البداية.

بعد مقتل يفرم خان تولى كراي (Gray) أحد قادة الفرق البريطانية في إيران قيادة الجيش الإيراني وواصل ملاحقة سالار وأنصاره المتراجعة حتى وقعت معركة أخرى بتاريخ التاسع والعشرون من أيار ١٩١٢م، بالقرب من كرمنشاه قُتل فيها داوود خان أحد أبرز قواد سالار، وفي اليوم التالي استطاع كراي من إنهاء أغلب جيوب التمرد في المدينة المذكورة، مما اضطر معه سالار إلى الهرب صوب قبائل اللر في غرب إيران.(٧٧) لكسب والبدء بتنظيم صفوفه والإعداد لهجمات عسكرية أقوى من سابقاتها تكون هذه المرة موجهة إلى قلب العاصمة طهران. لقد كان من نتائج سياسة كسب الوقت التي حاول إتباعها سالار في صراعه مع حكومة طهران المركزية، انضمام يار محمد خان أحد أبرز قادة الجيش الإيراني إلى صفوفه، لأسباب تتعلق وحسب تصريحاته "بأنه وأنصاره يطالبون بافتتاح المجلس النيابي وتغيير الحكومة القائمة".(٧٨)

وكردة فعل طبيعية على هزيمته الأخيرة في أيار سنة ١٩١٢م، قرر سالار الزحف وقواته صوب العاصمة طهران بتاريخ الثامن عشر من تشرين الأول من العام ذاته، غير أنه وبسبب ما شهدته العاصمة طهران آنذاك من "استعدادات عسكرية مثيرة للدفاع بسرعة تامة..."، اضطر سالار إلى التوجه صوب شهرستان الواقعة في المنطقة الجبلية شمال العاصمة حتى يوم الثالث والعشرون من الشهر نفسه والتوجه إلى مازندران عن طريق الشمال، في الوقت الذي لم تبادر السلطات المحلية إلى التحرك الملائم حتى يوم الثامن والعشرون، حينها تم إرسال قوة عسكرية قوامها ثلاثمائة مقاتل من متطوعي العشائر البختيارية مزودين بمدفعين وخمسون رجلاً من القوزاق.(٧٩) سقط على أثرها يار محمد خان خمسة وعشرون من قياديي سالار الدولة وأسر ثمانية آخرين.(٨٠) عندها وجد سالار أن الطريق مسدودة لإنجاح مشروعه العسكري، فبدء بسلك طرقًا أكثر دبلوماسية في سبيل إنهاء الصراع الدائر بينه وبين الحكومة الإيرانية.(٨١)

المبحث الرابع:
نهاية حركة سالار الدولة

وجدت حكومة طهران في فكرة إنهاء العمل العسكري مع قوات سالار الدولة فرصة لإنهاء مشكلة لطالما استنزفت من أجلها طاقات كبرى. فحاولت استقطابه وبعض معاونيه من رؤساء القبائل الإيرانية من خلال الاتفاق على الخروج من البلاد لقاء مخصصات مالية مغرية، ففي برقية بعث بها المفوض البريطاني والترتنلي (Waltertenely) إلى وزير خارجية بلاده ادوارد كراي (Edwared Gray) بتاريخ الثالث والعشرون من أيلول سنة ١٩١٢م، أكد بأن حكومة طهران تعكف على التفاوض مع سالار لإقناعه بإنهاء النزاع الدائر بينهما، وكان من بين بنود الاتفاق تخصيص مبلغ مالي يقدر بـ ١٢٠٠٠ تومان، واسترجاع الأموال المصادرة منه من قبل الحكومة الإيرانية، وأن يقيم في العاصمة طهران، على أن لا تسند إليه أية مهمة رسمية أو منصب حكومي.(٨٢)

تطورات الأحداث في إيران والتداعيات التي رافقت حركة سالار كان قد أثر سلبًا على استقرار عمل وزارة صمصام السلطنة، فسقطت بتاريخ السابع عشر من كانون الثاني سنة ١٩١٣م، وفي اليوم التالي شكل "علاء السلطنة"(٨٣) وزارته الجديدة،(٨٤) واتجهت روسيا القيصرية للتأثير على الحكومة الجديدة، لرعاية لمصالحها في إيران، حيث أبدت رغبتها في حسم الصراع بين سالار وطهران في خطوة جدية لتقويض التعاون الإيراني – البريطاني، لاسيما وأن الحكومة الإيرانية أعلنت عن عزمها منح لندن امتيازات اقتصادية وسياسية في سبيل التصدي لحركة سالار الدولة، التي لطالما قوضت أسس الدولة الفتية. فوجه المفوض الروسي برقية إلى سالار يعلمه فيها برغبة حكومته عقد اتفاق بينه وحكومة روسيا القيصرية والحكومة الإيرانية، لأسباب تخص المصلحة العليا لكلا الأطراف، وبعد مداولات مكثفة بين المفوض الروسي وسالار الدولة، أعلن الأخير بتاريخ العاشر من آذار سنة ١٩١٣م، رغبته بالاستغناء عن عملياته الحربية والانضمام للعملية السياسية الجارية في إيران، ومما شجع سالار على الإعلان عن موقفه ذاك، رغبة حكومة طهران بتاريخ الخامس عشر من الشهر ذاته، بتنصيب سالار حاكمًا رسميًا على إقليم كيلان، غير أن معارضة الأهالي في الإقليم المذكور للقرار الحكومي الأخير كان قد افشل مخطط استمالة سالار وإنهاء حركته التمردية المسلحة،(٨٥) على اعتبار أن سالار مطلوب من قبل القضاء الإيراني.

وعلى ما يبدو أن قرار التنصيب كان خطوة من قبل الحكومة الإيرانية في سبيل إلقاء القبض على سالار ومعاونيه، وحال اكتشاف اللعبة توجهت قوات سالار الدولة صوب مازندران التي أصبح فيها وكأنه الحاكم الفعلي بعد سيطرته على عوائد الجمارك وجميع الضرائب المستحصلة للدولة التي مابرحت تزج بقواتها العسكرية

علمية. عالمية. مُحكَمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

ابتداءً من الرابع من حزيران سنة ١٩١٣م، بقيادة "سردار اسعد" أبرز زعماء البختيارية، في صراع مرير مع "القوات المتمردة"،[٨٦] مطالبة الدعم والإسناد من جانب السفارة البريطانية هناك.[٨٧]

وفي ٥ حزيران وصلت قوات سالار إلى أطراف غابات فومن في كيلان[٨٨] فتعقبته القوات الحكومية، وبعد مراسلات من جانب سردار اسعد من جهة والسفارة الروسية والبريطانية من جهة أخرى، من أجل وضع حد لتحركات سالار الدولة، أبدت القوات الروسية رغبتها في تحقيق ذلك،[٨٩] ففي ٢٨ حزيران طلبت قيادة القوات الروسية من رئاسة الوزراء الإيرانية دفع أجور وسائط نقل وتحركات قواتها صوب كردستان إيران لقمع حركات المعارضة والتمرد من بعض شيوخ ورؤساء القبائل الكردية[٩٠] وخصوصًا من بعض مؤيدي حركة سالار الدولة، فأجدى ذلك التعاون ثماره يوم ٦ تموز ١٩١٣م حينما استطاعت قوات القوزاق مطارده سالار الدولة باتجاه عشائر الكلباغي الكردية[٩١] عند الحدود الروسية، فأبرق إلى الحكومة المحلية هناك بمطاردة فلول سالار والضرب على أيدي المتمردين والمناوئين للسلطة المركزية.[٩٢]

وأخيرًا؛ وبعد معارك كر وفر بين الطرفين في مقاطعة سننج غربي إيران التي تعتبر أخر معاقل سالار خلال المدة من السابع من تموز ولغاية الثاني والعشرون منه سنة ١٩١٣م، اضطر الأخير للجوء إلى القنصلية الروسية.[٩٣] على اعتبار أن حكومة روسيا القيصرية الجهة الوحيدة التي وقفت إلى جانب سالار الدولة وأمدته بالسلاح والمال، وبالتالي هي التي سوف تستقبله على أراضيها وتحافظ على حياته أسوةً بأخيه محمد علي شاه.

الحكومة الإيرانية من جهتها دخلت في مفاوضات مع حكومة روسيا القيصرية حول مصير سالار وكبار قادته، وعقب مفاوضات طويلة قرر الطرفين مطلع شهر آب من العام ذاته، جملةً من البنود التي اتفق على تطبيقها على أرض الواقع جاءت كالأتي:

١- على سالار أن يغادر إيران تحت الحماية الروسية دون المرور بالعاصمة طهران، وأن يقيم في سويسرا حصرًا.
٢- تتعهد الحكومة الإيرانية بدفع مرتب شهري سنوي مقداره ٨٠٠٠ تومان وتحويله إلى بنك الإقراض الإيراني وإيصاله مباشرةً إليه.
٣- تعيد الدولة أملاك مقاطعة (مرد اباد) العائدة إلى سالار شريطة أن يقوم الأخير بتصفية حساباته مع المصارف الأجنبية في إيران، وأن لا يحق له تأجير هذه الأراضي أو بيعها لأحد.
٤- تدفع الدول لسالار مبلغ ٣٠٠٠ تومان عن مصاريف السفر لسويسرا.
٥- تقوم الحكومة الروسية بإنذار سالار أنه في حالة عودته إلى إيران بدون إذن حكومته، فإنه سيُحرم من جميع الامتيازات المقررة له في هذا الاتفاق، ولن يتمتع بأي نوع من المساعدة من قبل حكومة روسيا القيصرية أو ممثليها في إيران.[٩٤]

على أثر ذلك توجه سالار إلى روسيا القيصرية، ومنها إلى أوربا ليقيم في منفاه في سويسرا، وهكذا انقضت صفحة حركة اِعتُبِرت من أبرز الحركات التمردية العسكرية التي لطالما كان القضاء عليها حلم راود قيادات الحكومات والجيش الإيراني على مدى ثلاث سنوات متتالية، لاسيما أن للوجود الأجنبي دور كبير وواضح في تهيئة الأجواء الملائمة لديمومة مثل هكذا حركات هددت بشكل أو بأخر أسس الدولة الإيرانية.

خاتِمَة

لقد كانت حركة "سالار الدولة" من أبرز حركات التمرد المسلح التي قادت البلاد وهي على أعتاب البدء بمرحلة تاريخية حافلة بالنجاحات السياسية والنيابية، إلى طريق مليء بالقضايا الشائكة والصعوبات التي لطالما أرادت إيران تجاوزها والعبور لمرحلة تأسيسية تليق وما قدمه أبناءها في طريق الثورة والتغيير. حاول سالار الدولة معالجة واقع الأسرة القاجارية عندما آلت أمورها وقيادتها إلى ابن أخيه أحمد شاه (القاصر)، مستغلاً تدهور الأوضاع الأمنية وتردي حالة العلاقات الخارجية، والتذمر والاستياء الذي عم الأوساط الإيرانية، لاسيما في مناطق إيران الشمالية، بالاعتماد على العديد من زعامات الأسر والقبائل الكردية في إعلان تمرده ضد السلطة الشرعية في طهران، ومما عزز من ديمومة مشروعه المسلح الدعم والإسناد الروسي في محاولة من حكومة الأخيرة استخدام سالار الدولة ورقة ضغط تجاه عرقلة المصالح البريطانية في إيران، وإفشال التقارب الإيراني – البريطاني، وقد نجحت روسيا القيصرية في مشروعها ذلك إلى حد ما، غير أن التكالب العسكري وسياسة التضييق التي اتبعتها حكومة طهران بالتعاون مع الوجود العسكري البريطاني في إيران، في محصلته النهائية أدى إلى إنهاء حالة التمرد العسكري لسالار الدولة وأتباعه.

علمية. عالمية. مُحكَّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

الهوامش:

(١) أحمد باسل البياتي، **أهمية موقع إيران الجغرافي لأمن الاتحاد السوفييتي وأثره على العلاقات بين البلدين (١٩١٨-١٩٤٦)**، "دراسات الخليج والجزيرة العربية" (مجلة)، الكويت، ١٩٨٤م، ع٣٩، السنة العاشرة، ص١٥٤- ١٥٨.

(٢) كمال مظهر أحمد، **دراسات في تاريخ إيران الحديث والمعاصر**، (بغداد: مطبعة أركان، ١٩٨٥)، ص١٠.

(٣) حول امتياز التبغ في إيران يُنظر: خضير مظلوم فرحان البديري، **إيران في ظل انتفاضة التبغ والتنباك (١٨٩٠-١٨٩٢م)**، (النجف الأشرف: دار الضياء، ٢٠٠٩م).

(٤) ولد ناصر الدين شاه ليلة السادس من صفر سنة ١٨٦٨م، وقد توج خليفة لوالده يوم ١٤ شوال ١٨٨٥م وبعد حكم دام ٤٩ عامًا وشهرًا واحدًا وثلاث أيام تقريبًا قُتل على يد ميرزا رضا كرماني ليلة الجمعة ١٧ ذي القعدة ١٨٩٦م. للمزيد يُنظر: شاهين مكاريوس، **تاريخ إيران**، (مصر: مطبعة المقتطف، ١٨٩٨م)، ص٢٤٢؛ "يادگار" (مجلة)، طهران، ١٣٢٥ ش، شماره دوم، سال سوم، ص٢١؛ منيژة ربيعي، **سرگذشت ناصر الدين شاه**، جاب سوم، (تهران: مؤسسة فرهنگي أهل قلم، ١٣٨٤ش).

(٥) للمزيد يُنظر: روافد جبار شرهان، **المؤسسة العسكرية الإيرانية في عهد رضا شاه بهلوي (١٩٢١-١٩٤١م)**، رسالة ماجستير، (جامعة البصرة: كلية التربية، ٢٠٠٥م)، ص٦١ - ٦٢.

(٦) ولد مظفر الدين شاه في ٢٥ آذار ١٨٥٣م وتولى ولاية العهد سنة ١٨٥٨م ثم تسلم عرش البلاد بعد اغتيال والده في الأول من أيار ١٨٩٦. توفي سنة ١٩٠٧ متأثرًا بمرض السل. للتفاصيل يُنظر: عبد الله مستوفي، **شرح زندگاني من با تاريخ اجتماعي واداري دورة قاجارية**، (تهران: بي جا،١٣٢٣ش)، جلد أول، ص١٠٠ - ١٠٢.

(٧) عن الوضع الاقتصادي يُنظر:

C.Issawi, *The Economic history of Iran (1900 – 1914)*, (Chicago, 1971), PP. 340 - 345.

(٨) منح أول امتياز أجنبي في إيران سنة ١٨٧٢م إلى دي رويتر (DeRoiter) من رعايا بريطانيا شمل فضلاً عن عمليات استخراج البترول قضية الائتمان والسكك الحديدية، وشهد العام ذاته امتيازًا آخر، كما شهد سنة ١٩٠١م امتيازًا لإحدى الشركات البريطانية. للمزيد يُنظر:

L. P. EL well. Sutton, *Persia oil*, (London 1955), PP.13 - 16.; Rouholah k. Ramazani, *The Foreign Policy of Iran*, (U.S. A, 1960), PP. 70 - 71.

(٩) صادق نشأت ومصطفى حجازي، **صفحات عن إيران**، (القاهرة: مطبعة مخيمرة، ١٩٦٠م)، ص٨٦؛ حربي محمد، **تطور الحركة الوطنية في إيران (١٨٩٠- ١٩٥٣م)**، (بغداد: مطابع دار الثورة، ١٩٧٢م)، ص١٠:

Nikki R.keddie, *Iran Religion Politics and society*, (London, 1980), P.17.

تفصيل از درگذشت مظفر الدين شاه، "**ايندة**" (مجلة)، تهران،١٣٧١ش، شماره ٧ - ١٢، سال هجدهم، ص٤٣٩.

(١٠) نعيم جاسم محمد الدليمي، **واقع التعليم في إيران في أثناء حكم رضا شاه بهلوي (١٩٢٥-١٩٤١م)**، "السدير" (مجلة)، (جامعة الكوفة : كلية الآداب، ٢٠٠٦م)، العدد ١١، السنة الثالثة، ص٧٠.

(١١) **أنجمن**: كلمة فارسية معناها مجلس أو مجمع أو جمعية، وظلت زمنًا طويلاً تدل على تلك الجمعيات الدينية التي ظهرت في إيران، وكان من أبرزها "أنجمن مخفي" التي تأسست في ١٠ شباط ١٩٠٥م وكان أغلب أعضائها من رجال الدين، وقد رفعت شعارات دينية وطنية، ومن أهم أهدافها وضع دستور للبلاد. للمزيد يُنظر: ناظم الإسلام كرماني، **تاريخ بيدارى ايرانيان**، (تهران: بى جا، ١٣٢٤ش)، ص٢٧٤-٢٧٥؛ **دائرة المعارف الاسلامية**، ترجمة محمد ثابت، وأحمد الشنشناوي وآخرون، (تهران: انتشارات جهان، د- ت) ج٣، ص٧- ٨.

(١٢) تأسست سنة ١٩٠٥م بجهود كل من حاجي سيد نصر الله تقوي، وميرزا أحمد عليخان نصرت السلطان أخذت على عاتقها نشر المبادئ والأهداف التي نادت بها الجمعيات السرية الأخرى. للمزيد يُنظر: مهدي ملكزادة، **تاريخ انقلاب مشروطيت إيران**، (تهران: كتابخانه سقراط، ١٣٢٨ش)، جلد أول، ص٢٥٩-٢٦٠؛ لازم لفته ذياب المالكي، **إيران في عهد مظفر الدين شاه (١٨٩٦-١٩٠٧م)**، أطروحة دكتوراه، (جامعة البصرة: كلية الآداب، ١٩٩٧م)، ص١٣٧-١٣٨؛ كمال مظهر أحمد، المصدر السابق، ص٢٠-٢١.

(١٣) **مقدمة انقلاب إيران**، "يادكار" (مجلة)، تهران ١٩٤٧م، شماة أول ودوم، سال جهارم، ص١-٨ ؛ ميشال سليمان، **إيران في معركة التحرر والاستقلال (١٧٧٩-١٩٥٤م)**، (بيروت: مطبعة الاتحاد، د- ت)، ص١٥.

(١٤) للمزيد يُنظر: مصطفى رحيمي، **قانون أساس إيران وأصول دموكراس**، جاب سوم، (تهران: انتشارات أمير كبير، ١٣٥٧ش)، ص٧٥-٧٩ ؛ علي اكبر ندوشن وحسن زارعي محمود ابادي، **تجديد نظرهاي مبندگانه درقانون اساس مشروطة** (تهران: مركز إسناد انقلاب إسلامي، ١٣٨٢ش)، ص٧٣-٧٨.

(١٥) ولد محمد علي شاه سنة ١٨٧٢م، في تبريز، وكان الابن الأكبر لوالده الشاه مظفر الدين شاه، أُختير محمد علي وليًا للعهد سنة ١٨٩٦م، وهو ابن الرابعة والعشرين من العمر، كما عين في الوقت ذاته حاكمًا على أذربيجان. درس "محمد علي" على يد أساتذة أكفاء فتثقف ببعض العلوم والمعارف وأتقن عدد من اللغات أبرزها العربية والانجليزية والفرنسية، فضلاً عن اهتمامه بالأمور القضائية وإلمامه بفنون الموسيقى والفن. للتفاصيل يُنظر: صباح كريم رياح الفتلاوي، **إيران في عهد محمد علي شاه (١٩٠٧-١٩٠٩م)**، رسالة ماجستير، (جامعة الكوفة: كلية الآداب، ٢٠٠٣م)، ص ٥٧ - ٥٨.

(١٦) للمزيد يُنظر: ادوارد براون، **تاريخ الأدب في إيران**، ترجمة: محمد علاء الدين منصور، (طهران المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٢م)، ج٤، ص٣٤٤.

(١٧) للتفاصيل عن الحادثة يُنظر: يحيى دولت أبادي، **تاريخ معاصر حيات يحيى**، (تهران: كتابخانه سقراط، جابخانه جهر، ١٣٣١ش)، جلد دوم، ص٣٠٥؛ مهدي ملكزاده، **تاريخ انقلاب مشروطيت ايران**، (تهران: كتابفروش ابن سينا، جاب خودگار، ١٣٣٠ش)، جلد سوم، ص٢٢٥؛ اسعد محمد زيدان الجوراي، **سياسة إيران الخارجية في عهد أحمد شاه (١٩٠٩-١٩٢٥م)**، (جامعة البصرة: مركز الدراسات الإيرانية، ١٩٨٩م)، ص٧٢.

(١٨) **لياخوف**: قائد الجيش القوزاقي الروسي الذي عينته روسيا لمساعدة محمد علي شاه لضرب المجلس النيابي وعينه الشاه المذكور حاكمًا سياسيًا على طهران بعد ضرب المجلس سنة ١٩٠٨م.

(١٩) للتفاصيل يُنظر:

R.W. cottam, *Nation lism in Iran*, (U.S.A, 1963), PP. 94-96.

(٢٠) للتفاصيل يُنظر: إيران بين عهدين، العهد القاجاري والعهد البهلوي، (بيروت: إصدارات جريدة البلاغ، ١٩٣٤م)، ص٢٨؛ ملك الشعراء بهار، **تاريخ مختصر أحزاب سياسي إيران**، (تهران: بي جا، ١٣٢٧ش)، جلد أول، ص٩٠٨؛ دونالدولبر، **إيران ماضيها وحاضرها**، ترجمة: عبد النعيم محمد حسنين، (القاهرة: مكتبة مصر، ١٩٥٨م)، ص١٠٤.

علمية. عالمية. مُحكَمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

(21) *Document of British Debates First series*, (1901-1909), vol, xl, No, 255, P. 451.; *Great Britannia Parliament debates commons Fourth Series*, vol, 1, No, 112, P. 117.

(٢٢) آخر ملوك الأسرة القاجارية، ولد سنة ١٨٩٨م في تبريز استمر في الملك ما يقارب ١٢ عامًا خلع بعدها من العرش سنة ١٩٢٥م، وسافر إلى أوربا ثلاث مرات كان أولها سنة ١٩١٩، وبعد خلعه أقام في باريس هو وشقيقه محمد حسن ميرزا وبقي يتعالج من مرض ألم به إلى أن توفي بسبب ورم في كليته في مستشفى في باريس في ٢٦ أيلول ١٩٣٠م وهو في الرابعة والثلاثين من عمره ونقل جثمانه إلى كربلاء حيث دفن هناك. للمزيد يُنظر: عبد الحسين سعيديان، **دائرة المعارف يا مجموعة اطلاعات عموم**، (تهران: بى جا، بي تا)، ص٦٨؛ حسن الأمين، **مستدركات أعيان الشيعة**، (بيروت: دار التعارف للمطبوعات، ١٩٩٩م)، المجلد الخامس ص٨٧؛ مصطفى حسيني دشتي، **معارف ومعاريف**، (تهران: مؤسسة فرهنك آرايه، ١٣٧٩ش) جلد أول، ص٦٧٣-٦٧٥؛ ياسين صلواتي، **الموسوعة العربية الميسرة والموسوعة**، (بيروت: مؤسسة التاريخ العربي، ٢٠٠١م) الجزء الأول، ص٢٤٣.

(٢٣) تضمنت المادة الثالثة من الدستور الإيراني بندًا يتعلق بالوصاية على العرش في حال كون الشاه لم يبلغ السن القانونية، وتكون صلاحيات الوصي انجاز الواجبات التي تتعلق بالشاه والتوقيع على الإيرادات الملكية وغيرها من الصلاحيات الأخرى حتى يبلغ الشاه السن القانوني وهي الثامنة عشر. للتفاصيل يُنظر:

R. Bakry, *Iran*, (Germany,1994) p.33.

(٢٤) محمد ولي خان تنكابني، من مسئولي العهد القاجاري، ولد سنة ١٨٨٥م في تنكابن والدة حبيب الله خان الملقب بـ (ساعد الدولة)، انتقل "سبهدار اعظم" إلى طهران وكان عمره ١٢ عامًا فدخل الخدمة العسكرية وحصل على درجة عميد، وفي سنة ١٨٩٩م أصبح حاكمًا على گيلان بعدها لقب "سبهدار اعظم". للمزيد يُنظر: غلا معلي حداد عادل، **دانشنامة جهان إسلام**، (تهران: بنياد دائرة معارف إسلامي، ١٣٨٣) ج٨، ٣٠٦-٣٠٧؛ م.م لاهيجاني، **رجال دوهزار سالة گيلان**، (تهران: بى جا، بي تا)، ص ٣٤٦-٣٤٩.

(٢٥) "ايران نو"، (روزنامه)، تهران، ١١ أيلول ١٩٠٩م، شماره ١٤٥.

(٢٦) للمزيد يُنظر: مهدي ملكزاده، **تاريخ انقلاب مشروطيت إيران**، (تهران: كتابفروش ابن سينا، ١٣٣٤ش)، جلد هشتم، ص ٢٧٩.

(٢٧) إبراهيم فخرائي، **گيلان در جنبش مشروطيت**، جاب سوم، (تهران: بي جا، ١٣٧١ش)، ص ١٣٧.

(٢٨) **وليام مورغان شوستر**: ولد في واشنطن سنة ١٨٧٠م وحصل على شهادة الدكتوراه في الاقتصاد من جامعة جورج واشنطن سنة ١٩٠١م انتدبته الحكومة الدستورية الإيرانية لإنقاذ الوضع المتردي في البلاد. للمزيد يُنظر: إبراهيم تيموري، **تاريخ امتيازات أجنبية در إيران**، (تهران: بي جا، ١٣٤٢ش)، ص ٢٣٩.

(٢٩) اتفاقية عقدت بين بريطانيا وروسيا القيصرية يوم ٣١ آب ١٩٠٧م لتقسيم إيران إلى مناطق نفوذ روسية في شمال البلاد والواقعة في شمال الخط الوهمي من قصر شيرين إلى مدينة خواف ومنطقة جنوبية تحت السيطرة الروسية تمتد بين المحصورة بالخط الفاصل الممتدين بيرجند وكرمان حتى بندر عباس. أما المنطقة الواقعة بين هذين الخطين الوهميين، فقد اتفقتا أن تكون منطقة محايدة خاضعة لسلطة العاصمة طهران. للاطلاع على نص الاتفاقية يُنظر: محمود محمود، **تاريخ روابط إيران وانكليس در قرن نوزدهم ميلادي**، جاب دوم، (تهران: بي جا، ١٣٣٦ش)، جلد هشتم، ص ٢٢٣٣-٢٢٣٤.

(٣٠) **نجف قلي خان بختياري** بن حسين قلي خان ايلخاني بختياري. ولد عام ١٨٥١م منحه مظفر الدين شاه لقب صمصام السلطنة، لعب صمصام السلطنة دورًا في مقارعة جيوش محمد علي شاه، وشارك في فتح طهران سنة ١٩٠٩م. للإطلاع على هيكلة الوزارة يُنظر: **مجموعة مخابرات ومراسلان نمايندكان انكليس**، تلكراف جورج باركلي به ادوارد كري، ١٩ آب١٩١١م، نمره ٣٠٩، ص ٣٩١-٣٩٣؛ "انترنت"، فاطمة معزي، نجفقل خان صمصام السلطنة، (www. Iich. org.)

(٣١) حسن الجاف، **الوجيز في تاريخ إيران**، (بغداد: بيت الحكمة، ٢٠٠٥م)، ج ٣، ص ٣٤٤.

(٣٢) للمزيد يُنظر: المصدر نفسه، ص ١٢٢ - ١٢٣.

(٣٣) أحمد كسروي، **تاريخ هجدة ساله اذربيجان**، جاب جهارم، (تهران: مؤسسه أمير كبير، ١٣١٦ش)، ص ١٨٧.

(٣٤) للتفاصيل يُنظر: **مركز إسناد مؤسسه مطالعات تاريخ معاصر إيران**، تلكراف أورنك الملك به مشير ديوان بيشكار حكومت كردستان در باره اجر نكران احكام سالار الدولة، ٢٠ ذي القعدة ١٣٢٩ش، ١٢ نوفمبر ١٩١١م، نمره ٩٤، شماره ٥٦٣٩٨- ن.

(٣٥) **شعاع السلطنة**، هو الاخ الأصغر لمحمد علي شاه ومن الشخصيات الإيرانية ذات النفوذ والمعروفة في إيران، ومنذ البداية الأولى لمحاولات الشاه المخلوع استعادة عرشه، كان شعاع السلطنة المعاضد الأكبر لأخيه في تحقيق ذلك، ومع بداية الحرب العالمية الأولى سمح له بالعودة إلى إيران بعد أن سافر إلى أوربا بسبب فشل حركته المعارضة. خضير مظلوم فرحان البديري، **سياسة بريطانيا تجاه إيران (١٨٩٦- ١٩١٩)**، أطروحة دكتوراه غير منشورة، (جامعة بغداد: كلية الآداب،١٩٩١م)، ٢٤٩.

(٣٦) ولد **ناصر الدين شاه** ليلة السادس من صفر سنة ١٨٦٨م، وقد توج خليفة لوالده يوم ١٤ شوال ١٨٨٥م وبعد حكم دام ٤٩ عامًا وشهرًا واحدًا وثلاث أيام تقريبًا. قُتل على يد ميرزا رضا كرماني ليلة الجمعة ١٧ ذي القعدة ١٨٩٦م. للمزيد يُنظر: شاهين مكاريوس، **تاريخ إيران**، (مصر: مطبعة المقتطف، ١٨٩٨م)، ص٢٤٢.

(٣٧) حسن معاصر، **تاريخ استقرار مشروطيت إيران**، (تهران : منشورات ابن سينا ، ١٣٤٨ش) ، جلد دوم، ص ١٠٠٧.

(٣٨) محمد مردوخ كردستاني، **تاريخ مردوخ**، (تهران: جابخانه ارتش، بي تا)، جلد دوم، ص ٢٣٢.

(٣٩) عبد المجيد خان عين الدولة من الشخصيات الإيرانية المحسوبة على الأسرة الحاكمة، درس في دار الفنون بطهران وقد عُين على رئاسة حكومة تبريز على عهد ناصر الدين شاه. لازم لفتة ذياب المالكي، **إيران في عهد مظفر الدين شاه (١٨٩٦-١٩٠٧م)**، أطروحة دكتوراه، غير منشورة، (جامعة البصرة: كلية الآداب، ١٩٩٧م)، ص١٣٥.

(٤٠) مهدي بامداد، **تاريخ رجال إيران، شرح حال رجال إيران در قرن ١٢،١٣،١٤**، (تهران: جابخانه بانك بازركان إيران،١٣٤٧ش)، جلد أول، ص ٤٨؛ حسن الجاف، ج٣، المصدر السابق، ص ٣٥١.

(٤١) أحمد كسروي، **تاريخ مشروطيت إيران**، (تهران: انتشارات أمير كبير، ١٣٣٣ش)، جلد سوم، ص ٣٦٧.

(٤٢) مهدي ملكزادة، **تاريخ انقلاب مشروطيت إيران**، (تهران: كتابخانه سقراط، ١٣٢٩ش)، جلد دوم، ص ٢٦٠.

(٤٣) مهدي ملكزاده، **تاريخ انقلاب مشروطيت إيران**، (تهران: انتشارات علمي، ١٣٧٩ش)، جلد سوم، ص ٢٦٠.

(٤٤) **علي رضا ايلخاني** بن موسى خان مهد عليا، ولد سنة ١٨٢٣م أو سنة ١٨٤٧م، من كبار الساسة الإيرانيين، في سنة ١٨٥٨م أصبح صدر أعظم

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

لدى ناصر الدين شاه. لعب دورًا أساسيًا في حركة المشروطة وكان من المخالفين لإعدام فضل الله النوري. توفي سنة ١٩١٠م. ويخطئ حسين خلف الشيخ خزعل في أن اسمه عضد الدولة، للمزيد يُنظر: حسين خلف الشيخ خزعل، **تاريخ الكويت السياسي**، (بيروت: د- مط، ١٩٧٠م)، ج٥، ص١٨٥؛ محمد حسين منظور الأحداد، **بدهي هاي عضد الملك (بررس فدهي عضد الملك بمبانك شاهنشاهي)**، "كنجينه اسناد" (مجلة)، تهران ١٣٧٠ش، شماره يك، سال يك، ص١٢٨-١٣٠.

(٤٥) للتفاصيل عن البرقيات يُنظر: م.أ.م.م.ت.م.أ، **نامه سالار الدولة به عضد الملك در باره تامين امنيت جاني وانتقال خود به نظاميه**، (بي تا)، شماره (٢- ٢٤٨٦١ ق)؛ نامه سالار به عضد الملك در اعتراض حبس به دليل خود، (بي تا)، شماره (٢٤٨٦٨- ق).

(٤٦) م.أ.م.م.ت.م.أ، **"ارشيو رياست وزرا"، نامه يار محمد از قزوين به تهران در باره حركت سالار از همدان وحمايت روس از او**، نمره ١٢، شماره (٣٨٣٤٦- ن).

(٤٧) م.م.م.ن.أ، **مكتوب جرج باركلي به ادوارد گراي**، ١٩ آب ١٩١١م، نمره ٣١٩، ص٣٩٣-٣٩٧.

(٤٨) للمزيد عن الموضوع يُنظر: المصدر نفسه، **مكتوب جرج باركلي به گراي**، ٢٧ آب ١٩١١م، نمره ١٨٦، ص٢٤٩.

(٤٩) قرية تقع شرقي إيران، بينها وبين مرو فرسخان ويقال لها باغ وبرزن.

(٥٠) م.أ.م.م.ت.م.أ، تلكراف خسرو خان سردار ظفر ونصير خان از قم به تهران در بارة جنك نيروهاي دولتي باقشون سالار، دسامبر ١٩١١، نمره ٢٩٢، شماره (٥٥ و٥٤ - ٢٥٣٦).

(٥١) **خان**، كلمة مغولية تعني سيد أو رئيس قومة أو عشيرته. حسن انوري، **فرهنك بزرك سخن**، (تهران: كتابخانه ملي إيران، ١٣١٢ش)، جلد سوم، ص٢٦٦٢.

(٥٢) **حاج علي خان** سرداراسعد بختيارى بن حسين قلي خان ايلخاني، ولد سنة ١٨٥٨م، سجن مع أخيه الأكبر اسفند يارخان في أصفهان، وبعد وفاة والده أطلق سراحهما، وعمل على حشد قواته ومشاركته الفعالة ضد قوات الشاه، توفي سنة ١٩١٧م، للتفاصيل يُنظر: ابراهيم صفائي، **رهبران مشروطة**، جاب سوم،(تهران: انتشارات جاويدان، ١٣٦٣ش)، ص٢٤٧.

(٥٣) م.م.م.ن.أ.م.، **تلگراف جورج باركلي به ادوارد گراي**؛ ١٨ تموز ١٩١١م، نمره ١٨٧، ص٢٤٩.

(٥٤) المصدر نفسه، ١٩ آب ١٩١١م، نمره ٣٠٩، ص٣٩٦-٣٩٧.

(٥٥) م.أ.م.م.ت.م.أ. "ارشيو رياست وزرا"، **اطلاعية قوام السلطنة به عموم مكارم ولايات دربارة شكست اردوي سالارالدولة در دوفرسخسي ساوة**، ادارة تلگرافي دولت عليه إيران، از طهران به مشهد، ٧ شوال ١٣٢٩/١ أكتوبر ١٩١١م، سند شماره [٣٠٧٦٣].

(٥٦) للاطلاع على نص البيان الختامي لجلسة المجلس يُنظر: .م.م.ن.أ، **تلكراف جورج باركلي به سرادوارد كراي**، ١٩ آب ١٩١١، نمره ٣٠٩، ص ٣٩٤؛ جلال الدين مدني، **تاريخ تحولات وروابط خارجي إيران**، (تهران: قم: انتشارات إسلامي، ١٣٦٦ش)، جلد دوم، ص ٢٣٤-٢٣٥.

(٥٧) جلال الدين مدني، المصدر نفسه، ص٢٣٤-٢٣٥.

(٥٨) من الأحزاب السياسية التي تأسست في إيران مع بدء الدورة النيابية الثانية سنة ١٩١٠م بزعامة حسن تقي زاده، وقد حصل على (٢٧ – ٣٠) مقعدًا وكان على النقيض من سياسة الحزب الحر المعتدل من حيث تطبيق الشريعة الاسلامية التي وجد فيها هذا الحزب أنها أساس المشكلة التي تعاني منها إيران. **انتشارات مجلس شورى ملي**، نگاهي به ادوار مجالس قانون گذاري، مجموعة فهرست تاريخي قوانين ومصوبات از دورة اول تا دورة ٢٢ مجلس شورى ملي، (تهران: بي جا، بي تا)، ص٢٥٢-٢٥٣.

(٥٩) من الأحزاب الإيرانية التي برزت خلال الدورة البرلمانية الثانية سنة ١٩١٠م، بزعامة أية الله محمد الطباطبائي، وكان يمثل الاتجاه الديني المعتدل. علي محمد بشارتي، **انقلاب مشروطة تاكا دوتا رضا خان**، (تهران: شركت انتشارات سورة فهر، ١٣٨١ش)، جلد دوم، ص.١١٠-١١٢.

(٦٠) م.م.ن.أ. تلكراف جورج باركلي به سرادوارد كراي، ١٩ آب ١٩١١، نمره ٣٠٩، ص ٣٩٥.

(٦١) أبرزهم، مجد الدولة، وأمين الدولة، وظهير الإسلام. للمزيد يُنظر: المصدر نفسه، ص ٣٩٣.

(٦٢) جلال الدين مدني، جلد دوم، المصدر السابق، ص ٢٣٥.

(٦٣) أحمد كسروي، **تاريخ هجده ساله اذربيجان**، جاب جهارم، (تهران: مؤسسة أمير كبير، ١٣١٦ش)، ص ١٨٧.

(٦٤) من الشخصيات الأرمنية الإيرانية، ولد سنة ١٨٣٥م أو ١٨٣٦م قرب مدينة گنجة، وحين بلغ الثامنة عشر من عمره انضم إلى فرقة الأرامنة العسكرية، عمل معلمًا ابتدائيًا عدة سنوات ثم سافر إلى قزوين وتبريز. وفي سنة ١٨٧١م انضم إلى لجنة الثوريين الأرامنة، للمزيد: عباس قدياني، **تاريخ فرهنك توصيفي إيران**، جاب جهارم، (تهران: انتشارات فرهنكي مكتوب، ١٣٨٦)، جلد بنجم، ص٢٦٦٥.

(٦٥) م.أ.م.م.ت.م.أ. "ارشيو رياست وزرا"، تلگراف نمايندگان خراسان به انجت، يالتي خراسان دربارة شكست اردوي سالار الدولة درساوة، ادارة تلكراف دولت عليه ايران، دفتر انجت، ايالتي خراسان، ١١ شوال ١٣٢/ ١٥ أكتبر ١٩١١م، نمره ٤٣٥٦، نمره دولتي ٤٦، سند شماره [٣٠٧٥٨].

(٦٦) م.أ.م.م.ت.م.أ.، "ارشيوрياست وزرا"، نامة فردي بنام ذبيح الله به انجمن، ايالتي خراسان وسيستان دربارة ورود محمد علي ميرزا به إيران، نمره كتاب ٤٤٨٥، جلد ٣٢/جزء و. بنجم، ٣ ذي القعدة ٢٤/١٣٢٩ أكتبر١٩١١م، سند شماره [٣٠٧٢٨]؛ تفاضلي حاكم خراسان از انجت ايالتي خراسان وسيستان براي جاره اريش در خصوص حملة محمد علي شاه، وزارات داخله، ايالت خراسان وسيستان نمره ٨٥٨٦/ أول عقرب ١/١٢٩٠ ذي القعدة ١٣٢٩، ٢٦ أكتوبر ١٩١١م، دفتر انجمن ايالتي خراسان نمره ٤٤٨٥، سند شماره [٣٠٧٢٩].

(٦٧) م.أ.م.م.ت.م.أ.، "ارشيورياست وزرا" نامة قوام السلطنة به انجمن ايالتي خراسان دربارة ورود محمد علي شاه ومقابلة با ان، دار الشورى الكبرى، انجمن ايالتي خراسان وسيستان، تلگراف وزارات داخله، مؤرخه ٢٤ ميزان ٢٣/١٢٩٠ شوال ١٣٢٩، نمره ٥٩٤٥ دولتي، اسند شماره [٣٠٧١٤].؛ نامة عده أي رجال به انجمن ايالتي خراسان دربارة حضور محمد علي شاه درايران وكسب تكليف جهت برخورد با او ، ادارة تلگراف دولت عليه ايران، دفتر انجمن ايالت خراسان نمره ٤٦١٤، ١٧ ذي القعدة ١٣٢٩، ٩ نوفمبر ١٩١١، از طهران به مشهد، نمره ٩ دولتي/٥ عقرب ١٢٩٠، سند شماره [٣٠٧٠١].

(٦٨) للمزيد يُنظر:

Great Britannia Parliament Debates Commons Fourth Series, vol, 4, 1913, no, 250, P.102.

(69) Ibid.

(٧٠) م.م.م.ن.أ، مكتوب والتر تنلي به كراي، ٢٣ أيلول ١٩١٢، نمره ١٨٥، ص ٧١٨.

(٧١) كارل بروكلمان، **تاريخ الشعوب الإسلامية**، ط٢، ترجمة، نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٥٥م)،ج٤، ص ١٨٢.

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

(٧٢) خضير مطلوم فرحان البديري، ج٢، المصدر السابق، ص ١٢٣-١٢٤.

(٧٣) **عبد الحسين ميرزا فرما نفرما** ابن فيروز ميرزا الثاني بن عباس ميرزا نايب السلطنة وهو من أبرز رموز تاريخ إيران المعاصر. ولد عبد الحسين ميرزا فرما نفرما سنة ١٨٥٧م، ويعد من السياسيين البارزين في أواخر العهد القاجاري، له دور في تأسيس قوات شرطة الجنوب (حملة بنادق الجنوب) بإشراف بريطانيا (١٩١٠-١٩١٧)، تولى مناصب مهمة منذ بداية القرن العشرين كان آخرها رئاسة الوزراء سنة ١٩١٥. وهو من الموالين للسياسة البريطانية، حتى أنه قلد عدة ميداليات بريطانيه نظير إخلاصه، توفي سنة ١٩٣٩م في طهران. للتفاصيل يُنظر: فتح الله كشاورز، **نامه هاي فيروز ميرزا فرمانفرما**، (تهران: سازمان اسناد ملي إيران، ١٣٧٧ش)، ص٩-١١، دفينس رايت، **عبد الحسين ميرزا فرما نفرما**، انگليسها وجنگ بهائي أول، ترجمة، نادر مير سعيدي، **"تاريخ معاصر إيران"** (مجلة)، تهران، شماره نهم، سال سوم، ١٣٧٨ش، ص٤١-٤٦. منصورة اتحاديه، عبد الحسين ميرزا فرما تفرما، نشر تاريخ إيران، تهران ١٣٨٦ ش، ص ١٨-٢١.

(٧٤) م.م.م.ن.أ، مكتوب والترتنلي بهادوارد كراي، ١٤ مايس ١٩١٢، نمره ١٢٦، ص ١٣٤.

(٧٥) المصدر نفسه، ص ١٣٨- ١٣٩.

(٧٦) م.م.م.ن.ا، مكتوب والترتنلي به ادوارد كراي، ١٨ حزيران ١٩١٢، نمره ١٧٣، ص ٢١٨ - ٢١٩.

(٧٧) المصدر نفسه، ص ٢١٩.

(٧٨) م.م.م.ن.أ، مكتوب والتر تنلي به كراي، ١٤ أيلول ١٩١٢، نمره ٣٢٨، ص ٤٣٠.

(٧٩) المصدر نفسه، مكتوب والتر تنلي به كراي، ٢٩ تشرين أول ١٩١٢، نمره ٤١٤، ص ٥٤٣ - ٥٤٤.

(٨٠) المصدر نفسه، مكتوب والتر تنلي به كراي، ٢٩ تشرين أول ١٩١٢، نمره ٤١٦، ص ٥٥١.

(٨١) المصدر نفسه، مكتوب والترتنلي به كراي، ٢٧ تشرين ثاني ١٩١٢، نمره ٤٧٥، ص ٦١٩.

(٨٢) المصدر نفسه، تلكراف والتر تنلي به كراي، ٢٣ أيلول ١٩١٢، نمره ٥١٨، ص ٧١٥.

(٨٣) هو **ميرزا أحمد علي خان** بن ميرزا ابراهيم خان مهندس، من أهالي خوي، ولد سنة ١٨٣٨م، نال تعليمه الابتدائي في مسقط رأسه. تعلم الصرف والنحو واللغة العربية والفارسية هناك سنة ١٨٩٠م. وحصل على لقب علاء السلطنة بعد عودة ناصر الدين شاه من سفرته الثالثة من أوربا. للمزيد يُنظر: أحمد صدر حاج سيد جوادي وآخرون، **دائرة المعارف تشيع**، (تهران: نشر شهيد سعيد محي، ١٣٨٤ش)، جلد يازدهم، ص٣٥٤؛ عباس قدياني، **فرهنك توصيفي تاريخ إيران**. جاب جهارم، (تهران: انتشارات فرهنك مكتوب، ١٣٨٦ش)، جلد جهارم، ص١٨٢٩- ١٨٣٠.

(٨٤) للاطلاع على تشكيلة الوزارة يُنظر: م.م.م.ن.أ، **مكتوب والترتنلي به كراي**، ٢٢ كانون ثاني ١٩١٣، نمره ٥٦١، ص ٨١٢.

(٨٥) م.أ.م.م.ت.م.ا، تلكراف وثوق الدولة به وزير مختار انكليس درباره مخالفت افكار عمومي مردم كيلان، ١٥ مارس ١٩١٣، أول ربيع أول ١٣٣١ش، شماره (١٣٠١٤١- ق).

(٨٦) المصدر نفسه، نامه علي قلي خان سردار اسعد به سفارت لندن جهت دستكيري سالار الدولة وتحويل ان به دولت إيران، زوئن ٢٨/١٩١٣ جمادي الآخر ١٣٣١ش، نمره ١١٤، شماره (١٣٠١٦٤- ق).

(٨٧) المصدر نفسه، "ارشيو رياست وزرا"، نامه علي قلي خان سردار اسعد به سفارت لندن جهت دستگيري سالار الدولة وتحويل ان به دولت إيران، ٤ زوئن ١٩١٣م/٢٨ جمادي آخر ١٣٣١، نمره ١١٤، شماره [١٣٠١٦٤- ق].

(٨٨) تقع غرب رشت وهي تابعة لگيلان. برويز اسدي زاده واخرون، المصدر السابق، ص٧٥١.

(٨٩) م.أ.م.م.ت.م.أ. "ارشيو رياست وزرا"، **مذاكرات عليقلي خان سردار اسعد بادولت روسية جهت ايجاد محدودين براي سالار الدولة**، ٥ زوئن ١٩١٣م/٢٩ جمادي اخر ١٣٣١، نمره ٧٧٨، شماره [٨٣٨- ق].

(٩٠) المصدر نفسه، "ارشيو رياست وزرا"، نامة بالكونيك اوشاكوف به رياست وزراء ربارة حركت اردوي جنگ به همذان ولزوم برادفت گرايه وسايط نقليه كه در اختيار اردوبود، ٢٣ رجب ٢٨/١٣٣١ زوئن ١٩١٣م، نمره ١٥٠٣٢، شماره [٢- ٥/٨٨٠].

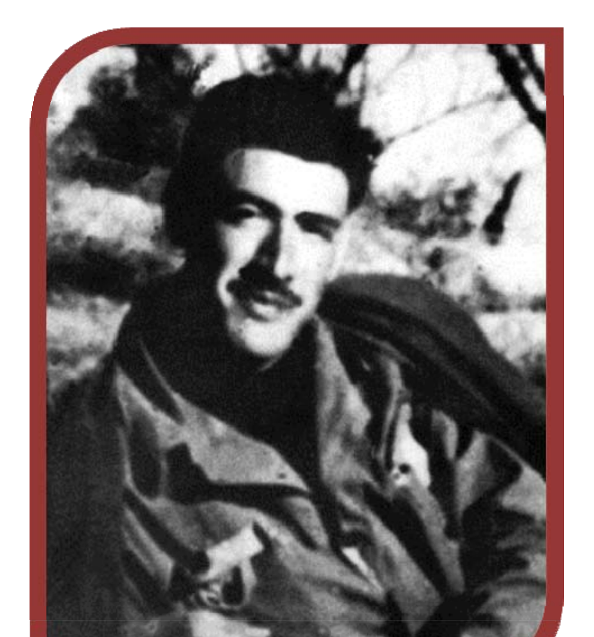
(٩١) **گلباغي** أو **گلباخي** من العشائر القاطنة في كردستان إيران، يبلغ تعدادها ٣٠٠٠ أسرة وهي متفرعة لعدة أفرع أهمها هو باتو وسارال وقره دوار، ويقطن عدد من أفرادها في منطقة اردلان. م.أ.م.م.ت.م.أ. "ارشيو رياست وزرا"،. نامة رابيستان زاخارجيسكوف بمبالكونيك او شاكوف رئيس بريگاد قزاق، دربارة هگاري اهالي غرب ايران باردوي دولتي، ٢٦ رجب ١/١٣٣١ جولاي ١٩١٣م، نمره ١٥٠٣٨، شماره [٤- ٥/٨٨٠]؛ محمد امين زكي، **خلاصة تاريخ الكرد وكردستان**، ط٢، ترجمة، محمد علي عوني، (بغداد: مطبعة صلاح الدين، ١٩٦١)، ج١، ص٤٢٣-٤٢٨.

(٩٢) المصدر نفسه، نامة دبير ديوان به رياست بريگاد قزاق دربارة شكست قشون سالار الدولة ولزوم مركوب اشرار گلباغي، غرة شعبان ١٣٣١/ ٦ جولاي ١٩١٣م، شماره [٥- ٥/٨٨٠].

(٩٣) م.أ.م.م.ت.م.أ. "ارشيو رياست وزرا"، نامه علاء السلطنة به مستوفي الممالك ووثوق الدولة درباره تسلم سالار به اردوي قزاق، زوئن ١٧/١٩١٣ شعبان ١٣٣١ش، نمره ٢١١، شماره (١٣٠١٧٩- ق).

(٩٤) م.ا.م.م.ت.م.ا، رابورت مباحثات روسيه در مغادرت سالار، سابع شوال ١٣٣ش، شماره (٣٨٤١٩- ن).

علمية، عالمية، مُحكَمة، ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449



نتائج وانعكاسات السياسة الاستعمارية الديغولية على الثورة الجزائرية

قضية سي صالح زعموم في الولاية الرابعة (١٩٦٠ – ١٩٦١) نموذجًا



د. سعاد يمينة شبوط

أستاذة محاضرة – قسم التاريخ

جامعة أبي بكر بلقايد

تلمسان – الجمهورية الجزائرية

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

سعاد يمينة شبوط، نتائج وانعكاسات السياسة الاستعمارية الديغولية على الثورة الجزائرية: قضية سي صالح زعموم في الولاية الرابعة (١٩٦٠ – ١٩٦١) نموذجًا.- دورية كان التاريخية.- العدد الثالث والعشرون؛ مارس ٢٠١٤. ص ٢٨ – ٣٥.

www.kanhistorique.org

كان التاريخية: رقمية الموطن .. عربية الهوية .. عالمية الأداء

مُلَخّصْ

مما لاشك فيه أن هناك العديد من المواضيع والقضايا المتعلقة بتاريخ الثورة الجزائرية لا تزال مثارًا للجدل ورهينة لمنطلقات وتصورات الكتابات الفرنسية، الأمر الذي ساعد على ديمومة الغموض والالتباس في الرؤى التاريخية الموضوعية بالنسبة لجيل كامل من الباحثين الجزائريين الذين لم يجدوا في ركام الكتابات الاستعمارية حول "حرب التحرير" سوى منظار بعين واحدة، يهدف إلى تصوير الثورة الجزائرية بشكل ينتهي بها إلى الإدانة والتقزيم، ويعتمد منطق التبرير المطلق للفعل الاستعماري عن طريق التركيز على الجوانب السلبية في الأداء السياسي والعسكري للثورة التحريرية ويمكن اعتبار تعتبر قضية سي صالح من المواضيع النموذجية في السياق الذي أشرنا إليه. فالقضية تمثل محاولة من محاولات اختراق صفوف الثورة التحريرية في إطار المناورات التي عرفتها السياسة الديغولية للإيقاع بين طرفي قيادة الثورة في الخارج وفي الداخل، كما أنها تمثل عملية اختراق ناجحة لصفوف الثورة في الولاية الرابعة بهدف إرغامها ودفعها إلى القبول بحلول انفرادية مع السلطة الاستعمارية، من خلال استدراج قادة الولاية الرابعة، وفي نفس الوقت تشكل مرحلة من مراحل التأزم الشديد التي شهدته تلك الولاية في مجابهة الاستعمار الفرنسي في أوج اندفاعاته العسكرية في سنتي (١٩٥٩ - ١٩٦٠).

ويمكن للباحث بعد دراسة مستفيضة لهذا الموضوع الحساس والشائك في نفس الوقت أن يدرك بأن قضية سي صالح هي نتيجة لإفراز واقع صعب فرضته السياسة العسكرية الاستعمارية الشرسة، ونتيجة لأزمة تنظيمية في صفوف أجهزة الثورة الداخلية والخارجية، وما زاد من حدة هذه الأزمة تباين التصورات العملية للساسة والعسكريين الفرنسيين تجاه الثورة، الأمر الذي كان له انعكاس إيجابي أحيانًا عندما تجاوز المهندسون الفرنسيون للقضية نفسها إلى التعامل مع الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية (GPRA) فأعطوا بذلك حلاً مجانيًا لمأزق عرفته الثورة ولو كلّف ذلك تضحيات جعلت القضية تنتهي بصورة مأساوية.

مُقَدِّمَةٌ

ارتبط تاريخ الولاية الرابعة بأعقد المشاكل التي واجهتها قيادة الثورة التحريرية منذ انطلاقتها وقد كان على رأسها حركة بلونيس وقضية شريف بن سعيدي (١٩٥٦ - ١٩٥٨) ثم قضية سي صالح زعموم وأزمة صائفة ١٩٦٢ خلال المرحلة الأخيرة من الثورة التحريرية (١٩٦٠ - ١٩٦٢) وقد أدت هذه المشاكل إلى إيقاظ النزعة الجهوية والعصبية القبلية، وأدت إلى تصدع الصفوف والتباين في الرؤى والمواقف إلى درجة الصدام المسلح خصوصًا في المرحلة الأخيرة من الثورة التحريرية (١٩٦٠ - ١٩٦٢)، الأمر الذي ترك مواقف غامضة ومتحفّظة من تاريخ الولاية الرابعة بشكل عام، بعد الاستقلال سنة ١٩٦٢.

علمية. عالمية. مُحكَّمة. ربع سنوية

ISSN: 2090 – 0449

ومن هذا المنطلق كان الدافع العلمي وراء اختياري لموضوع حساس يتعلق بمرحلة حاسمة وصعبة عرفتها الثورة التحريرية في الولاية الرابعة ألا وهو موضوع قضية سي صالح زعموم التي احتكرت الكتابات الفرنسية عملية تقديم التحاليل والأجوبة التاريخية خصوصًا بعد توظيفها لرؤية المدرسة الاستعمارية نحو تاريخ الجزائر بشكل عام والثورة التحريرية بشكل خاص. لقد حاولت الإجابة على بعض التساؤلات على شاكلة هل كانت قضية سي صالح نتيجة وضع صعب عرفته الثورة أم كان نتيجة مبادرة فردية؟ وإلى أية درجة حدث الاختراق من طرف المصالح الفرنسية لهياكل الولاية الرابعة؟ وهل كانت مبادرة سي صالح انشقاقًا أو تعاملاً مع الأمر الواقع؟ وكيف عالجت قيادة الثورة ما عُرف بـ "قضية الإليزيه" ؟

ظروف وأوضاع الولاية الرابعة بين سنوات (١٩٥٨ ـ ١٩٦٠)

كانت أوضاع الولاية الرابعة مع نهاية سنة ١٩٥٩، في حالة تدهور كبير على الصعيدين السياسي والعسكري، وتعود تلك الوضعية إلى المراحل العصيبة التي عاشتها الولاية، بفعل تعرضها لعمليات عسكرية واسعة النطاق في إطار مخطط شال الجهني، كما تفاقمت أزمة نقص الأسلحة بها كنتيجة مباشرة لانقطاع الدعم اللوجيستكي من الخارج،[١] حيث فشلت جهود قيادة الثورة (الحكومة المؤقتة وهيئتي قيادة جيش التحرير الشرقية والغربية)، في إيجاد حلول لاختراق السدود المكهربة (شال- موريس)، وتعاظمت بذلك معضلة نقص الأسلحة في الولايات الداخلية (الثالثة والرابعة)، إلى درجة أصبحت تهدد باختناقها في ظل تزامن تلك (الوضعية مع تعرضهما إلى الحصار العسكري، طيلة سنة ١٩٥٩ وحتى منتصف سنة ١٩٦٠.

إلى جانب الانعكاسات (الوخيمة للعمليات العسكرية الفرنسية، فقدت الولاية الرابعة قائدها العقيد سي أمحمد بوقرة في شهر مايو ١٩٥٩، في غمرة انشغالها بمواجهة مخطط شال من جهة، وفي تطهير صفوفها من شبكات العملاء في ما يعرف بعملية الزرق الشهيرة،[٢] وهي العملية التي أدت إلى حدوث نزيف شديد في قيادات المناطق داخل الولاية، بفضل التصفيات الداخلية، وانتشار أجواء الريبة والشك في صفوف وحدات جيش التحرير الوطني بالولاية.[٣] لقد أهملت قيادة الثورة في الخارج أوضاع الداخل في الفترة التي تلت اجتماع قادة الولايات (الأولى والثالثة والرابعة والسادسة) في ديسمبر ١٩٥٨، خاصةً وأنه تميز بتوجيه انتقادات شديدة للحكومة المؤقتة وحملها مسؤولية تفاقم أزمات الولايات بفعل انشغالها في صراعات الأجنحة داخلها، وتراجع وتيرة الدعم اللوجيستيكي الموجّه نحو الداخل.[٤]

ولعل أبرزها ما يوضح مثل هذا الطرح، هو بقاء الولاية الرابعة دون قيادة معينة بصورة رسمية من قبل الحكومة المؤقتة، لفترة تجاوزت الست أشهر، ولم يتم بتجاوز ذلك الشغور في القيادة الذي نجم عن استشهاد العقيد سي أمحمد بوقرة في بداية مايو ١٩٥٩، إلا في منتصف شهر جانفي(يناير) ١٩٦٠، حيث قام الرائدان سي صالح (رابح زعموم)، وسي محمد (الجيلالي بونعامة) بالدعوة إلى عقد اجتماع لقادة المناطق في الولاية الرابعة من أجل تشكيل حجار القيادة.[٥]

ومن أجل تحقيق ذلك الهدف تمت ترقية عدد من قادة المناطق للاستخلاف ولعضوية المجلس مثل النقيب سي لخضر (بوشمعة)، وسي حليم، وانتهى الاجتماع إلى تعيين سي صالح كقائد سياسي عسكري للولاية، وسي محمد كمساعد عسكري له، إلى جانب سي لخضر كمحافظ سياسي، وتم تكليف سي حليم بالاتصالات والاستعلامات.[٦]

لقد تمت تسوية وضعية شغور قيادة الولاية الرابعة في بداية سنة ١٩٦٠ من طرف قيادات الولاية ذاتها، بعدما تأخرت الحكومة المؤقتة، في حسم تلك الوضعية لعدة أشهر جانبية ولعله من المفيد هنا الإشارة إلى نقطة جانبية ذات دلالة هامة، وهي أن كل من سي صالح وخليفته بعد عزله وإبعاده، بقيا على رأس الولاية الرابعة وهما يحملان رتبة رائد بدل رتبة عقيد،[٧] وهو ما يوضح استمرار تجاهل الحكومة المؤقتة لوضعية ولايات الداخل حتى بعد إنشائها لهيئة الأركان العامة في أعقاب اجتماع طرابلس (ديسمبر ١٩٥٩- جانفي ١٩٦٠).

كان اجتماع ١٤ جانفي (يناير) ١٩٦٠ الذي تم فيه تشكيل مجلس قيادة الولاية الرابعة بداية لفترة تولي سي صالح، لمسؤولية الإشراف عليها وعلى الرغم من كونه لم يبق على رأسها سوى لمدة سبعة أشهر،[٨] إلا أنها كانت فترة حافلة بالأحداث الجسيمة والمشاكل العويصة على جهات متعددة.

لقد تميزت بداية عهدة سي صالح باستمرار الضغط الاستعماري على الولاية الرابعة التي تكبدت الخسائر الفادحة خلال سنة ١٩٥٩ والنصف الأول من سنة ١٩٦٠، كما شهدت الولاية مرحلة حرجة جدًا، بفعل الحاجة الملحة إلى سلاح وإلى الإطارات القيادية التي فقدت الكثير منها أثناء مواجهة مخطط شال من جهة وفي صراعها الدموي مع عدد من الحركات المناوئة للثورة مثل حركة العميل الشريف بن سعيدي في تخومها الجنوبية، وحركة بلونيس وخلفائه في (سور الغزلان، وعين بسام، والمدية، وسيدي عيسى والبويرة، وبوسعادة) إلى جانب مجموعات العميل كوبيس (بلحاج جيلا لي) في ضواحي الونشريس وسهل الشلف.

إلا أن أهم تأزم شهدته الولاية الرابعة تحت قيادة الرائد سي صالح تمثل في احتدام الخلاف مع قيادة الثورة في الخارج بشكل عام، ومع هيئة الأركان العامة التي كان العقيد بومدين على رأسها بشكل خاص، ولم يستمر ذلك الخلاف في السر طويلاً، حيث تمكنت السلطات الاستعمارية من الوقوف على حقيقة تدهور العلاقة بين قيادة الثورة في الخارج وقيادات الولايات في الداخل.

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

وفي هذا السياق فإن العديد من الكتابات التي أرخت للولاية الرابعة كثيرًا ما أشارت إلى المواقف المتحفظة والسلبية لقادة الداخل اتجاه أداء قيادات الخارج في فترات مختلفة، وقد كان سي صالح شأنه شأن العقيد عميروش من الذين وقفوا على انقسامات لجنة التنسيق والتنفيذ خلال سنة ١٩٥٧ في مهمات كلفوا بها في تونس آنذاك.

وإذا ما وضعنا الوضع العام الذي أصبحت تعرفه الثورة في الداخل سنة ١٩٦٠ مقارنة مع ما كان عليه في سنة ١٩٥٧، يمكن القول بأنه ازداد تدهورًا بالنظر إلى تفاقم أزمة الدعم اللوجيستيكي، بالنسبة للولايات الداخلية بصورة عامة والولايتين الثالثة والرابعة بشكل أدق، وهذا الأمر شكل عاملاً أساسيًا في استمرار حالة الجفاء والعزلة التامة للولاية الرابعة عن الحكومة المؤقتة بالخارج مثلما أشار إلى ذلك الرائد لخضر بورقعة في مذاكرته.[٩]

(١) قضية سي صالح (خلفياتها وتطوراتها)

لقد استمرت الكتابات الفرنسية حول تاريخ الثورة الجزائرية لفترة طويلة وبقيت مواضيع وقضايا مثيرة للجدل رهينة لمنطلقات وتصورات تلك الكتابات مما يساعد على ديمومة الغموض والالتباس في الرؤى التاريخية الموضوعية بالنسبة لجيل كامل من الجزائريين الذين لم يجدوا في ركام الكتابات الاستعمارية حول "حرب التحرير" سوى منظار بعين واحدة، يهدف إلى تصوير الثورة الجزائرية بشكل ينتهي بها إلى الإدانة والتقزيم، ويعتمد منطق التبرير المطلق للفعل الاستعماري عن طريق التركيز على الجوانب السلبية في الأداء السياسي والعسكري للثورة التحريرية.

إن قضية سي صالح تعتبر نموذجية في السياق الذي أشرنا إليه، فقبل أكثر من عقد واحد بقليل، لم يكن لدى القارئ والباحث الجزائري سوى الكتابات الفرنسية حولها،[١٠] ولم تتم إعادة تجلية الرؤية حول القضية إلا بفضل عدد من الكتابات الوطنية لبعض قيادات وإطارات الولاية الرابعة نفسها[١١] وبعض الكتابات الأكاديمية الجزائرية.[١٢]

وتُعرف قضية "سي صالح" في أدبيات الكتابات الفرنسية بتسميات عديدة مثل "قضية سي صالح"، و"لقاء الإليزيه" وتفضل مؤلفات العسكريين منهم تسميتها بـ "عملية تلست" (Opération Tilsit). إن قضية سي صالح يتم تصويرها من خلال الكتابات التي تتناولها على أنها مناورة سياسية دوغولية للإيقاع بين طرفي قيادة الثورة في الخارج وفي الداخل حينًا[١٣] وعلى أنها عملية اختراق ناجحة لصفوف الثورة في الولاية الرابعة بهدف إرغامها ودفعها إلى القبول بحلول انفرادية مع السلطة الاستعمارية.[١٤] ولا تزعم هذه الدراسة تحقيق القراءة التاريخية المثلى لقضية سي صالح، وإنما ستحاول تسليط أضواء جديدة على زوايا كثيرة أغفلتها الكتابات الفرنسية التي تحقق لديها السبق في تناول القضية وذلك بتوظيف ما جاءت به العديد من الشهادات والكتابات الجزائرية في السنوات الأخيرة.

إن بداية قضية سي صالح كما أشار إليها بيار مونتانيو كانت بدايتها مع اطلاع المصالح الفرنسية الخاصة على الحرب الكلامية المحتدمة بين سي صالح قائد الولاية الرابعة والحكومة المؤقتة وهيئة الأركان العامة في الخارج، وفحوى ما لمح إليه ارتكز على تمكن أجهزة الاتصال الفرنسية (مكتب التنفيذ والربط B.E.L) من التصنت وتسجيل الرسائل المتبادلة (اللاسلكية) بين سي صالح وقيادة الثورة في الخارج.[١٥]

وافق بورقعة على ما ذهب إليه "مونتانيو" من أن إطلاع السلطة الاستعمارية على حقيقة تدهور العلاقة بين الولاية الرابعة وقيادة الثورة في الخارج من جهة، وإطلاعها أيضًا على الأوضاع المزرية التي كان يعيشها المقاتلون بالداخل، كان سببًا في اغتنام أجهزة الاستخبارات الاستعمارية للفرصة من أجل تصعيد الحرب الكلامية بين سي صالح وهيئة الأركان العامة بهدف تأجيج الخلاف الذي كان قائمًا بينهم.[١٦] لكن بورقعة لم يكتف بمقدمات صاحب كتاب "قضية سي صالح" إذ حاول وضع القضية في السياق العام لتطور أوضاع الولاية الرابعة في الفترة السابقة لها كما حاول تحديد الدوافع الرئيسية التي أدت إلى "لقاء الإليزي" في نقطتين رئيسيتين هما:

١- الظروف القاسية التي عاشتها الولاية الرابعة بسبب قلة التسليح وعمليات الإبادة الشاملة لمخطط شال.

٢- العزلة التامة للولاية الرابعة عن قيادة الثورة في الخارج (الحكومة المؤقتة وهيئة الأركان العامة EMG[١٧]) وهذا ما جعل المؤرخ الفرنسي بيار مونتانيو يلمّح إلى أن سي صالح كان يكتم في نفسه مرارة لأنه لم ينصب بتفويض من الحكومة المؤقتة ولم يحصل على تزكية منها فيما بعد.[18]

إن أمثل طريقة لتسليط الضوء على قضية سي صالح، تفرض على الباحث وضعها في سياق التطور الداخلي للأداء الثوري وما نتج عنه من تراكم للمشاكل التي كانت تعيقه مثل مسألة التسليح، وأزمات القيادة في الداخل والخارج من جهة، وأيضًا وضعها في سياق تطور السياسة الاستعمارية الهادفة إلى القضاء على الثورة، هذه السياسة التي بلغت أوجها مع وصول الجنرال دوغول إلى سدة الحكم في فرنسا. أدرك دوغول سريعًا أن الوضع في الجزائر كان عاملاً أساسيًا في تأزم الأوضاع السياسية في فرنسا، ومن هذا المنطلق، أصبح حسم القضية الجزائرية من أولوياته لمدة ناهزت الأربع سنوات (١٩٥٨ - ١٩٦٢). لم تكن السياسة الديغولية سافرة بشكل تام، وإنما تميزت بتعدد أوجهها وأساليبها وعلى عكس سابقيه من أمثال "سوستال ولاكوست، ورؤساء الحكومات الفرنسية التي تعاقبت في الفترة الممتدة بين (١٩٥٤-١٩٥٨)، جمع دوغول بين المناورة السياسية والتورية في الخطاب السياسي، وسياسة الإغراء

والاحتواء إلى جانب استخدام اليد الحديدية بأقصى الإمكانيات المتاحة من أجل دحر الثورة والقضاء عليها.

في بداية أكتوبر ١٩٥٨ كشف دوغول في زيارته الثانية للجزائر عن أسلوب الإغراء بهدف الاحتواء عندما أعلن عن مشروع قسنطينة سنة ١٩٥٨ الذي زعم أنه سيحقق نقلة نوعية للجزائر المتخلفة،[١٩] لكن الهدف الخفي لذلك المشروع كان خنق الثورة بواسطة فض التفاف الجماهير حولها واستقطابهم نحو تحقيق مكاسب اجتماعية عديدة. وفي ٢٣ أكتوبر من نفس السنة توجهت سياسة دوغول نحو الثوار أنفسهم حيث صرح في ماتنيون (قصر الحكومة الفرنسية) عن دعوته إياهم إسكات الأسلحة ورفع العلم الأبيض،[٢٠] وغلق دعوته للاستسلام بإطلاقه عليها تسمية "سلم الشجعان".

جاء رد قيادة الثورة ممثلاً في موقف الحكومة المؤقتة الحديثة النشأة التي رفضت في ١٩٥٨/١٠/٢٥ عرض الجنرال دوغول واعتبرت أن القضية الجزائرية ليست عسكرية فحسب يتم حسمها بتوقيف إطلاق النار، وإنما هي مسألة سياسية يجب طرحها بشكل شامل للتسوية.[٢١] لقد كشف رد الحكومة المؤقتة في رفض الدعوة إلى "سلم الشجعان" على تفطنها إلى أن دوغول تعمد إحداث شرخ في صفوف الثورة عندما توجه إلى الذين يحملون السلاح في الداخل، دون غيرهم، كما أن نداء "سلم الشجعان" الذي جاء بعد ثلاثة أسابيع من إعلان دوغول عن مشروع قسنطينة سمح بالوقوف على أنه كان جزءًا من مشروع عام وشامل يهدف إلى إضعاف الثورة وتشتيت قوتها وتماسكها.[22]

إن هذا الموضوع لا يعنى بالتفصيل في سياسة دوغول تجاه الثورة التحريرية، ولكن الهدف من وراء الاسترسال في الإشارة إلى بعض أساليبها يكمن في أنها سوف تشكل سببًا مباشرًا في خلق ارتباك شديد في العمل الثوري بشقيه السياسي في الخارج والعسكري في الداخل. وللتدليل على هذا يمكن الإشارة إلى أن مشروع سلم الشجعان الذي أعلنه دوغول في ١٩٥٨/١٠/٢٣، كان يمثل الغرض نفسه الذي قدمه الجنرال دوغول ومساعديه في قضية سي صالح التي جرت أهم فصولها في ربيع وصيف ١٩٦٠، لكن ما يجدر توضيحه في هذا السياق أن تطورات قضية سي صالح جاءت بعدما أنهكت الولاية الرابعة كغيرها من ولايات الداخل بفعل سياسة الحصار والإبادة التي فرضها مخطط شال الذي ألغى عملية البحث عن صيغة للتفاوض مع قيادة الثورة.[٢٣] وكشف في فترة محددة (١٩٥٩ - ١٩٦٠) عن تفضيل السياسة الديغولية للحسم العسكري للقضية الجزائرية عن طريق توظيف الإمكانات العسكرية القصوى بهدف تحقيق نصر سريع.[٢٤]

إن التمعن في سياسة دوغول يكشف عن القدر الكبير من الدهاء السياسي في مشاريعها وأهدافها القريبة والبعيدة، فهي تبدو وكأنها تركم بعضها، ولكنها في الواقع كانت تهدف إلى تحقيق مكاسب مؤكدة في كل النهايات المحتملة، فقد كان دوغول يحاول أن يخادع قادة الثورة في الخارج وفي الداخل معًا، وفي وقت واحد فهو يتوجه إلى الحكومة المؤقتة بالدعوة إلى ترقية مشروع السلم، وطرح فكرة تقرير المصير، ويواصل محاولات الاتصال بصورة انفرادية، مع قادة الداخل وكان يأمل في حالة نجاح العملية مع الداخل سيضع الحكومة المؤقتة في موقف ضعف وفي حالة الفشل داخليًا كان يأمل في الضغط على الولايات الداخلية من خلال القيادة السياسية في الخارج،[٢٥] وإذا كان هذا هو هدف المناورات السياسية الديغولية، فإن مخطط شال الذي كان يعتبر عن الوجه السافر والمعلن لتلك السياسة، كان يهدف إلى وضع قيادة الثورة بمجموعها في الخارج والداخل معًا في موقف استسلام واعتراف بالهزيمة.

لقد تعرضت الولاية الرابعة إلى عمليات عسكرية واسعة في شكل هجوم عنيف وشامل في جبال الظهرة والتيطري والأطلس البليدي في شهر جوان وأبريل سنة ١٩٥٩[٢٦] وأصبح الثوار في حالة حصار جعلهم أشبه بالأسماك التي لا تغادر حوضها المائي،[٢٧] وحد مخطط شال من فعالية الكفاح المسلح، فتحولت الولاية الرابعة إلى أوكار مستقلة تتحرك وفق الضرورة حسب تعبير بيارمونتانيو[٢٨] في وضع تكتيك جديد اعتمده القائد العسكري للولاية الرائد سي محمد في توزيع الوحدات وتقسيمها إلى مجموعات صغيرة.[29]

إن آثار مخطط شال على الولاية الرابعة كانت وخيمة ميدانيًا وفي الواقع كان تأثيرها جيد إلى الحدود الشرقية، حيث انتصب خط شال المكهرب لتدعيم خط موريس وزاد من تأزم ولايات الداخل وعلى رأسها الولاية الرابعة بفعل تعرضها للحصار والهجوم من جهة واختناقها بسبب ضعف تسليحها وتوقف حصول الدعم اللوجستيكي إليها. وتشير بعض الكتابات الجزائرية ذاتها إلى أن مخطط شال تسبب في حدوث اضطرابات في جيش التحرير الوطني بالولاية الرابعة إثر عملية الحزام،[٣٠] وتكبدت وحدات الولاية خسائر جسيمة قدرت بما يقرب ثلث تعدادها.[٣١]

(٢) التحضير للقاء الإليزيه

أمام تلك الوضعية المتردية ميدانيًا في الولاية الرابعة بسبب الضغط العسكري الاستعماري من جهة وعزلة الولاية وافتقادها إلى وسائل المجابهة عسكريًا، من جهة أخرى حاولت المصالح الفرنسية انتهاز الفرصة للقيام باتصالات محلية مع قيادة الولاية بهدف جرها إلى اتفاق انفرادي خاصةً وأنها كانت على اطلاع بالانشقاق الذي وقع بين القادة المحليين للولاية ومسؤول الخارج.[٣٢] وقد أشار كل من (إيف كوريار وبيار مونتانيو) إلى حصول المصالح الفرنسية التابعة لمكتب التنفيذ والاتصال "BEL" على الرسائل المتبادلة بين سي صالح، والعقيد بومدين قائد هيئة الأركان العامة في جانفي (يناير) ١٩٦٠، جاءت فيها معطيات تتعلق بالحالة التي كانت الولاية الرابعة وتضمنت ميول سي صالح بقبول عرض فرنسي عادل لتسوية القضية.[٣٣]

علمية. عالمية. مُحكَمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

جاء ميلاد ما يُعرف بـ "قضية سي صالح" عندما تمكنت المصالح الفرنسية من إيجاد وسطاء لإقامة اتصالات مع قيادة الولاية الرابعة، وكانت أول خطوة تتمثل في تكليف قاضي بالمدية بتلك المهمة.(٣٤) وقد تمت اللقاءات الأولى بين الضباط والمندوبين السياسيين الفرنسيين وعدد من مساعدي سي صالح قبل اطلاعه على القضية، وفي منتصف فيفري (فبراير) ١٩٦٠ تم اللقاء بين سي صالح وفورني فوش، وعرض سي صالح موقفه الإيجابي من تصريحات ديغول وقبوله بوضع السلاح في الولاية الرابعة.(٣٥) تواصلت اللقاءات فيما ما بعد، وشهدت القضية بدايتها الحقيقة في لقاء بالمدية بتاريخ ٢٨ مارس ١٩٦٠، وجمع بين بيرنارد تريكو، والعقيد ماتون وثلاثة نقباء من جيش التحرير بالولاية الرابعة، وهم عبد الحليم، سي لخضر، وعبد اللطيف، وكان كل من الأول والثاني نواب لسي صالح.

أولت المصالح الفرنسية لقضية الاتصالات أهمية بالغة واعتبرتها فرصة سانحة لإحداث شرخ في صفوف الثورة في الداخل وإضعافها بإخراج الولاية الرابعة من جهة الصراع، ولقد ظهر الجنرال دوغول على رأس الموجهين لتلك الخطوات السرية من خلال اشتراك العقيد برنارد تريكو كممثل للرئيس الفرنسي وإلى جانب العقيد ماتون كممثل للحكومة الفرنسية والعقيد جاكان كممثل للقيادة العسكرية في الجزائر.

لقد كانت الهيئات والأجهزة السياسية الاستعمارية العليا تشرف على توجيه ومتابعة خطة جر الولاية الرابعة إلى تسوية انفرادية وفي المقابل ليس لدى القيادة العليا للثورة في الخارج وبقية قيادات ولايات الداخل أي إطلاع على تفاصيل قضية سي صالح،(٣٦) بل ويمكن الجزم بالنظر إلى ما ذكرته الكتابات الجزائرية حول القضية بأنها ظلت محصورة في أعضاء مجلس قيادة الولاية فقط. ولم تكن مبادرة سي صالح وعدد من مساعديه نتيجة لموافقة القيادة العليا للثورة في الخارج، أو لاستشارة جماعية في الداخل حتى أن نائبه الأول الرائد سي محمد القائد العسكري للولاية كان آخر أعضاء مجلس القيادة المحلي في الاطلاع على الاتصالات والمساعي السرية وانضم إلى جماعته رغم إظهاره لبعض التحفظات.(٣٧)

طلب سي صالح في نهاية مارس ١٩٦٠ الدخول في اتصالات مباشرة مع الحكومة الفرنسية، وعرض المفاوضون الفرنسيون إيجاد وسيلة لتوقيف إطلاق النار وإبقاء الاتصالات بمعزل عن الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية (GPRA)، وعندئذ سعى الفرنسيون في التحضير للقاء يجمع الجنرال دوغول بقيادة الولاية الرابعة في قصر الرئاسة الفرنسية في باريس(٣٨) ومع مطلع شهر جوان (يونيو) ١٩٦٠ دخلت الاتصالات مرحلتها الأخيرة وتم وضع اللمسات الأخيرة بتحديد سفر سي صالح ورفقائه إلى الإليزي في ٠٩جوان (يونيو) ١٩٦٠.(٣٩) تم اللقاء يوم ١٩٦٠/٠٦/١٠ على الساعة (٢١:٣٠) ليلاً في قصر الإليزي، واستمر الحديث مع دوغول ومساعديه لمدة ساعة واحدة تخللتها المناورات السياسية من كلا الطرفين، حيث عرض سي صالح الاتصال ببن بلة فرفض دوغول ذلك،(٤٠) واعترض على الاتصال المباشر مع الحكومة المؤقتة وفرض الطرف الفرنسي على إبقاء الاتصالات بمعزل عنها.(٤١)

ولكن سي صالح أفسح بأن مجيء قادة الولاية الرابعة إلى الإليزي ليس موقفًا انعزاليًا، ومعارضًا لأي طرف في جيش التحرير الوطني في الداخل،(٤٢) وخلال اللقاء عرض دوغول فكرة إجراء استفتاء بعد وضع المقاتلين الجزائريين أسلحتهم،(٤٣) وصرح دوغول بعد رفضه لمطلب قادة الولاية الرابعة الاتصال بالحكومة المؤقتة بأنه سوف يوجه نداء لها يدعوها إلى المفاوضات ووقف إطلاق النار.(٤٤)

وهذا ما يوضح حرصه الشديد على الانفراد بكل من القيادة الخارجية وقيادة الولاية الرابعة للاحتفاظ بموقف قوي في إملاء شروطه. لقد كان دوغول يأمل في أن تتحول قضية سي صالح إلى فرصة لإضعاف الثورة واستسلام قيادتها، ليقوم بعد ذلك باستفتاء يكرس الاستقلال الذاتي للجزائر، وهي الفكرة التي عبر عنها بعد أربعة أيام فقط من لقاء الإليزي في (١٤/٠٦/ ١٩٦٠).(٤٥)

(٣) نتائج قضية سي صالح (لقاء الإليزي)

انتهى اللقاء دون التوصل إلى نتائج نهائية بسبب تصلب المواقف المتباينة واتجه الاهتمام بعد ذلك إلى انتظار ردود الحكومة المؤقتة على خطاب ديغول في (١٤/٠٦/ ١٩٦٠).(٤٦) ولكن القضية لم تتوقف عند حدود إجراء لقاء الإليزي، وبدا جليًا أنه هناك اتفاقًا مبدئيًا قد تحقق بين دوغول وسي صالح، فبعد عودة قادة الولاية الرابعة من باريس يوم (١٩٦٠/٠٦/١١) تحرك سي صالح باتجاه الولاية الثالثة بهدف إشراكها في مسار التسوية التي تضمنها مشروع سلم الشجعان،(٤٧) وشرع في الاتصالات الأولى مع العقيد محند أو الحاج في (١٩٦٠/٠٦/٢١) بتسهيل ورعاية من طرف المصالح الفرنسية. لقد كان دوغول ومساعديه المشرفين على متابعة الترتيبات التي نوقشت عند لقائه مع قادة الولاية الرابعة، يظنون أنهم يتحكمون في سير العملية بشكل تام لكن المصالح الفرنسية سرعان ما تفاجأت بانقلاب القائد العسكري للولاية: الرائد سي محمد على كل ما تم الاتفاق عليه من قبل.(٤٨)

شرع الرائد سي محمد في إفشال مساعدي سي صالح في الولاية الثالثة، وقام بالاتصال بالعقيد محند أو الحاج طالب منه الحذر من الوقوع في الفخ الذي أوقعت فيه المصالح الفرنسية الرائد سي صالح، وبعض قادة ولايته، كما قام سي محمد بحل مجلس قيادة الولاية الرابعة، وأبعد منه سي صالح والنقيبين سي لخضر وحليم،(٤٩) ومن أجل وضع حد للقضية أعلن عن إنشاء لجنة عسكرية للتنفيذ والتنسيق كهيئة قيادة جديدة للولاية الرابعة، ووجه دعوة إلى وحدات جيش التحرير بالوقوف في وجه الاستعمار وعدم القبول بأية تسوية حتى يتم تحقيق النصر.(٥٠)

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

وتجدر الإشارة هنا إلى؛ أن الخطوات المعاكسة التي قام بها سي محمد بهدف إفشال عملية الاستدراج التي وقع فيها رفاقه في قيادة الولاية تزامنت مع الفشل الذي مني به سعي سي صالح في الولاية الثالثة، ومع إطلاع الحكومة المؤقتة وهيئة الأركان العامة على القضية، وتتفق الكتابات الفرنسية التي تناولت الموضوع مع نظيرتها الجزائرية حول السبب الرئيسي في نجاح جهود الرائد سي محمد، وتعزوه إلى وجود عناصر معارضة لمشروع سلم الشجعان في قيادات مناطق الولاية الرابعة من أمثال النقيب لخضر بورقعة، والنقيب محمد بوسماحة، وغيرها من ضباط جيش التحرير الذين أيدوا سي محمد في انقلابه على مشروع "سلم الشجعان"،[٥١] والتراجع عن كل مما ترتب عن لقاء الإليزي الشهير، وتصفية العناصر التي تسببت في انخراط قيادة الولاية الرابعة في عملية التفاوض السري الانفرادي مع المصالح الاستعمارية.

خاتمة

وفي ختام هذا البحث يمكن أن نخلص إلى جملة من النتائج الأولية حول ما يُعرف بقضية سي صالح، وذلك بوضعها في سياق التطور الداخلي للثورة الجزائرية وبالنظر إليها على أنها تمثل محاولة من محاولات اختراق صفوف الثورة استدراج قادة الولاية الرابعة، وبأنها مرحلة من مراحل التأزم الشديد التي شهدته تلك الولاية في مجابهة الاستعمار الفرنسي في أوج اندفاعاته العسكرية في سنتي (١٩٥٩- ١٩٦٠)، وأهم هذه النتائج ما يلي:

(١) إن قضية سي صالح تمت من الطرف الجزائري كمبادرة فردية تبنتها عناصر في قيادة الولاية الرابعة بهدف تحقيق تسوية سياسة سلمية مع السلطات الاستعمارية، واستمرت القضية في مختلف مراحلها في طي الكتمان والسرية وبمعزل عن قيادة الثورة في الخارج،[٥٢] وبقية الولايات في الداخل باستثناء الولاية الثالثة في المرحلة الأخيرة منها.

(٢) الانقلاب والتراجع عن كل ما تم الاتفاق عليه بين قادة الولاية الرابعة والجنرال دوغول في لقاء الإليزي وبعده، والخطوات المعاكسة بهدف إفشال مشروع سلم الشجعان وتصفية العناصر المؤيدة له. تم كل ذلك على يد قادة الولاية أنفسهم،[٥٣] وهو ما يمكننا القول بأن قيادة الولاية الرابعة التي ترأسها الرائد سي محمد بعد لقاء الإليزي هي التي أعادت تصحيح المسار وتجاوز الخطأ الذي وقعت فيه قيادتها السابقة التي كان على رأسها سي صالح، ونجحت في قبر "عملية تلسيت" دون عون ومساعدة من خارجها.[٥٤]

(٣) بتسليط الضوء على وضعية الولاية الرابعة إثر استشهاد العقيد سي محمد بوقرة في منتصف سنة ١٩٥٩ من جهة، وعلى علاقاتها مع قيادات الثورة في الخارج من جهة أخرى، يمكن اعتبار الحركة التي قام بها سي صالح باتجاه القبول بمشروع سلم الشجعان بأنها كانت تعبر عن استفحال اليأس وروح الاستسلام في الولاية الرابعة بفعل تكبدها للخسائر الجسيمة، وتنامي شعورها بالعزلة وتخلي القيادة في الخارج عن مد يد العون لها لمواجهة مخطط شال الرهيب.[٥٥]

(٤) نجح دوغول في الوقوف على حقيقة الانقسامات التي كانت تميز العلاقة بين قيادة الثورة في الخارج وفي ولايات الداخل وسمح له ذلك بمواصلة المناورة السياسية بمختلف أساليب الخداع والتورية بهدف إضعاف القدرة التفاوضية لجبهة التحرير الوطني. ولقد سبقت الإشارة إلى أنه طلب في لقاء الإليزي من قادة الولاية الرابعة إبقاء مسألة الاتصالات مع الطرف الفرنسي في سرية وبمعزل عن الحكومة المؤقتة، لكن دوغول بعد أربع أيام فقط من ذلك قام بتوجيه نداء إلى مَنْ سماهم بـ "مسيري الثورة من الخارج" وهو ما كشف رغبته في إبقاء الولاية الرابعة كورقة ضغط مستمرة على القيادة في الخارج.[٥٦]

(٥) إن ما يبقي قضية سي صالح موضوعًا خصبًا للدراسة بشكل دقيق ومفصل هو اختفاء كل العناصر الثورية التي خاضت جميع مراحلها: البعض منها بفعل التصفية الداخلية "سي لخضر، وسي حليم، وسي عبد اللطيف"، والبعض الآخر نتيجة لسقوطها في مواجهة مباشرة مع الجيش الفرنسي (سي صالح، جويلية ١٩٦١) (سي محمد، أوت ١٩٦١) وفي المقابل كانت للعناصر الفرنسية فرصة السبق في تدوين وقائع القضية في مذكرات وجمع الوثائق المتعلقة بها وهو ما سمح بظهور كتابات فرنسية عديدة احتكرت التأريخ إلى عهد قريب.[٥٧]

(٦) أدت عملية إنهاء وتصفية ما ترتب عن لقاء الإليزي من نتائج إلى بروز عناصر جديدة في قيادة الولاية الرابعة وتمت ترقية عدد من الضباط المعارضين للقبول بمشروع سلم الشجعان في مجلس قيادة الولاية وفي مجالس المناطق وكان أغلب هؤلاء من الضباط الشباب أمثال بورقعة، وبوسماحة ويوسف الخطيب، ومحمد صايكي ومحمد تقية وغيرهم وهو ما جعل الإطارات القيادية في الولاية الرابعة الأكثر شبابًا في ولايات الداخل، ولعل هذا يسمح القول بأن الجيل الثاني من الثوار في قيادة الولاية احتفظ بنفس الإصرار الذي كان لدى المفجرين على الصمود والمواجهة.

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

الهوامِشُ:

(١) حكيمة شتواح، **المبادئ التنظيمية لقيادة الثورة الجزائرية (١٩٥٤ - ١٩٦٢)** رسالة ماجستير. قسم التاريخ. جامعة الجزائر. ٢٠٠١. ص١٠٥.

(2)Mohamed Teguia, *L'Algérie en guerre*, OPU, Alger, 1988. P. 380.

(٣) محمد صايكي، صايكي، **شهادة ثائر من قلب الجزائر**. ط١، دار الأمة، الجزائر، ٢٠٠٢. ص٢٨٠ - ٢٨٢.

(4)Mohamed, Harbi, *LE FLN Mirage et réalité*, ed jeune Afrique, paris, 1980 .p. 236 – 237.

(٥) لخضر بورقعة. (مذكرات) **شاهد على اغتيال الثورة**، ط١، دار الحكمة، الجزائر، ١٩٩٠، ص ٤٦.

(٦) المرجع نفسه، ص ٤٧، وانظر أيضًا: محمد صايكي، المصدر السابق، ص ٢٥٢.

(7) Mohamed Teguia OP.CIT. P379 - 380.

(٨) تم تشكيل مجلس قيادة جديدة للولاية الرابعة بعد إبعاد سي صالح منها في أوت ١٩٦٠ وقد ضم كل من الرائد سي محمد، والنقيب حسان (يوسف الخطيب)، والنقيب سي يوسف (بن خروف)، والنقيب محمد بوسماحة، انظر: محمد صايكي، المصدر السابق، ص ٢٥٨ - ٢٥٩.

(٩) لخضر بورقعة، المصدر السابق، ص ٣٨ - ٤٢، وللاطلاع على أوضاع الولاية الرابعة قبل تولي سي صالح قيادتها: انظر:

Jaques Simon, *la wilaya 4 avant si Salah in Historia*, n° 229, 22 Mai 1972, PP 1094 - 1097.

(١٠) ظل المرجع الأساس الذي تناول القضية في شكل دراسة مفصلة ودقيقة هو كتاب بيار مونتانيو، **قضية صالح**، منشورات بيغماليون، باريس ١٩٨٧. ص١٨٧.

(١١) منذ نهاية الثمانينيات إلى اليوم توالت الكتابات الجزائرية التي تناولت قضية سي صالح وسمحت بتسليط الضوء على بعض الجوانب الهامة فيها، ويمكن الإشارة هنا إلى محمد تقية (**الجزائر في حرب**)، لخضر بورقعة (**شاهد على اغتيال الثورة**)، وأخيرًا محمد صايكي (**مذكرات ثائر من قلب الجزائر**).

(١٢) للمزيد من الاطلاع على تفاصيل قضية سي صالح، انظر: الطاهر جيلي، **قضية سي صالح** (مذكرة سنة أولى ماجستير)، معهد التاريخ جامعة الجزائر ١٩٩٦، ٩٣ صفحة.

(١٣) علي كافي أدرجها في هذا السياق رغم أنه لم يشر إليها إلا بفقرة واحدة في مذكراته، انظر: **مذكرات علي كافي (١٩٤٦ - ١٩٦٢)** دار القصبة، الجزائر، ١٩٩٩، ص ٢٤٦ - ٢٤٧.

(14) Yves courrier, *la guerre d'Algérie 1958 - 1960*. L'heure des colonels, ed Fayard, Paris 1970, P 617, 618.

(15) Pire Montagnon, *L'Affaire si Salah*, ed Pygmalion. Paris 1987, P.85 - 86.

أشار مونتانيو إلى رسالة نشرها في كتابه تضمنت خطابًا شديد اللهجة لسي صالح وجهه إلى قيادة الخارج متهمًا إياها بالتخاذل والبيروقراطية، وحملها مسؤولية عزل الداخل، واستمرار الفوضى في الولايتين الأولى والسادسة وهو الأمر الذي كشف للمصالح الفرنسية مدى الخلاف الذي كان قائمًا بين قادة الثورة.

(١٦) لخضر بورقعة. المصدر السابق. ص٤١ – ٤٠.

(١٧) نفسه. ص ٣٨ - ٣٩.

(١٨) من أبر ز مظاهر عزلة الولاية الرابعة عن القيادة الخارجية لم يكن فقط انقطاع وصول السلاح إليها، وإنما تأكد ذلك الشعر لدى قيادة (سي صالح-سي محمد) عندما أهملت الحكومة المؤقتة تعيين قائد لها إثر استشهاد العقيد أمحمد بوقرة في مايو ١٩٥٩، كما أنها لم ترسل بتزكية أو ترقية سي صالح أو سي محمد اللذين بادرا إلى تشكيل مجلس قيادة الولاية الرابعة بعد فراغ دام أكثر من سبع أشهر وهذه المسألة استغلها بيارمونتانيون كثيرًا في كتابه لتبرير خطوة سي صالح الانفرادية، انظر:

Pierre Montagnon, Op.Cit, PP 47 - 48.

(19) Alistair *horne histoire de la guerre d algueraie*, ed .albin. michel. paris.1980. p.318 - 319.

(٢٠) كلمة الجنرال ديغول حول سلم الشجعان لتقف على حقيقة مشروعه الذي كان جوهره دعوة إلى الاستسلام غير المشروط، ويمكن اعتبار لهجة ديغول متوافقة جدًا مع أسلوب الحرب النفسية، لأنه خاطب قادة الداخل، وكأنهم طرف مهزوم، انظر:

Jean Daniel, *De gaulle et L'Algérie*, ed : Le seuil, Paris, 1986, P49.

(21) Yves courriere. Op.cit.pp. 335 – 336.

(22)Messaoud Maadad, *Guerre D'Algérie, chronologie et commentaire*. Collection, sad, Alger1992. PP.120 - 121.

(23) Mohamed Teguia, Op.cit. P.383

(٢٤) أشار بورقعة إلى أن شال أعلن تفاؤله في مطلع سنة ١٩٥٩ إثر شروعه في عمليات عسكرية في الولاية الخامسة، وذكر في ندوة صحفية أن عمر التمرد (الثورة) مجرد أشهر معدودة، انظر: بورقعة لخضر، المصدر السابق، ص١١.

(25) Henri Alleg, *La guerre D'Algérie*. T3, ed Temps actuels, Paris 1981, P. 201.

(٢٦) المنظمة الوطنية للمجاهدين، **تقرير الملتقى الوطني الرابع لتسجيل وقائع وأحداث الثورة في الولاية الرابعة**.ج١. (١٩٥٩-١٩٦٢)، ص ١٣ - ١٤.

(27) A.Horne, Op, cit. P. 339.

(28) Pierre Montagnon, *La guerre D'Algérie 1954 – 1962*, ed, Pygmalion, Paris, 1984, P.314.

(٢٩) المنظمة الوطنية للمجاهدين، المرجع السابق، ص ١٣- ١٤.

(30) Mohamed Teguia. Op.cit, P. 380.

(٣١) المنظمة الوطنية للمجاهدين، المرجع السابق، ص١٨٧.

(32) Yes Courriere. *La guerre D'Algérie 1960 - 1962*. Les feux du desespoir. ed : R L'Affont Paris. 1990. P.61.

(٣٣) لاحظ اتفاق الكتابات الفرنسية في النظر إلى قضية سي صالح على أنها قضية اختراق المصالح الفرنسية لصفوف الثورة التي كانت تعاني أزمة في العلاقة بين قيادتها الخارجية والداخلية لدى كل من كوريار ومونتانبون، للمزيد من المعلومات، انظر:

y. courriere. opc.it. p. 617 - 618. And also see: Montagnon. p85 - 86.

(٣٤) اسم القاضي هو عبد القادر المريغي، انظر:

Y.Courriere OP.Cit. 618.

(35) Pierre Montagnon Op.cit., P. 91.

(36) Yves Courriere. Op.cit., P. 624.

(37) Mohamed Teguia Op. Cit P. 387.

(38) Henri Alleg, Op.Cit, P. 205.

(٣٩) لخضر بورقعة، مصدر سابق، ص ٤٢.

(40)Bernard Tricot. *Les Sentiers de la paix Algérie 1958-192*, paris.1972, P.172.

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية

ISSN: 2090 – 0449

(41) Pierre. Montagnon. *L'Affaire Si Salah*, OP.Cit, P.108.

(٤٢) لخضر بورقعة، مصدر سابق، ص ٤٦.

(٤٣) لخضر بورقعة، مصدر سابق، ص٤٦.

(44) Bernard Tricot, Op. Cit, P.175.
(45) Ibid, P.176.
(46) Henri Alleg, Op.Cit, P. 206.
(47) Yves Courriere. *Lesfeux du desespoire* Op.cit., P. 639.

(٤٨) انظر كل من: لخضر بورقعة، مصدر سابق، ص ٦٧ – ٦٩. وأيضًا محمد صايكي، مصدر سابق، ص٢٥٨ - ٢٥٩. وأيضًا:

Mohamed Teguia, Op. Cit, P.391.

(٤٩) محمد صايكي، المصدر نفسه، ص ٢٥٨ - ٢٥٩.

(50) Henri Alleg, Op. Cit, PP. 207 - 208.

(٥١) لخضر بورقعة، المصدر السابق، ص ٤٩ – ٥٠. وانظر أيضًا:

Yves Courriere, OP. Cit, P. 640.

(52) Benjamin Stora. Histoire de la guerre D'Algérie 1954 - 1962, ed, La découverte, Paris 1995, P. 56.

(٥٣) يشير محمد تقية إلى أن الرائد سي محمد قام بإعدام ثلاثة من قادة الولاية الرابعة الذين حملهم المسؤولية في الاتصالات الأولى مع المصالح الفرنسية؛ وهم النقباء سي لخضر (بوشامة) المحافظ السياسي للولاية، والنقيب سي عبد اللطيف قائد المنطقة الثانية (التيطري، الاطلس البلدي)، والنقيب سي حليم مسؤول الاتصالات في مجلس قيادة الولاية. انظر:

Mohamed Teguia, Op. Cit, P.391 - 393.

(٥٤) ذهبت المصادر الفرنسية إلى القول بأن عملية التصفية والتطهير التي قام بها الرائد سي محمد للعناصر التي شك في ارتباطها (بقضية الإليزي) وبتأييد مشروع سلم الشجعان شملت ما بين (٤٢٠) و(٤٦٠) إطار بالولاية الرابعة على الرغم من أنها كانت تذكر آنذاك أن الولاية الرابعة لم يعد بها إلا (٢٥٠) مقاتل. للمزيد من المعلومات، راجع كتاب:

Mohamed Teguia, Op. Cit, P. 391.

(٥٥) اعترف لخضر بورقعة بأن تصرف سي صالح ورفقائه كان خارج الاجماع الثوري، وبأنه كان خاطئًا لكنه لم يكن خيانيًا، وإنما بفعل الظروف القاسية التي تعرضت لها الولاية الرابعة سنتي (١٩٥٩ – ١٩٦٠). أنظر: لخضر بورقعة، مصدر سابق، ص ٥٦.

(56) Général Jaquin Du Djebel A L'Elysée, in Historia, n 313. Mai 1973. P. 2398.

وانظر أيضًا:

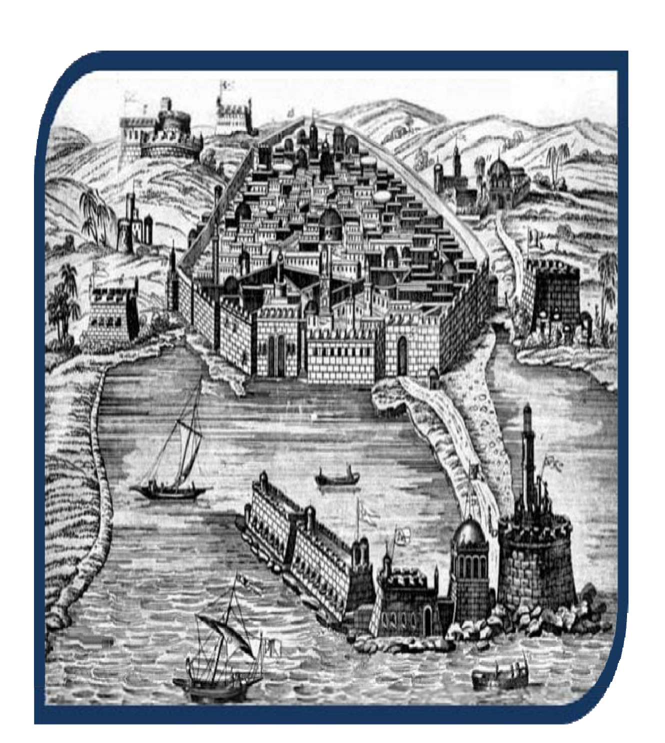
Pierre Montagnon *La guerre D'Algérie*. OP. Cit, P. 318.

(٥٧) عندما انتهت قضية سي صالح بالفشل الذريع بالنسبة للمصالح الفرنسية الخاصة التي فقدت ورقة هامة للمناورة لم يجد الجنرال دوغول عزاءً له إلا الإشارة إلى أن جميع العناصر الثورية قد اختفت بعد سقوط سي صالح شهيدًا في (١٩٦١/٠٧/٢٠) بنواحي البويرة، وسي محمد في (١٩٦١/٠٨/٠٦) في مدينة البليدة، وصرح قائلاً: لا أحد سيتكلم حول قضية سي صالح، ومَنْ تكلم عنها فلن يتكلم طويلاً، أنظر:

Yves Courriere, OP. Cit, P. 644.

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449





الأنشطة التجارية والمرفآية في الجزائر القديمة
خلال العهد الروماني

لخضر فاضل

أستاذ مساعد التاريخ القديم
كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية
جامعة معسكر – الجمهورية الجزائرية

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

لخضر فاضل، الأنشطة التجارية والمرفئية في الجزائر القديمة خلال العهد الروماني.- دورية كان التاريخية.- العدد الثالث والعشرون؛ مارس ٢٠١٤. ص ٣٦ – ٥٠.

www.kanhistorique.org

كان التاريخية: رقمية الموطن .. عربية الهوية .. عالمية الأداء

مُلَخَّصْ

تُعدّ الجزائر القديمة بمقاطعاتها الرومانية الثلاث من أهم الأقطاب الاقتصادية في حوض البحر الأبيض المتوسط ابتداءً من القرن الثالث الميلادي، إذ ساهم توسطها للمقاطعات الغربية للإمبراطورية وكذا إمكاناتها الزراعية والغابية والمنجمية وشبكة محكمة من الطرق القوية، إلى جانب وفرة الأسواق الداخلية الحضرية والريفية وعدد مهم من الموانئ الرئيسية في تنشيط الحركة التجارية والداخلية تحولها لقطب مصدر لمعظم السلع والبضائع التجارية المتداولة آنذاك، مستعيدة بذلك مكانتها الريادية التي تبوأتها منذ العهد القرطاجي.

مُقَدِّمَةْ

لقد ازدهرت الأنشطة الاقتصادية بهذه البلاد منذ أيام القرطاجيين الذين كانت التجارة أول اهتماماتهم ومحور نشاطهم، وشكلت العلاقات التجارية المتينة التي ربطوها مع سكان البلاد حافزًا كبيرًا للاستقرار بسواحلها، نظرًا لأنها فتحت أعينهم على الإمكانيات التجارية والملاحية الهائلة غير المستغلة والسوق الواعدة التي تتوفر عليها والتي يمكنها أن تنمي تجارتهم. لكن إسهام القسم من بلاد المغرب القديم المطابق لبلادنا لم يتضح كثيرًا خلال هذا العهد لغموض المصادر وعموميتها، وكل ما نحتكم عليه بضعة إشارات مشتتة هنا وهناك بين طيات النصوص حول دور ميناء عنابة وأهميته عند القرطاجيين لا تشفي غليل الباحث في توضيح هذا الجانب. وتبدأ الصورة في الوضوح تدريجيًا مع الممالك النوميدية التي أقامت علاقات تجارية وطيدة مع شعوب البحر الأبيض المتوسط من رومان وإغريق وشرقيين بفضل ازدهارها الاقتصادي الذي وفر لها موادًا غزيرة للتبادل التجاري جعلها تغزو الأسواق المتوسطية بمحاصيلها الزراعية خاصةً التي كانت أهم السلع المتداولة.

لكل هذه الاعتبارات اخترنا كموضوع للمقال في هذا الملتقى التركيز على الفترة الرومانية، لأن الجزائر ابتداءً من هذا العهد بدأ يتحدد إطارها الإقليمي سياسيًا وإداريًا بفضل التقسيمات الإدارية التي استحدثتها الإدارة الرومانية على مراحل خلال العهدين الإمبراطوريين الأول والثاني، فصارت المقاطعات الرومانية الثلاث نوميديا، موريطانيا السطيفية والقيصرية هي ما صار يشكل بعد عصور عديدة الجزائر الحالية مع تحفظات قليلة حول بعض المدن والمناطق الجزائرية التي انتمت آنذاك بحكم التقسيم الإداري إلى مقاطعات هي جزء من تونس الحالية.

ومن أهم النقاط التي نسعى لاستجلائها من خلال هذه الدراسة هي إلى أي مدى تمكنت هذه البلاد من استرجاع ما كان لها من دور تجاري فاعل في الفترة السابقة للاحتلال الروماني، وما هي العوامل التي ساعدت على تحقيق ذلك؟ هل كان للبُنى التحتية المينائية التي تركها القرطاجيون وحافظ عليها الملوك النوميديون دور فيما آلت إليه وضعية الموانئ الجزائرية القديمة من ازدهار

ومكانة تجارية بارزة مع قدوم الرومان واستغلالهم لها لربط هذه البلاد بعاصمتهم روما لتموينها على مدار العام؟ هل تحررت البلاد من تبعيتها المزمنة لبلاد اليونان وايطاليا واسبانيا في مجال السلع المصنعة، هذه التبعية التي أرسى أسسها القرطاجيون لغايات تجارية ربحية.

ينقسم موضوع الدراسة إلى قسمين أساسيين؛ الأول يتطرق إلى حركة التجارة الداخلية والخارجية التي عرفتها بلادنا، لأن التطور الزراعي والصناعي الذي تميزت به منذ القرن الأول الميلادي كانت له انعكاسات ايجابية على تسريع وتنشيط المبادلات التجارية الداخلية بين المدن والمقاطعات من خلال أسواق المدن والأسواق الريفية. وعلى التجارة الخارجية مع مختلف الأسواق المتوسطية من خلال جملة من السلع المتداولة بين الجانبين. القسم الثاني تعرضنا فيه لنشاط الموانئ الجزائرية (النوميدية والموريطانية) في المجال التجاري وسنحاول فيه إبراز الدور الكبير الذي لعبته في ربط البلاد تجاريًا مع مقاطعات الإمبراطورية الرومانية الأخرى لاسيما الواقعة في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط، من خلال تنشيط الاقتصاد الداخلي بتصريف الناتج المحلي وتزويد السوق الداخلية بما تحتاجه من مواد خام وسلع جاهزة على الأقل في القرن الأول الميلادي.

أولاً: النشاط التجاري

١/١- الأسواق:

إن للنصوص الباقية من العصور القديمة وكذا المكتشفات الأثرية والنقشية أهمية كبرى في تزويدنا بمعلومات عن تجارة البلاد الداخلية، فقد أعلمتنا المصادر أن النونديناي (Nundinae) وهي نوع من الأسواق كانت تعقد في المراكز الريفية في مختلف أيام الأسبوع مثل الأسواق الحالية. وفي القرى أقيمت أسواق للسلع التموينية (Macellae) في ميدان محاط بأروقة تنفتح عليها دكاكين مختلف التجار، وقد عُثر على عدد من هذه المواقع في كل أرجاء نوميديا وموريطانيا، وهي مجهزة بمقاييس ومكاييل الوزن يفحصها المشرفون على شؤون التموين المحليون أو المحتسبون (Aediles). وكانت الصفقات التجارية والمعاملات الأخرى تعقد في الفوروم أو في الدكاكين، والأسواق المسقوفة في المدن التي تمتلئ بأصحاب المصارف والحانات وتجار الملابس وغيرهم،[١] وكذلك في القرى والبوادي، لذا يمكننا تمييز نوعين من الأسواق:

الأسواق المدنية

إنه من المؤكد أنه كان لهذه المراكز سوقًا ينعقد يوميًا، ولقد كشفت لنا إحدى النقوش والمخلفات الأثرية عن وجود مثل هذه الأسواق في عدد كبير من المدن الجزائرية القديمة. إن أهم سوق يستوجب الدراسة لكونه الأكثر حفظًا هو سوق تيمقاد، إن التنقيبات المنجزة على هذا الموقع تسمح لنا بتكوين فكرة دقيقة عن حول موضعه. لقد بني برعاية بلوتيوس بوتيس (P.Plotius) أحد أعضاء طبقة الفرسان وزوجته خلال الربع الأول من القرن الثالث، وكان حسب رأي رونيه كانيا يتألف من ساحة مركزية محاطة بأروقة من جهتين، وقد اصطفت المتاجر في الجهتين الشمالية والغربية. بلغ طول الساحة غير المغطاة (٢٥م) وعرضها (١٥م)، وقد احتل حوض مربع الشكل وسطها، كما كان الجناح مقسمًا إلى سبعة غرف متساوية تنتهي بجدران جانبية بواجهة غير متوازية يتجه محورها إلى مركز نصف دائري شأنه شأن محور الغرف ذاتها. أما المدخل فقد كان مسدودًا على طول يقارب مترًا واحدًا بقاعدة عريضة من الغرانيت الأزرق بطول متر ونصف.[٢]

إن معطيات أحد النقوش تفيدنا بأنه في سنة ٢٣٠ جرى بسور الغزلان -أوزيا- بناء سوق مجهز ببوابات ضخمة، كذلك بتازولت - لامبيز- بني سوق آخر كلف ضباط من الفيلق الثالث بحراسته. كما أشار نقش آخر عثر عليه بجميلة -كويكول- إلى وجود سوق للأقمشة في المدينة.

لقد كان سوق المدينة زاخرًا بأعمال التجارة والمقايضة، فالحبوب والزيت والفواكه والخضر المنتجة في الضواحي ومحصول الصيد البحري استحوذت على نصيب الأسد من جملة السلع المتداولة، لكن الأقمشة والأحجار الثمينة والذهب والفضة كان لها سوقها الرائج أيضًا.[٣]

لقد ترك لنا الأسقف أوغسطينوس (Augustinus) شهادات حية وثمينة عن عادات التعامل التجاري بين الناس في مطلع القرن الخامس، وهو إن نقل لنا مشاهداته عن سوق عنابة إلا أنه يصح أن نعمم ذلك النمط من المعاملات على باقي المدن الجزائرية القديمة لتماثل العناصر البشرية التي سكنتها. فهو يتحدث عن سوق تعج بأحداث الحياة اليومية تختلط فيها أصوات العربات بضجيج الباعة، هناك التقى تجار المدينة الرومان المحاطين بزبائنهم بالبدو ذوو البشرة النحاسية الذي قدموا للتمون ومقايضة منتجاتهم من الجلود الأصواف ببضائع المدينة. وأين يختلط العبيد بالمشعوذين والسحرة الذي يقدمون للناس ألعاب التسلية.[٤]

تظهر المعطيات الأثرية وجود علاقات تجارية ربطت عاصمة القيصرية شرشال بجهات أخرى من المقاطعة، منها استيرادها للجزع من محاجر تاكبالت بالقرب من تلمسان، حيث منه صنع بلاط البهو الكبير لحمامات المدينة، ونحت منه تمثال الإلهة ديانا. كما جلبت الرخام الأصفر والأحمر من جبال أوروس الواقعة غرب أرزيو لاستعماله بمبانيها.[٥]

بجميلة (Cuicul) وبتيمقاد تسمح لنا أطلال كل من سوق كوزينيوس (Cosinius) (نسبة للثري الروماني الذي تولى إنشائه) وسرتيوس (Sertius) بتكوين فكرة واضحة عن مسألة تنظيم السوق حول ساحة مبلطة وتحت الأروقة توجد متاجر مختلف التجار، ومن أجل الدخول إلى محله كان التاجر يضطر إلى التزحلق على أطرافه الأربعة تحت لوحة حجرية كانت تمثل واجهة المحل وعليها تعرض السلع. وقرب أحد الطاولات وجدت أرضية بها ١٠ ثقوب أسطوانية أين تم وضع أدوات الوزن. ولا تزال إلى وقتنا

علمية. عالمية. مُحكَمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

الحاضر آثار مكاييل وزن الزيت والخمر والحبوب بادية للعيان، وحيث وجد نصب مهدى لماركير إله التجارة ويظهر عليه تاجر يصب الزيت بمغرفة خاصة لذلك (Cupa Olearia) من جرة كبيرة زوده بها عادة صناع الزيت في جرار صغيرة تمهيدا لبيعها.[٦]

إن صدى مواعظ أوغسطينوس التي كان يلقيها على رعاياه كل يوم أحد تكشف لنا جانبًا سلبيًا مما كان سائدًا من أسواق المدن من تطفيف في الميزان وغش في السلع ومضاربة في الأسعار ومعاملات غير أخلاقية بين التجار والزبائن، فهو يخاطبهم في إحدى المرات مستنكرًا غياب الوازع الديني في معاملاتهم بقوله: "أيها الغشاشون استمعوا إلي وغيروا من طباعكم. يحدث وأن تغشوا في سعر السلع ولا تكتفون بالكذب، بل أنكم تشهدون الرب على ذلك. مما يجعل الناس يشيرون إليكم بقولهم ها هم المسيحيون."[٧]

الأسواق الريفية

علاوة على هذه الأسواق المنصبة داخل المدن كان هناك نوع ثان منتشر في الأرياف و القرى و البوادي ، إذ طالب الأسياد وكبار ملاكي الأراضي بنفس التشريع داخل ضياعهم. لقد تحدث الكاتب الروماني بلينوس الأصغر (Plinus) عن هذه المسألة في رسائله،[٨] فقد أشار إلى أنه كان يتوجب على هؤلاء التوجه بالطلب إلى مجلس الشيوخ من أجل الحصول على رخصة إقامة هذه الأسواق بأملاكهم. فقد كان يتحتم بداية توجيه عريضة تتضمن صراحة موضوع الطلب أي رخصة إقامة السوق: "...... باقليم المزالمة -شمال غرب تبسة- بكازاي سوقًا يجري يومي (٢ و ٢٢) من كل شهر. إن مجلس الشيوخ قد صوت بمنح الرخصة المطلوبة بشرط أن تكزن إقامة هذا السوق لا تضر في شيء مصالح الجيران. وقد سجل التقرير والتداول مباشرةً على سجل مجلس الشيوخ الذي يمكن أن يطلع عليه الأطراف المعنيون. بذلك يكون لوكيليوس أفريكانوس (L.Africanus) قد حصل في سنة ١٣٨ على رخصة لإقامة سوق يومي (٢) و(٢٠) من كل شهر داخل ضيعته".[٩]

كما أشارت نقيشة أخرى إلى إقامة سوق نصف شهري بعين مشيرة من قبل امرأة تدعى أنطونيا ساتورنينا يفتتح ما بين (٨) و(٢٨) من كل شهر.[١٠] وبعين الكرمة وافق الإمبراطور بروبوس(Probus) على فتح سوق شهري بها.[١١] وبالمناطق المحيطة بكيرتا كما هو الحال بتيديس (Tiddis) وبني زياد (Castellum Mastarense) أثبتت النقوش ومعطيات الآثار وجود أسواق قروية.[١٢] إذن ففي كل مكان يمكن القول بأن الرومان أقاموا أسواقًا لا تزال يتردد صداها في أسماء في المدن الجزائرية القديمة.

وهكذا؛ فلا شيء أهمله الرومان حتى يضمنوا لتجارهم أحسن الظروف المادية لتجارتهم ومبادلاتهم، طرق صلبة ومجهزة أحسن تجهيز ومراكز هامة تحت تصرفهم مخصصة للبيع خاصةً المنتجات الزراعية. وأخيرًا موانئ آمنة تسمح لهم بشحن سلعهم بكل أمان. لكن المؤكد أن روما التي عملت كل ما بوسعها لتحسين الظروف المادية، بذلت نفس الجهد في توفير الشروط القانونية لنفس الغرض، لاسيما وأن تحصيل الضرائب والرسوم الجمركية على النشاطات التجارية كان من أول أهدافها.[١٣]

٢/١- أدوات النشاط التجاري:

شبكة الطرق.. ضرورة تجارية

من أجل تسهيل وصول هذه المنتجات إلى الساحل شيد الرومان شبكة من الطرق المعقدة والمتطورة ملائمة جدًا للأغراض التجارية. ربطت هذه الطرق كافة المدن والموانئ في هذه المقاطعات الثلاث، وفي كل موضع تقريبًا كانت تسير بمحاذاة الساحل باستثناء بعض المواقع التي عبرت فيها أراض من أجل تحاشي الانعطاف المطول وغير المجدي، منها مثلاً حين بلوغها عنابة تحولت نوعًا ما وأخذت اتجاه شمالي شرقي – جنوبي غربي من أجل الوصول بطريق مستقيم إلى طبرقة (Thabraca) في مقاطعة البروقنصلية المجاورة، وبنفس المنوال فيما وراء المرسى الكبير إلى غاية طنجة لم تكن سوى مجرد ممر ترابي متواضع، وكانت الحركة التجارية بهذه المنطقة لا تتم سوى عن طريق الملاحة.

انطلق من تبسة (Theveste) طريق طويل بوجهة شمالية غربية مارًا بمختلف المراكز الهامة في تازولت (Lambaese)، وتيمقاد (Thamugade) التي كانت تقع على سفح آخر حصون الأوراس، ثم يصعد قليلاً نحو الشمال ويمر بزراية (Zarai) أين وضع الرومان مركزًا جمركيًا ومنه إلى سطيف. تواجدت المراكز التجارية داخل المنطقة الأكثر خصوبة في التل إذ كانت قليلة التباعد عن الساحل، وكان منفذها متواجدًا على الساحل الشمالي، كذلك كان كل ميناء من هذه الموانئ الكبرى مركزًا لعدد هام من الطرقات التي تسير في العادة على محور شمالي –جنوبي. ربط ميناء سكيكدة بكيرتا العاصمة النوميدية بطريق استعملته هذه الأخيرة كمنفذ على البحر، وبلغ طول هذا الطريق (٤٩) ميل (٧٥) كلم، وأعيد ترميمه مرات عدة في حكم هادريانوس. امتد من جنوب كيرتا إلى غاية لامبيز، وبذلك شهدت كيرتا تدفق منتجات ومواد وفيرة زودتها بها سهول الأوراس الغنية، ولقد أشار الجغرافي سترابو (Strabo) من قبل إلى أنها مدينة محصنة وتتوفر بامتياز على كل الأشياء.

أما من بجاية فقد انطلق طريقان لربط مينائها بمدينة سطيف الهامة، أحدهما سار بمحاذاة الضفة اليسرى لواد الساحل إلى غاية تيكلات. وهناك عبر هذا الوادي ينحدر نحو سطيف عبر مسار جنوبي – شرقي. أما الآخر فقد انطلق من شرق بجاية وسار بموازاة الساحل في بعض النقاط، ثم هبط عند الجنوب الشرقي نحو عين الكبيرة (Satafis) ومنه جنوبًا إلى سطيف. لقد كانت سطيف مركزًا زراعيًا ذا أهمية كبرى، ولقد ظهرت عظمة المدينة التجارية من خلال العديد من الآثار، منها السوق الكبير الذي توافدت عليه حبوب السهول العليا النوميدية والحضنة، إلى جانب جزء من محاصيل وزيوت منطقة القبائل. وبلغت المدينة من الثراء والأهمية التجارية درجة وصفت فيها إحدى النقوش بمستعمرة

ISSN: 2090 – 0449 علمية. عالمية. مُحكمة. ربع سنوية

سطيف العظيمة (Splendissima Colonia Sitifiensis). وكان من آثار هذا الرخاء الاقتصادي أن جعلها الإمبراطور ديوقلديانوس عاصمة لمقاطعة موريطانيا السطيفية المحدثة للضرورة الإدارية والعسكرية.[١٤] وقد شكلت سطيف أيضًا نقطة انطلاق العديد من الطرقات الهامة، اتجه أحدهما نحو الجنوب الغربي باتجاه سور جواب (Rapidum) وصولاً إلى مركز زراعي هام بسور الغزلان (Auzia). هذه المدينة الأخيرة التي كانت أيضًا مركزًا مهما للتجارة ترد إليه قبائل جرجرة بمنتجاتها وقبائل الجنوب بسلعها من الجلود والأصواف وسائر المشتقات الحيوانية. أما الطريق الثاني المنطلق من شرشال (Caesarea) فقد سار باتجاه مليانة (Zuccabar) عابرًا جبال بني مناصر.[١٥]

ومن المدن الموريطانية التي لعبت دورًا مفصليًا في التجارة الداخلية نذكر تاكمبريت (Siga) عاصمة الملك صيفاكس السابقة التي تمكنت بواسطة الطرق التي تربطها بعين تموشنت (Albulae) وتلمسان ومغنية من إقامة علاقات تجارية مع هذه المدن. إضافةً إلى سيدي بلعاتر (Quiza) التي زودت السهول السفلى ونواحي جبال الظهرة والمدن والمواقع العسكرية المحاذية لواد هليل، ومينا، وجديوا، وواد رهيو بشتى أنواع البضائع.[١٦]

إن شبكة الطرقات جعلت عنابة متواصلة مع سهول نوميديا المشهورة بزراعة الحبوب وكذلك مع حقول الزيتون الشاسعة بتبسة. إن كل هذه المحاصيل ساهمت في حركة بناء المخازن الكبرى المذكورة في النقوش. ولقد ارتبطت كافة المراكز التجارية التي ذكرناها فيما بينها بواسطة طريق عرضي شبيه بتلك الطرق التي كانت تصل عادةً بين الموانئ والمدن التلية الداخلية. هذا الطريق القادم من خميسة (Thubursicum Numidarum) بوسط نوميديا صعد شمالاً نحو قالمة (Calama)، ومنها سار غربًا بخط مستقيم تقريبًا مارًا عبر ميلة (Milev)، جميلة (Cuicul)، وسطيف بموريطانيا السطيفية، ثم سور الغزلان، سور جواب، مليانة، عين الدفلى (Oppidum Novum)، غليزان (Mina)، وأخيرًا تلمسان (Pomaria) بغرب موريطانيا القيصرية.[١٧]

لقد كانت الطرق محل اهتمام من السلطة الرومانية باعتبارها شريان التجارة الداخلية، فعلى غرار المقاطعات الأخرى كانت مبلطة ومحل صيانة وعناية مستمرتين، وكل ذلك من أجل تسهيل حركة السكان والبضائع عليها. فمن مسافة لأخرى كانت المحطات مزودة بمشارب للأحمرة والبغال وقطعان الماشية. إلى جانب الفنادق التي كانت تحميها في الجنوب مراكز حصينة تقدم المأوى والخدمات للمسافرين. وقد عثر على أثر هذه البنايات والمشارب ضمن النقوش مثل تلك المحطة (Centenaria) التي رممت من طرف أحد الحكام المحليين، وكانت تقع على الطريق بين سادوري (Ausum) وسطيف. كما عثر على آثار محطتين أخريين إلى الجنوب أحدها بين قصر السبيحي (Gadiaufala)، وعين البرج (Tigisis)، والأخرى بين مروانة (Lamasba)، وزراية (Zarai). ولا داعي للاستغراب فمعروف عن الرومان أنهم لم يتركوا المبادلات التجارية دونما حماية، وحرصوا دومًا على حراسة الطرق التجارية حماية لمصالحهم، لذا فقد أولوا شبكة الطرق عناية خاصة لأهداف مختلفة.[١٨]

إذن فالدور التجاري للطرق الرومانية بهذه البلاد لم يعد محل شك، فبعد استقرار الأوضاع تغيرت أو تطورت اهتمامات السلطة، فالطرق التي استعملت في نقل الجند وعتادهم الحربي، صارت تستغل في إيصال المنتجات إلى مناطق استهلاكها أو تصريفها نحو الموانئ،[١٩] فلا يمكن أن نتصور أن الطريق الرئيسية القادمة من قابس (Tacapae) التونسية والرابطة بين وتبسة وعنابة لم تكن تستخدم إلا في الأغراض العسكرية، خاصةً إذا علمنا أنه كان يخترق منطقة غنية بزراعة الحبوب.[٢٠] وعليه فإن معظم ملتقيات الطرق الرئيسية بنوميديا والموريطانيتين مثل سوق أهراس، قالمة، تيمقاد، تازولت، سطيف، سور الغزلان عين تموشنت وغيرها غدت في نفس الوقت أسواقًا تجارية جهوية كبرى تصب فيها كل منتجات الضياع والأرياف من حبوب، وخمر، وزيت، وإنتاج حيواني.[٢١]

لقد أنشئت العديد من الطرق الداخلية الرابطة بين المدن لتسهيل التبادل التجاري، منها الطريق بين راس الواد (Thamala) وسطيف، وذلك الذي يصل تيمزيون (Lucu) بسيدي علي بن يوب (Kaputtasacura) على مسافة (٨) أميال بأقصى غرب القيصرية، وهي من انجاز فرقة المشاة البانونية الأولى في عهد والي موريطانيا القيصرية بوبليوس إيليوس روغاتوس بريغرينوس (Peregrinus).[٢٢] يضاف إليها طرق مغنية (Numerus Syrorum) . تاكمبريت (Siga) في عهد إيليوس ديكريانوس، تلمسان (Pomaria) . تاكمبريت، أولاد ميمون (Altava) _ سيدي علي بن يوب، سيق (Tasaccura)_ أولاد ميمون، بطيوة (Portus Magnus) _ بلعاتر (Quiza)، المحمدية (Castra Nova) _ حمام بوحنيفية (Aquae Sirenses). وهذه الطرق كلها أنجزت تحت إشراف ولاة وأباطرة مختلفين.[٢٣]

هذا بغرب القيصرية، أما بوسطها وشرقها فنجد سلسلة أخرى من الطرق المهمة التي ضمنت حركة نقل السلع وربطت مدن المقاطعة بهذه النواحي فيما بينها. حيث كانت المراكز الداخلية تدفع عبرها بمنتجاتها الزراعية والحيوانية نحو المدن الساحلية التي كانت بدورها تصرف البضائع المستوردة من البحر والسلع المنتجة في الورشات المدنية إليها. ومن بين أهم هذه الطرق التي لعبت هذا الدور واكتسبت أهمية تجارية نجد طريق سور جواب (Rapidum)_ البرواقية (Thanaramusa Castra)، سطيف_ سورالغزلان (Auzia)، جيجل (Igilgili) _ سطيف، تارمونت (Aras) _ بشيلقا (Zabi)، تارمونت_ سورالغزلان، سطيف_ (Saldae) بجاية، سطيف_جيجل عبر عين الكبيرة (Satafis).[٢٤]

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية | ISSN: 2090 – 0449

وكانت لمدينة سور الغزلان أهمية خاصة، فعلاوة على الطريق الذي أشرنا إليه سابقًا والذي ربطها بسور جواب، انطلقت منها طرق اتخذت اتجاهات مختلفة منها طريق اتجه نحو الشرق عبر جبال ونوغة يربطها بسطيف عبر بلاد مجانة. وكانت بجاية الميناء الرئيسي بشرق القيصرية مرتبط بها بطريق عبر وادي الصومام، ثم الطريق الجنوبي الذي يعد بوابة الصحراء.[٢٥]

استقبلت سطيف بواسطة الطرق دائمًا منتجات السهول العليا السطيفية، وتدفقت منتجات المناطق الداخلية على شرشال عبر الطرق التي تربطها بسور جواب وسور الغزلان. وقد جهزت هذه الطرق بمجموعة من المرافق لتسهيل النشاط التجاري، تمثلت في محطات الاستراحة النهارية (Mutatio) التي يقصدها الموظفون أو الليلية (Mensio) وتعني المأوى أو المبيت وهي موزعة على مسافات متناسبة مع سرعة البريد ومسافة الطريق وتتراوح في الغالب بين (٣٠) و(٤٠) ميلاً رومانيًا (٤٠ - ٦٠كلم)،[٢٦] والتي تتوفر على غرف النمو وإسطبلات الحيوانات ومخازن للسلع. يضاف إليها المخازن الكبرى (Horrea) التي تجمع فيها المحاصيل والسلع قبل نقلها إلى المقاطعة أو الموانئ، كتلك الموجودة بعين الروا وتيكلات.[٢٧]

المخازن:

كانت محل اهتمام كبير من السلطات الرومانية التي كانت تبحث عن كافة الوسائل الممكنة لتوفير احتياطات ضخمة من الحبوب وإنشاء مخزون استراتيجي من القمح لاستباق أي أزمة تموين يكون سببها تردي الأوضاع الأمنية والمناخية مما يحرم روما من المؤن التي تصلها من هذه المقاطعات.[٢٨] لذا فلا نستغرب حين نجد أن إنشاء هذه المخازن العمومية لاسيما على مستوى المراكز الإنتاجية الداخلية والموانئ وإدارتها وصيانتها وحراستها كان موضوع عدد من التشريعات المهمة منذ عهد الإمبراطور كلاوديوس. ويكفي أن نراجع كل البنود المتصلة بها في مدونة قانون ثيودوزيوس (Thédosius) والمواد التشريعية المكملة والمعدلة لها في مدونة قانون جوستنيانوس (Justinianus) للوقوف على وضعيتها.[٢٩]

عُثر في مناطق عدة من نوميديا على آثار مخازن سواء منها المخازن الشعبية أو مخازن مصلحة التموين، منها مخازن سكيكدة[٣٠] التي ذكرت النقوش إنشاءها في عهد الإمبراطورين فالانتنيانوس وفالنس (Valens) من أجل "ضمان أمن الشعب الروماني والمقاطعات."[٣١] وجميلة (Cuicul) التي غطت بقاياها مساحة قدرت بـ (٥٠٠)م² وبلغ ارتفاع ما تبقى من الجدران مترين وسمكها ما بين (0,60) و(0,65)م. وقد صنعت من أدباش صغيرة مشدودة إلى بعضها البعض بواسطة سلاسل أفقية. أما زوايا الجدران فصنعت من أحجار كبيرة الحجم. وزودت هذه المخازن بمكتب الموظف والمسئول على مراقبة وصول المنتجات وتوزيعها. وكانت مخازن جميلة تابعة للبلدية وبنيت بأموال المستعمرة غير أنها وضعت تحت تصرف مصلحة التموين.[٣٢]

وقرب تهوذة (Thabudeos) بأقصى الجنوب النوميدي عثر الطيار والباحث الأثري الفرنسي جان باراديز (J.Baradez) على آثار مخزنين للزيت عند طريق تتجه نحو الجنوب الشرقي انطلاقًا من المدينة، وغير بعيد عنها رصدت العديد من بقايا المعاصر القديمة.[٣٣] أما بالموريطانيتين فنجد مخازن عمومية بسيدي ريهان (Musluvium) قرب بجاية، بتيغزرت (Iomnium)،[٣٤] وبعين زادة على الطريق الرابط بين سطيف وبرج بوعريريج.[٣٥] إلى جانب هذه المخازن العمومية كانت هناك أخرى للخواص يمتلكها كبار الملاك وأصحاب الضياع الكبرى الذي تنتج أراضيهم كميات من المحاصيل تكفي لتموين أسواق المقاطعة ومصلحة التموين المدني.[٣٦]

٣/١- المبادلات التجارية:

التجارة البينية (الداخلية)

إن أهم الأدلة عن التجارة الداخلية فيما بين نوميديا والموريطانيتين هو أحد النقوش المهمة الذي يعود إلى سنة ٢٠٢ ميلادية ويلقي ضوءًا على الرسوم المفروضة على المواد والسلع، ويشتهر بتعريفة زراية (Zarai) نسبة للمدينة التي عُثر عليه بها. إن الموقع الممتاز للمدينة جعل منها مركزًا تجاريًا مهمًا على محورين؛ الأول شرقي غربي على الحدود بين موريطانيا القيصرية ونوميديا. والثاني شمالي جنوبي على مشارف طرق القوافل القادمة من المناطق الجنوبية للأوراس المتوجهة إلى موريطانيا. إن محتوى الوثيقة يزودنا بنظرة جيدة عن نوعية المواد الخاضعة للضريبة ومقدارها، وهي ترتكز في مجموعها على أربعة تشريعات رومانية سابقة ضبطت هذا النوع من الرسوم، وهي قانون كابيتيليس (L.Capitlia) المطبق على العبيد والحيوانات كالأحمرة، البغال، الأبقار، الخيول، الخنازير والماعز. قانون فيكتيس بريغرينا (Victis Peregrina) المتعلق بالأقمشة [العباءة السيناتورية (Apola senatoria)، العباءات (Tunica)، المعطف البربري (Sagum Barbarum)، الملابس الأجنبية والأفريقية. قانون كورياريوس (L.Curiaria) للجلود المدبوغة، المصقولة، الطرية، جلود الماعز والخرفان، الاسفنج، الفراء].

قانون بروتوس (L.Brutia) حول الخمور، التين، الغاروم، البازلاء، التمور، الصمغ. هذه إذن مختلف السلع التي كانت متداولة داخليًا وخاضعة للرسم الجمركي والضريبة المحصلة لكل واحدة منها. إن نظرة فاحصة للأسعار المشار إليها في التعريفة تفضي إلى الاستنتاج بأنه لا توجد أية علاقة ثابتة بين قيمة السلعة والقيمة المالية المفروضة من طرف الجمارك. فعلى سبيل المثال بالنسبة للعبيد فإن الضريبة المحصلة هي في حدود (١٠٠٠/٣) والخيول (٨٠٠/٣) بحيث أن هذه الرسوم تعد جد منخفضة مقارنة بالرسوم المطبقة في مقاطعات الإمبراطورية الأخرى. كما أن النسب الأخرى للتسعيرة تأتي لتبرز لنا بأن الخزينة قد تلاشت صرامتها المعهودة بحيث أن الحيوانات المخصصة للتسويق كانت معفاة من

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

أي رسم، وهي مسألة غير موجودة في مناطق أخرى. فكل شيء يعطي لانطباع بأن هذه التسعيرة خاصة بزراي فقط وربما ببعض المحطات الموجودة مثلها على مشارف طريق القوافل التجارية القادمة من الصحراء والتي كان الهدف منها تشجيع التجارة عبر الصحراء.(٣٧)

إن قرب محطة زراية من المناطق الزراعية يدفعنا للترجيح بأن الخمر المذكور في التعرفة كان يجلب من نوميديا وشمال موريطانيا، أما القار فمصدره المناطق الجبلية.(٣٨) فزراية إذن تعد خير نموذج على الارتباط التجاري بين مختلف المناطق الاقتصادية للمقاطعات الثلاث: الزراعية، الرعوية، الساحلية. كما تعد في الوقت نفسه دليلاً على وجود حركة تجارية بين مناطق تابعة للإمبراطورية الرومانية والمناطق المستقلة عنها، فقد كانت تتلقى البضائع المختلفة مثل الجلود والقماش والحيوانات التي كان يجلبها البدو القادمين من جنوب الحضنة، ويأخذون لقاءها البضائع المصنعة والسلع الكمالية مثل الخمر والغاروم والملابس الأرجوانية والأواني الخزفية.(٣٩) إذ كان شط الحضنة بعيدًا عن سيطرة الرومان في فترة تدوين الوثيقة.(٤٠)

كذلك وجدت محطات أخرى عثر بها علماء الآثار على نقوش تدل على حركة تبادل داخلي بين نوميديا وموريطانيا السطيفية، ففي جيجل أكتشف نقشان يؤكدان أن هذه المنطقة قد احتضنت مكاتب جبائية وذلك للاستفادة من العوائد الجمركية للطريق التجاري المهم الواصل بين تبسة وسطيف مرورًا بقسنطينة. وكانت تازولت مقر الفيلق الثالث الأوغسطي مركزًا لتحصيل الرسوم الجمركية لمرور عدة طرق عبرها يسلكها التجار والقوافل قادمين من أقصى جنوب نوميديا ومتوجهين إلى موريطانيا. ونفس الأمر يقال عن سطيف التي كانت على طريق المبادلات بين مدن غرب القيصرية وجميلة، وسكيكدة، وجيجل بشمال نوميديا.(٤١)

لقد كانت ظروف التجارة بهذه المقاطعات الثلاث ممتازة لحد كبير، فبعد أن كانت هذه البلاد مستودعًا للمنتجات الأجنبية القادمة من مصر واسبانيا وغاليا وبلاد اليونان، صارت تجارتها تضارع في ضخامتها وأهميتها تجارة هذه الأقاليم، فأرضها الخصبة تنتج الحبوب بغزارة وبكميات تفوق الاكتفاء الذاتي لسكانها الأصليين تاركة فائضًا معتبرًا للتصدير، وكانت روما دومًا سوقًا قادرًا على امتصاص ما يفوق هذا الفائض.(٤٢)

التجارة الخارجية:

(أ) الصادرات:

لقد تنوعت الصادرات النوميدية والموريطانية منذ بدأت حركة الإنتاج الزراعي والصناعي في الانتعاش منذ القرن الأول الميلادي، وشملت مختلف المواد المنتجة محليًا، فالقمح والزيت وبدرجة أقل الخمر النوميدي والموريطاني والفواكه المتنوعة (تين، لوز، تفاح، رمان، أجاص)(٤٣) كانت محل تصدير كثيف إلى ايطاليا، ونافست المناطق الأخرى للإمبراطورية. وإذا استندنا للنقوش والشهادات الأدبية التي تحدثت عن التصدير يمكننا الإشارة إلى الصادرات التالية:

القمح:

كان من المحاصيل الأساسية الموجهة للتصدير، حيث كانت مقاطعات بلاد المغرب ومنها نوميديا والموريطانيتين تزود به روما لمدة ثمانية أشهر في السنة، ولأهميته جرى منذ عهد كومودوس (١٨٠-١٩٢) تخصيص أسطول لنقله إلى روما. لقد كانت تصل روما حوالي أربعة ملايين هيكتولتر منه سنويًا، ثم صار يمثل ثلثي الكمية المتداولة في أسواقها.(٤٤) هذا عمومًا، غير أن المشكلة تكمن في أننا لا نستطيع تحديد إسهام مقاطعاتنا الثلاث على وجه الدقة. إلا أن ما يمكن الإشارة إليه هو أن نوميديا على وجه الخصوص كانت منذ عهد الممالك النوميدية من أكبر المصدرين للقمح ليس إلى روما فحسب، ولكن أيضًا لبلاد اليونان وأسواق البحر الأبيض المتوسط الأخرى، ولا يجب أن ننسى الكميات الهائلة التي بعث بها الملك ماسينيسا إلى الرومان أثناء حربهم مع أنطيوكوس الثالث ملك سوريا.(٤٥)

ومعلوم أن إنتاج القمح النوميدي تضاعف كثيرًا منذ السنوات الأولى للاحتلال الروماني بسبب الإصلاح الزراعي والجهود الكبيرة التي بذلها الرومان لتشجيع زراعته، وتوسيع مساحة الأراضي المزروعة به على حساب الكروم منذ القرن الأول لمضاعفة الإنتاج وسد حاجيات عاصمتهم منه.(٤٦) لذا فنحن نعتقد أن الكميات المصدرة من قبل نوميديا كانت تمثل الجزء الأكبر مما كان يصل روما ونفس الكلام يقال عن موريطانيا السطيفية التي كانت سهولها العليا مشهورة بزراعته حتى قبل مجيء الرومان. أما القيصرية فقد كانت مشهورة أكثر بالزراعة الشجرية لاسيما الزيتون لذا يمكن أن يكون تصديرها له أقل. وترجح الباحثة خديجة منصوري أن السلطات الرومانية ربما كانت تحصل على القمح الموريطاني عن طريق شرائه من التجار والمنتجين في حالة عجز الضرائب العينية عن تغطية متطلبات سوقها. وزيادة على الحبوب أبحرت السفن نحو روما محملة بالخضر كالخيار، والبصل، والفواكه كالرمان، والتين، والتين المجفف. لكن معطيات المصادر لا تدلنا إن تم تسويقه خارج أسواق روما باستثناء العنب الذي بيع بأسبانيا.(٤٧)

الزيت:

لقد فضل الرومان دومًا أخذ الضرائب العينية من رعاياهم بدل النقود، وذلك أن سعر المواد الزراعية كان آخذ دائمًا في التضخم. وعدّ الزيت أحد أهم هذه المواد لأن جزءًا منه تستهلكه السوق الداخلية والآخر يذهب للتصدير. كان الزيت المعني بالضريبة السنوية يجمع من طرف السكان ويوصلونه بأنفسهم إلى المخازن الواقعة في ناحيتهم في تاريخ محدد لقاء وصل، ومن ثمة يحول نحو مخازن أكبر تقع على الطرق بها مكاييل ومقاييس لرصد أي غش ضريبي. ومنها يصرف نحو مخازن المدن الداخلية المهمة إذا

علمية. عالمية. مُحكمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

كان موجها لتموين الجيش والسوق المحلية. أو إلى أقرب الموانئ إذا كان جزءًا من الأنونا السنوية الموجهة إلى روما.[٤٨]

كانت حمولة الزيت تصل إلى أرصفة الميناء قادمة من مخازنه بعد أن أودعتها هناك عربات المخازن البلدية التي تلقتها بدورها من عربات الزياتين الذين كانوا يسجلون على الأمفورات المعبأة بالزيت اسم التاجر الذي يملكها ومحتواها ثم اسم صاحب السفينة. هذا الأخير كان عليه أن يصرح أمام المراقب، وإلى المقاطعة أو المدينة بأنه تلقى شحنة الزيت سليمة، ويتأكد الموظفون من أن كمية الزيت قبل الإبحار تكون موزونة، لذا نصادف دومًا توقيعاتهم على الجرار. بعد الإقلاع يتوجب على الربان سلوك أقصر الطرق وعدم التوقف في أي مكان، وإذا حدث وأن أرسى بأحد الموانئ دون سبب موجب يكون جزاءه الموت أو النفي. وحين يصل إلى وجهته يتولى المشرف العام على جهاز التموين (Praefectus Annonae) التحقق من أن كل شيء على ما يرام، حيث تجرى مراقبة ثانية للأمفورات أين يضعون حرف (R) عليها وهو اختصار لكلمة مقبول (Receptum)، أو مراقب (Recognitum) متبوعة أحيانًا بالبيانات التي جرى تسجيلها أول مرة.[٤٩]

بعد التأكد من سلامة البضاعة ووزنها يحرر المشرف العام وصلاً خلال العشرين يومًا التالية، يتوجب على ربان السفينة تسليمه إلى حاكم إفريقيا تحت طائلة المصادرة. هذا إن تمت الأمور بشكل عادي، أما إن حدث مشكل ما للحمولة، أو نقصت فإن المشرف العام ومسؤول المدينة يجريان تحقيقًا ويرسلان الملاح تحت مراقبة موظف من إدارة الأنونا بروما إلى مسؤول الأنونا بإفريقيا لمعاقبته، فمسؤولية أرباب السفن وملاكها كانت ثقيلة وامتيازاتهم في تناقص.[٥٠]

من الموانئ النوميدية والموريطانية التي ثبت تصديرها للزيت إلى روما من خلال فسيفساء ميناء أوستيا والنقوش نجد عنابة، سكيكدة، سيدي ريهان، بجاية عبر تيكلات، تامنتفوست، تيبازة، شرشال، تنس، بطيوة، تاكمبريت.[٥١] لقد كانت السفن النوميدية والموريطانية في مرحلة ما ترسوا بحمولتها بميناء بيتوليا، وحتى بعد إنشاء ميناء أوستيا (Ostia) الذي غدا ميناءً خاصًا للعاصمة روما. ظل الأول وجهة أساسية للسفن التي تحمل الأنونا منها، وظلت مخازنه تستقبل الزيت ثم توجهه نحو ميناء أوستيا. لكن ابتداءً من عهد الإمبراطور هادريانوس (Haddrianus) (١١٧-١٣٨) حولت كل النشاطات التجارية نحو ميناء أوستيا الذي عوض ميناء بيتوليا، هذا الأخير الذي خصص للمبادلات مع الشرق.[٥٢]

وتضمنت فسيفساء وجدت بمقر إدارة الأنونا بميناء أوستيا مناظر توضح جيدًا طريقة دخول السفن المحملة بأمفورات الزيت إلى الميناء، حيث كانت تدخل وتخرج دائمًا من جانبها الأيمن لتجنب الاصطدام مع سفن أخرى. وحين تقترب من الرصيف تطوي أشرعتها للتخفيف من سرعتها وتقترب من أحد المخازن العديدة بالميناء حيث يوجد عمود به اسم الحمولة التي أتت بها. وهناك يتلقاها الحمالون (Sacarii) الذين ينزلونها من السفينة إلى الرصيف في انتظار قدوم العمال المختصين (Caudicarii) في نقلها إلى روما عبر نهر التيبر.[٥٣]

نلاحظ إذن؛ أن حركة سفن نقل الزيت كما بالنسبة للقمح كانت مراقبة جيدًا منذ لحظة إقلاعها وحتى وصولها إلى إيطاليا، وفي كل مكان كان موظفو السلطة الرومانية وأعوانها يشرفون على شحن وتفريغ وتخزين الزيت مما يوحي بحرص الرومان سلطة وتجارًا على السيطرة التامة على تجارته لأهميته المعيشية والاقتصادية.[٥٤]

يبدو من خلال الوثائق الأثرية أن الزيت الموريطاني والنوميدي لم يعد يصدر أو ضعفت الكميات المصدرة إلى روما منذ القرن الثالث الميلادي، إما بسبب زيادة الاستهلاك الداخلي الذي قلصها والراجع إلى الزيادة السكانية السريعة، أو لأن الإمبراطور سبتيميوس سيفيروس ألغى التوزيع المجاني للزيت. وربما كان السبب الفعلي هو منافسة الزيت الأسباني الذي أصبح الطلب عليه أكبر في الأسواق الرومانية، كما يرى بذلك أحد الباحثين، لذا لم يعثر بتستاكيو (Testaccio) على أي أمفورة تحمل علامة ورشات هذه المقاطعات تعود للقرن الثالث.[٥٥]

النبيذ:

علاوة على الزيت يظهر أن موريطانيا من خلال تيكلات صدرت الخمر إلى مروي (Meroe) عاصمة مملكة كوش السودانية، حيث وجد اسم المدينة على أختام الأمفورات في القبر الملكي بها. كما وجدت مادة القطران بداخل أمفورتين من نمط دريسال (٣٠) نقش عليهما اسم (Tubusuctu) أحدهما ببومبليون والأخرى في مرسيليا، هذه المادة تطلى بها عادة أمفورات الخمر والغاروم والسمك المملح، وباستبعاد إنتاج المستوطنة للغاروم (Garum) والسمك يبقى الخمر هو المرجح.[٥٦]

الأمفورات:

تُعّد الأمفورات الموجهة لحفظ السوائل من أهم المواد المصنعة التي اشتهرت موريطانيا القيصرية خاصةً بتصديرها، ففي كل أرجاء المقاطعات الرومانية عثر على العديد منها وبوفرة شديدة كما هو الحال بروما وأوستيا وبمناطق بعيدة مما يؤكد اتساع الشبكة التجارية للموانئ الموريطانية. فقد وجدت بتوريس لبيصونيس بسردينيا تعود لمنتصف القرن الثاني، وبموريطانيا الطنجية أين عثر على أختامها في مدينتي سلا (Sala) وسيدي علي بن جديدي (Thamusida)، وبمروي، وميناء سوسة (Hadrumetum) في إفريقية البروقنصلية، وميناء صبراطه (Sabratha) في مقاطعة طرابلس (Tripolitana)، وإقليم برقة (Cyrenaica)، واسبانيا وميناء الإسكندرية (Alexandria) في مصر.[٥٧]

المعادن:

استغل الرومان معادن هذه البلاد نظرًا لفقر إيطاليا منها باستثناء منطقة توسكانيا، إذ لم يكن السطح الايطالي غنيًا

علمية. عالمية. مُحكَمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

بالمعادن وحتى المناطق المستغلة أهملت في العهد الجمهوري مثلما حدث مع مناجم إتروريا، أوفي بداية العهد الإمبراطوري كما وقع مع مناجم جزيرة ألبا التي كانت غنية بالحديد. لذا فقد عملوا على نقل الثروات المنجمية إلى بلادهم لتقوية الصناعة الإيطالية المتداعية.[٥٨] فمما تم تصديره الجزء المستخرج من منطقة تاكبالت، والغرانيت من مناجم عاروجاود قرب قوراية. والحديد من جراد وسيدي جديدي، إلى جانب النحاس الذي تنتجه مناجم الونزة وبوخندق. والرخام الأصفر من جبال أوروس والأبيض من جبل فلفلة، والرخام النوميدي ذو الجودة والشهرة الواسعة الذي كان يزين أرضيات ومداخل قصور الأباطرة ومنازل ألأثرياء والنبلاء بروما وإيطاليا، على غرار قصر كراسوس.[٥٩] كما عرف الملح المستخرج من البحر ومنطقة الشطوط لاسيما الحضنة تصريفًا سهلاً نحو المناطق الجنوبية، حيث كانت قبائل الجرامنت تزود به سكان هذه الأصقاع مقابل الذهب.[٦٠]

العبيد:

مثل العبيد ثروة بشرية هائلة استخدمت في الأعمال المختلفة وفي منازل وأملاك الخواص. وكانت ثورات القبائل المحلية مصدرًا لا ينضب لهذا الرصيد البشري، إذ كان القادة العسكريون يسمحون بوجود تجار العبيد في المعسكرات التي تعج بأسرى الحروب ليعيدوا بيعهم في أسواق العبيد المحلية.[٦١] وقد اختلف ثمن العبيد باختلاف أشكالهم والأعمال التي يتقنونها، كما أخضعت تجارتهم للرسوم الجمركية حيث كان التجار مجبرين على التصريح بعدد العبيد الذين يرافقونهم ونوعية الأعمال التي يؤدونها في كل مركز جمركي يمرون به، وكانت العقوبة تطال التاجر الذي يخفي معلومات تخص عبدًا من عبيده عند عملية البيع.[٦٢]

الحيوانات:

إن من أهم ما تم تصديره نحو روما والمقاطعات الرومانية الأخرى الأحصنة النوميدية التي طبقت شهرتها الآفاق بسبب الخيالة النوميدية الفعالة في الحروب، مما حمل الرومان على جلبها بأعداد كبيرة لتجهيز فرق الفرسان في جيوشهم بها. كما حرص منظمو ألعاب السيرك بروما خصوصًا على اقتناء الحصان النوميدي لسرعته ورشاقته وسهولة ترويضه لاستعماله في عروض السباقات المقدمة للجمهور.[٦٣] وعرفت الحيوانات البرية أو الوحوش الإفريقية والليبية (Ferae Africanae-Libycae) كما كانت تسمى لدى الرومان وهي الأسود والفهود والنمور والدببة طريقها إلى مدرجات روما،[٦٤] وحتى مدينة قادس الإسبانية وملاعبهما بعد اصطيادها من غابات جنوب القيصرية بأعداد كبيرة. كما أن أصنافًا أخرى انقرضت من هذه الأنحاء بسبب الاستغلال الشديد لها منها النعام والفيلة التي كانت تعج بها بلاد الجيتول.[٦٥]

الخزف:

من الصادرات كذلك نجد الخزف، وإن كانت المعلومات حول تجارته قليلة، غير أنه يمكن القول من خلال هذا القليل أنها بعد استيراده طيلة قرن شرعت في تصدير الخزف الأحمر البرتقالي المعروف بالخزف السيجيلي الإفريقي بعد أن نشطت الورشات الموريطانية في هذا المجال، وكان ذلك منذ سنة (٩٠) أو (١٠٠) ولاسيما في عهد الأباطرة الأنطونيين. والظاهر أنها صدرته إلى غاليا حيث عُثر عليه في مدينتي مرسيليا وفانتميل، وإلى أوستيا الإيطالية.[٦٦]

(ب) الواردات:

تم استيراد العديد من السلع والمنتجات لاسيما في النصف الأول من القرن الأول الميلادي حين لم تكن الصناعة المحلية تسد الحاجات الداخلية خصوصًا في مجال المواد الفخارية والخزفية والمنحوتات والحلي. لقد وجدت في الجزائر (Icosium) مجموعة من الأواني الفخارية الكمبانية والتوسكانية الصنع تعود لما قبل القرن الأول قبل الميلاد وحتى الأول الميلادي، إلى جانب فخار روماني يعود لما بين القرنين الثالث والخامس الميلاديين.[٦٧] عُثر أيضًا في موريطانيا على براميل صنعت بكامبانيا تعود لعهد الإمبراطور أغسطس. واكتشفت في مدينة شرشال مجموعة متنوعة من الخزف المصنوع في مدينة أريزو (Arrezo) الايطالية يرجع تاريخ صنعه إلى نهاية القرن الأول الميلادي.[٦٨] يحتمل أن موريطانيا القيصرية استوردت كذلك الرصاص من إسبانيا والبرونز من غاليا لأن الشواهد المادية المتوفرة لا تسمح بالجزم بذلك، لكن المؤكد أنها استوردت المصابيح من البروقنصلية كتلك التي نقش عليها اسم موريكي التي وجدت بتيبازة.[٦٩]

ومما تم استيراده أيضًا الخزف السيجلي خلال القرن الأول ومطلع القرن الثاني عندما لم تكن الورشات الموريطانية قد شرعت في إنتاجه بعد، وقد جلب من إسبانيا وغاليا وإيطاليا أين كانت صناعته مزدهرة وذات شهرة واسعة في حوض المتوسط، وتدل البقايا المحفوظة في المتاحف أن استيراده كان كثيفًا للحاجة الماسة إليه، وأن أكثر الأنواع المطلوبة ذو اللون البرتقالي الفاتح. وقد عثر في مدن عديدة على أختام ورشات صناعة الخزف الايطالية والغالية والاسبانية منها قطع بأربعة أختام و(١١٦) قطعة بدون ختم بشرشال، وتيبازة التي احتفظت بختم واحد ومزهرية، والجزائر وتامنتفوست، حيث عُثر بكل منهما على ختم واحد، أضف إلى ذلك قطعتين خزفيتين وجدت إحداهما في سيدي بلعاتر والثانية في سطيف.[٧٠]

سرعان ما اختفت الواردات الأجنبية في القطاع الاقتصادي الرئيسي بنشأة صناعة الفخار المحلي، وكانت المبيعات من المصنوعات الإفريقية والمواد الخام (الزيت، الآنية الفخارية، الملابس ذات لصبغة الأرجوانية، الأدوات الزجاجية والخشبية وإنتاج المحاجر مثل الرخام النوميدي)، والتي يجب أن يضاف إليها دون شك القمح والعبيد والأخشاب والحيوانات المتوحشة تفوق بدرجة كبيرة المنتجات المستوردة التي من المحتمل أنها كانت تتكون من سلع مصنعة وبصفة خاصة تلك المصنوعة من المعدن.[٧١]

لقد نجحت نوميديا والموريطانيتين في التحرر من تبعيتها الاقتصادية واستعادت تجارتها الخارجية بعض الأهمية التي كانت لها في العصر البوني. وقد توافرت تسهيلات الموانئ لمسايرة التوسع في الثروات المصدرة من الأراضي الداخلية ولتسليم كميات الحبوب والزيت للشحن إلى ايطاليا. وكانت المعاملات الرئيسية مع ميناء أوستيا الذي كان منفذ روما على البحر، حيث وجد بين مكاتب شركات الملاحة (Scholae) مبنى يخص شركات موريطانيا القيصرية منها سيدي ريهان (Musluvium).(٧٢)

لقد كانت الموانئ النوميدية والسطيفية وغرب القيصرية قريبة نسبيًا من الموانئ الايطالية مما سمح لها بحركة نقل تجارية سريعة لحد كبير بأدنى النفقات والتكاليف، فكان بإمكان السفن القيام بعدة رحلات في أقصر مدة، مع تجنب العواصف البحرية الخطيرة. إن تلك الموانئ المحمية بهذا الكيف أخذت حركة النقل التجاري بها تنمو يومًا بعد يوم باضطراد. وأمام هذه الظروف الملائمة لم يعد التجار في البر كما في البحر يخشون من التحرك على الطرقات المنجزة جيدًا والمحمية بالمراكز العسكرية والمزودة بمحطات الاستراحة الليلية والنهارية.(٧٣)

انتشرت زراعة القمح في نوميديا بكثافة، فقد كان سهل هيبو ريجيوس وفير الحبوب، وإلى ذلك أشار الأسقف أوغسطينوس حينما تحدث عنها قائلاً: "إن كافة هذه السهول كانت خصبة وأنتجت الحنطة بكميات غزيرة". وبنوميديا الغربية زخرت ضواحي كيرتا- قسنطينة بمحاصيل الحبوب، فصارت بذلك هذه المقاطعة من أهم المناطق تصديرًا للحبوب والمتاجرة بها، لذا فلا نستغرب حينما نجد ميناء روسيكادا - سكيكدة يستخدم كمنفذ لكل هذه المقاطعة لتصريف صادراتها من الحبوب.(٧٤)

ثانيًا: النشاط الميناني

٢/١- إسهام الموانئ:

اهتمت السلطات الرومانية بعد إلحاق هذه البلاد بموانئها لأهميتها البالغة فقد كانت حلقة الوصل الأساسية لربطها بهذه الأخيرة، وساهمت كثيرًا في احتلال البلاد وخدمة الأطماع التوسعية للرومان باحتضانها للسفن المحملة بالقوات العسكرية المستقدمة لقمع ثورات أهالي البلاد وإرساء الأساطيل الحربية. ثم استقبال الوافدين الرومان وغيرهم الذين قدموا لاستيطان البلاد وتثبيت الاحتلال الروماني. وقد تفاوتت أهمية الموانئ النوميدية والموريطانية التجارية والملاحية بحسب موقعها وبعدها أو قربها من المقاطعات الرومانية الأخرى ونوعية التجارة التي تمر عبرها.(٧٥)

ميناء عنابة: (Hyppo Regius)

يقع ميناء عنابة (Hyppo Regius) على مخرج سهل واسع جدًا وكان مركزًا للتصدير كبير الأهمية. لقد كان الميناء الرئيسي لهذه المنطقة ومنه تصرف قسنطينة (Cirta) منتجاتها، كما عد أحد الموانئ التي كان المزارعون يأتونها بالقمح المطلوب منهم من روما في إطار الضريبة التموينية السنوية، ولذا فقد اكتشفت بالمدينة مخازن كبرى مخصصة لاحتواء مؤن القمح في انتظار نقلها بحرًا إلى ميناء بيتوليا (Pouzzoles) التي تبين لنا الوثائق علاقاته التجارية مع هذا الميناء الإفريقي.(٧٦) عُرف بالنشاط الكثيف منذ العهد النوميدي، ثم ازدادت وتيرته مع العهد الروماني، فقد وصلت إليه السلع من كل الأنحاء كالخزف الإيطالي خلال القرن الأول الميلادي والخزف الغالي منذ النصف الأول من القرن الثاني الميلادي والمصابيح ذات العنق الملتوي المنتجة بموريطانيا القيصرية التي يعود صنعها من نهاية القرن الثالث إلى غاية الربع الأول من القرن السادس الميلادي المستوردة من شرشال – قيصرية أو من تيبازة. وكان يستقبل كذلك الموانئ المشحونة بالمرمر القادمة من جبال الأبنين الإيطالية في القرن الأول الميلادي. وتشير إحدى النقوش المكتشفة في المدينة والمؤرخة بسنة (١١١) إلى قيام فلافيوس ماكر (F.Macer) وكيل ضياع الإمبراطور تراجانوس (٩٨ - ١١٧) بنواحي المدينة بشراء القمح لشحنه عبر الميناء نحو روما بتكليف من هذا الأخير.(٧٧)

ومثل كافة الموانئ كانت ترسو به سفن الخواص المكلفة بنقل المحاصيل العينية المفروضة كجزء من الضريبة السنوية. وعدا الأوقات التي تكون فيها مسخرة من قبل الدولة يمكنها أن تستأجر لنقل بضائع الخواص. لقد كانوا يتلقون أجرة حسب قيمة المواد (٤ %) من قيمة القمح مثلاً، وبمقابل المخاطر التي كانوا يواجهونها فقد شكلوا قوة مؤثرة مكنتهم من المضاربة بسلع الدولة أو التأخر بالموانئ ونقل التجار الذين لا يؤدون الضرائب سرية. وقد حامت إلى جانبهم حول الميناء ورشات الحرفيين وتعاونيات تضم الغطاسين والقلفاطين ومفرغي الرمل والحمالين، الوحيدون الذين رخص لهم في شحن السفن وتفريغها.(٧٨)

كانت السفن تنطلق من الميناء محملة بالبضائع المختلفة منها الجرار الناقلة للزيت المنتج في معاصر هيبون، وعلى الأرجح من معاصر تيفاش أو تيبازا النوميدية ومداوروش، وحتى من المعاصر الصناعية لمنطقة تبسة مثل بربسغان وقصر تبينات. كما نقلت أيضًا جرار الخمر والأواني الخزفية التي بدأت تنتجها ورشات المدينة بعد سنة ١٠٠ ميلادية. كما أن المصابيح المسيحية القديمة كانت حمولة ثانوية في التجارة البحرية إلى جانب جرار الخمر والزيت التي كانت الحمولة الرئيسية. وعبر الميناء أيضًا صدر الخشب المستعمل في تسخين حمامات عاصمة الإمبراطورية،(٧٩) حيث شكلت غابات البلاد مركزًا صناعيًا نشطًا استوجب استثمارًا نموذجيًا ومتواصلاً من أجل سد حاجات الدولة لصناعة السفن وضمان تموين تدفئة الحمامات.(٨٠)

صدر عن طريقه أيضًا خشب الأرز والمرمر المستخرج من محاجر رأس الحراسة، إضافةً إلى الحيوانات الداجنة مثل ثيران قالمة وخرفان تيمقاد ودجاج نوميديا الذي تواصل تصديره منذ القرن الثاني الميلادي. كما استمر في تصدير الحيوانات البرية المخصصة للسيرك ربما إلى غاية سنة (٥١٩)، حيث تبرز في إحدى فسيفساء

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

الصيد الفهود والنعام والأسود داخل أقفاصها في الميناء تمهيدًا لشحنها إلى ميادين المصارعة في إيطاليا، دون نسيان دببة نوميديا المصطادة من غابات سوق أهراس (Thagaste) والتي ظهرت لأول مرة خلال القرن الثاني الميلادي في ميادين المصارعة لمدينة ألبي الإيطالية.[٨١] عُرف هذا الميناء أيضًا نشاطًا آخر تمثل في الصيد البحري الذي كان قديمًا كما هو حديثًا حرفة ومصدرًا للرزق، إلى جانب اتخاذها هواية للتسلية. فقد تضمنت إحدى الفسيفساء مشهدًا للصيد في خليج هيبون يظهر فيه الصيادون وهم يصطادون المحار الذي يستخرجون منه الأرجوان، كما كانت تتم عبره عملية نقل المسافرين.[٨٢]

ميناء بجاية: (Saldae)

وصفه الجغرافي الإغريقي سترابو (Strabo) قديمًا بالميناء الكبير،[٨٣] ولعب لمستوطنة سطيف وكل المنطقة المجاورة نفس الدور الذي أدته سكيكدة (Rusicade) لصالح قسنطينة. لقد شيد الميناء عند قدم جبل قوراية على المنحدر الغربي لشرم واسع أين تواجد مرسى جيد ومأمن أكيد للسفن في كل الفصول. وهي النقطة الوحيدة من موريطانيا التي لاتزال تقدم ليومنا هذا للسفن شيئًا من الأمن. ونفهم من النصوص بأن المدينة عرفت تطورًا سريعًا بفضل المبادلات التي تمت عبر الميناء مما حدا بأغسطس إلى رفعها لمرتبة المستعمرة حيث ظهر على نقوش القرن الثاني الميلادي وصفها بالرائعة (Splendissima).[٨٤] لكن مما يؤسف له أنه لم تخلف لنا أية بقايا مادية توحي بمخططه العام، وهو سبب عدم تمكن الباحثين من وصفه رغم محاولات بعضهم ذلك.[٨٥]

لقد كانت بجاية محمية جيدًا بفضل حصن تيكلات (Thubusptu) الذي وفر لها الأمن مما ساعد على تشجيع التجارة التي أغدقت عليها ثراءً واسعًا. كما كان لشبكة الطرق العديدة التي ربطتها بالمدن الأخرى دور في ازدهارها، حيث استقبلت أسواقها تين وزيوت منطقة القبائل، والمحاصيل الغنية لسهل مجانة وجزء من سهل سطيف وسور الغزلان (Auzia). كما استقبل ميناؤها البضائع الأجنبية لتصريفها بالمدن الداخلية للمقاطعة،[٨٦] لكن من الباحثين مَنْ يحجم النشاط التجاري للميناء ويجعله موسميًا يقتصر على تصدير زيوت بجاية وتيكلات إلى روما.[٨٧]

ميناء القل: (Collo)

غير بعيد عنه تواجد ميناء القل (Collo) الذي توفر على ورشات صباغة الأرجوان نافست بجودتها أرجوان صور. واكتسى الميناء أهمية متزايدة منذ رفع الإمبراطور أغسطس المدينة إلى مصاف المستعمرة.[٨٨]

ميناء شرشال: (Caesarea)

كثيرون هم الذين ينبهون على الدور التجاري الذي قام به ميناء شرشال إذ اعتبره الباحث جان روجي (J.Rougé) ميناءً له أهمية بساحل موريطانيا وشمال إفريقيا قبل مضيق جبل طارق، ويضعه بعض الباحثين في المرتبة الثانية بعد ميناء عنابة. كما يعتقد فيليب لوفو (Ph.Leveau) أن وجوده في عاصمة المقاطعة هو الذي أكسبه تلك لأهمية، ولم يكن له دور بارز في مجال الاستيراد مستندًا في ذلك إلى الأمفورات الموجودة في متحف شرشال.[٨٩] لقد حجب ميناء شرشال (Caesarea) ميناء هذه المدينة حيث اتخذ موقعًا هاما وزادت أهميته في عهد يوبا الثاني .إن حيوية وعظمة الميناء قد أثبتته العديد من الحفريات والآثار التي اكتشفت بها علاوة على الكتاب الذين تحدثوا عنه. وقد وجدت السفن القادمة بحثًا عن الحبوب، زيوت غرب المتيجة، الحيوانات البرية فيه ملجئا آمنًا ومحميًا على هذا الساحل ذو الشواطئ الصعبة.[٩٠] وحسب فيليب ديولي فقد قلص الباحثون دومًا من مساحة الميناء واتساعه دون أن يأتوا بدليل يؤكد مزاعمهم، وقد أثبتت نقيشة أنه كان محطة مهمة للأسطول الحربي الروماني حيث كان يتسع لثلاثة عشر ليبورنة وهي سفن حربية كبيرة وخفيفة وسريعة جدًا، مما يدل على شساعته.[٩١]

لقد وصف الميناء سنة ١٨٥٧ من قبل أحد المهتمين بقوله: "تحطم الميناء الاصطناعي الذي بناه الرومان بشرشال من جراء العواصف البحرية والزلازل، غير أن بقايا البنايات التي لاتزال قائمة تدل على وجود ميناء أمامي مساحته (٦) هكتارات وحوض في الخلف مساحته هكتار ومتوسط عمقه مترين. والظاهر أن احتواء هذا الميناء على حوضين قد أوحى لبعض المؤرخين بفكرة وجود ميناءين أحدهما عسكري وآخر تجاري، أو بعبارة أخرى أن أحد الحوضين قد استغل لأغراض عسكرية.[٩٢] كان الميناء الأول عبارة عن مقدمة ميناء، مكون من مرسى يمتد شرقًا من الجزيرة الصغرى التي تحدث عنها الأدباء القدامى، إن مقدمة الميناء الواقعة بين أكبر حاجز في الشرق والجزيرة الصغرى في الشرق كانت بذلك محمية من كافة الرياح التي كانت تسود هذا الساحل. إن الحاجزين الذين اكتشفت قاعدتهما قد جعلاه جد آمن ضد العواصف، ومن مقدمة الميناء يبرز رصيف طويل ينفذ حتى الميناء الداخلي، وقد احتل هذا الأخير فيما مضى شيئًا من نفس الموقع الذي يحتله الميناء الحالي، لكنه كان على حسب ما يبدو صغيرًا جدًا نوعًا ما.

لقد كان هذا هو الميناء التجاري الذي أشار روني كانيا (R.Cagnat) إلى أنه شبه مغلق من الجهتين الشمالية الغربية والشمالية الشرقية بواسطة كاسرين، وأكدت عمليات الغطس البحري وجوده شرق الميناء العسكري. وحدد موقعه بين هذا الأخير وبين الرصيف الذي يستند على جزيرة وادي الحمام الكبير، وقدرت مساحته الإجمالية بحوالي (٩) هكتارات، كما يفترض وجود شاطئ صخري بمؤخرته تجر إليه السفن. علاوة على ذلك كشفت التنقيبات عن منارة في الجزيرة وصفها أحد الباحثين قائلاً: "كانت منارة ميناء القيصرية بسيطة مقارنة بمنارة الإسكندرية، إذ هي عبارة عن برج مثمن الأضلاع".[٩٣]

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية | ISSN: 2090 – 0449

ميناء سكيكدة: (Rusicade)

كانت تصله منتجات كيرتا وضواحيها لاسيما الحبوب، إذ عُثر في ضواحيها على عدد معتبر من المخازن خُصصت لجمع هذا المنتوج قبل تصديره إلى ميناء بيتوليا (Pouzzoles) الإيطالي، أين وجد الأثريون مجموعة كبيرة من النقوش تؤكد وجود علاقة تجارية وطيدة بين هذين الميناءين.[٩٤] بعد بجاية نجد سلسلة من الموانئ التي لا يبدو أنها كانت لها نفس الأهمية التجارية والملاحية، منها دلس (Rusuccuru)، تامنتفوست (Rusguniae)، الجزائر (Icosium)، وكان هذا الميناء الأخير متواجد على الموقع الحالي لميناء مدينة الجزائر.

ميناء تيبازة: (Tipasa)

يقع في الجهة الشرقية للمدينة قرب كنيسة الشهيدة صالصا، ويبدو أنه بني بهذا المكان نظرًا لعدم توفر مكان أفضل، فقد كان جد متمركز على مخرج القسم الغربي من سهل متيجة لكنه كان محدودًا بجزر صغيرة وأرض مستوية، كان عمقه يتراوح بين (٤) و(٦) أمتار، ولم يكن لديه مرفأ للنزول بحيث أن الساحل كان رأسيًا في هذا الموضع. ولم يكن متصلاً باليابسة سوى عن طريق مدرج صغير حفر في الصخر، لا يحتوي على أرصفة ويفترض أن البضائع كانت تفرغ غرب الميناء القديم وبالقرب من الميناء الحديث حيث لوحظت بقايا أرصفة محفور في الصخر. وقد عُرف هذا الميناء حركة تجارية نشطة في عهد الأباطرة الأنطونيين والسيفريين، حيث ورد في آلام القديسة صالصا أن العديد من البضائع نقلت إلى هذا الميناء عبر البحر.[٩٥] ووردت إشارة في نصوص أخرى لرسو سفينة غالية لصاحبها ساتورنينوس (Saturninus) في الميناء.[٩٦] لقد كان لميناء تيبازة نوع من الحركة التجارية، وقد جذب إليه جزء من تجارة الضفة الشرقية لوادي الشلف. وكانت البضائع تنزل بعيدًا نحو الغرب في شرم مجاور لقلب المدينة على طول سلسلة من المرافئ التي ما تزال آثارها موجودة.[٩٧]

ميناء بطيوة: (Portus Magnus)

أو الميناء الكبير كما كان يسمى في العهد الروماني، كان يحميه جبل أوروس (قرب أرزيو) من الرياح وبشكل مخبأ طبيعيا للسفن. عُثر فيه على بقايا رصيف بني في نفس الفترة التي بني فيها الميناء. كانت له صلات تجارية وثيقة بالموانئ الإسبانية[٩٨] والغالية، لكن يظهر حسب الباحثين جان لاسوس (J.Lassus) وروجي أن نشاطه كان محدودًا.[٩٩] وقد يكون هذان الباحثان على صواب لاسيما إذا ما أخذنا بعين الاعتبار لقربه من ميناء مرسى الحجاج بنواحي أرزيو الذي كان في القديم مرفأ به رصيفين بني أحدهما بالحجارة غمرته المياه وطول الثاني (١٨) متر وعرضه يتروح بين (٣) و(٨) أمتار لوحظت صخورهما تحت الماء. كما تم التعرف على أسس بنايات المخازن التي كانت قد بنيت على الأرصفة. وقربه من ميناء موروستاقا (Murustaga) بضواحي مستغانم الذي كان معروفًا لدى الرومان في عهد الإمبراطور غاليانوس (Gallianus) واختفى بعد أن ابتلعه البحر مع جزء من الشاطئ إثر الزلزال الذي ضرب المنطقة خلال حكم غاليانوس.[١٠٠]

موانئ أخرى:

إن الموانئ العديدة مثل تنس (Cartennae)، بطيوة (Portus Magnus)، المرسى الكبير (Portus Divini) قرب وهران وغيرها التي أشار الكتاب والوثائق الجغرافية القديمة على غرار بلينوس القديم، بطوليمايوس، رحلة أنطونينوس، إلى وجودها فيما وراء شرشال- قيصرية هي عبارة عن مؤشر لبعض النشاط التجاري بهذه المنطقة. إذ كان بها مستودعات ومخازن من المؤكد أن القبائل المحلية المنتشرة في المناطق الداخلية قد جلبت إليها منتجاتها، وبالتالي فإن البلاد كانت جد مستغلة زراعيًا ومأهولة بالسكان.[١٠١] أما بالنسبة للموانئ المتبقية كميناء الغزوات (Ad Fratres)، زيامة منصورية (Choba)، جيجل (Igilgili) فهي لا تزال مجهولة، إذ كل ما يُعرف عن الأول أنه استقبل سفن التموين، والثاني كان على علاقة بإسبانيا، أما الثالث فيفترض أنه استغل في المجالين الحربي والتجاري. كما أن هناك تضاربًا بين المختصين حول تحديد الأهمية التجارية لبعض الموانئ بالنسبة لبعضها الآخر كما هو حال مينائي جيجل، وسيدي ريهان، وذلك كله بسبب انعدام المعطيات النصية والأثرية.[١٠٢]

٢/٢- السفن التجارية:

كانت العلاقات التجارية البحرية جد متطورة، ونشأت بواسطة سلسلة من السفن التي احتفظت لنا بها عدة لوحات فسيفسائية لعل أهمها فسيفساء ألتيبوروس في تونس التي تضمنت معظم أنواع وأشكال السفن المستخدمة في الملاحة والتجارة من قبل الرومان في كل عموم إفريقيا الرومانية بما فيها نوميديا والموريطانيتين. إذ نميز منها ثلاثون مركبًا بحريًا مختلفًا تبحر بشراع أو بشراعين، بعضها سفن مجهولة التسمية وبعضها الآخر معروف خاصةً بنقل الجرار. وسفن أخرى شراعية وبمجاديف ذات أشكال حادة وتتميز بالسرعة (بروكينيا، أكتياريا، بارو....)، والطراز الوسيط (ميزوبارون كاناسكوبسكيس). إلى جانب القوارب الصغيرة والخفيفة التي تتحرك في مجملها بواسطة المجاديف، قوارب الصيد، وأخيرًا القوارب المسطحة البسيطة التي تجر سفن راتيس وهيباغو إلى داخل الميناء. كما لا نهمل الإشارة إلى فسيفساء تبسة التي تعرض لنا نموذجًا من السفن المتخصصة في نقل الأمفورات، فكل هذه الأنواع المختلفة من السفن تبين لنا مدى عظمة التجارة، وإن الأعمال العديدة التي ذكرناها بشأن بعض الموانئ تبين بأن الرومان لم يهملوا أي شئ من شأنه تحسين الظروف المادية للتجارة ومنها الملاجئ الآمنة للملاحين الرومان والأفارقة، والسفن التي بنوها بكافة الأشكال والمواد التي وفرتها لهم البلاد.[١٠٣]

رغم افتقارنا للدراسات حول السفن التجارية الموريطانية وللشواهد المادية كالتي نصادفها بتونس مثل فسيفساء ألتيبوروس، إلا أننا يمكننا الاستعانة بهذه الأخيرة لأن نماذج السفن التي تبرزها

ISSN: 2090 – 0449 علمية. عالمية. مُحكمة. ربع سنوية

تمثل السفن الموجودة في كل أنحاء العالم الروماني. أضف إلى أن ذلك ارتباط الشكل العام للسفينة بنوعية السلع التي تنقلها قد يؤدي إلى تشابهها.[١٠٤] إن الحد الأدنى لحمولة المراكب المسموح بها والمتعهد بها فيما يخص النقل العام كانت في حدود (١٠٠٠٠) مد روماني (Modius) أو أقل من (١٠٠) وحدة مكيلة، وإننا نعرف جيدًا أن هذه المراكب لم تتوقف لا بميناء بوزولوس ولا بميناء أوستيا لكنها تواصل سيرها إلى روما، مع العلم أنه كان لزامًا عليها التوقف على الأقل بمجموعة منها. أما السفن التي تتعدى حمولتها (٢٦٠) وحدة فكانت الملاحة صعبة عليها.[١٠٥]

كانت هذه السفن في العهد الروماني ملكًا لأرباب السفن (Navicularii) يقومون بنقل السلع التجارية زيادة على نقل المؤن إلى روما كل سنتين، واتخذت السلطة المركزية جملة من الإجراءات لتفادي المشاكل التي قد تتسبب في تأخر وصول المؤن من بينها تحديد ممتلكات أصحاب السفن باعتبارها الضمان الوحيد لعدم تخليهم عن مهامهم وعدم السماح لهم بالتوقف أثناء الرحلة لسبب قوي، ومَنْ يخالف ذلك مصيره النفي أو الموت كما رأينا سابقًا. كما حملتهم مسؤولية سلامة البضائع التي يحملونها، إذ كانوا يقرون قبل الإبحار بأمر مسئولو التموين بتسلم بضائع في حالة جيدة. ورغم ذلك ظلت في مراقبتهم أثناء أداء مهامهم مثلما يتضح من قائمة التجاوزات التي تضمنتها النصوص القانونية كالمضاربة بالبضائع، أو التأخر بالموانئ، وإهمال السفن ونقل التجار لممارسة التجارة وتدخل المتنفذين لمنع سفن أتباعهم من المصادرة.

إن مما ينبغي الإشارة إليه: هو أن انعدام النصوص التشريعية المتعلقة بهذه المقاطعات لا يعني أنها حرمت من الإعفاء الذي استفادت منه تعاونيات أرباب السفن، وهذا نظرًا للدور الذي لعبته لنقل المؤن. وقد تطلبت هذه السفن يدًا عاملة ذات اختصاصات مختلفة من الحمالين لشحن وتفريغ البضائع سواء الذين ينقلون البضائع بحبال الأعمدة الخشبية (Phalangarii)، أو حاملي الأكياس (Sacarii) الذين ينقلونها على أكتافهم من الأرصفة إلى السفن، أو الغطاسين (Urinatores) الذين يبحثون عن البضائع الساقطة من السفن الغارقة ويراقبون المراسي التي تساعد السفينة على الإرساء. زيادة على يد عاملة أخرى يرتبط عملها بالسفينة أكثر من ارتباطه بالنشاط التجاري، من بينهم الدهانين الذين يطلون هيكل السفينة بالشمع حتى لا تتأثر بالماء.[١٠٦]

لقد استعملت تقريبًا كل أنواع السفن في عمليات النقل التجاري البحري كل حسب اختصاصه التجاري، فمن موسكولوس (Musculus)، وستلاتا (Stalata)، وراتيس (Ratis) وهي زوارق الصيد الصغيرة، إلى سفن الملاحة الساحلية المسماة اكتواريوس (Actuarius). إلى البونتو (Ponto)، والهيباغو (Hippago) المخصصة لنقل الخيول، فالكلاديفاتا (Cladivata) التي كانت سفينة شراعية كبيرة تجهل حمولتها. ثم هناك سفينتة كوربيتا (Corbita) الشراعية كذلك الموجهة لنقل الحبوب، وهيباقيناس (Hippaginas) التناظرية التي خُصصت أيضًا لنقل الأحصنة، وذلك بسبب وجود باب جانبي في بدنها يتحول إلى جسر تنزل منه الخيول إلى رصيف الميناء. ويحتمل أن تكون استعملت كذلك في نقل حيوانات السيرك لتشابه الحمولة. وأخيرًا عندنا سفن نقل الأحجار (Lapidarae Naves) التي امتازت بالصلابة والبطء، وقد كانت واسعة الاستعمال في هذه البلاد لأن الرومان كانوا شديدي الإقبال على تصدير حجر البناء المتنوع لاسيما الرخام النوميدي إلى روما لجودته العالية.[١٠٧]

على أنه ينبغي التنبيه على أن السفن لم تكن كلها مخصصة لنقل حمولة معينة، لأن نقل أية بضاعة كان يتماشى مع رغبة مجهز السفينة أو صاحبها. وأحيانًا كانت السفن تصادر زمن الحرب لنقل القوات المحاربة وبخاصةً منذ النصف الثاني من القرن الثالث حين اختفت البحرية الحربية.[١٠٨] ولا شيء يحول دون الاعتقاد بأن السفن النوميدية والموريطانية لم تكن مستثناة من هذا الإجراء العسكري. عرفت سفن وموانئ نوميديا وموريطانيا على غرار باقي مقاطعات الإمبراطورية الأخرى موسمين للإبحار بحوض البحر الأبيض المتوسط، موسم جيد يكون فيه البحر مفتوحًا والملاحة ممكنة حدد بدايته قانون موجه إلى الملاحين الأفارقة صدر في سنة ٣٥٠ بالأول أبريل من كل سنة ونهايته بشهر نوفمبر، أصطلح عليه في المصادر باسم بالبحر المفتوح.[١٠٩]

أما الفصل الثاني فتمنع أو تحدد فيه الملاحة ويعرف بالبحر المغلق (Mare Clausum)، وقد وقع خلاف بين الباحثين في تحديد ما إذا كان الإبحار فيه ممنوعًا أو محددًا، وكذلك في تعيين فترته. لكن ما هو مؤكد هو أنه كان ضروريًا في بعض الظروف الخاصة كضمان وصول البريد والتموين في الوقت المحدد لهما. إذ في سنة (٥١) كادت المجاعة في روما أن تؤدي لمقتل الإمبراطور كلاوديوس، فشجع البحارة على الخروج شتاءً ووعدهم بامتيازات هامة.[١١٠] وعن مدة الإبحار واعتمادًا على النصوص القديمة توصل الباحثون إلى تحديد الفترة الزمنية التي كانت تقطعها السفن الرومانية ومن جملتها النوميدية والموريطانية في البحر حتى تصل إلى وجهتها المحددة لها. وعمومًا نظرًا لقرب سواحل نوميديا وموريطانيا السطيفية من الساحل الإيطالي فإن السفن لم تكن تستغرق كبير وقت للوصول إلى موانئ بوزولوس وأوستيا. وكذلك الحال بالنسبة لسفن موريطانيا القيصرية التي كانت قريبة جدًا من جنوب غاليا وإسبانيا وكانت تغدو وتروح عليهما في أقصر مدة.

٢/٣- الاتحادات المهنية.... دور كبير لكن غامض:

إن التأسيس الرسمي لهذه الاتحادات بهذه المقاطعات الثلاث جاء مبكرًا مع السنوات الأولى للعهد الإمبراطوري الأول، على أننا لن نتطرق في حديثنا هنا سوى عن أقواها وأشدها تأثيرًا في المجال التجاري، ألا وهي جمعيات أرباب أو ملاك السفن (Corpora Naviculariorum). فمنذ عهد كلاوديوس (Claudius)، وتحديدا سنة (51) قدمت امتيازات عدة إلى صُنّاع السفن

علمية. عالمية. مُحكَمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

الخاصة بنقل الحبوب، وتحملت الخزينة العامة الخسائر التي تتكبدها سفن النقل كل ذلك لضمان تموين العاصمة روما. وقد ثبت نيرون (Nero) هذه الامتيازات وزاد عليها حيث قرر أن السفن المعدة لنقل الحبوب لن تخضع لضريبة العشر المفروضة على الملاحين، ولن تكون محل جباية. أما في عهد كومودوس (Commodus) فقد أنشئ أسطول خاص لنقل مساهمة إفريقيا - ومنها نوميديا والموريطانيتين- المقتطعة من موادها الغذائية كمؤونة لروما.(١١١)

لقد كان ملاحو المقاطعات الثلاث منضوين تحت جمعية أرباب السفن المشار إليها آنفًا الخاضعة لإشراف الدولة، وعلاوة على التزاماتهم اتجاهها والمتمثلة في نقل المساهمة الضريبية لمقاطعاتهم، وضمان تسديد التجار وملاك الضياع المحاذية للساحل لضريبة العشر التي وفرت موارد قارة وكافية لضمان خدمات النقل. كانت لهم واجبات شخصية ومسؤوليات مالية منها تزويد الدولة بمواد البناء، والتكفل ببناء السفن وتجهيزها وإصلاحها، وتجنيد العمال وأطقم السفن بمال جمعيتهم الخاص. وأخيرًا لزم على كل فرد من أعضاء الجمعية تباعًا وحسب الدور مرافقة سفن الأنونا شخصيًا، وقبل كل رحلة استوجب على كل منهم وتحت إشراف حاكم المقاطعة تقديم تصريح عن الكمية والنوعية للسلع المشحونة.(١١٢)

احتوى ميناء أوستيا على مبنى كان يُعّد مقرًا لمختلف جمعيات أرباب السفن الأفارقة، إذ تضمن عدة وكالات (Stationes) علق في كل واحدة منها شعار على شكل لوحة فسيفسائية ونقوش خاص بكل مقاطعة تربطها علاقة تجارية في المدينة. منها موريطانيا القيصرية التي مثلت بنخلتين تتوسطهما أمفورة، وسيدي ربهان تظهر سفينة ترافقهما سمكتين ودلفين وصورة لرأس امرأتين إحداهما تضع حول عنقها حلقة من السنابل مما يوحي بأن موسلوفيوم كانت مصدرًا للقمح.(١١٣) وعلى غرار الملاحين وجدت جمعيات أخرى مرتبطة بالدولة للخبازين والجزارين وكافة المهن، إذ عُثر في سطيف على نقيشة تؤكد وجود اتحاد للخبازين بها، وأخرى تشير لاتحاد للجزارين، وأصحاب الحانات، وتجار الدواجن بشرشال.(١١٤)

نصادف كذلك في سطيف، شرشال، قسنطينة، تيمقاد، سكيكدة، وتازولت جمعيات تضم صُنّاع الخشب أو بنائي السفن، وتجار الخضر والعطور، وتجار الجلود بالجملة، وتجار العلف والأثاث، دون أن ننسى صُنّاع الزجاج والمجوهرات بشرشال أيضًا.(١١٥) إن اتحادات التجار والحرفيين كما رأينا وإن لم تكن كثيرة لها أهميتها الاقتصادية ودورها في الحركة التجارية. ويجب أن نضيف إليها تجار الجملة لاسيما المشتغلين بالتجارة الخارجية وذوي الاختصاص التجاري في بعض السلع والخدمات، منهم كايكليوس من قسنطينة - كيرتا الذي تشير نقيشته الجنزية إلى أنه كان تاجر جملة في الأقمشة (Vestiarius) في المدينة.(١١٦) كما نعلم أيضًا بوجود تاجر جملة آخر بميناء روسيكادا - سكيكدة. على أنه يجب التنبيه على أن كل هؤلاء التجار لم يكونوا مستقلين تمامًا عن السلطات، فقد كانوا خاضعين للعديد من الرسوم والضرائب منها ضريبة على المهنة بحد ذاتها.(١١٧)

خاتمة

يقودنا هذا العرض المفصل لأبرز ملامح النشاط التجاري والمينائي الذي عرفته الجزائر القديمة خلال عهد السيطرة الرومانية لاسيما منذ نهاية القرن الثاني والثالث الميلاديين إلى عدد من النتائج نعرضها فيما يلي:

- توافر مجموعة من العوامل ساهمت في إعادة بعث النشاط التجاري الداخلي وإحياء المراكز التجارية في الحواضر الملكية القديمة، كالاستقرار الأمني النسبي، وفرة مواد التبادل التجاري كالمحاصيل الزراعية والغذائية، الخامات المعدنية، المواد المحجرية كالرخام والجزع، المواد المصنعة وغيرها.
- استعادة الجزائر القديمة لمكانتها الريادية في مجال التجارة التجارية التي كانت لها خلال العهد النوميدي لاسيما في مجال تسويق الحبوب في أسواق البحر الأبيض المتوسط بفضل توسطها للمقاطعات الغربية للإمبراطورية، هذه المكانة التي عطلها وأوقفها الغزو الروماني وما ترتب عنه.
- نجاعة سياسة تحرير التجارة، وعدم التدخل في حركة السوق وتسقيف الأسعار، وتوجيه المبادلات المنتهجة من قبل السلطات الرومانية باستثناء الرقابة المباشرة على الأسواق من أجل منع المضاربة والاحتكار، وقمع الغش في السلع والأسعار، وتنظيم المعاملات، وتحصيل الضرائب والرسوم الجمركية المستحقة لفائدة الخزينة الامبراطورية.
- تزايد دور المواصلات البرية والبحرية في تنشيط العمل التجاري لاسيما في ضوء التسهيلات والإعفاءات الممنوحة لأرباب السفن.
- تحول الجزائر القديمة إلى قطب مُصدر لكل أنواع السلع التي غزت أسواق إسبانيا وإيطاليا وغاليا وبلاد اليونان، بعد أن كانت قبل القرن الثاني مجرد مستهلك كبير لبضائع هذه الأخيرة خاصةً في المصنوعات الفاخرة.
- بروز الدور المحوري للأسواق الداخلية الحضرية أو الريفية في ربط الصلة التجارية بين المقاطعات الثلاث، وإحداث نوع من تكامل اقتصادي بينها بفضل تدفق السلع المختلفة وسدها للعجز في مواد معينة لدى كل مقاطعة منها.

الهوامش:

(١) عبد القادر محجوبي: **العصر الروماني بشمال إفريقيا، في تاريخ إفريقيا العام**، الجزء الأول حضارات إفريقيا القديمة، إشراف كي زيربو، اليونسكو، ١٩٨١، ص٥٠٠.
(2) Lecoq (A.), *Le commerce de l'Afrique romaine*, Paris, Cerense, 1991,p. 33.
(3) Hamman(A.G), *La vie quotidienne en Afrique au temps de saint Augustin*, Paris,1976, p46.
(4) Ibid., p46.
(٥) خديجة منصوري، **التطورات الاقتصادية بموريطانيا القيصرية خلال العهد الإمبراطوري الأول**، رسالة دكتوراه بإشراف الدكتور محمد البشير شنيتي، معهد التاريخ، جامعة وهران، ١٩٩٦، ص٢٥١.
(6) Gsell (St.), *Cherchel .antique Iol-Caesarea*, Alger ,rééd de 1952, p.23.
(7) Ibid., p.47.
(8) Pline le jeune, Epistulae.,V,4.
(9) Schmidt (J), Cagnat (R), *Corpus inscriptionum latinarum supplementum*, VIII, I-II., Berlin,1891-1894=C.I.L.VIII.,11451;Merlin (A.), C.R.A.I, 1906, p.449 - 450.
(10) C.I.L.VIII., 8280.
(11) Toutain(J), «*Séance de la commission de l'Afrique du nord*», B.A.C., 1903, p.CCXI.
(12) C.I.L.VIII.,6357; B.A.C.,1941-42, pp.156-158.
(13) Lecoq (A.),Op.cit.,p.35.
(14) Ibid., pp.28-32.
(١٥) خديجة منصوري، المرجع السابق، ص٢٥١.
(16) Ruffer (J.),"*Etude sur les établissements romains du bas Chélif et de Mina, de l'oued-Hillil et de l'oued el Abd*", B.S.G.A.O,XXVII,1907, p.317.
(17) Lecoq (A.), Op.Cit., p.32.
(١٨) دنيز بولم: **الحضارات الإفريقية**، تعريب نسيم نصر، ط٣، بيروت – باريس، منشورات عويدات، ١٩٨٨، ص٥٣.
(19) Salama (P.), *Les voies romaines de l'Afrique du nord*, Alger, 1951, p.39.
(20) Armand (L.), *l'occident romain*, Paris, 1960, p.410.
(21) Salama (P.), Op.cit., p.47.
(22) C.I.L.VIII., 22611.
(23) C.I.L.VIII., 22618; 22591; 22593; 22628; 10461; 10469; 10470; I.R.A, 3801- 3802.
(24) C.I.L.VIII.10433; 10435; 22596; 10361; 10364; 10351; I.R.A., 3751; AE., 1894,123 = 22618; 1954, 143a; 1981, 922.
(٢٥) محمد البشير شنيتي: **الجزائر في ظل الاحتلال الروماني**. بحث في منظومة التحكم العسكري (الليمس الموريطاني) ومقاومة المور، الجزء١، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، ١٩٩٩، ص٢٠٥.
(٢٦) محمد البشير شنيتي، **أضواء على تاريخ الجزائر القديم**، دار الحكمة، الجزائر، ٢٠٠٣، ص١٢٩.
(27) Toutain(J.), *L'économie antique*, Paris, La renaissance du livre,1927, p.30.
(28) Lacroix (F.), "*L'Afrique romaine .produits végétaux procédés agricoles*", R.Af, 12, 1868, p.112.
(29) Cod.Theod., I,11,14; Cod.Just., XV,1,12.
(30) Cagnat (R.), *L'armée romaine d'Afrique et l'occupation militaire sous les empereurs*, Paris, 1892, pp.381-382.
(31) C.I.L.VIII., 19852.: "*ad securitatem populi romani pariter atque provincialium*".
(32) Allais (Y.),"*Les greniers publiques de Djemilla (Cuicul)*", R.Af, 1933, p.260.
(33) Baradez (J.), *Fossatum Africae. Recherches aériennes sur l'organisation des confins sahariens à l'époque romaine*, Paris, Arts et Métiers graphiques, 1949, p.203.
(34) Leglay (M.), "*L'archéologie algérienne en 1953*", Libyca, A/E, II, 1954, p 278.
(35) C.I.L.VIII., 8425.
(36) Camps-Fabrer (H.), *L'olivier et l'huile dans l'Afrique romaine*, Alger, Imprimerie officielle,1953, p71.
(37) Lecoq (A.), Op.cit., p44.
(38) Dermon (J-P.),"*Note sur le tarif de Zarai*",C.T,n°47-48, 1964, p.7.
(39) Dermon (J-P.), art.cit., p.20.
(40) Delaet (D.), *Le Portorium. Etude sur l'organisation douanière chez les romains surtout à l'époque du haut empire*, Brugge, 1949, p. 431.
(41) Delaet (D.), art.cit., p.259.
(42) Lecoq (A.), Op.Cit, p.45.
(43) Hugoniot(Ch.), *Rome en Afrique de la chute de Carthage à la conquête Arabe*, Tours, Flammarion, 2000, p.118.
(44) Picard(G-Ch.), "*Neron et le blé d'Afrique*", C.T, 22-23, 2è semestre,1956, pp.165-166.
(45) Tite live, *Histoire romaine*.,XXXVI,4.
(46) Lacroix (F.), Art.Cit., p.113.
(٤٧) خديجة منصوري، المرجع السابق، ص ٢٧٢.
(48) Camps-Fabrer (H.), Op.Cit.,p.70.
(49) Cagnat (R.), *L'annone d'Afrique*, Académie des Inscriptions et Belles-Lettres, Paris,1916, p.40.
(50) Camps-Fabrer (H.), Op.Cit., p.75.
(51) C.I.L.,VIII., p.913: "*NavicularìMusluvitani*, HippoRegienses, Rusicadensium, Tipasenses.
(52) Camps-Fabrer (H.), Op.Cit., p.79.
(53) DeVillefosse (H.),"*La mosaïque des Narbonnais à Ostie*", B.A.C,1918, pp. 246 - 273.
(54) Camps-Fabrer (H.), Op.Cit., p.81.
(55) Etienne (R.), "*Les amphores de Testaccio au IIIesiècle*", M.E.F.R, 66, 1949, p.163.
(٥٦) خديجة منصوري، المرجع السابق، ص٢٧٣.
(٥٧) نفسه، ص ٢٧٨ - ٢٨٠، ص٣٣٣.
(58) Toutain (J.), Op.Cit., p.33.
(٥٩) آسيا مسعودي، **التبادل التجاري بين إيطاليا وبلاد المغرب القديم خلال العهد الإمبراطوري الأول (القرن الأول والثالث)**. رسالة ماجستير في تاريخ بلاد المغرب القديم، إشراف محمد البشير شنيتي، جامعة الجزائر، السنة الجامعية ١٩٨٧/١٩٨٨، ص٣٤ - ٣٦.
(60) Worth(Ch.), *Les routes et le trafic commercial dans l'empire romain*, Paris, 1938, p.145.
(61) Glotz, 1, P.U.F, 1932, p.398.
(٦٢) آسيا مسعودي، المرجع السابق، ص٤٣.
(63) Tissot (Ch.), *Géographie comparée de l'Afrique romaine*, 1, Paris, Imprimerie nationale,1884, pp. 369 - 370.
(64) Strabo, *Geographia*, XVII, III, 4.Traduction d' Amedée Tardien, Paris, Hachette,1880.
(65) Tissot (Ch.), Op.Cit., p.379.
(٦٦) خديجة منصوري، المرجع السابق، ص٢٨٢.
(67) Le Glay (M.),"*A la recherche d' Icosium*", Ant.Afr, 2, 1968, p.14.
(68) Hatt (J-J),"*Importations Gallo-Romaines à Cherchel*", Libyca, A/E,7, 2èmesemestre,1960, p.113.
(69) Carton (L.), "*Les fabriques de lampes dans l'ancienne Afrique*", B.S.G.A.O, 36, 1916, p.78.

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

(٧٠) خديجة منصوري، المرجع السابق، ص٢٦٩.

(٧١) عبد القادر محجوبي، المرجع نفسه، ص٤٩٨.

(٧٢) المرجع نفسه، ص ٤٩٨.

(73) Lecoq (A.), Op.Cit, p.46.

(74) Ibid., p.48.

(٧٥) خديجة منصوري، ص٣٢٦.

(76) Lecoq (A.), Op.Cit, p.26.

(77) Mansouri (Kh), *Réflexions sur les activités portuaires d'Hippo Regius (Hippone-Annaba) pendant l"antiquité* .Africa romana, Sasasri 7- 10 dicembre 2000, p.517.

(78) Hamman (A.G),Op.Cit, pp. 43- 44.

(٧٩) حارش محمد الهادي، **التاريخ المغاربي القديم**، ص٩٧.

(80) Mansouri (Kh),Op.Cit, p.518.

(81) Ibid, p.519.

(٨٢) آسيا مسعودي، المرجع السابق، ص١٣٣- ١٣٤.

(83) Strabo, *Geographia*, XVII,III,12.

(84) Lecoq (A.), Op.Cit, p.27.

(٨٥) خديجة منصوري، المرجع السابق، ص ٣٣٠.

(86) Lecoq (A.),Op.Cit, p.27.

(87) Rougé (J), Picard (G-Ch.) ,*Textes et documents relatifs à la vie économique et sociale* dans l'empire romain 31 av.J.C-225 ap .J.C , Paris, 1969, p.181.

(88) Lecoq (A.), Op.cit., p.26.

(٨٩) خديجة منصوري، المرجع السابق، ص٣٢٨.

(90) Lecoq (A.), Op.cit., p.27.

(91) Diolé (P), Le port de Cherchel. Promenades d'archéologie sous-marine, *éditions Albin Michel, Paris,1952, p.273.*

(٩٢) خديجة منصوري، المرجع السابق، ص٣٢٧.

(٩٣) المرجع نفسه، ص٣٢٨.

(94) C.I.L.VIII.,7959.

(95) *Gsell* (St.), "*Tipasa ville de Maurétanie Césarienne*", M.E.F.R, 14, 1894, p. 304.

(٩٦) خديجة منصوري، المرجع السابق، ص٣٣١.

(97) Lecoq (A.), Op.Cit, p.27.

(98) *Vincent* (M), "*Vase ibérique du Cimetière Est de Portus Magnus St-Leu (Dépt d'Oran)*". Libyca .A-E, 1, 1953, pp. 13-22.

(99) Lecoq (A.),Op.Cit, pp.27 - 28.

(١٠٠) خديجة منصوري، المرجع السابق، ص٣٣٢.

(101) Lecoq (A.), Op.Cit, p.27.

(١٠٢) خديجة منصوري، المرجع السابق، ص٣٣٣.

(103) Lecoq (A.), Op.Cit, p.28.

(١٠٤) خديجة منصوري، المرجع السابق، ص٣٣٤.

(105) Lecoq (A.), Op.Cit, p.35.

(١٠٦) خديجة منصوري، المرجع السابق، ص ٣٣٧ - ٣٣٩.

(١٠٧) آسيا مسعودي، المرجع السابق، ص٨٣ - ٨٥.

(١٠٨) خديجة منصوري، المرجع السابق، ص٨٦.

(109) Cod.Theod., 19,3.

(١١٠) آسيا مسعودي، المرجع السابق، ص٩٠ - ٩١.

(111) Waltzing (J.), *Etude sur les corporations professionnelles chez les Romains depuis les origines jusqu'à la chute de l'empire d'occident*, II, 1896, p.50.

(112) Lecoq (A.), Op.Cit, p.39.

(113) Camps-Fabrer (H.), Op.Cit., p.81.

(114) Lecoq (A.), Op.Cit, p.40.

(115) Fantar (M.), Decret (F.), *L'Afrique du nord dans* l'antiquité. *Histoire et civilisation des origines au Ve siècle*, Paris, Editions Payot et Rivages, 1998, p.219.

(116) Vars, "*Inscriptions de Constantine*", R.S.A.C, 33, 1899, p.34, n°216.; I.L.Alg.I ,816: "*Marcus Caius Julius vestiarius*".

(117) Lecoq (A.), Op.cit., p.41

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449



الروابط التجارية بين شمال وجنوب الصحراء الكبرى من خلال المصادر العربية والرحالة الأوربيين بين القرنين (١٥ – ١٩م)



عطية عبد الكامل

أستاذ مساعد الدراسات الإفريقية
قسم التاريخ – جامعة الوادي
الجمهورية الجزائرية

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

عطية عبد الكامل، الروابط التجارية بين شمال وجنوب الصحراء الكبرى من خلال المصادر العربية والرحالة الأوربيين بين القرنين (١٥ – ١٩م).- دورية كان التاريخية.- العدد الثالث والعشرون؛ مارس ٢٠١٤. ص ٥١ – ٦١.

www.kanhistorique.org

كان التاريخية: رقمية الموطن .. عربية الهوية .. عالمية الأداء

مُلَخَّصْ

لعبت الصحراء الإفريقية الكبرى في تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء ما لم يلعبه المحيط الأطلسي، من الأدوار الحضارية الهامة فقد كانت مسارب الصحراء إلى غرب إفريقيا خلال العصر الوسيط وبداية العصر الحديث بمثابة مسالك تعبر من خلالها حضارة البحر الأبيض المتوسط والحضارة الإسلامية بعد ذلك إلى إفريقيا جنوب الصحراء عمومًا وإفريقيا الغربية بصورة أخص، والحقيقة أن الحواضر السودانية كانت على اتصال مستمر مع الحواضر الشمالية ولم تكن الصحراء عائق يحول الاتصال بين الفضائين وكانت حركة القوافل التجارية المحملة بمختلف البضائع القادمة من الشمال مظهرًا من مظاهر هذا التواصل، فقد شهدت المنطقتين بروز مراكز تجارية تعدت شهرتها حدود المنطقة منها مثلاً: تمبكتو، غاو، جني، تادمكة، توات، ورجلان...الخ. وقد بلغت حركة القوافل التجارية أوج قوتها على أيام الأسقيين وحافظت حكومتهم على التقليد السوداني القديم منذ أيام مملكة غانا في توفير الأمن والاحتفاء بالتجار، ورغم أن بعض المسالك شهدت بعض الاضطرابات، إلا أن ذلك لم يوقف مرور حركة القوافل التجارية القادمة من الشمال إلى أسواق الجنوب محملة بمختلف المنتجات المتوسطية ليتم مقايضتها بالسلع السودانية، ورافق هذه الحركة انتشار الإسلام والثقافة العربية الإسلامية في المنطقة فيما بعد بفضل جهود التجار والدعاة وأصحاب الطرق الصوفية.

مُقَدِّمَة

لعبت الصحراء الإفريقية الكبرى في تاريخ إفريقيا الشمالية والغربية ما لم يلعبه المحيط الأطلسي، من الأدوار الحضارية العامة ،فقد كانت مسارب الصحراء إلى السودان الغربي خلال العصر الوسيط بمثابة مسالك تعبر من خلالها حضارة البحر الأبيض المتوسط، والحضارة الإسلامية بعد ذلك إلى السودان الغربي، وقد استمر ذلك خلال فترة طويلة من العصور الحديثة.[١] وفي خضم عملية التبادل التجاري بين سكان الصحراء، وجنوبها ظهرت مراكز تجارية مشهورة عَرفت ارتباطًا وثيقًا بالأمصار الكبرى واتصلت بطرق التجارة العالمية البرية، والبحرية، فكانت صلات هذه المراكز التجارية بموانئ سواحل البحر الأبيض المتوسط، والبحر الأحمر والمحيط الهندي.[٢]

أولاً: أهم المراكز التجارية شمال وجنوب الصحراء الكبرى

١/١- المراكز الشمالية:

غدامس: أحد المراكز التجارية الهامة في حياة التجارة بين الشمال الإفريقي والجنوب، تقع جنوب غرب مدينة طرابلس الليبية.[٣] قال عنها الحسن الوزان: "أنها منطقة كبيرة مسكونة، حيث القصور العديدة، والقرى المأهولة، على بعد نحو ثلاثمائة ميل من البحر المتوسط، سكانها أغنياء لهم بساتين نخل وأموال لأنهم يتجرون مع بلاد السودان".[٤] ترتبط غدامس تجاريًا بمدينة

علمية. عالمية. مُحكمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

تمبكتو، وغاو، وجني، واقادز، وتادمكة، ومع قرى سودانية أخرى، فصارت محطة مهمة في بداية الطريق عبر المنطقة الوسطى من الصحراء الكبرى إلى السودان الغربي، الحي الغدامسي في مدينة تنبكت من أرقى الأحياء- دلالة على التجار الغدامسين-.[٥] نشطت القوافل التجارية الغدامسية خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي، وربطت أسواق السودان الأوسط بميناء طرابلس، ومن أهم هذه الأسواق نذكر: (كوكة، دكوة، زندر، أنقورنو، كانو، وسوكوتو، وكاتسينا) وتمتد هذه العلاقة التجارية من كانو نحو الشمال في اتجاه طرابلس عبر غات، ومرزوق وغدامس.[٦]

فزان: مجموعة من الواحات النخيل تقع في الصحراء الليبية، كانت أحد أهم المحطات التجارية، التي يتوقف عندها التجار للراحة، وتبادل البضائع القادمة من أسواق السودان إلى المراكز الشمالية، كطرابلس، زويلة، مصر، فجل منتجات البحر الأبيض المتوسط، والشمال الإفريقي من سلع، ومواد زراعية، كانت ترسل إلى السودان عبر فزان، يمر بها الطريق التجاري الرابط بين مصر وتمبكتو وذلك عن طريق أوجلة، وجالو، وغات يقول عنها الحسن الوزان: "منطقة كبيرة جدا مسكونة فيها قصور عظيمة، وقرى كبيرة، كلها عامرة بناس أغنياء يملكون النخيل والأموال، ويجاورون كل من أقدز وصحراء ليبيا المتاخمة لمصر".[٧]

لقد سهل هذا الإقليم على القوافل التجارية عملية الاتصال والتبادل التجاري، وأحكم الصلة بين الرحلات الوافدة من الشمال إلى الجنوب، كما قام سكان واحات هذا الإقليم بدور إيجابي في استقبال القوافل، وإرشادها عند المغادرة، وتوفير حاجاتها من المياه وغيرها من الخدمات الضرورية.[٨]

ورجلان: تشتهر بكثرة النخيل والعبيد وهي من المحطات التجارية الهامة في الجنوب الشرقي الجزائري حاليًا، تتميز بوفرة مياها الباطنية، والتي تتدفق بكميات كبيرة عند حفرها- تم استغلال هذه المياه في سقي القوافل المارة بالمنطقة كالقوافل التجارية القادمة من القيروان والجنوب التونسي اتجاه المراكز السودانية-.[٩] اكتسبت ورجلان شهرتها الكبيرة لارتباطاتها التجارية الواسعة، وكونها المركز التجاري الأول لتجارة الرستميين، قال عنها الحسن الوزان: "مدينة أزلية بناها النوميديون في صحراء نوميدية، لها صور من الأجر البني ودور جميلة، وحولها نخيل كثير، ويوجد في ضواحيها عدة قصور وعدد لا يحصى من القرى، الصناع فيها كثيرون، وسكانها أغنياء جدا لأنهم في اتصال مع مملكة أقدز منهم عدد كبير من التجار الأجانب الغرباء عن البلد، يحملون لها منتجات بلاد البربر ويستبدلونها بما يأتي به التجار من بلاد السودان".[١٠] وازدادت أهمية هذا المركز التجاري الصحراوي بعد سقوط أدغست[١١] على يد المرابطين.[١٢] وكانت أهم المنتجات التي تحملها القوافل المنطلقة من ورجلان إلى بلاد السودان الغربي هي الأكسية القطنية، والكتانية، وثياب الصوف، والعمائم والمآزر، وأصناف من الزجاج، كخرز الزجاج الأزرق، والأصداف، والأحجار وأنواع الأفاويه، والعطر المأخوذ من عقد خشب الصنوبر كما تحمل هذه القوافل النحاس الأحمر، والملون، ومنتجاته من الأساور، والخواتم، والحلق، وأيضًا آلات الحديد المصنوع، والفخار، والخزف ذي البريق المعدني والملح.[١٣] وكانت هذه القوافل تعود محملة من السودان بالذهب الخام والعاج، وريش النعام، وجلود الحيوانات، وقد تخصص أهل ورجلان في قيادة هذه القوافل التجارية، فكان منهم الأدلاء ذوي الخبرة بالطرق الصحراوية في بلاد السودان الغربي.[١٤]

توات: تعتبر توات من المراكز الصحراوية الهامة، فموقعها كواحة وسط الصحراء جعلها حلقة وصل بين مراكز الشمال الإفريقي، وبين السودان الغربي؛ حيث عملت على تزويد التجار بما يلزمهم من غذاء وماء، وغالبًا ما يقوم تجار السودان وتجار الشمال الإفريقي بعرض بضاعتهم بها.[١٥] كان يوجد بواحات توات،[١٦] عدة ممالك وإمارات صحراوية صغيرة، يسيطر عليها التجار الأثرياء، وذوو الجاه، والنفوذ الديني، والاقتصادي، ويهتم سكانها بتجارة القوافل، التي تمر على واحاتهم ذهابًا، وإيابًا، بين السودان الغربي، وبلاد المغرب.[١٧] وقد كان اليهود يشكلون المحرك الأساسي لتجارة إقليم توات، فقد مارسوا إلى جانب التجارة صياغة الحلي، وسك النقود، ولعبوا أدوارًا مهمة كوسطاء تجاريين، إذ كانوا على اتصال بكبار أرباب التجارة، وأرباب السفن، والشركات الأوربية وبهذا أصبحت توات ملتقى طرق مهم لعدد كبير من القوافل.[١٨]

سجلماسة: تقع هذه المحطة التجارية في الحدود الجنوبية الشرقية للمغرب، وهي من أهم المراكز التجارية الشمالية لما كانت تقدمه للتبادل التجاري بين الشمال، والأقاليم السودانية. يذكرها الحسن الوزان بقوله: "مدينة متحضرة جدًا، ودورها جميلة، وسكانها أثرياء بسبب تجارتهم مع بلاد السودان، بُنيت هذه المدينة في سهل على واد زيز، واحتيطت بسور عالي مازالت بعض أجزائه باقية".[١٩] اكتسبت سجلماسة أهميتها كممر تجاري هام للقوافل الصحراوية بفضل مجاورتها لبلدان السودان الغربي، والصحراء معًا.[٢٠] ارتبطت سجلماسة بعلاقات متينة مع المراكز التجارية بالسودان الغربي، فكانت القوافل تنقل البضائع المغربية إلى السودان، وتأتي ببضائع السودان- وهي نفس البضائع التي تستوردها المراكز الشمالية الأخرى- وهذا ما كان له أثر ايجابي على الحالة الاقتصادية، والاجتماعية لسكان سجلماسة، وازداد ثراؤهم بسبب هذه التجارة المربحة.[٢١] وازدادت أهمية سجلماسة خاصةً بعد ترك الطريق الرابط بين مصر وبلاد السودان، وأصبحت القوافل تعبر الطريق بالمغرب إلى سجلماسة لذا اعتبرها صاحب الاستبصار أعظم مدن المغرب، وهي مقصد الصادر والوارد كما يقول الإدريسي،وظلت تحتفظ بقيمتها إلى أن خربت أواخر القرن الثامن عشر.[٢٢]

درعة: تقع هذه المنطقة شرقي مدينة سجلماسة جنوب المغرب الأقصى، وكانت مركزًا هامًا، ومحطة تجارية على أول الصحراء، بها

ISSN: 2090 – 0449
علمية. عالمية. مُحكَمة. ربع سنوية

"مسجد وأسواق جامعة ومتاجر رابحة".[٢٣] تتوفر أسواقها على مختلف المنتجات التي تجود بها المنطقة، وتعرض متاجرها البضائع المحلية والمستوردة. يقول عنها الحسن الوزان: "وليس في قصور هذا الإقليم سوى القليل من مرافق الحياة الحضرية، على الرغم من وجود صُنّاع، بالإضافة إلي صائغين يهود في طرف الإقليم المقابل لموريتانيا على الطريق الرابطة بين فاس وتمبكتو. يقيم فيها التجار الغرباء عن البلاد والتجار الدرعيون، وتشتمل المدينة على دكاكين ومساجد تامة التجهيز،- وهذا ينم ما حسب رأي على تمسك أهلها بالدين الإسلامي والمحافظة على الصلوات في المسجد-، كما تنمو بها كميات هامة من أشجار النيلة ويستبدلون به سلعًا مستورد من فاس وتلمسان".[٢٤] كان تجار درعة يصنعون كميات كبيرة من النيلة، ويبيعونها إلى تجار فاس وغيرهم من تجار المغرب بالمقايضة مع بضائع أخرى. أما أهم المحاور التجارية مع إقليم درعه تمر بالطرق المؤدية من فاس إلى تمبكتو وموريتانيا.[٢٥] وقد استقرت بدرعة مجموعة من العرب والمغاربة والعرب غير المغاربة، الذين اشتغلوا بالتجارة وخدمة القوافل، وقد كان تواجدهم حاضرًا في مراكز التجارة، والعلم بالسودان الغربي، فكثيرًا ما نجد التاجر الدرعي في المصادر القديمة.[٢٦]

وهناك مراكز ومحطات تجارية أخرى كان لها دور كبير في تنشيط التجارة البينية بين الشمال الإفريقي، والسودان الغربي؛ كفاس، ومراكش، وتلمسان، وغرداية، وتوقرت، والقيروان ...الخ. وقد اكتفينا في هذه الجزء بذكر أهم المراكز الشمالية -على سبيل المثال لا للحصر- القريبة من السودان الغربي جغرافيًا، والتي كانت في احتكاك مستمر حتى في الفترات العصيبة التي مرت بها المنطقتان خلال القرنين الثامن والتاسع عشر ميلادي؛ أي خلال فترة التوغل الاستعماري في الداخل السوداني، وانعدام الأمن نظرًا لكثرة الإغارة على القوافل التجارية العابرة الصحراء الإفريقية، سواء كانت متجهة من الشمال إلى الجنوب، أو العكس.

٢/١- المراكز السودانية:

قامت في السودان الغربي عدة مراكز عمرانية، وحضارية مهمة، سنقوم بدراسة بعض هذه المراكز، ونبين كيف تمثل دورها في عملية التبادل الحضاري مع مراكز الشمال الإفريقي، وما هي الآثار الناتجة عن هذا التواصل الحضاري.

تمبكتو: تقع تمبكتو[٢٧] على الحافة الجنوبية للصحراء الكبرى ما يُعرف بـ "منحى نهر النيجر"، يعود تأسيسها حسب بعض الروايات المتداولة إلى نهاية القرن الخامس الهجري أي القرن الحادي عشر الميلادي علي يد الطوارق،[٢٨] وزارها الرحالة العربي الشهير ابن بطوطة سنة ١٣٥٠م ودون ملاحظاته عن حياة أهلها في رحلته الشهيرة.[٢٩] قدر سكان تمبكتو في إحصائيات سنة ١٨٩٨م بـ ٥٠٠٠[٣٠] ساكنًا. فقد كانت عامرة بمختلف الأجناس من العرب، والمغاربة، والبربر، والبمبارا، والفولن لغرض التبادل التجاري، وقد وصفها السعدي بأنها مدينة عامرة يأتيها الناس من كل مكان حتى صارت سوقًا للتجارة.[٣١] بلغت تمبكتو ذروة ازدهاره الاقتصادي خلال القرن السادس عشر الميلادي، الذي عُرف بالعصر الذهبي لتلك المدينة، وقد بلغت القوافل القادمة من الشمالي الإفريقي خلال منتصف القرن الرابع عشر ١٢٠٠٠ جمل.[٣٢] وبفضل موقعها المميز أصبحت تستقطب التجار والعلماء، وأصحاب الأموال من مصر، وفزان، وغدامس، وتوات، ودرعة، وفاس لطلب العلم أو للتدريس في مساجدها والبحث عن الربح الوفير بالنسبة للتجار وأصحاب الأموال.[٣٣] وكان الوصول إليها سهلاً من المغرب، وغيره من الأماكن -كل القوافل سواء القادمة من الشمال، أو الجنوب تحط رحالها لتفرغ، أو تأخذ البضائع من سوق تنبكت-. وكان يأتي إليها طريق تغازة بالملح وتجارة بضائع البحر الأبيض المتوسط، وأرز النيجر، والدخن، والذهب والعبيد، والعاج، والجوز والكولا من المناطق المجاورة.[٣٤]

جني: من المراكز الحضارية السودانية المشهورة بعد تبكت ،تقع إلى الجنوب الغربي من تمبكتو، حظيت بأهمية اقتصادية كبيرة نظرًا لموقعها المميز، كملتقى للقوافل التجارية التي تسير بين شمال الصحراء، وجنوبها، واشتهرت بتجارة الملح والذهب.[٣٥] وصفها السعدي قائلاً: "وهي مدينة عظيمة ميمونة مباركة ذات سعة وبركة ورحمة... وهي سوق عظيمة من أسواق المسلمين، وفيها يلتقي أرباب الملح من معدن تغازة وأرباب الذهب من معدن بيط".[٣٦] وقد اختلف في تسمية هذه الحاضرة، فسماها الأفارقة "كناوة"، وسماها أهلها "جيني" وهي اسم مدينة ومملكة في نفس الوقت، تمتد على طول نهر النيجر على مسافة مائتين وخمسين ميلاً حسب ما جاء في "وصف إفريقيا" للحسن الوزان.[٣٧] تُعّد جيني من المراكز السودانية ذات الحركة التجارية النشطة على غرار تنبكت فهيا توفر للتجار مختلف المواد التي يتم المتاجرة بها مثل الأرز، والشعير، والسمك المجفف، والمنسوجات القطنية، ويتعامل تجارها مع التجار القادمين من المراكز الشمالية محملين البضائع التي تُنتج هناك، والألبسة الأوربية، والنحاس والأسلحة مثل الخناجر، وقطع الحديد لشراء المأكولات أثناء الحاجة كاللبن والحليب والعسل، وتزن هذه القطع الحديدية قرابة الرطل.[٣٨] ويعود الفضل في بناء هذه الحاضرة السودانية إلى برابرة صنهاجة، فقد اختطوها لتكون ملتقى لتجار الملح والذهب.[٣٩]

غاو: اختلفت المصادر العربية في تسميتها فنجدها عند كعت "كوكو"، و"كاغ".[٤٠] "وكاو"، و"كاغ" عند السعدي،[٤١] أما الحسن الوزان فيسمها "كاغو"،[٤٢] و"كوغة" عند ابن حوقل.[٤٣] تُعّد غاو من أشهر حواضر السودان الغربي، فهي تقع على نهاية الطريق الصحراوي عبر المنطقتين الشرقية والوسطى، من الصحراء الكبرى المتجهة نحو حوض النيجر، وقد مكنها موقعها المتميز، بإشرافها على حركة الملاحة، والتجارة على امتداد نهر النيجر، نحو الجنوب والغرب. وتيسرت اتصالاتها بهذه المناطق، فتجمعت في المدينة بضائع المنطقة كلها، وارتادتها القوافل التجارية منذ القدم.[٤٤]

وصفها البكري فقال: "إنها مثل غانة فيها أحياء خاصة بالتجار المسلمين من عرب شمال إفريقيا".[٤٥] أما الوزان فيقول في شأنها: "أن كاو مدينة عظيمة، وسكانها تجار أغنياء يتجولون دائمًا في المنطقة بسلعهم، ويأتي إليها عدد لا يحصى من السود حاملين معهم كمية وافرة من الذهب ليشتروا بها أشياء مستوردة من البربر وأوربا، والمدينة متحضرة جدًا بالنسبة لتمبكتو".[٤٦] ويشير إليها اليعقوبي باعتبارها أعظم الممالك، وأكثرها أهمية، وهو يقول أن كل ملوك الزنوج يدفعون الجزية لكوكو(غاو).[٤٧]

أضحت غاو[٤٨] مركزًا تجاريًا هامًا، بفضل موقعها، وأسواقها العامرة، وجاءها التجار من كل مكان، لتبادل المنتجات المتنوعة، وجعلوا منها محطة لإفراغ حمولة القوافل الواردة من الشمال أو الجنوب.[٤٩] يقول عنها فليكس ديبوا (Félix Dubois): "مدينة غاو جوهرة وادي نهر النيجر وأنها مدينة عظيمة مثل سيقو ونيامي".[٥٠] لكن وبحلول القرن الثامن والتاسع عشر فقدت المدينة مكانتها الحضارية التي كانت تعرفها في السابق، وذلك لعدة عوامل منها انعدام الأمن للقوافل التجارية التي تعبر الصحراء الكبرى قادمة من المراكز الشمالية، أو القوافل القادمة من الجنوب، أضف إلى ذلك وقوع المنطقة تحت السيطرة الاستعمارية.

تغازة: اسم يطلق على منجم مشهور في تاريخ السودان الغربي بمعدن الملح، يقع إلى الشمال الشرقي من تاوديني، وإلى الجنوب الغربي من توات. ذاع اسمها بسبب ندرة الملح عند الزنوج، وارتفاع ثمنه حتى أنه كان يبادل بمثل وزنه ذهبًا. هذا ما ذكره ابن بطوطة، وغيره من الرحالة، والجغرافيين العرب، ومن عجائبها حسب ما أورده ابن بطوطة في كتابه "تحفة النظار" أن بناء بيوتها، ومساجدها من حجارة الملح، وسقفها من جلود الجمال.[٥١] وهذا يدل على كثرة الملح، الذي كان ينقل بواسطة قوافل تجار الشمال الإفريقي، وخاصةً المغرب إلى أصقاع السودان الغربي، وبذلك مثلت تغازة مركزًا تجاريًا لأهم معدن.[٥٢] وقال عنها الحسن الوزان: "تغزة مكان مأهول فيه عدد من مناجم الملح التي تشبه مقالع الرخام يستخرج الملح من حفر تحيط بها أكواخ عديدة يسكنها المستخدمون لاستخراج الملح، وليسوا من سكان البلدة، بل هم من أصل أجنبي، يأتون مع القوافل ويقيمون هنا كمنجميين يستخرجون الملح ويحتفظون به حتى تأتي قافلة فتشتريه منهم. ومن هنا يحمل إلى تمبكتو التي يعوزها الملح كثيرًا. يحمل كل جمل أربعة قطع من الملح...".[٥٣]

أقدز: تقع اليوم في الشمال الشرقي من نيامي،[٥٤] وتبعد عنها بألف كيلومتر.[٥٥] لها مكانة تجارية هامة كمثيلاتها المراكز التجارية السودانية الأخرى. قال عنها الحسن الوزان: "مدينة ميسورة بناها الملوك المحدثون في تخوم ليبيا، وهي مدينة السود التي تكاد تكون أشهر مدن البيض باستثناء ولاته، وأن أغلب سكانها من العرب المغاربة الذين يشتغلون بالتجارة وهذا دليل على أهميتها، ولكل تاجر عدد كبير من العبيد يخدمون كحراس له في الطريق المؤدية من (كانو) إلى (بورنو)".[٥٦] بُنيت منازل أقادز حسب الهندسة العربية، ويكاد يكون أهل البلد كلهم تجار، وأغلبهم أجانب، أما الذين لا يمارسون التجارة، فإنهم يمارسون الصناعات اليدوية أو يشكلون جند الأمير.[٥٧] يعتمد دخل أقادز على جباية الضرائب، فتتحصل على مبالغ مالية هامة من التجار الوافدين إليها، وقد حملت إليها البضائع المتنوعة من إقليم فزان، وغدامس، وزويلة، ونقلت منها القوافل بضائعها المتمثلة في البخور، والذهب، كما كان العلك من بين المواد الغالية الثمن التي تحمله القوافل التجارية إلى أقادز.[٥٨] وفي أواخر القرن التاسع عشر، وبداية القرن العشرين بدأت أقادز، وغيرها من الحواضر السودانية تفقد مكانتها الحضارية والاقتصادية وفي التراجع عن أداء دورها كأحد أهم المحطات الحضارية، والتجارية في تاريخ التبادل، والتواصل بين الشمال ، والجنوب، وذلك لعدة أسباب لعل أهمها الأوضاع السياسة المضطربة التي شهدتها المنطقة خلال هذه الفترة، ولسبب التوسع الاستعماري في الأقاليم الداخلية للسودان الغربي.

ثانيًا: أهم المسالك التي كانت تسلكها القوافل التجارية

كانت القوافل التجارية إلى السودان الغربي تخترق الصحراء الكبرى من جميع جوانبها، أما اتجاهها فشمال إلى الجنوب، وبالعكس، وهذا باستثناء الطريق الذي يربط مصر بالمنطقة فإن اتجاهه كان غربًا إلى الشرق وبالعكس، وكانت هذه المسالك الصحراوية كثيرة،[٥٩] غير أننا سنكتفي بالتطرق إلى المشهور منها والذي كان يشهد حركة تجارية نشطة بين الأقاليم الشمالية لإفريقيا، والحواضر السودانية لجنوب الصحراء.

(١) **طريق مراكش إلى تمبكتو:** يمر هذا الطريق على تارودانت وتاوريت وتندوف، ثم تاوديني، وأروان ليتجه في الأخير إلى تمبكتو، وقد سلك هذا الطريق الكثير من الأوربيين خلال القرن التاسع عشر الميلادي في إطار كشفهم للمنطقة.

(٢) **طريق فاس مكناس:** يمر بواحات الساورة وتوات، وأكابلي، ومبروك ثم إلى تمبكتو.[٦٠]

(٣) **سجلماسة إلى أودغشت:** ينطلق إلى ولاته وقد أورد مارمول أسماء بئرين بين سجلماسة وتمبكتو وهي بئر زعوات، وعروان - ربما هي أروان-.[٦١]

(٤) **تلمسان:** وهو طريق صعب لا يوجد به الماء ولذلك يضطر المسافر لحمل الماء معه طيلة مدة السفر والتي تتراوح بين (٦) و(٧) أيام، كما يمر هذا الطريق على غرداية وتوات وينتهي في الأخير إلى تمبكتو.[٦٢]

(٥) **طريق وهران أرزيو:** يمر على منطقة خثير، ومشرية وعين الصفراء، وفقيق، ويتبع مجرى وادي روزفانة إلى إيجلي أين يلتقي بطريق فاس.

(٦) **طريق مدينة الجزائر تمبكتو:** ويمر على البليدة، وبوغار والأغواط، وغرداية، والقليعة، وعين صالح، وأكابلي أين يلتقي

بطريق توات إلى تمبكتو، وقد سلكه الفرنسيون خلال القرن التاسع عشر الميلادي.

(٧) **طريق سكيكدة قسنطينة**: يمر على باتنة، وبسكرة وتوقرت، ورقلة، والبيوض، وأمقيد، وتيمساو، وايفران، وإلى مبروك ومنه وصولاً إلى تمبكتو.[٦٣]

(٨) **طرابلس تمبكتو**: ويمر على سناون، غدامس، وتماسينين، والبيوض. أين يتصل بطرق قسنطينة إلى تمبكتو. ولهذا الطريق فرع من غدامس إلى غات، وبير عيسو، وأقادز، ثم إلى سوكوتو، وكاتسينا غربًا، وإلى أقاديم، وماو شرقًا.[٦٤]

(٩) من واحة الجريد في جنوب تونس تمر قوافله بورقلة وسوف،[٦٥] وغدامس ثم تتجه إلى الجنوب.

(١٠) **مصر تمبكتو**: يمر بواحة سيوة، وبزويلة، وتادمكة، ويستمر إلى غاية تمبكتو.

كانت توجد على طريق القوافل آبار وجدت منذ عهد مملكة مالي في معظم مناطق السودان الغربي.[٦٦] وكان ضمن القوافل التجارية التي تمر عبر هذه الطرق الصحراوية إضافة إلى البضائع، هناك العلماء، والدعاة الذين يقومون بنشر الإسلام، والعلم في المناطق، والحواضر السودانية، وهذا ما أدى إلى اعتناق الكثير من أهل السودان الغربي الدين الإسلامي، نظرًا لما كان يتحلى به التاجر المسلم من انضباط، وتسامح أثناء التعامل مع الناس.[٦٧]

ثالثًا: طبيعة المبادلات التجارية بين الحواضر الشمالية والجنوبية للصحراء الكبرى

١/٣- الصادرات السودانية:

كان للسلع القادمة من السودان الغربي الدور الكبير في تنشيط الحركة التجارية بين السودان الغربي، والحواضر الشمالية. وسنكتفي هنا بذكر البضائع التي كانت تشكل عماد التبادل التجاري بين هذه الحواضر خلال منتصف القرن التاسع عشر إلى غاية بداية القرن العشرين.

الذهب: إلى غاية منتصف القرن التاسع عشر كان الذهب يشكل المادة الأساسية لهذه الحركة التجارية الواسعة بين العالم الخارجي، والسودان الغربي، وقد اشتهرت عدة مواقع سودانية عبر التاريخ بوفرة هذه المادة الساحرة، وكتب الكثير من المؤرخين العرب، وغيرهم في شأن هذه المادة تصل أحيانًا إلى درجة المبالغة في طريقة جمعه.[٦٨] فقد ذكر ابن حوقل: "أن ملك غانة، وغانة أيسر من على وجه الأرض من ملوكها بما لديه من الأموال و المدخرة من التبر".[٦٩] وقد كان التجار يعودون من السودان محملين بأكياس من الذهب، وهذا ما كان يدفعهم على تحمل المشاق وقطع المراحل الطويلة الشاقة في الصحراء، فيقطعون مسافة تقدر بشهرين بين المغرب والسودان الغربي وأن البضائع التي يوصلها التجار الأوربيون إلى السواحل الإفريقية، كان يحمل منها قدر غير يسير إلى السودان، أما التجار الأوربيون، والمراكشيون فكانوا في الغالب يأخذون بدلها ذهبًا.[٧٠] وقد كان هذا المعدن بالنسبة للسودانيين عاملاً كبير الأهمية في تاريخهم، فهو الذي أخرجهم من عزلتهم، وجلب إليهم التجار، وكان له الفضل في الرفاهية إلي شهدوها خلال الفتة الوسيطة، والعصور الحديثة، كما ساهم في قيام عدة إمبراطوريات سودانية.[٧١]

العبيد: كان العبيد عبارة عن سلعة بشرية واسعة الانتشار في السودان الغربي خلال هذه الفترة، فيؤتى بهم من المناطق الداخلية والساحلية، ويتم الحصول على هذه البضاعة عن طريق الاستيلاء والقنص وأسرى الحروب.[٧٢] كانت أسواق السودان الغربي عامرة بالعبيد من مختلف الأعمار، وكانت أثمانهم منخفضة في السودان عنها في العالم الخارجي، لذا كان التجار يعودون بأعداد كبيرة منهم، ويقومون ببيعهم في أسواق المراكز الشمالية، وعلى السواحل للتجار الأوربيين الذين يحملون أعدادًا هامة منهم إلى الجانب الآخر من المتوسط، وهكذا كان العبيد يشكلون جزءًا مهمًا من صادرات الممالك السودانية.[٧٣]

العاج: كانت هذه السلعة متوفرة بكميات كبيرة في مناطق السودان، وخاصةً في المناطق الشرقية ككانو، وبرنو، وتكون عادةً من أنياب الفيل، وفرس النهر، ووحيد القرن، ويتجمع معظم إنتاجه في حاضرة كانو، وكان يباع بسعر ٥٠.٠ فرنك للكغرام الواحد.[٧٤] وعن كيفية الحصول على هذه المادة من الفيل يقول الوزان: "... فإذا دخل الفيل في السياج الذي ينصبه الصيادون بين الأشجار جذبوا الحبل بقوة ووقع في السجن، فينزل الصيادون من الأشجار ويقتلون الفيل بالنبال ثم يأخذون أنيابه ليبيعوها...".[٧٥] وكان يصنع من هذه المادة الأدوات المنزلية كأواني الشرب، ويستعمل لتزيين الخيول، وهو من الكماليات المرغوب فيها خاصةً لدى أسواق الشمال الإفريقي، وتجارته كانت رائجة إذ يتم نقله إلى المغرب الأقصى، ومن ثَمَّ إلى أسواق أوربا.[٧٦]

ريش النعام: كان لريش النعام رواج كبير في الأسواق، وعليه إقبال كبير، حيث كان يستعمل في حشوى الأرائك والمخاد في البيوت، والقاعات، وتتخذ منه الطبقات الموسورة مراوح للتهوية، أو للزينة، ولذا فقد كان التجار يجلبون منه مقادير هامة أثناء رجوعهم من السودان.[٧٧] وتُعّد باريس أكبر سوق له، وقد كان ثمنه يتراوح مابين (١٠ – ٥٠٠) فرنك للجنة، غير أن الكثير من الناس أخذوا يقلعون عن شرائه، نظرًا لانتشار موجة من التفكير الإنساني التي تحارب هذا النوع من الزينة، بحجة أن فيه تعذيبًا لطائر النعام، كما حدث تطور في وسائل الزينة الذهبية فأقلع الناس عن شرائه.[٧٨] أما بيض النعام فيتخذ من محه أحد العناصر الهامة في تركيب الأدوية، كما كان يوضع فوق المناضد، أو يغلق على حيطان القاعات للزينة لذا كان التجار يجلبون منه ما تيسر لهم، وكانت أثمانه في الأسواق الخارجية مرتفعة.[٧٩]

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية | ISSN: 2090 – 0449

الجلود والأقمشة القطنية: اشتهرت بعض مناطق السودان الغربي بإنتاج كميات معتبرة من الجلود وخاصةً جلود (الماشية بأنواعها)، والأقمشة، ككانو، وزندر، وتعرف تمبكتو بالأقمشة القطنية التي يتم صبغها بالألوان المختلفة، وعادةً ما تكون الجلود باللون الأحمر والأصفر، أما الأقمشة باللون الأزرق النيلي، وتعرف عند الطوارق بالقماش الغيني، ومنه ما يحمل على شكل قطع ومنها ما يجهز على شكل ملابس ويصدر السودان الغربي من هذه البضائع بكميات معتبرة منها حوالي (١٥٠٠٠) فرنك سنويًا من الألبسة القطنية إلى الأسواق الخارجية.[٨٠] بالإضافة إلى بعض المنتجات الجلدية الأخرى كالسياط الجلدية، والأحذية، والقرب، وأكياس حفظ الحبوب.[٨١] كما كان السودان يصدر الأبنوس، والعسل، والصمغ، وحبوب الكولا، والشب إلى أسواق الشمال الإفريقي.[٨٢]

٢/٣- الواردات السودانية:

جلب إلى السودان الغربي أنواع كثيرة من السلع، أتى جزء منها من حوض البحر المتوسط، وأتى جزء آخر من داخل الصحراء، ومن أهم السلع الأجنبية التي عرفتها الأسواق السودانية نذكر ما يلي:

- الأقمشة المختلفة من كل جنس، وأنوع صوفية، وقطنية، وحريرية وأشهرها الجوخ والشاش.
- الأسلحة المختلفة، لتسليح القوات المحلية، كالدروع، والخوذ، والخناجر، والسهام، والتروس، وأقواس النشاب، والبنادق الأوربية، والأمريكية الصنع، وكان الأمراء والسلاطين يتنافسون في تسليح قواتهم المحلية حتى يفرضوا احترامهم على جيرانهم.[٨٣]
- أواني النحاس قسم منها كان يستعمل للزينة كالأساور والأقراط، وقسم آخر كان في شكل جفان وأوان منزلية جيدة الصنع، والقسم الثالث كان في شكل أقفال وحلق الأبواب لزينة المنازل ولتجهيز الخيول، والمصنوعات الحديدية لصناعة السكاكين والمناجل، وأدوات الحرث، والمصنوعات الزجاجية كالكؤوس والبعض الأخر كان في شكل حبات لتنظيم الأسباح، أو كرات صغيرة تدرج في عقود للأعناق أو الأيدي، تتزين بها النساء خاصة وبعض القطع المرجانية. والودع التي كانت يقيم بالذهب لأهميته عند الناس، وكان يجلب من الشمال ومن بعض الممالك الجنوبية للسودان.[٨٤]
- الروائح العطرية، والأدوية العشبية، والبهارات، ومواد الصباغة -النيلة من المغرب-، والشاي، والسكر، وصمغ الصنوبر.[٨٥]
- بضائع البندقية (إيطاليا)، وميلان، وبرشلونة من الحلي والمرجان، والذهب، والفضة، والمرايا، والأمشاط، والخردوات المستعملة.[٨٦]
- ومن المواد الغذائية: الخضر الجافة، والزيوت، والشحوم، الزبدة،[٨٧] والتمور من الواحات الصحراوية، وعلى رأسها واحات ورقلة، تقرت، توات، والتين المجفف، وقد أشار المؤرخون أنه كان من بضائع التي تحمل إلى السودان، ويجمعه التجار من مختلف أسواق المغرب، وقد كان القمح غذاء الطبقات الميسورة فقط، ولقلته في السودان الغربي كان يجلب من المغرب بدرجة أولى، وكان يشكل جزءًا كبيرًا من أعمال القوافل المتوجهة من المغرب إلى السودان الغربي.[٨٨]
- الملح يعتبر من السلع المهمة في تجارة الصحراء منذ فترة طويلة، قبل الفتح الإسلامي لشمال إفريقيا، وذلك لعدم توفره بكميات تكفي لسد متطلبات سكان السودان الغربي.[٨٩]
- وكانت الخيول والجمال من بين البضائع التي يستوردها السودانيون، وقد كانت جاو سوقًا رائجًا لتجارة الخيول الأصيلة مع سروجها،[٩٠] وكان التجار يحققون أرباحًا وفيرة من جراء هذه التجارة، فقد بلغ مثلاً سعر الحصان الواحد في غاو من (٤٠ – ٥٠) مثقالاً بينما بلغ الجمل في تكدا (١٦.٥) مثقالاً.[٩١]
- وكانت الكتب المخطوطة، والمنسوخ، والورق، والأقلام من السلع المستوردة والمرتفعة الثمن، وكانت تمبكتو سوقًا رائجة لها، وذلك بسبب ازدهار الثقافة العربية الإسلامية، وانتشارها بشكل واسع.[٩٢]

وعلى إثر ازدهار تجارة الكتب ونشاط الحركة العلمية، نشأت حرفة الوراقين كتقليد لما كان في المغرب ومصر، وألف السودانيون عدة مؤلفات هامة[٩٣] في الشريعة الإسلامية، وفي السير، والتراجم، والتاريخ، ومن هؤلاء نذكر على سبيل المثال لا للحصر أحمد بابا التمبكتي، والقاضي محمود كعت، وعبد الرحمان السعدي، وعثمان دان فوديو وابنه محمد بللو، والبرتلي الولاتي.[٩٤] ولقد كان الحصول والتمتع بالبضائع الأجنبية ينحصر بشكل عام لدى سكان المدن، والموسرين منهم بشكل خاص، أما سكان الأرياف والبوادي، فلم يكونوا يعرفون عنها إلا القليل، أو أنهم شاهدوها بأعينهم ولا يستطيعون الحصول عليها إلا نادرًا وذلك لقلة ما بأيديهم من الأموال، ثم أن التجار إنما كانوا يقصدون أسواق المدن، ويعرضون بها بضائعهم، وكان سكان البوادي يذهب قليل منهم فقط لتلك الأسواق.[٩٥]

رابعًا: نظم التعامل التجاري وأهم الأسواق والعملات المستعملة

كان التجار في حواضر الصحراء الكبرى يتعاملون تجاريًا بالطرق والعملات التالية:

١/٤- المقايضة:

كانت المقايضة أحد أهم أساليب التعامل التجاري السائد في الأسواق السودانية، نظرًا لقلة العملات وضعف انتشارها، واستعمالها وأساسها الاتفاق بين طرفين فيما يعرضونه من بضائع،

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

ويعرف هذا النوع من التجارة بالتجارة الصامتة.[٩٦] وحتى نعطي فكرة واضحة عن هذا النوع من التعامل الذي كان يتم بين التجار وهو النمط الأكثر تداولاً حسب القاعدة التالية:

- حمولة واحدة من القمح تعادل خمس حمولات من تمر الحميرة.
- حمولة واحدة من الشعير تعادل خمسة عشرة حمولة من تمر الحشف وأثنتين من تمر الحميرة.
- واحد كيلوا غرام من القمح يعادل خمسة كيلوغرامات من الفلفل الحار.
- رأس واحد من الغنم يعادل حمولة واحدة من تمر الحميرة.[٩٧]

٢/٤- الملح:

كان يتم تقطيعه إلى قطع مختلفة الأحجام والأشكال وتستغل في البيع والشراء،[٩٨] ولكثرة التداول به في ظل ندر العملات، أو الذهب حتى عده المؤلفون العرب نقودًا في السودان الغربي في ذلك العهد.[٩٩]

٣/٤- الودع:

كان التعامل بالودع كثيرًا، في منطقة السودان الغربي، وقد ذكره الجغرافيون والرحالة على أنه من العملات الكثيرة التداول في مراكز السودان الغربي التجارية، وكان التجار يحضرونه بكميات كبيرة -لقوته الشرائية الجيدة- من الأندلس والمغرب الأقصى.[١٠٠] وتختلف قيمته النقدية من وقت لآخر، والودعة الواحدة يمثل ثمنها بالذهب حولي (٠.٣٥) فرنك، وتجلب هذه العملة من الهند عن طريق التجار المغاربة والمصريين.[١٠١] وقد بقي التعامل بالودع قائمًا في مختلف مناطق السودان الغربي حتى سنة ١٩٠٠م وخاصةً في حوض النيجر، وكانت قيمته ترتفع أو تنخفض عكسيًا حسب كثرة، أو قلة المواد الغذائية، وبالإضافة إلى ذلك كله فقد كان الزجاج والمنسوجات القطنية والعسل، والخيول بالإضافة إلى قطع الحديد، والفضة من بين الأشياء التي يقع بها الدفع، وتقوم في التبادل مقام النقود.[١٠٢]

٤/٤- العملة المسبوكة:

إلي جانب وسائل الدفع السالفة الذكر هناك عدة عملات شاع استعمالها في التجارة السودانية بعضها محلي والبعض الآخر مستورد من أهمها:

- الدنانير الذهبية: كانت تضرب في سجلماسة من الذهب على شكل قطع أو تبر.[١٠٣] وهي غير مختومة وتسمى الصلع.[١٠٤]
- عملة نحاسية: وهي حمراء رقيقة وغليظة، ذات قيمة منخفضة جدًا.
- الكوري (couris): وهي عملة فارسية وهندية قيمتها منخفضة، بحيث (١٠٠) كوري يساوي (٠.٧٥) فرنك.
- الدوخة (ducat): الذهبية والفضية.
- الدراخمة: وهي عملة مستوردة من طرف التجار من الخارج.
- المثقال الذهبي: ويساوي (١٩) فرنكًا في تمبكتو.[١٠٥]
- المحبوب، والموزونة، والقائمة، والدورو: عملات شائعة الاستعمال في بلدان المغرب العربي، وبعض العملات المصرية والأوربية.[١٠٦]

ومن وسائل الدفع التي استعملها تجار السودان الغربي، وجود معاملات تجارية مكتوبة على شكل عقد، فابن حوقل يذكر لنا أنه رأى صكًا كُتب بدين على أحد التجار المغاربة.[١٠٧]

٥/٤- الموازين والمكاييل المستعملة في التجارة الصحراوية:

لقد كانت للسودان الغربي مقاييس، ومكاييل، وموازين ثابتة، يتم التبادل والتعامل وفقها، في جميع أنحاء السودان وخارجه، ويبدو أنها انتقلت إلى السودان عن طريق المغرب الأقصى.[١٠٨]

الموازين:

- المثقال: يساوي (٧٢) من حبات القمح المتوسط الحجم.
- الدرهم: يساوي سبعة أعشار الدينار.
- الدينار: يساوي أربعين درهمًا.
- الأوقية: تساوي (٢٧.٥) غرام تقريبًا.[١٠٩]

المكاييل:

- المد: ويساوي أربعة أمداد بجمع اليدين.
- الصاع: ويساوي أربعة أضعاف المد؛ أي ما يعادل ثلاثة كيلوغرامات.
- المرطة: تساوي أربعة صيعان.
- القنطار: كان يساوي مائة رطل.
- المودي: هو ما يحمله العبد أو الرجل من حبوب أو نحوه في كيس من الجلد.[١١٠]

المقاييس:

- الشبر: يساوي الامتداد بين الإبهام والخنصر حين تكون الكف مفتوحة، وقدر بحوالي (٢١.٥ سم).
- الذراع: وهو الامتداد بين عقدة المرفق ونهاية الوسطى، حوالي (٥٠ سم) تقريبًا.
- الميل: وهو يستعمل في قياس المسافات بصورة خاصة، وقدر بـ (١٩٢٠م) بالتقريب.
- الفرسخ: تقاس به المسافات الطويلة ويساوي ثلاثة أميال أي: (١٩٢٠×٣=٥٧٦٠) مترًا تقريبًا.
- استعمل البريد أيضًا ولكن بقلة، وكان يساوي المسافة التي تعادل سير ساعة الحصان المسرع.[١١١]

أسواق السودان الغربي وبعض أسعار سلعها ووسائل النقل:

من أهم أسواق السودان الغربي التي كان صداها يتعد حدوده الجغرافية نذكر ما يلي:

(أ) سوق تمبكتو، التي كانت لها أهمية خاصة خلال العصر الوسيط تجاريًا، وثقافيًا في أقصى الجنوب، وتوات وعين صالح، في إقليم تيديكلت في الشمال. وبين سوق تمبكتو،

ISSN: 2090 – 0449

وأسواق توات وتيديكلت على طول الطرق توجد أسواق: أروان، ومبروك، وايفروان، وتيميساو، وأونان، وتاوديني، وولان، وأكابلي، ووتيريشومين، وأسواق كاتسينا، وأقادز، وكوكو، وبيلما ناحية الشرق.(١١٢)

(ب) أسعار بعض المواد المتداولة في الأسواق السودانية والشمالية سنة١٨٦٢م: سنورد هنا أسعار بعض البضائع السودانية التي كان يتم اقتناؤها في الأسواق المحلية وهي على النحو التالي:

- العاج: من (٢٠٠) إلى (٢٢٠) ألف للكوري.
- ريش النعام: من (٥٠) إلى (٦٠) ألف كوري للكيلو غرام.
- تبر الذهب: من (٧) إلى (٨) ألف كوري للمثقال.
- العبد الذكر: من (١٢٠) إلى (١٣٠) ألف كوري.
- العبد الأنثى: من (١٥٠) إلى (٢٠٠) ألف كوري.(١١٣)

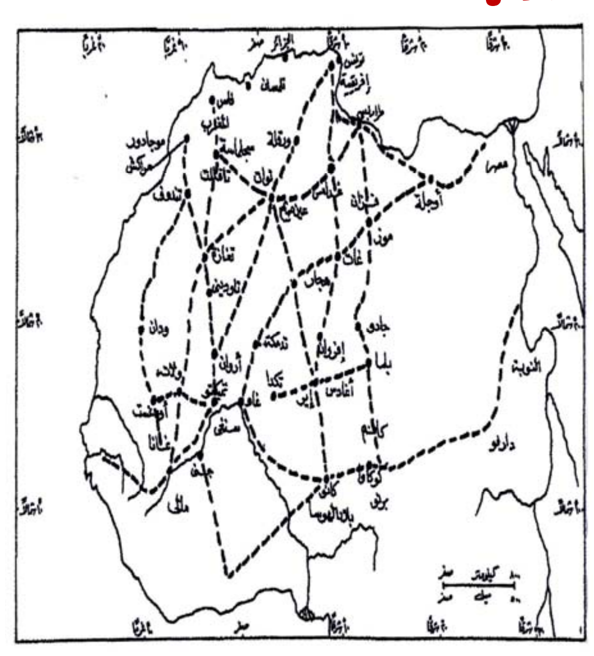
ما يمكن ملاحظته من خلال عرضنا لأسعار بعض البضائع السودانية في الأسواق المحلية أو الخارجية هو تنوع وتعدد السلع السودانية التي كانت رائجة في الأسواق الداخلية أو الخارجية، كما أن بعض السلع كانت تستورد من المراكز الشمالية كالنيلة، والصمغ ثم يعاد بيعها من جديد للتجار، وجل وحدات الوزن، والقياس، والعملات المسبوكة التي كان يتعامل بها كانت أجنبية. أضف إلى ذلك؛ التباين في أسعار السلع بين أسواق الشمال، والأسواق السودانية، وهذا حسب رأينا يرجع لعدة عوامل نذكر منها: (كمية السلعة المعروضة في السوق، ونوعية وجودة السلعة /فالسلعة العالية الجودة تكون دومًا مرتفعة الثمن/، وتكاليف الإنتاج وأعباء النقل للبضاعة /فالسلع القادمة من أوربا مرتفعة الأثمان/، واحتكار السلعة من طرف بعض كبار التجار، والمضاربين، وندرتها في السوق يؤدي إلى ارتفاع سعر شرائها).

خاتمة

مما سبق يتضح لنا؛ أن الصحراء الكبرى لم تكن عاملاً من عوامل الانفصال بقدر ما كانت حلقة هامة من حلقات التواصل الحضاري بين المراكز الشمالية والمراكز السودانية. كانت فضاءً حضاريًا مفتوحًا يتم فيه تبادل مختلف المنتجات الفكرية، والمادية، وهذا ما أدى إلى بروز محطات، وحواضر فاقت شهرتها التجارية، والثقافية، والفكرية حدود الصحراء إلى العالم الخارجي، فاشتهرت تمبكتو، وفزان، وتوات، وسجلماسة كمحطات تجارية كبرى يتم فيها تلاقي التجار من كل جهة، واشتهرت غانة، ومملكة مالي بوفرة معدن الذهب، ووصفت كانو بمنشستر إفريقيا الغربية. وهذا عكس ما كان يروج له من قبل بعض المؤرخين الأوربيين في أن الصحراء تمثل الحد الفاصل بين حضارتين مختلفتين وليس من السهل إحداث التواصل والتمازج بينهما.

هكذا كانت الصحراء الكبرى الإفريقية، همزة وصل بين مختلف شعوبها، ومع شعوب العالم الأخرى، رغم قساوة مناخها ووعورة تضاريسها، وهكذا كانت مهدا لقيام حضارات راقية، ومركزًا للأنشطة المختلفة، وليس من الغريب اليوم أن يعود لها اليوم دورها ومكانتها الثقافية والاقتصادية، غير أنه لن يتأتى لها ذلك إلا في ظل استغلال مواردها المتاحة استغلالاً عقلانيًا.

الملاحق:



خريطة رقم (١)

المسالك التجارية الرابطة بين السودان الغربي والشمال الإفريقي

المصدر: هوبكنز، ر.ج: التاريخ الاقتصادي لإفريقيا الغربية، ترجمة، أحمد فؤاد بلبع، المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٨، ص١٦٧.

الهوامش:

(١) عبد القادر زبادية: **مملكة سنغاي في عهد الأسقيين(١٤٩٣-١٥٩١م)**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د. ت، ص٢١١. وعصمت عبد اللطيف دندش: **دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا**، ط١، دار الغرب الإسلامي، لبنان، ١٩٨٨م، ص٤٨.

(٢) الهادي المبروك الدالي: **التاريخ السياسي والاقتصادي لإفريقيا فيما وراء الصحراء**، ط١، الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٩، ص٢٩٥.

(٣) في أصل تسمية ليبيا انظر: محمد مصطفي بازمه: **ليبيا**، ط٢، قورينا للنشر، د.ت، ليبيا، ص١٣.

(٤) الحسن الوزان: **وصف إفريقيا**، ج١، ط٢، ترجمة: محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ١٩٨٣م، ص١٤٦.

(٥) الهادي المبروك الدالي: المرجع السابق، ص٢٩٧.

(٦) **كوكة**: عاصمة إقليم بونو ويقدر عدد سكانها سنة ١٨٥٠م حوالي (٦٠) ألف نسمة وتقع على مسافة قريبة من بحيرة تشاد، وتشتهر بصناعة الجلود، الصباغة، والبارود. **دكوة**: مدينة تابعة لكانو، تشتهر بصناعة الجلود، السيوف، والمصنوعات الخشبية. **زندر**: تقع شمال غرب كانو، وتعرف ببوابة الصحراء، ومحطة رئيسية للقوافل المتجهة من مرزوق إلى كانو، وتشتهر بالأنسجة القطنية، والمصابيح والجلود. **أنقورنو**: تقع جنوب كوكة، كان يعقد فيها سوق أسبوعي كل يوم أربعاء ويصل عدد وافديه أحيانًا إلى (١٠.٠٠٠) شخص تعرض فيه مختلف البضائع الشمالية والسودانية. **كانو**: تعد من أهم أسواق السودان الأوسط، وتحتل وسط الإقليم، ولها سمعة واسعة بفضل تجارتها وصناعتها، وتكثر فيها المدابغ والمصابغ، وتشتهر بصناعة الأنسجة القطنية والجلدية وشهرتها النسيجية وصلت أوربا، وكذلك الصياغة الفضية وتجارة العبيد. **سوكوتو**: عاصمة بلاد الهوسا، أسست من طرف سكان ولاته، وتشتهر بالمنسوجات القطنية، ودباغة الجلود. **وكتسينا**: تقع شمال كانو، وكانت مقر للحكم قبل انتقاله إلى سوكوتو، ومعظم سكانها من العنصر الفولاني، تُعَد محطة رئيسية بالنسبة للقوافل التجارية المتجهة من غات إلى كانو. انظر: حسين جاجوا: **دور غدامس التجاري مابين طرابلس والسودان الأوسط خلال (١٨٥٠-١٨٨١م)**، بحث لنيل دبلوم الدراسات المعمقة،(غير منشور)، إشراف: عبد القادر زبادية، جامعة الجزائر،١٩٨١م، ص١٠١.

(٧) الحسن الوزان: المصدر السابق، ص١٩٦.

(٨) الهادي المبروك الدالي: المرجع السابق، ص٢٩٩.

(٩) أبو الحسن علي بن سعيد: **كتاب الجغرافيا**، تحقيق إسماعيل العربي، ط٢، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، ١٩٨٢م، ص١٢٦.

(١٠) الحسن الوزان: المصدر السابق، ص١٣٦.

(١١) **أدغست**: تعد الباب الجنوبي التي تقف عندها قوافل السودان الغربي الواردة من كل ناحية نحوى المنحى العلوي للنيجر الذي كان يعتبر المعر إلى بلاد السودان، وهي مدينة تتحكم في مدخل السودان، وصفها كل من البكري والإدريسي، بأنها مدينة كبيرة آهلة رملية يطل عليها جبل موت، لا ينبت شيا وحولها بساتين النخيل، ويزرع فيها القمح بالقوس، ويسقى بالدلاء، وتعتبر أدغست من الأسواق الكبيرة التي يكثر بها البيع والشراء. انظر: عصمت عبد اللطيف دندش: المرجع السابق، ص ٤٨.

(١٢) **المرابطون**: أو **الملثمون**، هم عبارة عن تحالف قوي ظهر بين قبائل صنهاجة اللثام (لمتونة، وجدالة، ومسوفة)، وكان هذا الحلف بزعامة لمتونة، قاموا بأدوار مهمة في التاريخ خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر ميلادي منها نشر الإسلام في السودان الغربي ونصرة المسلمين في الأندلس. انظر: عصمت عبد اللطيف دندش: المرجع السابق، ص ٥٢.

(١٣) محمد عيسى الحريري: **الدولة الرستمية في المغرب الإسلامي**، ط٣، دار القلم للنشر والتوزيع، الكويت، ١٩٨٧م. ص٢١٠.

(١٤) المرجع نفسه، ص٢١١.

(١٥) فرج محمد: **إقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلادي**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٧٧م، ص١.

(١٦) أختلف المؤرخون في أصل تسمية هذه المنطقة فقدموا تفاسير وأخبارًا متعددة في معناها ومصادرها، ولعلنا أوردنا ما ذكره السعدي سابقًا في أصل تسمية توات. وسنورد في هذه الصفحة ما ذكره بعض مؤرخي الغرب:- يرى ماندوفيل (Mandeville) أن أسم توات أطلقه الطوارق والعرب على الواحات المنتشرة على ضفاف واد الساورة، وواد مسعود. انظر:
Mandeville: *L'Algerie Méridionale et le Touat*, Paris, 1889, P.8 G,
أما روكليس (Reclus) يذهب إلى القول أن توات اسم بربري يعني الواحات، انظر:
Reclus, Élisée: *Nouvelle Géographie universelle*, T.XI (L'Afrique septentrionale), Paris, 1886. P.845.
أما مارتان (Martin) فيرى أن الكلمة أصلها إغريقي وتعني في ما معناه واحة الماء. انظر:
A.G.P Martin,: *quatre siécles d'histoire marocaine (1504-1904)*, Paris, 1923. PP.1- 2.

(١٧) يحي بوعزيز: **تاريخ إفريقيا الغربية الإسلامية**، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ٢٠٠١م، ص٧٠.

(١٨) الهادي المبروك الدالي: المرجع السابق، ص٣٠٠.

(١٩) الحسن الوزان: المصدر السابق، ص١٩٦.

(٢٠) ابن حوقل (أبو القاسم، النصيبي): **كتاب صورة الأرض**، منشورات دار الحياة، بيروت، د.ت، ص ٦٧. وياقوت شهاب الدين: **معجم البلدان**، مج٥، ط١، مطبعة السعادة، مصر، ١٩٠٦م، ص٤١.

(٢١) الهادي المبروك الدالي: المرجع السابق، ص٣٠٣.

(٢٢) نبيلة حسن محمد: **في تاريخ إفريقية الإسلامية**، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ٢٠٠٧م، ص١٤٥-١٤٦-١٤٧.

(٢٣) أبي عبيد الله البكري: **المسالك والممالك**، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د.ت، ص ١٥٥. والهادي المبروك الدالي: المرجع السابق، ص٣٠٤.

(٢٤) الحسن الوزان: المصدر السابق، ص١١٩- ١٢٠.

(٢٥) الهادي المبروك الدالي: المرجع السابق، ص٣٠٤.

(٢٦) مارمول كربخال: **إفريقيا**، ج٣، ترجمة، عماد حجي وآخرون، مكتبة المعارف، الرباط، ١٩٨٣م، ص١٤٥.

(27) René -Caillie: *Voyage d'un faux musulman à travers l'Afrique*, Tombouctou, le Niger, jenné et le Désert à travers le continent noir Edition, E, Ardant (Limoges), 1882. P.91.

(28) Abderrahaman ben Abdallah ben Imran ben Amir Es-Saadi: *Trikh Es-Soudan*, Trad de l'arabe par. Houdas, avec Benoist, Edmond, E. Le roux. Paris, 1898. P.35.

(29) Gouvernement générale de l'Afrique Occidentale Francais (Notice) sur la Region de Tombouctou. Impremirie-du Gouvernement, Saint-Luis,1896. P.5.

(٣٠) عند رجوعنا للعديد من المصادر والمراجع التي تطرقت لدراسة أو وصف تنبكتو رأينا اختلاف بشأن تعداد سكانها، منها ما يزيد عن هذا العدد ومنها ما يقل. وقد اقتصرنا على العدد الذي يبدو معقولاً مقارنة بوضع تنبكت الاقتصادي والاجتماعي خلال الفترة المدروسة. انظر:
Mgra, Hacouard: *Monographie de Tombouctou*, Société de etudes, colonials et Maritimes, Paris.1900. P.24.

(٣١) عبد الرحمان السعدي: **تاريخ السودان**، الترجمة الفرنسية لهوداس، باريس،١٩٨١م، ص ٢٠-٢١.

علمية. عالمية. مُحكمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

(٣٢) الهادي المبروك الدالي: المرجع السابق، ص٣٠٨.

(٣٣) عبد الرحمان السعدي: المصدر السابق، ص٢١.

(٣٤) نبيلة حسن محمد: المرجع السابق، ص١٥١.

(٣٥) الهادي المبروك الدالي: المرجع السابق، ص٣٠٦.

(٣٦) عبد الرحمان السعدي: المصدر السابق، ص١١-١٢.

(٣٧) الحسن الوزان: المصدر السابق، ص١٦٢-١٦٣.

(٣٨) المصدر نفسه، ص١٦٣.

(٣٩) محمد حوتية: **توات والأزواد خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلادي**، رسالة دكتوراه دولة في التاريخ الحديث والمعاصر (غير منشورة)، جامعة الجزائر، ٢٠٠٣/٢٠٠٤م، ص١٣.

(٤٠) محمود كعت: **تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس**، مطبعة بردين، أنجي، ١٩١٣م، ص١٤-٤٥.

(٤١) عبد الرحمان السعدي: المصدر السابق، ص٧.

(٤٢) الحسن الوزان: المصدر السابق، ص١٦٩.

(٤٣) ابن حوقل (أبي القاسم، النصيبي): **كتاب صورة الأرض**، منشورات دار الحياة، بيروت، لبنان، ١٩٩٢م، ص٤٢.

(٤٤) الهادي المبروك الدالي: المرجع السابق، ص٣٠٩.

(٤٥) نعيم قداح: **إفريقيا الغربية في ظل الإسلام**، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، د. ت، ص٦٨.

(٤٦) الحسن الوزان: المصدر السابق، ص١٦٩.

(٤٧) ك. مادهوبانيكار: **الوثنية والإسلام: تاريخ الإمبراطورية الزنجية في غرب إفريقيا**، ترجمة وتعليق وتحقيق، أحمد فؤاد بلبع، ط٢، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية،١٩٩٧م، ص١٢٠.

(48) le Grande Dictionnaire Historique. Tome Second. Paris. P.4.

(٤٩) جوان جوزيف: **الإسلام في ممالك وإمبراطوريات إفريقيا السوداء**، ترجمة مختار السويفي، ط١، دار الكتاب المصري، القاهرة، ١٩٨٤م، ص٨٢.

(٥٠) محمد حوتية: المرجع السابق، ص١٤. انظر: أبي عبد الله الشريف الإدريسي: **القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس**، تحقيق، وتقديم، وتعليق، إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر،١٩٨٣م، ص ٤٤-٤٥.

(٥١) ك. مادهو يانيكار: المرجع السابق، ص١٠٠.

(٥٢) عبد الرحمان السعدي: المصدر السابق، ص١١.

(٥٣) الحسن الوزان: المصدر السابق، ص١٠٨.

(٥٤) عاصمة جمهورية النيجر. للمزيد انظر: إسماعيل ياغي ومحمود شاكر: **تاريخ العالم الإسلامي الحديث والمعاصر**، دار المريخ للنشر، السعودية، ١٩٩٣م، ص٢١١-٢١٧.

(٥٥) الهادي المبروك الدالي: المرجع السابق، ص٣١١.

(٥٦) الحسن الوزان: المصدر السابق، ص١٧١-١٧٢.

(٥٧) مارمول كربخال: المصدر السابق، ج٣، ص٢٠٧.

(٥٨) الهادي المبروك الدالي: المرجع السابق، ص٣١١.

(٥٩) عبد القادر زبادية: مملكة سنغاي، المرجع السابق، ص٢١٣.

(٦٠) يحي بوعزيز: **تاريخ إفريقيا الغربية الإسلامية**، المرجع السابق، ص٤٤.

(٦١) مارمول كربخال: المصدر السابق، ج٣، ص ١٧٩.

(٦٢) عبد القادر زبادية: **مملكة سنغاي**، المرجع السابق، ص٢١٤.

(٦٣) يحي بوعزيز: **طرق القوافل والأسواق التجارية بالصحراء الكبرى كما وجدها الأوربيون خلال القرن التاسع عشر**، في- مجلة الثقافة- ع٥٩- سبتمبر- أكتوبر، ١٩٨٠م، ص١٦.

(٦٤) يحي بوعزيز: **تاريخ إفريقيا الغربية الإسلامية**، المرجع السابق، ص٤٦.

(٦٥) يقع إقليم وادي سوف جنوب شرق الجزائر، وينتهي إلى العرق الشرقي الكبير، يحده من الشمال بلاد الزاب (بسكرة) والحوش وسيدي محمد بن موسى والزرائب، وبودخان ويمتد حتى جبال الأوراس، والنمامشة وإلى منطقة نقرين ومن الشرق، الحدود التونسية من نفطة ونفزاوة مرورا ببير رومان حتى غدامس، ومن الجنوب (القبلة) واحات طرابلس وغدامس وماولاها، ومن الغرب وادي ريغ (تقرت تماسين) وورقلة. انظر: ابراهيم العوامر: **الصروف في تاريخ الصحراء وسوف**، منشورات تالة، الأبيار، الجزائر،٢٠٠٧م، ص ٤١. وأيضًا:

Marc, Robert Tomas: *Sahara et Commumuauté*, presse universitaires de france, 1edition, Paris,1960. P.37.

(٦٦) عبد القادر زبادية: **مملكة سنغاي**، المرجع السابق، ص٢١٤.

(٦٧) إسماعيل العربي: **مسالك الإسلام والعربية إلى الصحراء الكبرى**، في مجلة الثقافة -العدد ٦٢- مارس- أفريل،١٩٨١، ص٤٣.

(٦٨) الهادي المبروك الدالي: المرجع السابق، ص٣١٩.

(٦٩) ابن حوقل (أبي القاسم النصيبي): المصدر السابق، ص ٩٨.

(٧٠) عبد القادر زبادية، مملكة سنغاي، المرجع السابق، ص٢٢٤.

(71) R, Mauny: *Les Siécles obscures de L'Afrique noirs*, Librairie Fayard. 1970. P.20.

(72) Bulletin de la Société de géographie commerciale de Paris1879/10 (T2)1880/10-10. P.460.

(٧٣) عبد القادر زبادية: **مملكة سنغاي**، المرجع السابق، ص٢٢٥.

(٧٤) الزبيري محمد العربي: **التجارة الخارجية لشرق الجزائر**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٧٢م، ص ١٦٨.

(٧٥) الحسن الوزان: المصدر السابق، ص٢٥٨.

(٧٦) الهادي المبروك الدالي: المرجع السابق، ص٣٢٣.

(٧٧) عبد القادر زبادية: مملكة سنغاي، المرجع السابق، ص٢٢٥.

(٧٨) جاجو حسين: **دور غدامس التجاري مابين طرابلس والسودان الأوسط خلال (١٨٥٠-١٨٨١م)**، بحث لنيل دبلوم الدراسات المعمقة، (غير منشور)، إشراف، عبد القادر زبادية، جامعة الجزائر،١٩٨١م، ص ٩٩.

(٧٩) عبد القادر زبادية: مملكة سنغاي، المرجع السابق، ص٢٢٦.

(٨٠) حسين جاجوا: المرجع السابق، ص ٩٧-٩٨.

(٨١) الهادي المبروك الدالي: المرجع السابق، ص٣٢٢.

(٨٢) المرجع نفسه، ص٣٢٣.

(٨٣) يحي بوعزيز: **طرق القوافل والأسواق التجارية بالصحراء الكبرى كما وجدها الأوربيون خلال القرن التاسع عشر**، المرجع السابق، ص١٨-١٩.

(٨٤) عبد القادر زبادية: **مملكة سنغاي**، المرجع السابق، ص٢١٩ - ٢٢٠.

(٨٥) يحي بوعزيز: **طرق القوافل والأسواق التجارية بالصحراء الكبرى كما وجدها الأوربيون خلال القرن التاسع عشر**، المرجع السابق، ص٢١.

(٨٦) المرجع نفسه، ص٢١.

(٨٧) المرجع نفسه، ص٢١.

(٨٨) عبد القادر زبادية: **مملكة سنغاي**، المرجع السابق، ص٢٢٠-٢٢١.

(٨٩) الهادي المبروك الدالي: المرجع السابق، ص٣٢٤.

(٩٠) مارمول كربخال: ج٣، المصدر السابق، ص ٢٠٤-٢٠٥.

(٩١) الهادي المبروك الدالي: المرجع السابق، ص٣٣٣.

(٩٢) يحي بوعزيز: **طرق القوافل والأسواق التجارية بالصحراء الكبرى كما وجدها الأوربيون خلال القرن التاسع عشر**، المرجع السابق، ص٢١.

(٩٣) عبد القادر زبادية: **مملكة سنغاي**، المرجع السابق، ص٢٢٢.

(٩٤) من أشهر مؤلفاتهم نذكر ما يلي: **أحمد بابا التمبكتي**: (نيل الابتهاج بتطريز الديباج.- كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج). **محمود كعت**: (تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس). **عبد الرحمان السعدي**: (تاريخ السودان). عثمان دان فوديو: انظر الفصل

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

الأول، ص ٥٣. محمد بللو ابن عثمان: (إنفاق الميسور.- فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور للبرتلي الولاتي).

(٩٥) عبد القادر زبادية: **مملكة سنغاي**، المرجع السابق، ص ٢١٨-٢١٩.

(٩٦) الهادي المبروك الدالي: المرجع السابق، ص٣٣٩.

(٩٧) محمد حوتية: المرجع السابق، ص ١١١.

(٩٨) يحي بوعزيز: **طرق القوافل والأسواق التجارية بالصحراء الكبرى كما وجدها الأوربيون خلال القرن التاسع عشر**، المرجع السابق، ص٢٢.

(٩٩) عبد القادر زبادية: **مملكة سنغاي**، المرجع السابق، ص ٢٠٨.

(١٠٠) الهادي المبروك الدالي: المرجع السابق، ص٣٤٠.

(١٠١) عبد القادر زبادية: **مملكة سنغاي**، المرجع السابق، ص ٢٠٨-٢٠٩.

(١٠٢) المرجع نفسه، ص٢٠٩.

(١٠٣) يحي بوعزيز: **تاريخ إفريقيا الغربية الإسلامية**، المرجع السابق، ص٥٤.

(١٠٤) الهادي المبروك الدالي: المرجع السابق، ص٣٤٢.

(١٠٥) يحي بوعزيز: **طرق القوافل والأسواق التجارية بالصحراء الكبرى كما وجدها الأوربيون خلال القرن التاسع عشر**، المرجع السابق، ص٢٢-٢٣.

(١٠٦) يحي بوعزيز: **تاريخ إفريقيا الغربية الإسلامية**، المرجع السابق، ص٥٤.

(١٠٧) ابن حوقل (النصيبي): المصدر السابق، ص٩٧.

(١٠٨) الهادي المبروك الدالي: المرجع السابق، ص٣٣٦.

(١٠٩) عبد القادر زبادية: **مملكة سنغاي**، المرجع السابق، ص ٢٠٠.

(١١٠) الهادي المبروك الدالي: المرجع السابق، ص٣٣٧.

(١١١) عبد القادر زبادية: **مملكة سنغاي**، المرجع السابق، ص ١٩٨-١٩٩.

(١١٢) يحي بوعزيز: **تاريخ إفريقيا الغربية الإسلامية**، المرجع السابق، ص٤٧.

(١١٣) يحي بوعزيز: **طرق القوافل والأسواق التجارية بالصحراء الكبرى كما وجدها الأوربيون خلال القرن التاسع عشر**، المرجع السابق، ص٢٤.

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449



جهود أبي عبد اللّه المقّري في إصلاح أوضاع عصره في حواضر المغرب الإسلامي من خلال أرائه الإصلاحية



محمد محمدي

أستاذ التعليم الثانوي

ماجستير في النقد العربي الحديث والمعاصر

ولاية سعيدة – الجمهورية الجزائرية

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

محمد محمدي، جهود أبي عبد الله المقري في إصلاح أوضاع عصره في حواضر المغرب الإسلامي من خلال آرائه الإصلاحية.- دورية كان التاريخية.- العدد الثالث والعشرون؛ مارس ٢٠١٤. ص ٦٢ – ٦٨.

www.kanhistorique.org

كان التاريخية: رقمية الموطن .. عربية الهوية .. عالمية الأداء

مُلَخّصْ

تسعى هذه الدراسة إلى التعريف بشخصية العالم الفقيه أبي عبد الله المقرّي وإبراز دوره في تغيير أحوال عصره من خلال كتبه والمسائل الفقهية التي عالجها، وآرائه التي قدمها، إضافة إلى التنويه بأبرز مواقفه الراشدة والتي لم يخش فيها لومة لائم، ويدّل على عمق تفكيره وروحه الإصلاحية الغيورة على تعاليم دينها وقيّم مجتمعها بأسلوب بليغ مؤثر وعبارات في قمّة البيان. وسنحاول عرض بعض أرائه الإصلاحية وكيف تناولها بالنقد، وكيف عالج بها أوضاع عصره؟ وطبيعي أن ترتكز هذه المداخلة على الجوانب التاريخية لهذه الشخصية في محاولة كشفها عن أوضاع عصر المقري والظروف التي عاشها.

مُقَدِّمَةُ

ولد "أبو عبد الله محمد المقّري" في تلمسان، أما تاريخ ولادته على وجه التحديد فلم تشر له جلّ المصادر التاريخية التي ترجمت له،[١] غير أنّ "أبو عبد الله محمد المقّري" نفسه ذكر في فهرسه[٢] أنّه ولد في عهد السلطان الزياني "أبي حمو موسى بن عثمان بن يغمرا سن" أحد سلاطين تلمسان في أوائل القرن الثامن الهجري الموافق للقرن الرابع عشر الميلادي.[٣] وقد رجّح الأستاذ "محمد الفاضل ابن عاشور"[٤] أنّ تاريخ مولد "عبد الله المقّري" كان في حدود سنة (٧١٠هـ/١٣١٠م) ووافقه في ذلك الأستاذ "أبو الأجفان" استنادًا على قول "أبو عبد الله المقّري" الذي أشار إلى صغر سنّه عندما استحسن منه جوابًا أستاذه "أبو إسحاق بن حكم السلوي" (ت.٧٣٧هـ/١٣٣٧م) وهو وارد على تلمسان بعد سنة ٧٢٠هـ/١٣٢٠م.[٥]

نشأ وسط أسرة تميزت بالعلم والمجد والثراء عندما احتضنت مترجمنا في طفولته وشبابه، الأمر الذي هيّأ له فرصة التفرغ لطلب العلم مبكرًا، فلم ينشغل بطلب العيش والبحث عنه، بل وجّه جلّ اهتمامه نحو لقاء المشايخ، إذ نشأ منذ صغره محبًا للعلم، حيث نلمس طلبه للعلم في سّن مبكرة من خلال روايته بالمصافحة عن "أبي عثمان سعيد بن علي الخياط" (ت. ٧٢٩هـ/١٣٢٩م)،[٦] فقال: «صافحته وأنا صغير»،[٧] مما يدل على إرادته وقوة عزيمته واستعداده لطلب العلم. ومما لاشك فيه؛ أنّ معاصرته لجهابذة العلم أمثال "أبو عبد الله ابن مرزوق الخطيب" (ت. ٧٨١هـ/١٣٧٩م)،[٨] و"الشريف التلمساني" (ت. ٧٧١هـ/ ١٣٦٩م)،[٩] وغيرهم من علماء عصره، جعله يحذوا حذوهم في تحقيق المكاسب العلمية، مما خلق جو من المنافسة العلمية، وقد ساهم ذلك دون شك في تكوين شخصية المقّري العلمية.

ومن العلماء الذين استفاد منهم "المقّري" في تلمسان سواء أكان من أهلها، أو ممَنْ ورد عليها نذكر: "أبو عبد الله محمد بن هدية القرشي" (ت.٧٣٥هـ/١٣٣٥م)،[١٠] و"أبو عبد الله محمد التميمي" (ت. ٧٤٥هـ/١٣٤٤م)[١١] صاحب "شرح المعالم" الذي أخذه عنه "المقّري"، وأخذ عن "أبو عبد الله محمد بن عبد النور"

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية

ISSN: 2090 – 0449

(ت. ٧٥٠هـ/١٣٤٩م)،[١٢] والشيخ "محمد بن الحسين البروني" وهو من الواردين على تلمسان من الأندلس، و"أبو إسحاق إبراهيم بن حكم الكناني السلوى" الذي ورد على تلمسان بعد سنة (٧٢٠هـ/١٣٢٠م) وقتل فيها سنة (٧٣٧هـ/١٣٣٦م)،[١٣] وقد روى عنه "المقّري" كثيرًا من إفاداته، حيث وصفه بأنّه: "مشكاة الأنوار الذي يكاد زينته يضئ ولو لم تمسسه نار"،[١٤] وعن "أبو محمد عبد الله بن الناصر المجاصي" (ت.٧٤١هـ/١٣٤٠م) الذي يعد ممّنْ تأثر بهم "المقّري" في اتجاهه الصوفي، فقد أخذ عنه مصافحة مسلسلة وأدعية ذات أسانيد، حيث يصفه: "بعالم الصلحاء، وصالح العلماء، وجليس التنزيل، وحليف البكاء والعويل"، ويسميه أهل مكة بالبكاء لشدة ورعه وخشيته.[١٥]

وذكر "المقّري" من شيوخه في تلمسان "أبو عبد الله محمد بن يحي بن النجار"،[١٦] الذي وصفه المقّري: "بنادرة الإعصار"، وقد ناقشه في بعض الفرع الفقهية.[١٧] وذكر من شيوخه أيضًا الشيخ "أبو عمران موسى المصمودي" الشهير بالبخاري لأنّه استمر في تدريس صحيحة، غير أنّ "المقّري" انتقده في بعض فتاويه الفقهية فقال عنه: «كان رحمه الله قليل الإصابة في الفتيا كثير المصيبات عليها»،[١٨] وأخذ أيضًا القراءات بالسبع والأحاديث بأسانيدها والشاطبتين عن الشيخ "أبو الحسن علي بن مزاحم المكناسي"، فيقول في ذلك: «جمعت عليه السبع وقرأت عليه البخاري والشاطبتين»،[١٩] كما أخذ "المقّري" أيضًا الصحيحين بأسانيدهما عن "الشيخ أبو عبد الله محمد بن حسن القرشي الزبيدي" (ت. ٧٤٩هـ/١٣٤٨م)،[٢٠] فقال عنه في رحلته: «شيخي وبركتي وقدوتي، حدثني بالصحيحين قراءة لبعضها ومناولة لجميعهما»، واستفادة من الشيخ "أبو محمد عبد المهيمن الحضرمي"،[٢١] والفقيه "أبو عبد الله بن سليمان السطي" (ت. ٧٤٩ هـ/١٣٤٨م)[٢٢] الذي قرأ كتاب الحوفي علمًا وعملاً. كما أخذ عن الشيخ "أبو عبد الله الرندي الفاسي"،[٢٣] الذي اصطحبه أبا الحسن المريني معه إلى تونس، والقاضي "أبو عبد الله محمد ابن عبد الرزاق الجز ولي"،[٢٤] والشقيقان "أبو عبد الله محمد"، و"أبو العباس أحمد" ابنا "محمد ابن مرزوق العجيسي".[٢٥]

أولاً: آراء أبي عبد الله المقّري الإصلاحية

تميز الإمام "أبو عبد الله المقّري" بنظرة ثاقبة وأفق واسع، إذ كان ينظر إلى مشاكل عصره - لاسيما العلمية- منها باهتمام بالغ، معالجًا لكثير من القضايا، متجها للعادات التي سادت عصره بالنّقد البنّاء الذي يدّل على عمق تفكيره وروحه الإصلاحية الغيورة على تعاليم دينها وقيّم مجتمعها بأسلوب بليغ مؤثر وعبارات في قمّة البيان. وسنحاول عرض بعض أرائه الإصلاحية وكيف تناولها بالنقد، وكيف عالج بها أوضاع عصره ؟

١/١- رأي المقّري في طرق تحصيل العلم والدراسة:

ممّا لاشك فيه؛ أن الرّحلة العلمية التي قام بها "أبو عبد الله المقّري" قد تركت أثرها في شخصيته كغيره من أعلام عصره وذلك لاستفادته منها، فكان يرى أنّه ينبغي على طالب العلم القيام بها لأنّها تجعل الإنسان حرًا في تحصيل العلم والاستزادة منه، واكتمال فوائده بلقاء المشايخ ومباشرتهم، وسماع العلم مشافهةً من كبار العلماء، و بناءً على ذلك استنكر كثرة التأليف وبناء المدارس التي انتشرت في عصره، إذ كان يرى أنّهما قد شغلا طلاب العلم عن الرحلة في طلبه وأقعدهم عن تحصيله، وهو في ذلك يحنو منحى شيخه "الآبلي" الذي عارض اتخاذ المدارس التعليمية وكثرة التآليف،[٢٦] حيث يقول "المقّري" في ذلك على رأي شيخه: «سمعت الشيخ الآبلي يقول: إنّما أفسد العلم كثرة التواليف، وإنّما أذهبه بنيان المدارس...»،[٢٧] ثم يضيف معلّلاً موقفه: «...إنّ التآليف نسخ الرحلة التي هي أصل جمع العلم، فكان الرجل ينفق فيها المال الكثير وقد لا يحصل له من العلم إلا النزر اليسير لأنّ عنايته على قدر مشقته في طلبه، ثم يشتري أكبر ديوان بأبخس الأثمان فلا يقع منه أكبر من موقع ما عوّض عنه فلم يزل الأمر كذلك حتى نسي الأول بالآخر».[٢٨]

ويقصد من ذلك؛ أنّ على قدر المشّقة والجهد يأتي التحصيل، والمدرسة تسهيل لطالب العلم وتخفيف له فهي تقلّل من المشقة، فلا يحس الطالب فيها بقيمة ما يتلقاه.[٢٩] كما بيّن "المقّري" سبب إنكاره للمدارس بأنّها تجذب الطلبة بكثرة نتيجة الإغراءات والجرايات التي تقدم لهم من قبل الدولة والأوقاف وأنّهم لا يأخذون العلم إلاّ من العلماء الذين لهم علاقة بالسلاطين، إذ يعنيهم في هذه المدارس هؤلاء السلاطين وهو يرى أيضًا بأن إشراف الدولة على هذه المدارس يجعل الدارسين يتقيدون بالاتجاه العام والرسمي لها ولا يمكنهم الحياد عن ذلك،[٣٠] حيث يقول في ذلك: «أما البناء فإنّه يجذب الطلب إلى ما يترتب فيه من الجرايات فيقبل بهم على مَنْ يعينه أهل الرياسة للأُجَرَاءِ والأفراد منهم أو مَنْ يرضى لنفسه الدخول في حكمهم ويصرفهم عن أهل العلم حقيقة الذين لا يدعون إلى ذلك، وإن دعوا لم يجيبوا وإن أجابوا لم يوفوا لهم بما يطلبون من غيرهم»،[٣١] وقد أيده في ذلك "أحمد بابا" أيضًا ملاحظًا أنّ كراسي التدريس أسندت إلى غير أهلها فضعف المستوى العلمي.[٣٢]

فالواضح أنّ "المقّري" كان يخشى تدارس العلم وذهاب إشعاعه بزوال الرحلة العلمية، بسبب انتشار التآليف وتعدد المدارس في ذلك على حساب الرحلة في طلب العلم، والسعي في طلبه للاستفادة من كبار العلماء في المشرق والمغرب، وفي هذا يسير "ابن خلدون" على نهج أستاذه "المقّري"، حيث يرى هو الآخر أنّ كثرة التأليف في العلوم عائقة عن التحصيل وأنّ الرّحلة ضرورية لذلك.[٣٣] فيظهر أنّ نظرة "المقّري" كانت تركز على الجانب السلبي لانتشار التأليف وتعدد المدارس، لكن في الواقع لا يمكن تجاهل الدور الذي أدته التآليف والمدارس في نشر العلم وازدهار الحركة العلمية.

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

٢/١- النقل عن غير المعتمد من المختصرات:

من الأمور التي كان لها انتشار واسع في عصر "المقّري" كثرة التآليف المختصرة والنقل من المختصرات التي لا يُعرف أصحابها، والجدير بالذكر أن ظاهرة انتشار المختصرات والموجز ظهرت في بلاد المشرق بكثرة المؤلفات الفقهية وغيرها، فالتزم الفقهاء بالاختصار وتوسعوا في تصنيف المتون والحواشي والمختصرات التي يحفظها الطالب عن ظهر قلب، فيها من الإيجاز ما يخل بالمعاني ويزيدها غموضًا.[٣٤] فاستنكر "المقّري" ما كثر في عصره من النقل من الكتب المختصرة لمؤلفين غير معروفين، حيث يقول في ذلك مجليًا عن رأيه: «ولقد استباح الناس النقل من المختصرات الغريبة أربابها، ونسوا ظواهر ما فيها إلى أمهاتها...، ثم تركوا الرواية فكثر التصحيف وانقطعت سلسلة الاتصال، فصارت الفتاوى تنفذ من كتب لا يدري ما زيد فيها مما نقص منها لعدم تصحيحها وقلة الكشف عنها... ».[٣٥]

فقد كان لا يرى في كتب المختصرات بديلاً عن كتب الأمّهات المعتمدة في المذهب، وذلك لأنّ المبالغة في اختصارها جعل منها رموزًا وألغازًا يصعب فكّها، ولذا حذّر طلبة العلم منها في عصره - الذين أنكبو على هذه المختصرات حفظا وفهما- من أن يستمّروا في ذلك حتى لا يفنّوا أعمارهم في حلّ ألغازها وفهم رموزها دون تحصيل علم نافع، وأن يرجعوا إلى أخذ العلم من أصوله المعتمدة وفي هذا الصدد يقول: «... اقتصروا على حفظ المختصرات ما قلّ لفظه، ونزر حظه، وأفنوا أعمارهم في حل لغوزه، وفهم رموزه، ولم يصلوا إلى ردّ ما فيه إلى أصوله بالتصحيح، فضلاً عن معرفة الضعيف من ذلك والصحيح، بل هو حل مقفل وفهم أمر مجمل، ومطالعة وتقييدات، زعموا أنّها تستهض النفوس فبينما نحن نستكبر العدول عن كتب الأئمة إلى كتب الشيوخ، أتيحت لنا تقييدات للجهلة بل مسودات المسوخ».[٣٦]

ويتضح من خلال حديث "المقّري" أنّه يستحيل فهم هذه المختصرات إلاّ إذا توفرت لها شروح وحواشي وهوامش، فقد توفرت هذه الكتب بكثرة وهي متفاوتة القيمة، وصارت تعد خطرًا بالنسبة للفقه لابتعادها عن التعمق في البحث والاجتهاد من جهة، ولضعف الروح النقدية من جهة ثانية.[٣٧] والجدير بالتنويه؛ أنّ رأي "المقّري" هذا حلّ محلّ الرضا والقبول عند مجموعة من العلماء، فكان أن أثبتوها في مؤلفاتهم وفي مواضع مختلفة،[٣٨] كما كان لها أثر في تلامذته منهم "ابن خلدون" الذي يقول عن المختصرات ومؤلفها: «قصدوا إلى تسهيل الحفظ على المتعلمين فأركبوهم صعبًا بقطعهم عن تحصيل الملكات النافعة وتمكنها»،[٣٩] وكذا تلميذه "الشاطبي" الذي ينصح باعتماد كتب المتقدمين دون غيرها من الكتب المتأخرة لأنّها كما يقول: «أنفع لمَنْ أراد الأخذ بالاحتياط في العلم على أي نوع كان خصوصًا علم الشريعة، الذي هو العروة الوثقى والوزر الأحمى».[٤٠]

٣/١- ذمّه للتعصب المذهبي:

التعصب لمذهب من المذاهب ظاهرة برزت في بعض العصور واستفحل شأنها في عصر "المقّري"، كما ظل بعض الفقهاء المحافظين على الفروع يعتمدوا على النقل الحرفي لآراء السابقين، الأمر الذي حمله على التحذير من هذه الظاهرة وبيان أخطارها.[٤١] فقد كان رغم مالكيته بعيدًا عن التعصب لمذهبه، متبعًا الحق أينما وجد بالحجة والبرهان ويظهر ذلك من خلال قوله: «فترى الرجل يبذل جهده في استقصاء المسائل وسيتفرغ وسعه في تقدير الطرق وتحرير الدلائل، ثم لا يختار إلا مذهب من انتصر له وحده لمحض التعصب له مع ظهور الحجة الدامغة».[٤٢] فقد ندّد بالتقليد والتعصب كونه معصية لابتعاد العالم عن الحق معرضًا عن الحجة تعصبًا منه للمذهب الذي ينتمي إليه،[٤٣] وتصدى لبعض المواقف التقليدية المتّزمتة التي سادت عصره كظاهرة الجنوح إلى الأقوال المنقولة والفتوى بما أفتى به السابقون، حيث يقول محذرًا من ذلك في موضع آخر: «واعلم أن أصل التقليد هو المعصية التي هي كالطبع لهذا النوع لأنه غلب عليه حبّ الخيال والوهم وقلّ فيه طاعة العقل والفهم».[٤٤]

وقد بيّن "المقّري" ما يؤدي إليه التعصب المذهبي من نتائج غير مرضية وعواقب وخيمة والتي تتمثل في قدح بعض العلماء وغيبتهم وحتى إلى تكفير وتفسيق البعض الآخر، وفي هذا خطر الابتعاد عن صفوف المسلمين، وفي ذلك محاولة منه إلى تغيير هذا الفكر ووضع حد لهذه الظاهرة الخطيرة، إذ يقول: «حتى أفضى إلى اغتياب ميتٍ وإغضاب حيٍ، ثم إلى اختلال الدليل وتكليف التأويل، ثم إلى التفسيق والتكفير، والدخول في أمور التخليص منها عسير».[٤٥] ولم يكتفي بالتنديد به بل وضع له قاعدة في كتابه "القواعد"[٤٦] تؤكد على خطورته ووضع حد له.[٤٧]

٤/١- رفضه الاحتجاج بعمل أهل قرطبة:

لاحظ "المقّري" في بيئته المغربية اعتماد بعض علماء الأندلس والمغرب عمل أهل قرطبة- أي أن يكون الحكم بقضاء قرطبة - وجعلوه مسلكًا للاحتجاج به، حيث ورد في أحكام بعض القضاة قولهم: «هذا ما جرى به عمل أهل قرطبة».[٤٨] فقد رفض "المقّري" هذا الرأي واستنكره، إذ اعتبره جمودًا يقضي على تعاليم الإسلام بالتبديل والتغيير فيه حتى لا يبقى منه إلاّ القول دون العمل، فجاء عنه في ذلك قوله: «وعلى هذا الشرط ترتب إيجاب إتباع عمل القضاء بالأندلس ثم انتقل إلى المغرب، فيما نحن ننازع الناس في عمل المدينة، وتصيح بأهل الكوفة مع كثرة من نزلها من العلماء الأمة مثل "علي" و"ابن مسعود" ومن كان معهما :ليس التكحل في العينين كالكحل، سنح لها بعض الجمود ومعدن التقليد: الله أخّر موتي فتأخرت حتى رأيت من الزمان عجائبا».

الواضح أنّ "المقّري" كان يرى بأنّ هذا المسلك وما فيه من الجمود يجعل العادة تحل محلّ الشرع والدّين الصحيح، وفي هذا خطر على الإسلام وأهله،[٤٩] فيقول في ذلك رغبة منه في تغيير

علمية. عالمية. مُحكَمة. ربع سنوية | ISSN: 2090 – 0449

الوضع: «يا لله ويا للمسلمين ذهبت قرطبة وأهلها، ولم يبرح من الناس جهلها... ألا ترى خصال الجاهلية... مما نهي عنه وحذّر منه، كيف لم تزل من أهلها وانتقلت إلى غيرهم مع تيسر أمرها، حتى كأنّهم لا يرفعون بالدّين رأسا، ويجعلون العادات القديمة أسّا».(٥٠)

وبناءً على موقف "المقّري" هذا، فقد استنتج بعض الباحثين أنّه كان يدعو من خلاله إلى إحداث عمل خاص يناسب الأوضاع الاجتماعية لبلاده مع التزام أسس المذهب المالكي، ولكن دعوته لم تؤت أكلها إلا بعد وقت طويل.(٥١)

٥/١- رأيه في الانحراف السياسي وبعض البدع والعادات السائدة:

ما يلاحظ على "أبو عبد الله المقّري" أنّه كان ينظر إلى واقع عصره بحدب واهتمام محاولاً إصلاحه مما أصابه من البلاء ومن ذلك الانحراف السياسي، حيث يظهر هذا من خلال ما أبداه من آراء إزاء الملوك والسلاطين الذين لم يسلكوا بالمسلمين طريقة الجادة، فقد كان بعضهم يجمع حوله العلماء ويجزل لهم العطاء ويقتنصهم بذلك اقتناصًا للتباهي، وكان هؤلاء العلماء يتهافتون على أبواب السلاطين والحكام طمعًا في عطاياهم، وهم شرّ العلماء كما وصفهم "المقّري"، إذ تناسوا رسالتهم الحقيقة إزاء هؤلاء الملوك في تقديم لهم النصح والإرشاد، مقارنًا بينهم وبين علماء السلف فقال في ذلك: «واعلم أنّ شرّ العلماء علماء السلاطين، وللعلماء معهم أحوال».(٥٢)

فكان "المقّري" ينظر إلى ما يجري في الأمة من مفاسد وانحرافات أنّها قد تكون مما قصّه القرآن والأخبار من أمر اليهود والنصارى، وأنّه لولا انقطاع الوحي لنزل في هذه الأمة أكثر مما نزل فيهم، لكثرة التفرق والتنازع، فيقول: « وقد قصّ علينا القرآن والأخبار عن أمرهم ما شهدنا أكثر منه فينا... يشير إلى افتراق هذه الأمة على أكثر مما افترقت عليه بنوا إسرائيل».(٥٣) كما استنكر بعض البدع والعادات السيئة الجارية آنذاك لخروجها عن المنهج الإسلامي ومن هذه البدع:

- **عادة تعيين الذابح على الجزارين: مقابل أجر ولا يسمح بذلك لغيره، فيقول: «من البدع المستحسنة عادة المستقبحة عبادة، تعيين الذابح على الجزارين واختياره من أهل الدّين والفضل وحملهم عليه حتى إنّ من تولى الذبح لنفسه منهم ولو كان من أهل الخير يخاف العقوبة...».(٥٤)**

فقد اعتبر "المقّري" ذلك تضييقًا على الناس وشبّهه بفعل اليهود الذين يحصرون الذبح على كهنتهم، فشدّدوا على أنفسهم وعلى غيرهم، مستدلاً بقوله (ﷺ): "لَتَتْبَعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ شِبْرًا شِبْرًا وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ تَبِعْتُمُوهُمْ" قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى قَالَ: "فَمَنْ"،(٥٥) فهو في ذلك يحذر المسلمين من تقليد غيرهم من اليهود والنصارى التقليد الأعمى، دون نظر أو روية، ثم يدعوهم إلى التّحلي بروح الشريعة السمحة القائمة على اليسر ورفع الحرج عن الناس.

- **ومن البدع التي ثار عليها "المقّري" أيضًا ورام تغيير منكرها إجماع الطلبة في فاس في بعض المساجد على الرّقص وضرب المعازف والمبادرة بختم القرآن قبل الفجر.**

فقد استنكر استخفاف الأمة وعدم تعظيمها لشعائر الله خاصةً الصلاة، التي تجرأ عليها هؤلاء بإدخال الإيقاع في التكبير عند التسميع، فخرجوا بها عن هيئتها وقد سُكِتَ لهم قبل هذا عن اللعب في الآذان فتجرءوا ولعبوا في الصلاة،(٥٦) فيقول في هذا: «وقد بلغني عن بعض مساجد فاس، أنّ الطلبة يجتمعون في حصونها على الرّقص وضرب الصيران... استخفوا اللعب في الآذان، فجرأهم على اللعب بالصلاة والقرآن، وربّ فتنة فادت محنة... فترى المسمع يطوّل في تكبيرة الإحرام ثم ينوع صوته بالتكبير بحسب اختلاف هيئات الإمام، وقد يكبّرون من غير حاجة إما لقصد القربة أو لإظهار الأبهة، سكت لهم عن اللعب في الآذان فلعبوا في الصلاة».(٥٧)

- **واستنكر أبو عبد الله "المقّري" استنكارًا شديدًا عادة نداء الملوك بـ: "يا مولاي"، رغبةً منه في تغيير منكرها.**

فكان يرى أنّها عادةً يتنافى لفظها مع ما يحب الله تعالى من نداء، ولا يجد المرء معه ما ينادي به ربّه مستدلا بعدة أحاديث تنهى عن ذلك منها قوله (ﷺ): "لا يقل العبد لسيده مولاي فإنّ مولاكم الله"،(٥٨) فهو يرى أنّ تعليم بعض العلماء أبناءهم أنّ ينادوهم بسيدي ومولاي من قبيل تحسين الشيطان، وفيه استكبار على الولد وتنزيل له منزلة العبد فيقول: «الواجب توقير أسماء الرّب بالتفرد حتى يرد الإذن البيّن، والوقوف عند موجب العلم والعمل».(٥٩)

إضافةً إلى هذا؛ فقد أورد "الشاطبي" في إفاداته، وكذا "أحمد المقّري" في نفحه رأيًا آخر من أراء "المقّري" وهو عادة المشارقة في التسمية بـ "قاضي القضاة"،(٦٠) حيث انتقد "المقّري" ذلك مستدلاً بقول النّبي (ﷺ):(٦١) "أَخْنَعُ الأَسْمَاءِ عِنْدَ الله رَجُلٌ تَسَمَّى بِمَلِكِ الأَمْلاَكِ".(٦٢)

ثانيًا: مواقف أبي عبد الله المقّري

قد أثر عن "الإمام أبو عبد الله المقّري" بعض المواقف التي سجلّتها كتب التاريخ وتناقلها المؤلفون وأثّرت على غيره من الشخصيات العلمية، لما لها من فوائد، ففي الواقع كان شجاعًا في الإعلان عمّا يراه صوابًا، وهذه من بعض الصفات التي تميز بها. وقد أورد "المقّري" نفسه في مؤلفاته الكثير من مواقفه سواء مع شيوخه أو مع خاصة المجتمع، كما أورد مواقف شيوخه مع أقرانه وشيوخهم،(٦٣) وسنحاول هنا عرض بعض مواقفه:

١/٢- موقف "المقّري" مع نقيب الأشراف في فاس:

سبق وأسلفنا الحديث عن دور "أبي عبد الله المقّري" في نشر العلم في حواضر المغرب الإسلامي والتي كان منها حاضرة مدينة فاس

ISSN: 2090 – 0449 علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية

التي كان يحضر بها مجلس السلطان "أبي عنان". والجدير بالتنويه؛ أنّه كان إذا دخل مزوار الشرفاء في فاس[٦٤] هذا المجلس، قام له السلطان وجميع مَنْ في مجلسه إجلالاً له ما عدا "المقّري"، الأمر الذي ترك أثرًا في نفس المزوار، حيث قام بشكاية "المقّري" إلى السلطان، هذا الأخير كان أن ردّ عليه قائلاً: «إنّ هذا الفقيه وارد علينا، نتركه على حاله إلى أن ينصرف». وكان أن عاد المزوار مرة أخرى ودخل المجلس، فقام له السلطان ومَنْ معه كالمعتاد، ما عاد "المقّري"، فالتفت المزوار إليه قائلاً: « يّها الفقيه مالك لا تقوم لي إكرامًا لجدّي وشرفي، ومَنْ أنت حتى لا تقوم لي»، فنظر إليه "المقّري" وأجابه على عدم القيام له كما يفعل السلطان وجميع مَنْ في المجلس قائلاً: «أما شرفي فمحقّق بالعلم الذي أنا أبثه ولا يرتاب فيه أحد، وأمّا شرفك فمظنون، ومَنْ لنا بصحّته منذ أزيد من سبعمائة عام ولو علمنا شرفك قطعًا لأقمنا هذا من هنا -وأشار إلى السلطان أبي عنان- وأجلسناك مجلسه، فسكت المزوار».[٦٥] وهذا الموقف إن دلّ على شيء فإنما يدّل على اعتزازه بشرفه العلمي من جهة، وشجاعته وقدرته في الإبداء عن رأيه من جهة ثانية.

٢/٢- المقّري والسلطان أبو عنان أثناء شرح حديث "الأئمة من قريش":

كان من عادة السلطان "أبو عنان المريني" قراءة بعض كتب الحديث منها "صحيح مسلم" بحضرة أكابر فقهاء فاس وخاصتهم، ومن ثَمَّ يتولى "المقّري" شرحها، وحدث أن وصل في شرحها إلى قراءة حديث "الأئمة من قريش". فقال الناس: «إن أفصح بذلك استوغر قلب السلطان وإن وري وقع في محضور فجعلوا يتوقعون ذلك»، فلما وصل إلى شرح الحديث قال بحضرة السلطان والجمهور: «إن الأئمة من قريش» ثلاثا، وقال بعد كل كلمة: «وغيرهم متغلب»، ثم نظر إلى السلطان وقال: «لا عليك فإنّ القرشي اليوم مضنون، أنت أهل للخلافة إذ توفرت فيك بعض الشروط والحمد لله»، ولمّا انصرف لمنزله بعث له السلطان ألف دينار.[٦٦]

٣/٢- المقّري مع شيخه ابن الحكم:

تذاكر "المقّري" يومًا مع شيخه "إبراهيم ابن حكم السلوى" في تكملة "محمد بن محمد بن مالك"[٦٧] لشرح التسهيل لأبيه، ففضّل "أبو عبد الله المقري" شرح الأب على تكملة الابن، وخالفه شيخه مفضلاً تكملة الابن، فقال "المقّري" على البديهة:

عهود من الآباء توارثها الأبنا

فردّ عليه شيخه بديهة أيضاً:

بنوا مجدها لكن بنوهم لها أبنى.[٦٨]

من خلال هذه المواقف لـ"المقّري"، يتضح جليّا تكامل شخصيته العلمية والتي تتوفر فيها الشجاعة والجرأة، فقد اتصف بقوة الشخصية في إبداء الرأي سواء مع السلطان "أبي عنان"، أو مع شيخه "ابن الحكم"، وحتى مع "نقيب الأشراف".

خاتمة

نقدم في ختام هذا البحث أهم جهود أبي عبد الله المقّري في إصلاح عصره، وهي:

التدريس: فلم يبخل بنشر علمه وثقافته على طلاب العلم الذين ازدحمت بهم حلقات درسه وخاصةً في المدرسة "المتوكلية" في فاس، و"الجامع الأعظم" في غرناطة، فتخرج على يده العديد من العلماء أمثال "لسان الدين ابن الخطيب"، و"عبد الرحمن ابن خلدون"، و"أبي إسحاق الشاطبي" وغيرهم.

المؤلفات والكتب: حيث أثرى المكتبة الإسلامية بمصنفات هامة في شتى العلوم، من لغة ومنطق وتصوف وأصول وفقه، ووصل بعلمه إلى مستوى تقعيد القواعد الفقهية والربط بالمقاصد الشرعية، فكان بذلك جديرًا بأن يطلق عليه "إمام فن القواعد".

الفتاوى: أثرت عنه فتاوى في مختلف الأمور الشرعية، إذ كانت ترد إليه أسئلة من السلطان ومن عامة الناس للاستفتاء وبيان الحكم الشرعي في مختلف القضايا التي شغلت المجتمع المغربي والأندلسي.

الوظائف: تجلت مساهمته بتقلده لبعض الوظائف الحكومية والتي لم يكن يسعى إليها، وإنما كانت تأتي إليه لتقدير الحكام والناس له منها "قضاء الجماعة" في فاس و"قضاء العسكر" لأبي عنان، وقد أثر عنه في قضائه عدله ونزاهته وصبره، كما أسندت إليه مهمة السفارة، والتي لا تسند عادةً إلاّ إلى العلماء المقربين من السلاطين.

كما ساهم في حركة الإصلاح ضد بعض التيارات المنحرفة التي ظهرت في مجتمع المغرب الإسلامي فعمل على تجنيب المجتمع من الوقوع فيها.

ISSN: 2090 – 0449 علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية

الهوامش:

(١) ابن الخطيب، **الإحاطة**، ج٢، ص١٣٦، أحمد المقّري، **أزهار الرياض**، ج٥، ص١، ابن خلدون، **التعريف بابن خلدون**، ص٥٩، ابن عماد، **شذرات الذهب**، ج٨، ص٣٣٢، ابن القاضي، **درة الحجال**، ج٢، ص٤٣.

(٢) سمي"نظم اللاتي في سلوك الأمالي".أحمد المقّري، **نفح الطيب**،ج٥، ص٢١٥، أحمد المقّري، **أزهار الرياض**، ج٥، ص٢٨، الكتاني، **فهرس الفهارس والإثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات**، اعتناء إحسان عباس، ج٣، ط٢، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٢ج٣، ص ٦٨٢.

(٣) أحمد المقّري، **أزهار الرياض**، ج٥، ص٢٥، عبد القادر زمامه، **المقري الجد**، مجلة دعوة الحق، ع٤، السنة التاسعة، وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، ديسمبر ١٩٦٥، ص ٩٦.

(٤) محمد ابن عاشور، **أعلام الفكر الإسلامي**، ص٨٠.

(٥)أبو الأجفان محمد، **الإمام أبو عبد الله محمد المقري التلمساني**، الدار العربية للكتاب، تونس، ١٩٨٨م، ص٣٢

(٦) هو أبو عثمان سعيد بن إبراهيم بن علي الخياط، عرف بابن سبعين، متصوف ألبس الخرقة على طريق أبي العباس الرفاعي وطريق السيد أبي مدين.

(٧) أحمد المقّري، **نفح الطيب**، ج٥، ص ٢٤١.

(٨) هو محمد بن أحمد التلمساني، ولد سنة (٧١١هـ) في تلمسان وبها نشأ، قرأ القرآن على الفقيه أبي زيد عبد الرحمان بن يعقوب بن علي، وله مشايخ جلّة بالمشرق والمغرب، خطيب ذو وجاهة عند السلاطين، تولى الخطابة بجامع الحمراء بغرناطة، خدم الملوك من بني مرين منهم السلطان أبي سالم، وولاه السلطان الحفصي أبو إسحاق الخطابة بجامع الموحدين ورحل إلى القاهرة فتولى التدريس وقضاء المالكية إلى أن توفي هناك سنة (٧٨١ هـ)، واشتهر من مؤلفاته كتاب "المسند الصحيح الحسن في أخبار المولى أبي الحسن"، يحي بن خلدون، المصدر السابق، ج١، ص ١١٥، ابن فرحون، **الديباج المذهب**، ص٣٩٦-٣٩٩، محمد زمري، **الأعلام المغاربة في مصنفات المشارقة**، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، ٢٠٠٤، ص ٨٩-٩٠.

(٩) هو محمد بن أحمد الشريف الحسني التلمساني، يعرف بالعلوي نسبة إلى قرية من أعمال تلمسان تسمى "العلويين"، ولد سنة (٧١٠هـ/١٣١٠م)، أخذ عن الآبلي وارتحل إلى تونس فأخذ عن ابن عبد السلام، استخلصه أبو عنان واختاره لمجلسه لما ملك تلمسان ورحل به إلى فاس، نبغ في علوم كثيرة وترك مؤلفات هامة يأتي في طليعتها "مفتاح الوصول إلى بناء الفروع على الأصول" و"مثارات الغلط في الأدلة" و"شرح جمل الخونجي"، توفي سنة (٧٧١هـ)، ابن خلدون، **التعريف**، ص ٦٢-٦٤، الزركلي، **الأعلام**، ج٦، ص ٢٢٤.

(١٠) هو أبو عبد الله محمد بن منصور بن هدية القرشي التلمساني، من نسل عقبة بن نافع، اهتم بالفقه واللسان والأدب، عمل بكتابة الرسائل على لسان سلاطين تلمسان، وتولى قضاء الجماعة في تلمسان. يحي بن خلدون، **بغية الرواد**، ج٢، ص١١٦، البغدادي، **هدية العارفين**، ج٢، ص١٤٩.

(١١) هو محمد بن أبي عبد الله محمد بن أحمد بن علي بن أبي عمروا لتميمي، ينتمي إلى أسرة عريقة من أسر تونس، أخذ عن أبي الطاهر بن سرور و غيره، ثم قدم تلمسان وعين بها قاضيا، ودرس العلوم الدينية وروى عنه أبو عبد الشريف والمقّري وغيرهما، ومن تأليفه كتاب" اللخمي على المدونة"، يحي ابن خلدون، المصدر نفسه، ج١، ص١٣١ .

(١٢) أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن عبد النور، قاضي فاس وقاضي عسكر أبي الحسن المريني، كان إماما مبرزا في الفقه على مذهب مالك، تفقه بالأخوين ابني الإمام، وعنه أخذ جماعة من أعيان تونس حين قدم مع الأمير المذكور، وتوفي بالطاعون عام حوالي ٧٥٠هـ، ابن مخلوف، المصدر السابق، ص٢٢١، ابن مرزوق، المسند الصحيح، ص٢٦٧، التمبكتى، **نيل الابتهاج**، ص٢٤٠ .

(١٣) ورد تلمسان فارا من بني مرين، وانكب على الدرس وأخذ بها عن عمران المشدالي وغيره، ثم عين للتدريس بالمدرسة التاشفينية، قتل عندما فتح المرينين تلمسان سنة (٧٣٧هـ)، ابن القاضي، **درة الحجال**، ج١، ص١٧٨.

(١٤) أحمد المقّري، **أزهار الرياض**، ج٥، ص٣٠.

(١٥) الملقب بالبكاء لكثرة الخشية والتقوى، رحل إلى المشرق لطلب العلم وانتصب بتلمسان للتدريس والوعظ، من تلامذته أبو عبد الله الشريف وابن مرزوق وغيرهم، يحي ابن خلدون، المصدر السابق، ج١، ص١٠٥، ابن مريم، المصدر السابق، ص ١٢١.

(١٦) مراكشي الأصل، ولد ونشأ في تلمسان، أخذ عن الآبلي، ثم انتقل إلى المغرب الأقصى فدرس علي آبي عبد الله محمد بن هلال شرح "المجسطي" بسبته، وأخذ بمراكش عن ابن البناء فنبغ في العلوم العقلية، وعاد إلي تلمسان بعلم غزير والتحق ببلاط أبي الحسن المريني فصحبه إلى افريقية حتى توفي بالطاعون سنة (٧٤٩هـ)، ومن تلامذته أبو عبد الله الشريف وابن الفحام وغيرهم، ابن خلدون، **التعريف**، ص٤٧، ابن القاضي، **درة الحجال**،ج٢،ص٢٦٤، التنبكتي، **نيل الابتهاج**، ص ٥٢٥.

(١٧) أحمد المقّري، **أزهار الرياض**،ج٥، ص ٥١.

(١٨) أحمد المقّري، نفسه، ج٥، ص٥١.

(١٩) نفسه، ج٥، ص ٥١.

(٢٠) هو أبو عبدا لله محمد بن الحسن بن عبد الله الزبيدي القرشي الشهير بالفقيه، كان كبير تونس لعهده في العلو والفتيا هلك في الطاعون الجارف سنة ٧٤٠هـ، ابن خلدون، المصدر نفسه، ص١٤-١٥، ابن بطوطة، **رحلة ابن بطوطة**، ص١٦.

(٢١) هو الفقيه المحدث الكاتب عبد المهيمن الحضرمي السبتى، اخذ عن أبي الربيع وأبي صالح الكتاني وغيرهم، ورد إلي تونس صحبة أبي الحسن المرينى، أخذ عنه ابن خلدون وابن جزي الغرناطي، الشاطبي، **الإفادات والإنشادات**، ص٣١، النباهي، **تاريخ قضاة الأندلس**، ص١٣٢، محمد محفوظ، **تراجم المؤلفين التونسيين**،ج٢، ط١، دار الغرب الإسلامي، لبنان، ١٩٨٢، ص١٥٨-١٥٩.

(٢٢) شيخ الفتيا بالمغرب وإمام المذهب المالكي، من قبيلة سطة من بطون أوربة بنواحي فاس، أخذ عن أبي الحسن الصغير وأبي الحسن الطنجي، له شرح على المدونة وتقيد على فرائض الحوفي وغيرها ،اصطفاه أبي الحسن المريني مع جماعة من العلماء بصحبته حين سفره بتونس، وأقام بها ولما رجع بحرا مات غريقًا في الأسطول بأحواز بجاية سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٨م، محمد حجي، **موسوعة أعلام المغرب**، ج٢، دار الغرب الإسلامي، ص٦٤٠، الشاطبي، المصدر السابق، ص ٨٥، ابن القاضي، المصدر السابق، ص٢٠١، السراج، المصدر السابق، ج١، ص٦٧٠.

(٢٣) كان حافظًا للمذهب قائمًا به، إمامًا في العربية، متقدما في النظر، انتفع به خلق كثير، لازم أبا الحسن المريني في وجهته لتلمسان، توفي سنة ٧٤٦هـ، ابن القاضي، نفسه ،ج٢ ، ص ٢٤٠.

(٢٤) قال فيه ابن خلدون، شيخنا شيخ وقته جلالة وتربية وعلما، نشأ بفاس وأخذ عن شيوخها ثم رحل إلى تونس فلقي القاضين ابن الرفيع و أبا عبد الله النفراوي ثم رجع إلى المغرب ولازم الأكابر والمشايخ فولاه السلطان أبو الحسن قضاء فاس، فبقي فيه إلى إن عزله، ثم لما جمع شيوخ العلم للتحليق بمجلسه والإفادة منهم فاستدعاه معهم فلم يزل كذلك إلى أن هلك سنة ٧٥٨هـ، الكتاني، **فهرس الفهارس**، ج٣، ص٣٥١، ابن قنفذ، **الوفيات**، ص ٣٥٨، النباهي، المصدر نفسه، ص ١٣٥.

علمية. عالمية. مُحكمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449



(٢٥) الكتاني، نفسه، ص٥٢١، نصر الدين بن داود، **علماء أسرة المزازقة**، ص ١٦ - ٣٣.

(٢٦) ابن مريم، **البستان**، ص ٢١٧؛ قدور وهراني، **الأبعاد الفكرية والسياسية لموقف الأبلي من اتخاذ المدارس بتلمسان**، مجلة الفكر الجزائري، ع٤، مخبر المرجعيات الفلسفية والفنية، تلمسان، ديسمبر ٢٠٠٩، ص ١٧٩.

(٢٧) التنبكتي، (أبو العباس أحمد بن أحمد بابا ت ١٠٣٢هـ/١٦٢٤م)، **نيل الابتهاج بتطريز الديباج**، إشراف وتقديم عبد المجيد الهرامة، جزءان (١-٢)، ط١، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، (ب ت)، ص ٤١٤؛ أحمد المقّري، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب**، تحقيق إحسان عباس، ج٥، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨، ج٥، ص٢٧٥.

(٢٨) الونشريسي (أبو العباس أحمد بن يحي ت.٩١٤هـ/١٥١١م)، **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء افريقية والأندلس والمغرب**، إشراف محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٢، ج٢، ص٤٧٩؛ التنبكتي، نيل الابتهاج، مصدر سابق، ص ٤١٤.

(٢٩) قدور وهراني، المرجع السابق، ص ٢٢١.

(٣٠) فيلالي عبد العزيز، **تلمسان في العهد الزياني**، ج٢، موفم للنشر والتوزيع، الجزائر ٢٠٠٢، ص ٣٨٢.

(٣١) الونشرسي، المصدر نفسه، ج٢، ص٤٧٩؛ أحمد المقّري، **نفح الطيب**، ج٥، ص٢٧٥.

(٣٢) التنبكتي، المصدر نفسه، ص ٤١٤

(٣٣) ابن خلدون (أبو زيد عبد الرحمن ت. ٨٠٨هـ/١٤٠٦م)، **مقدمة ابن خلدون**، ط١، دار ابن الهيثم، القاهرة، ٢٠٠٥، ص ٤٧٨.

(٣٤) عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ص ٣٨١؛ ألفرد بل، **الفرق الإسلامية**، ص ٣٦١.

(٣٥) الونشريسى، المصدر السابق، ج٢، ص ص ٤٧٩-٤٨٠.

(٣٦) الونشريسي، المصدر السابق، ج٢، ص ٤٨٠.

(٣٧) عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ص ٣٨١؛ ألفرد بل، المرجع السابق، ص ٣٦١.

(٣٨) الونشريسي، المصدر نفسه، ج٢، ص ٤٧٩؛ الوزير السراج (محمد بن محمد الأندلسي ت١١٤٩هـ/١٧٣٦م)، **الحلل السندسية في الأخبار التونسية**، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، ج٢، ط١، دار الغرب الإسلامي بيروت، ١٩٨٥، ج٣، ص ٦١٩.

(٣٩) ابن خلدون، **المقدمة**، ص ٤٧٢.

(٤٠) الشاطبي، **الإفادات والإنشادات**، تحقيق أبو الأجفان، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٦، ص ٥٨.

(٤١) أبو عبد الله المقّري، **القواعد**، تحقيق احمد بن عبد الله بن حميد، ج١، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، (ب ت)،، ج١، ص ٨٢.

(٤٢) الونشريسي، المصدر السابق، ج٢، ص ٤٨٣.

(٤٣) سعاد رياح، **منهج الإمام المقّري في الفتوى من خلال كتاب المعيار المعرب للونشريسي**، رسالة ماجستير، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، ٢٠٠٧، ص ٢٤١.

(٤٤) الونشريسي، المصدر نفسه، ج٢، ص ٤٨٤.

(٤٥) الونشريسي، نفسه ،ج٢، ص ٤٨٤.

(٤٦) أبو عبد الله المقّري، **القواعد**، ج٢، ص ٣٩٧- ٣٩٩، القاعدة رقم ١٤٩.

(٤٧) راجع: عبد الرحمان كريب، **النزعة الاجتهادية في المدرسة المالكية التلمسانية خلال القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي: أبو عبد الله محمد المقري وكتابه القواعد**، دورية كان التاريخية، ع١٤؛ القاهرة: ديسمبر ٢٠١١. ص ٥٤ – ٦٠.

(٤٨) أبو عبد الله المقّري، **القواعد**، ج١، ص ٨٣؛ سعاد رياح، المرجع السابق، ص ٢٤٤.

(٤٩) سعاد رياح، المرجع نفسه، ص ٢٤٥.

(٥٠) الونشريسى، المصدر السابق، ج٢، ص ٤٨٢-٤٨٣.

(٥١) أبو الأجفان محمد، **الإمام أبو عبد الله محمد المقري التلمساني**، الدار العربية للكتاب، تونس، ١٩٨٨م، ص ١٥٤.

(٥٢) الونشريسى، المصدر السابق، ج٢، ص ٤٨٠- ٤٨١.

(٥٣) الونشريسى، المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٥٤) الونشريسى، نفسه، ج١١، ص ١٢٦- ١٢٧.

(٥٥) البخاري أبو عبد الله محمد، **صحيح البخاري**، ترقيم وترتيب محمد فؤاد عبد الباقي، تقديم أحمد محمد شاكر، ط١، دار ابن الهيثم، القاهرة، ٢٠٠٤، ص ٨٥٠.

(٥٦) الونشريسي، المصدر السابق ، ج٢، ص ٢٦٦-٢٦٧.

(٥٧) الونشريسي، المصدر نفسه ،ج ٢، ص ٢٦٦-٢٦٧.

(٥٨) مسلم بن الحجاج، **الجامع الصحيح**، مراجعة فؤاد عبد الباقي، ج٤، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٥٤، **كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها، باب إطلاق لفظ العبد والأمة والمولى والسيد**، ص١٧٦٥.

(٥٩) الونشريسى، المصدر السابق ،ج٢، ص ٥٠٦- ٥٠٧.

(٦٠) قاضي القضاة أرفع وظيفة دينية ينفذ صاحبها القضايا ويشرف على القضاء وتعيين القضاة، وقد ظهر هذا المنصب لأول مرة في عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد ببغداد سنة ١٧٠هـ، خالد بلعربي ، تلمسان من الفتح الإسلامي إلى قيام الدولة الزيانية، ص ٢٩٧.

(٦١) أبو عبد الله محمد البخاري، المصدر السابق، ص ٧٢٩.

(٦٢) الشاطبي، **الإفادات والإنشادات**، ص ١٦١-١٦٢، الإفادة رقم ٨٧؛ أحمد المقّري، **نفح الطيب**،ج٥، ص ٢٧٠.

(٦٣) المقّري (أبو العباس أحمد بن محمد التلمساني ت١٠٤١هـ/١٦٣١م)، **أزهار الرياض في أخبار عياض**، تحقيق سعيد أحمد أعراب- عبد السلام الهراس،ج٥، الجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي بين حكومة المملكة المغربية وحكومة دولة الإمارات العربية المتحدة، مطبعة فضالة، المحمدية،١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، ج٥، ص ١٢- ٨٦.

(٦٤) كبيرهم الذي يقصد بالزيارة، أبو عبد الله المقّري، **القواعد**، ج١، ص ٩٢.

(٦٥) التنبكتى، **نيل الابتهاج**، ص ٤٢٦؛ أحمد المقّري، **نفح الطيب**، ج٥، ص ٢٨١.

(٦٦) التنبكتي، المصدر نفسه، ص ٤٢٦.

(٦٧) هو بدر الدين أبو عبد الله محمد بن محمد بن مالك نحوي، ابن ناظم الألفية محمد بن مالك، له شرح على ألفية الده و"المصباح" في علوم البلاغة وسواها توفي سنة ٦٨٦هـ/١٢٨٧م، ابن تغري البردي، **النجوم الزاهرة**، ج٧، ص ٣٧٣؛ السيوطي (جلال الدّين عبد الرحمن بن أبي بكر ت. ٩١١هـ/١٥٠٥م)، **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، مج٢، دار الكتب العلمية، بيروت ٢٠٠٤، ص٩٦؛ أحمد المقري، **نفح الطيب**، ج٢، ص ٢٣٣ - ٢٣٤.

(٦٨) أحمد المقّري، **أزهار الرياض**، ج٥، ص٣٧.



جوانب من التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للقبائل المغربية ايت عطا نموذجًا



منير روكي

باحث دكتوراه- كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة الحسن الثاني (المحمدية)
المملكة المغربية

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

منير روكي، جوانب من التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للقبائل المغربية ايت عطا نموذجًا.- دورية كان التاريخية.- العدد الثالث والعشرون؛ مارس ٢٠١٤. ص ٦٩ – ٧٥.

www.kanhistorique.org

كان التاريخية: رقمية الموطن .. عربية الهوية .. عالمية الأداء

مُلَخَّصْ

تعتبر قبيلة ايت عطا من أهم التكتلات القبلية الموجودة في جنوب الشرقي المغرب، ساهمت الظروف الطبيعية الصعبة وقساوة المناخ في بلورة معالمها البشرية وبنياتها الاجتماعية، الأمر الذي طبع سيرورتها التاريخية بخصائص متعددة تتلاءم والإطار الطبيعي للمنطقة. وكما هو الأمر بالنسبة لكافة القبائل المغربية، تميز المجتمع العطاوي بتراتبيته المبنية على هرمية واضحة نظرًا لكونه يتشكل من عناصر مختلفة ذات مواقع اجتماعية متباينة (العطاويون الأصل، الشرفاء والصالحون، الحراطين، اليهود...) ربطت بينهم علاقات متباينة نظرًا لاختلاف مكانتهم الاجتماعية. وقد اشتغل هؤلاء في قطاعات اقتصادية شتى أهمها الزراعة والرعي، حيث ساعد الموقع الجغرافي لهذه القبيلة في تحديد نوع النشاط وطبيعة، الأمر الذي ساعد في تحديد نمط العيش وطريقة استغلال الأرض التي ارتبط بها السكان إلى أبعد الحدود. كما امتهن أهل القبيلة التجارة سواء الداخلية أو الخارجية، ورغم محدودية دخلها في أغلب الأحيان، فقد شكلت موردًا أساسيًا لعيش السكان، أما الحرف فقد كانت حكرًا على اليهود من سكان القبيلة لاسيما الحلي والمجوهرات البسيطة. أما التنظيم السياسي، فقد ارتبط بالواقع الانقسامي للقبيلة، حيث كانت الاتحادية تنتخب سنويًا ما يسمى بـ "أنحكام" يساعده مجموعة من الأعيان في تسيير شؤون القبيلة، ويرتبط الجميع بالمحكمة العليا الموجودة في "ايغرم أمازدار". بيد أن جميع المؤسسات لم تكن لها صبغة دينية، وإنما ترتبط في الغالب بمجموع الأعراف التي يتم رسمها من قبل كبار القبيلة.

مُقَدِّمَةُ

يعتبر مفهوم القبيلة من المفاهيم المركزية التي احتلت حيزًا هامًا في كتابات السوسيولوجيين الأجانب نظرًا لاحتلالها موقع القلب النابض للمجتمع المغربي في تاريخه الطويل، ونظرًا لكونها أحد الركائز الأساسية التي شكلت بنية التنظيم الاجتماعي في الأرياف المغربية. وإذا كان المغرب يتميز بتعدد قبائله، فإن أهمها في واحات الجنوب الشرقي تبقى قبيلة ايت عطا التي لعبت أدوار محورية على مر التاريخ. فما هي الخصائص الطبيعية والبشرية لها؟ وما أبرز التطورات التاريخية التي مرت منها؟ وبماذا تتميز الحياة الاقتصادية والاجتماعية لهذه القبائل؟

أولاً: ايت عطا (المجال والتاريخ)

١/١- المجال الطبيعي لقبائل ايت عطا:

يحدد القبطان جورج سبيلمان[١] مجال قبائل ايت عطا في المنطقة الممتدة من المقاطعات الشمالية لدرعة وتافيلالت على طول يتراوح بين (٨٠) و (١٦٠) كلم، كما تمتد في المناطق الجنوبية الشرقية للمغرب الاقصى على مشارف الصحراء الكبرى، ويمثل خط دادس، تودغة، فركلة غريس حدوده الشمالية، بينما تحدد تافيلالت حدوده الشرقية. في حين يستدبر هذا المجال وادي درعة غربًا وفي الجنوب يحدده حاجز صحراوي صعب العبور.[٢] أما

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

الشبكة الهيدروغرافية الضيقة نسبيًا فتتكون من ثلاثة أنهار مهمة وهي درعة وزيز وغريس، كما تتميز التضاريس بانتظامها وتمتد على ارتفاع يتراوح ما بين (٨٠٠) و(١٠٠) متر جنوب "باني" بجوارها كثبان رملية. عمومًا يمكن التمييز في المجال المدروس بين أربعة وحدات رئيسية وهي:

- **كتلة صاغرو- أوكنات**: الممتدين على طول (٣٠٠) كلم عرض، و(٤٠) كلم الامتداد الشرقي للأطلس الصغير، إذ يفصلهما عنه وادي درعة. وينتميان إلى نفس المحدب شرق غرب، يشمل كل الزمن الأول من الكمبري إلى الفيزي.
- **جبل باني**: يمتد غرب درعة وينقسم إلى فرعين: الفرع الرئيسي يواصل سيره شرقًا ثم يتجه شمالاً عندما يخترقه واد درعة. أما الفرع الصغير لباني المنفصل عن السلسلة الرئيسية عند زاوية سيدي عبد النبي من منتصف الطريق بين فم زكيد وزاكورة فيتقوس في اتجاه الجنوب الشرقي. ويتميز السفح الشمالي لباني بشدة انحداره ووعورته، أما السفح الجنوبي فينخفض بمنحدرات خفيفة حتى السهل.
- **سلسلة توغبيت**: تنتمي إلى تضاريس جبل باني وتسير بموازاة الفرع الرئيسي لهذا الأخير. وخارج هذه السلسلة توجد عدة كتل **وهضاب** مثل جبل مداح وكمكم وجبل سدرار، وغالبًا ما تكون الهضاب مجزأة بعمق ومحفورة من طرف عدد كبير من المسيلات والشعاب النشيطة التعرية.[٣]

- **الحمادات**: تنتمي إلى الهضبة الصحراوية الشاسعة، وهي منطقة مسطحة لم تتأثر بالطي منذ نهاية الأزمنة الأولى وأهم هذه الحمادات هي كير وهي أكثر انبساطًا، وحمادة درعة غير أنها أكثر وعورة.

أما فيما يخص الشبكة الهيدروغرافية، فالأنهار تحد ايت عطا من ثلاث جهات: درعة، ودادس، وتودغا، وغريس شمالاً، وزيز شرقًا. ولهذه المجاري المائية كلها طابع صحراوي واضح. تجمع أنهار درعة، وغريس، وزيز بمياهها في الأطلس الكبير الشرقي بواسطة روافدهما واد دادس، وواد تودغا. ورغم كونها طويلة جدًا فلا يبلغ أي واحد منها البحر، كما أن زيز وغريس فيلتقيان جنوب تافيلالت ليختفيان في منطقة نشر الداورة. من ناحية أخرى؛ تتوفر المنطقة على مجاري ومياه باطنية قريبة من السطح على عمق (٢) و(٦) أمتار، يطلق عليها أهالي المنطقة "أجمو"، غير أن هذه المياه غالبًا ما تكون شديدة الملوحة.[٤]

أما المناخ، فيتميز بالجفاف وارتفاع درجة الحرارة التي تصل إلى (٣٥) شتاءً و(٦٢) درجة صيفًا، فضلاً عن هبوب رياح عاتية قادمة من الجنوب والجنوب الغربي وتلحق خسائر فادحة بالفلاحة والمزروعات. أما الأمطار فهي نادرة وإذا ما سقطت فتأتي طوفانية. وهكذا؛ يتضح أن مجال ايت عطا ينتمي إلى الصحراء ويشمل الجهات الرعوية جنوب الأطلس الكبير بما في ذلك مرتفعات الأطلس الصغير. وقد شكل هذا المجال منذ القدم مجالاً للرعي والترحال مع استقرار محدود في الواحات.[٥]

٢/١- الخصائص البشرية:

يميز "جورج سبيلمان" بين تناقضات صارخة على المستوى البشري بين سهوب وواحات ايت عطا، ففي الوقت الذي تعرف فيه الواحات ارتفاعًا في عدد السكان نتيجة تضخم عدد الولادات ومتكونة من ثلاثة عناصر: العربي، الأمازيغي والزنجي، فإن السهوب تسود بها مخيمات الرحل الأمازيغ والعرب.[٦] وتعتبر قبائل ايت عطا الصحراء وايت سدرات نموذجًا حيًا للعنصر الامازيغي، نظرًا لكون ايت عطا تضم (٣٨) ألف نسمة تعيش عشرة آلاف منهم في قلب بلاد أيت عطا، أما الآخرون فيتوزعون بالتفاوت على أراضي غزو بتافيلالت وزيز وغريس وفركلة ودادس في الأطلس الكبير. فضلاً عن ذلك؛ تتكون المنطقة من عنصر ثالث ساهم في الديناميكية الاقتصادية والاجتماعية لايت عطا، يطلق عليهم دراوة، ورككاكة، وفيلالة، وأيضًا قبالة وإن كانت هذه التسمية الأخيرة هي الأكثر شمولية، وينقسمون حسب أصولهم إلى طبقتين: الأحرار وهم عرب، أو أمازيغ مستقرين غير منضوين في قبائل ويعيشون في قصور، ثم الحراطين وهم زنوج مستقرين بدورهم ينحدرون في أغلبهم من السودان أو السنغال.[٧] وعلى هذا الأساس يمكن تقدير ساكنة درعة تافيلالت بحوالي (١٥٧) ألف نسمة موزعة على الشكل التالي:

- وادي درعة: ١٠٧,٠٠٠ نسمة.
- تافيلالت: ٤٠,٠٠٠ نسمة
- بلاد عطا بين درعا وتافيلالت: ١٠٠٠ نسمة.

يلاحظ من خلال هذه المعطيات المقدمة من طرف سبيلمان ضعف ساكنة بلاد ايت عطا وإن كان الاختلاف أشد حول أغلبية عنصر على آخر هل العنصر البربري أو العربي، وإن كان الثابت أن التمازج بينهما حصل منذ أقدم العصور.

٣/١- ايت عطا عبر التاريخ:

ترجع البدايات الأولى لحلف ايت عطا إلى القرن الخامس عشر الميلادي على يد الزعيم الروحي "دادا عطا" أحد أقرباء عبد الله بن حساين دفين تامصلوحت المتوفى سنة (١٥٧٦م/ ٩٧٧هـ)، الذي استغل الظروف السياسية التي كان يعيشها المغرب وقتئذ والمتمثلة في ضعف السلطة المركزية وتزايد الضغط البرتغالي على السواحل المغربية، فقام بتوحيد قبائل ايت عطا في محاولة منه الاستيلاء على السهول المجاورة والدفاع عن نفسها من كل ما من شأنه أن يهدد وجودها. وإن كان التساؤل حوال دوافع نشأة هذه الإتحادية يبقى موضع شك باعتبار هل كان ذلك راجع للدفاع عن نفسها كما يذهب البعض أم أن الأمر يتعدى ذلك لتحقيق أهداف ومآرب

سياسية على اعتبار المكانة التي كان يحتلها عبد الله بن احساين بكونه شريفًا إدريسيًا له سمعة طيبة.[٨]

ومهما يكن من أمر، فالغالب على الظن أن دادا عطا حاول أن يوحد القبائل في المغرب الشرقي تحت اسمه وكون اتحادية ايت عطا التي رسمت بصماتها في التاريخ،[٩] حيث واكبت البدايات الأولى لظهور الدولة العلوية في الجنوب المغربي. وإليه ينسب ايت عطا لذلك فإن أي تصور للبنية الاجتماعية لهذا الحلف، يجب أن ينطلق من إثبات الذين ينحدرون بحسبه من نفس الجد أي ايت عطا.

يذهب دافيد مونتغومري هارت إلى أن هناك خمس روايات تناقلت مسألة انتساب هذا الحلف وتسلط الضوء على نشأته وتأسيسه، وتبقى أهمها تلك المتعلقة بسيرة دادا عطا وحفدته الأربعون، حيث كان لدادا عطا أربعون ولدا تزوجوا كلهم في نفس الوق، وكان هناك راع من ايت سدرات أيضًا، وخلال الزفاف قام الراعي بملء جعاب بنادق ابنائه الصوانية بالماء، ثم انسل ليقول لرفاقه في القبيلة بان يتبعوه لمحاربة ايت عطا. وهكذا كان قد قتل أبناء دادا لعدم قدرتهم على الدفاع عن أنفسهم لأن جعاب بنادقهم كانت مملوءة بالماء، وكانوا قد قضوا ليلتين مع زوجاتهم اللواتي أصبحن أرامل غير أنهن حبلن منهن، وبعد انقضاء مدة الحمل وضعن تسع وثلاثون ولدًا وبنتًا واحدة. وظل دادا عطا قيد الحياة إلى أن كبر أحفاده وأصبحوا قادرين على الثأر لأولاده، فخاضوا الحرب ضد ايت سدرات وطاردوهم عن ممر تيزي بغرب الاطلس المتوسط.[١٠]

ورغم الطابع السجالي لهذه الرواية، فالغالب على الظن أن هناك أسبابًا أخرى كانت وراء نشأة اتحادية ايت عطا يمكن إجمالها في الصراع على المجال، لاسيما مع القبائل المجاورة (ايت سدرات نموذجًا). على أن أخبار القبيلة ظلت غائبة لكثرة الوحدات السياسية التي عرفها الجنوب المغربي في النصف الأول من القرن السابع عشر، قبل أن يشتد عود ايت عطا بعد أن استكملت عناصرها وتضخمت أعدادها بمن انحاز إليهم من فلول القبائل الزناتية.[١١]

من ناحية أخرى؛ يذهب مزين[١٢] إلى أن تشكيل الحلف يرجع إلى القرن الخامس عشر كرد فعل لسكان جبل صاغرو والأطلس الكبير الشرقي على تردي مراعيهم، فضلاً عن شكل التأقلم لهؤلاء المنتجعين على التراجع الاقتصادي للقرن الخامس عشر وإلى أزمة التبادل التي ترتبت عنها، بيد أن هذا التحالف لم يعرف نموه الكامل إلا خلال القرن السادس عشر.

انتقل ايت عطا من جبل صاغرو في اتجاه الشمال ثم نحو وسط الأطلس عند منتصف القرن السادس عشر، ولم ينتقلوا من الترحال إلى الانتجاع إلا عندما اكتشفوا مزايا الفلاحة واتخذوا القصور مخازن ودور ذات طوابق، كما تشير الروايات إلى اهتمامهم بتربية المواشي وروابطهم بالأولياء مثل مولاي عبد الله بنحساين وسعيد أحنصال.[١٣] ونظرًا لتزايد خطر القبائل بني معقل الذي أخذ يهدد إمداداتهم الطبيعية من الجنوب وتمر تافيلالت، قام ايت عطا بتقوية عصبيتهم بتوسيع حلفهم العطاوي ليصبح أكثر شُسُوعًا مع مطلع القرن التاسع عشر على الرغم مما يمكن أن يقال عن الارتباط الكبير لهذه القبائل مع جبل صاغرو الذي شكل على الدوام مجال انتشارها.[١٤]

ويبدو أنه من الصعب تحديد مختلف الأحداث التاريخية التي شهدتها اتحادية ايت عطا منذ تأسيسها نظرًا لضعف المادة المصدرية التاريخية، وإن كانت الرواية الشفوية التي احتفظت بها ذاكرة القبائل وبعض الشذرات النادرة في المصادر المكتوبة، غير أنه يمكن الإقرار أن الظروف التي عرفها المغرب ابتداءً من النصف الثاني من القرن التاسع عشر ألقت بظلالها على المنطقة حيث اتجهت قبائل ايت عطا إلى الاستقرار النهائي في مجالها الحالي والتخلي ولو جزئيًا عن أسلوب التنقل والانتجاع، وتدخل بعد ذلك في مرحلة جديدة من المقاومة ضد الاستعمار الفرنسي.[١٥]

ثانيًا: الخصائص الاجتماعية والاقتصادية لقبائل ايت عطا

١/٢- مكونات المجتمع العطاوي:

يتميز المجتمع العطاوي بتراتبيته المبنية على هرمية واضحة نظرًا لكونه يتشكل من عناصر بشرية مختلفة ذات مواقع اجتماعية متباينة.[١٦] وعلى هذا الأساس يمكن أن نلاحظ داخل هذه القبائل كتل بشرية يمكن تحديدها كآلاتي:

العطاويون الأصل: والمقصود بهم كافة العناصر البشرية التي شكلت دعامة القبائل العطاوية منذ بداياتها الأولى ولاسيما فئة الامازيغ. ويشير استيتو إلى أنهم هم الذين ينتسبون فعلاً إلى ايت عطا عن طريق النسب، أي مجموع أولئك الذين تربطهم أواصر الدم والقرابة. تحتل هذه الفئة قمة الهرم في المجتمع العطاوي، حيث يسيطرون على نصيب الأسد من الأراضي التي يشتغل فيها العبيد والحراطين. ويتميزون ببشرتهم البيضاء ويتكونون من العرب والامازيغ كما يشكلون أهم المؤسسات السياسية والاجتماعية في مجالهم القبلي، ويسهرون على أهم التقسيمات القبلية من الكانون والأسرة إلى غاية الحلف والاتحادية.[١٧]

فئة الشرفاء والصلحاء: لابد من التذكير بأنها احتلت مكانة متميزة داخل المجتمع العطاوي بحكم الثقة التي كانت تحظى بها داخل القبيلة بكونها تنحدر من السلالة النبوية الشريفة، فضلاً عن دور التحكيم الذي كانت تقوم به بين مختلف الوحدات القبلية العطاوية، كما يمكن التمييز بين الشرفاء الذين ينتمون الى السلالة الادريسية وبين الصلحاء "ايكورام" مثل مولاي عبد الله بن احساين، وسيدي محمد تفروتن، وسيدي يعقوب.[١٨] غير أن هذه الفئة بقيت محايدة فيما يتعلق بصياغة القوانين العرفية لهذه

علمية. عالمية. مُحكمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

التجمعات القبلية اللهم تدخلها اللافت للنظر في مجال الصلح والوظيفة التحكيمية التي اضطلعت للقيام بها نظرا لهيبتها وبركتها.

الحراطين: هم الفئة الدنيا داخل المجتمع العطاوي، وهو ذوو أصول زنجية ويحملون أسماء المناطق التي يوجدون بها مثل: دراوة (سكان درعة)، الركاكة (سكان الرك)، فيلالة (سكان تافيلالت)، وقبالة (سكان القبلة). ويميز سبيلمان بين صنفين في هذه الفئة: الأحرار وهم من أصل عربي أو أمازيغي ويعيشون أساسًا في القصور، ثم الحراطين الذين يعيشون مستقرين مع الأحرار وينحدرون غالبًا من أفريقيا جنوب الصحراء في إطار الرواج التجاري ويمثلون بعض السلالات الأفريقية، يعانون من الفقر والتهميش والحرمان ويتميزون ببشرتهم السوداء وغالبًا ما كانوا يعملون لدى العطاويين الأصل في حقولهم.

اليهود: شكلوا أقلية داخل المجتمع العطاوي، رغم أنهم احتلوا مكانة اقتصادية متميزة، واستطاعوا مراكمة ثروات مادية هامة بفعل تعاطيهم للتجارة وتضلعهم في مجال الحلي مما جعلهم يحوزون على احترام باقي الفئات الاجتماعية الأخرى.[١٩]

٢/٢- جوانب من التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لايت عطا:

الزراعة والرعي:

ساهم الموقع الجغرافي لقبائل ايت عطا في تحديد طبيعة نظامها الاقتصادي، فنظرًا لجفاف المناخ وارتفاع درجة الحرارة وعدم انتظام التساقطات، اتجه السكان إلى أسلوب الرعي والانتجاع انسجامًا مع خصائص هذا المناخ، فضلاً عن الاعتماد على أودية دادس، تودغة، فركلة، وغريس للاستفادة من العيون المنتشرة بكثرة قصد إقامة نشاط زراعي. ونظرًا لضعف التربة، فقد اتجه الفلاح العطاوي إلى تخصيبها بروث الحيوانات في محاولة منه تشبيعها بالمواد العضوية، مثلما كانت عادته في تقليب الأرض قبل موسم الأمطار حتى تغتسل من ملوحتها.

يتباين استغلال الأرض لدى قبائل ايت عطا حسب القرب أو البعد من مجال السكن، فبينما تندرج الجنان المحيطة بالقصر في زرع بعض الخضروات والفواكه وغيرها، وتندرج باقي المستغلات التي يتم ربطها بالسواقي في إنتاج الحبوب وبعض القطنيات فضلاً عن أنواع من المنتوجات المخصصة لعلف الماشية مثل الفصة، كما تنتشر أشجار النخيل والزيتون. وعمومًا، ظل النشاط الفلاحي بايت عطا، نظرًا لقساوة المناخ من جهة، ولاعتماد أدوات تقليدية من ناحية أخرى، ضعيفًا مما دفع السكان إلى اللجوء إلى أساليب التعاون والشركة، حيث كانت معظم الأسر العطاوية تستثمر أراضيها مباشرةً أو بالتعاون مع الأسر الأخرى (التويزة) الذي ينظم العمل في الأرض أو في الأسواق وغيرها.[٢٠]

وفي الوقت الذي استغلت فيه قبائل ايت عطا ضفاف الأودية للحصول على إنتاج زراعي معاشي يمكنها من تحقيق اكتفائها الذاتي، كان الرعي والإنتاج في المناطق الجبلية والمنبسطات القاحلة النشاط الرئيسي والموازي لهذه القبائل، والواضح أن قلة الغطاء النباتي في مجال ايت عطا أدى إلى ظهور نوعين من أشكال تربية الماشية، إما الترحال والانتجاع أو اعتماد حياة الخيام والتنقل. كما اعتنى الإنسان العطاوي بقطعانه لاستكمال اكتفائه الذاتي، وتوفير حاجاته من المواد الغذائية مثل الألبان والأصواف والجلود، فقد اهتم العطاويون بتربية المواشي لاسيما الأغنام والماعز والإبل التي وجدت ضالتها في المنتجعات خلال فصل الشتاء.

ومادامت البنية العقارية العطاوية قد اتسمت بطغيان الملكية الجماعية، فإن المراعي والمنتجعات شكلت مربط الحصان داخلها. حيث نجد أن عددًا من المناطق تدخل في إطار الملك المشترك الخاص بفخدات دون أخرى، ومعنى ذلك أن الرعي يخضع لقوانين وتنظيمات مضبوطة، وأن المجالات الرعوية كانت موزعة توزيعًا غير عشوائي. وهكذا؛ نجد مثلاً أن ايت ايعزى ينتشرون شرق صاغرو ويتحركون من ألنيف في اتجاه إمداوس امسمير، في حين تنتجع قبائل ايت واحليم شتاءً ما بين تزارين وجبل اومالو نمنصور، أما صيفًا فتتجه نحو زاوية أحنصال. يتحرك الرحل صحبة مواشيهم حسب تقلبات المراعي، إلا أنهم يرتحلون داخل نفس المنطقة حيث تكون القبيلة متوفرة على أربع أو خمس مناطق أساسية للرعي طيلة العام، وهذه الحركة تكون بطيئة للغاية قدرها القبطان نيكلوس (Niclausse) بسرعة تتراوح مابين (٢٠) و(٣٠) كلم في الفصل، وخلال تلك المدة يعيش الرحل تحت خيام مصنوعة من جلود المعز تحديدًا.[٢١]

الحرف والتجارة:

إلى جانب الزراعة والرعي، امتهن قليل من ساكنة ايت عطا بعض الحرف والصناعات اليدوية، حيث كانت فئة من الصناع تستغل المواد الأولية التي توفرها مناجم المنطقة سواء منجم تودغة، أو منجم بولمعادن وغيرها، وكذا توفر المنتوجات الزراعية والرعوية لتحويلها إلى منتجات صناعية تستهلك داخل القبيلة أو تسوق نحو الخارج. ومن بين الحرف السائدة حرفة الحدادة التي كانت توفر للفلاح الكثير من أدواته، كما امتهنت بعض النساء مهنة الغزل وتحويل الصوف إلى ملابس. وعمومًا كان أصحاب هذه الحرف وغيرها من نجارة وخزف مكفوفي العيش لدى الزراع والرعاة، فكان الأجر يؤدى نقدًا أو مقابل جزء من المحصول.

أما التجارة، فقد كانت ضعيفة وكان التجار بسطاء إما من الزراع أو غيرهم الذين يسوقون منتوجات الزراعة والرعي، أو بعض المنتوجات التي تفتقر إليها المنطقة نحو الأسواق الأسبوعية، أو نحو القرى المجاورة. ونظرًا للأهمية التي كانت تحظى بها الأسواق في الجنوب الشرقي المغربي من حيث التنظيمات المخصصة لها ومن حيث الوظائف التي تقوم بها، فقد تكاثر أعدادها وتضخم، كما

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

يؤكد ذلك الدكتور "والتر هاريس" (Walter Harris) الذي لاحظ أن المجال الواحي في المنطقة تميز باحتضانه لأسواق محلية ذات إشعاع كبير. وقد كنت هذه الأسواق القبائل العطاوية من ربط علاقات تجارية مع كل من مراكش، وفاس، وتافيلالت، وفركلة التي كانت تستفيد من السلع العطاوية كالتمر، والحناء، والتين، والجلود، والزرابي، والأواني الفخارية. وفي المقابل، كان العطاوين يحصلون على المواد المصنعة مثل الشموع، والملابس، والسكر، والشاي، والبن، وبعض الأسلحة.[٢٢]

٣/٢- التنظيم السياسي والقضائي لقبائل ايت عطا:

يُعَد العرف "تيعقيدين" الأساس القضائي الذي تعتمد عليه قبائل ايت عطا، حيث كان لكل قبيلة قوانينها الخاصة،[٢٣] تقترب من الشرع تارة، وتبتعد عنه تارة أخرى. فعلى سبيل المثال العقوبة المفروضة على مرتكب جريمة قتل تتباين بشكل واضح من منطقة لأخرى. ويحتفظ بالعرف عادةً بالرواية الشفوية، إذ يجتمع الأعيان ويملون على الفقيه نصًا ويطالبون بتطبيقه.[٢٤]

ينتخب ايت عطا سنويًا "أنحكام" الذي يعتبر الحاكم في النزاعات ويتميز باستقامته وشهرته ومعرفته بتعقيدين القبيلة، وتنعقد محكمته بحضور بعض الأعيان، بيد أنه مهدد بأقسى الغرامات في حالة إذا لم يقم بالمهام المنوطة به بكل دقة وشفافية. ويشير سبيلمان إلى أن هذه الأحكام كانت قابلة للاستئناف أمام المحكمة العليا الموجودة في إيغرم أمازدار، ويتم ذلك بكتابة رسالة إلى جماعة القصر أو يأتي المتظلم بنفسه ويطلب الضيافة من منزل ما فيستدعي مضيفه عددًا من أهل إيغرم نيزدار الذين ينطقون الحكم. غير أن اللافت للانتباه أن هذه المؤسسة ليست لها صبغة دينية بحكم عدم ارتباطها لا بزاوية أو ضريح ولي. ولا يوجد سوى عرف واحد لدى قبائل ايت عطا لا يتم تعديله أبدًا حيث يتعهد شيخ كل قبيلة عند انتخابه بعدم تغييره وأنه سيبقى حيز التنفيذ طيلة مدة ولايته.

وتجدر الإشارة إلى: أن المحكمة العليا لايت عطا تتكون من أربعة قضاة من ايت واحليم واثنين من ايت إيعزا، حيث شكلت هاتان القبيلتان، الأقدم في الإتحادية مع ايت اونير والال ومجموعة ايت عيسى.[٢٥] أما على المستوى التنظيم السياسي، تنتخب اتحادية ايت عطا سنويًا أمغارن وفلا من أحد الأخماس وفق نظام العرف، وكان لكل خمس شيخ يعين وفق قواعد القبيلة، غير أن ايت خليفة وايت الفرسي من ايت عيسى مزين وايت علوان لم تتم دعوتهم قط لتبوأ منصب أمغارن وفلا، كما يشير سبيلمان إلى أن ايت أونير تنازلو عن حقوقهم لايت والال الذين ينفردون في خمسهم بإعطاء أمغارن وفلا للاتحادية عندما يحين دوره، وعلى العكس من ذلك يتناوب ايت خباش وايت أو مناصف فيما بينهم بشكل يكون زعيم الاتحادية منهم مرتين من بين خمسة.[٢٦] تتم عملية الانتخاب في فصل الربيع في إحدى مناطق السكن بعد أن يجتمع الأعيان ومندوبو القبائل لتعيينه تارة بدرعة، وتارة في تازارين وتودغا، وتمثل كل قبيلة عن طريق مندوب لها.

تتعدد وظائف أمغارن وفلا، حيث يقوم بفض النزاع بين مختلف القبائل ويقود المفاوضات مع المجموعات المجاورة للاتحادية، ويضمن الاتصال بين مختلف قبائل ايت عطا، كما يسهر على الدفاع عن الأراضي والمصالح المشتركة. كما كان يقوم بتعيين مزاريك وهم عبارة عن أعوان اتصال بين كل الأفخاذ والقبائل. أما على المستوى المحلي، فقد كان لكل قبيلة تنظيم مشابه للاتحادية، حيث ينتخب كل سنة شيخ للفخدة إضافة إلى الأشياخ، ولم يكن أمغارن وفلا يتقاضى أية ضريبة اللهم تلك المداخيل لشريف تامصلوحت من أولاد مولاي عبد الله بن حساين. ولا يتقاضى إلى متحصل الذعائر "إيزماز" الذي يصرفه في مواجهة المصاريف المشتركة ذات الطابع السياسي.[٢٧]

على غرار قبيلة آيت عطا يتجلى دور العشائر الخمسة المكونة لقبيلة آيت خباش في التناوب على رئاسة القبيلة سنة لكل عشيرة على أساس أن يتم اختيار الشيخ العام "أمغار نوفلا"، أو شيخ البلاد "أمغار نتمازيرت" من بين أفراده شيوخ العشائر الأخرى دون مشاركة الأتباع. ويشترط في الشيخ العام أن يكون محترمًا، وذي سيرة حسنة وخصال حميدة، إضافةً إلى التمتع بالشجاعة والتجربة، فإذا كانت قراراته حاسمة بل ومنفردة فيما يخص العلاقة مع القبائل المجاورة والمخزن؛ فإن بقية القضايا الأخرى تتدارسها الجماعة "لجماعت" التي تضم إضافة إليه ممثلي الأفخاذ "إغسان/ العظام" الذين يختارهم لمساعدته "ادبابن نمور: ذوو الحقوق". وتتحدد مهام الشيخ في تسوية مشاكل القبيلة الداخلية، وهو لسانها في محاورة القبائل عند إبرام وثيقة الأمن والصداقة "تاضا"، وكذلك في إقرار شن الحرب أو عقد السلم. وإجمالاً فهو المسؤول عن السياسة الداخلية والعلاقات الخارجية لقبيلته.[٢٨]

إذا كان عبد الله العروي قد اعترف بأن تاريخ المغرب لا يعدو أن يكون تاريخ قبائل، فإن لهذا الحكم ما يبرره بحمل الثقل الكبير الذي كانت تمثله القبيلة في المغرب. هذه المؤسسة التي هيكلت التطور العام الذي طبع علاقة المغرب بمحكوميه منذ أمد ليس بالقصير. إن المتتبع لهذه العلاقة، يرصد الدور الكبير الذي كانت تقوم به مختلف القبائل المغربية في علاقتها بالمخزن من جهة وبالمجال من جهة ثانية، الأمر الذي وسم هذه القبائل بخصائص متعددة جندت الآلة الامبريالية كل إمكانياتها العلمية والبشرية لسبر أغوارها والتعرف على أهم خصائصها بحكم معرفتها المسبقة بأهميتها ومحوريتها في الحياة الاجتماعية والسياسية للمغاربة.

وقد حاولنا من خلال هذا العرض تقديم نظرة موجزة على أهم التكتلات القبلية الموجودة في سفح الأطلس المغربي، من خلال التعرف على خصائصها الطبيعية والبشرية، وكذا أبرز المحطات التاريخية التي مرت منها، قبل أن نقوم -ولو بشكل مقتضب- بتحليل البنيات السياسية والاقتصادية لقبائل ايت عطا مما مكننا

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

من التعرف على أهم خصائص هذا المجال الذي ساهم بشكل كبير في عرقلة المشروع الاستعماري في البلاد، ويكفي دليلاً على ذلك تلك المعارك الضارية التي خاضها المقاومون هناك، وأخرت عملية الاستيلاء الفرنسي على كافة التراب المغربي إلى حدود ١٩٣٤ ؟

خاتمة

شكلت مؤسسة القبيلة الإطار الذي هيكل التاريخ العام للمجتمع المغربي نظرًا للثقل الكبير الذي كانت تمارسه في مجال نفوذها لدرجة جعلت باحثًا مثل عبد الله العروي يقول بأن تاريخ المغرب لا يعدو أن يكون تاريخ قبائل. أما بالنسبة لاتحادية قبائل ايت عطا - أهم التكتلات الموجودة في سفح الأطلس المغربي- فقد اتسمت بجملة من الخصائص يمكن إجمالها في الآتي:

- وجود قبيلة ايت عطا بمجال جغرافي يتسم بقساوة الظروف المناخية والطبيعية نظرًا لارتفاع درجات الحرارة وندرة التساقطات وسيادة الصحاري، وهو الأمر الذي انعكس بشكل سلبي على الحياة الاقتصادية للقبيلة.
- ارتفاع عدد سكان القبيلة شأنها في ذلك شأن باقي الواحات الجنوبية نتيجة ارتفاع عدد الولادات، هذا فضلاً عن تنوع العناصر المشكلة للمجتمع العطاوي (عرب، أمازيغ، زنوج).
- ضعف السلطة المركزية في المغرب خلال العهد السعدي، وتزايد الضغط الأيبيري على السواحل المغربية، كانت من بين الأسباب التي ساعدت على توحيد قبائل ايت عطا.
- الرغبة في الحصول على الكلأ وتوسيع المجال الترابي نحو الشمال ووسط الأطلس، جعل ايت عطا تدخل في صراعات من أجل البقاء مع القبائل المجاورة لاسيما بني معقل.
- تعدد مكونات المجتمع العطاوي وقساوة الظروف الطبيعية حتمت على السكان الاشتغال بأنشطة اقتصادية تتلاءم والمجال الجغرافي لقبيلتهم لاسيما الرعي والزراعة، في حين شكلت التجارة والحرف أنشطة ثانوية.
- اعتماد القبيلة في تنظيمها السياسي والقضائي على العرف أو ما يسمى بـ "تيعقيدين" الذي يقترب من الشرع تارة ويبتعد منه تارة أخرى. وهي بذلك تشبه في تنظيمها مجموع القبائل المنتشرة على طول الشريط الجنوبي الشرقي وبالمناطق الأطلسية، في حين يختلف تنظيمها في أجزاء منه بالقبائل المتواجدة بالسهول وكذلك بالريف، وتبقى البيئة الجغرافية عاملاً حاسمًا ومهيكلاً لطبية هذا التنظيم.

الهوامش:

(١) جورج سبيلمان، **ايت عطا الصحراء وتهدئة افلان-درا**، ترجمة محمد بوكبوط، نشر المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، سلسلة الترجمة رقم ١٠، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ٢٠٠٧، ص١٣.

(٢) حميد تيتاو ومحماد لطيف، **ملامح من التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لقبائل ايت عطا من خلال أمثاله**، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣، ص١١.

(٣) حسن علوي حافظي، **سجلماسة وإقليمها في القرن الثامن الهجري، الرابع عشر الميلادي**، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، ١٩٩٧، ص٣٦ وما بعدها. أيضًا، جورج سبيلمان، مرجع سابق، ص ١٤ - ١٨.

(٤) جورج سبيلمان، مرجع سابق، ص١٩ - ٢٠.

(٥) حميد تيتاو ومحماد لطيف، مرجع سابق، ص ١٣.

(٦) يعتبر سبيلمان أن المستقر المرتبط بالأرض بفعل حياة الواحات السهلة، كائنًا ضعيفًا تعوزه الشجاعة والحزم، وثرثارًا وقحًا، ولكنه ماهر وحذق. أما البدوي فهو شجاع وصبور وبسيط ولكنه كسول. راجع سبيلمان، مرجع سابق، ص٢٤.

(٧) سبيلمان، مرجع سابق، ص ٢٤ - ٢٥.

(٨) جورج سبيلمان، مرجع سابق، ص ٢٧.

(٩) يوجد ضريح دادا عطا في "أمي نتقات نلكتاون"، والمسماة حاليًا بتاكونيت في ضواحي زاكورة.

(١٠) لمزيد من التفاصيل راجع: دافييد مونتغومري هارت: **ايت عطا بالوسط الجنوبي المغربي، عناصر تحليل مقارن مع الباختون الأفريدي بالشمال الغربي الباكستاني**، ترجمة وتقديم، عبد الفتاح الزين، مجلة وجهة نظر، ع١٢-١٣، ٢٠٠١، ص٥٨.

(١١) أحمد البوزيدي، **التاريخ الاجتماعي لدرعة: مطلع القرن السابع عشر، مطلع القرن العشرون: دراسة في الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية من خلال الوثائق المحلية**، الدار البيضاء: آفاق متوسطية، إيداع ١٩٩٤ ص٩٩.

(12) Larbi Mezzine, *Le Tafilalt, contribution a l'histoire du Maroc au XVII et XVIII siècle*, Pub. De la faculté des lettres et des sciences humaines, Rabat, série Thèse, 1987, P.277.

(١٣) هارت، مقال مذكور، ص ٥٩.

(14) Mezzinz, Op.cit. P.278.

(١٥) حمديد تيتاو، مرجع سابق، ص ٢٣-٢٤.

(١٦) اختلف الباحثون حول هذا التباين، فدافيد هارت مثلاً، يرجع هذا التعدد إلى العوامل الأمنية والاقتصادية نظرًا للتجاذب والانشطار داخل الاتحادية ايت يافلمان التي تضم شتاتًا اثنيًا كبيرًا، وكذلك خوف ايت مرغاد وايت حديدو من العطاويين الأمر الذي دفعهم إلى تجاوز الاتحاد عن طريق القرابة والدم إلى تكتل أخر. أما روس دان فقد حاول هو الأخر تحديد معايير هذا التعدد مؤكدًا أن هذا المجتمع كان يتشكل من عناصر اجتماعية ظلت تعاني من الاختلافات سواء كانت دينية (مسلم- يهودي)، أو اجتماعية (حر- عبد)، أو حسب سلسلة النسب (شريف- صلحاوي)، أو العمق الجنيالوجي (عربي- أمازيغي) والعمل، البشرة، اللون وغيرها من المحددات. وفي هذا السياق وقف روس عند قبائل ايت عطا وحدد مجالها الجغرافي تحديدًا دقيقًا بموازاة مع تحديد الخريطة البشرية المكونة لهذا المجال، مبرزًا أن العناصر التي يتكون منها مجتمع ايت عطا خمسة وهي: الشرفاء، المرابطون، الحراطين، العبيد، واليهود. راجع: استيتو عبد الله، **التاريخ**

علمية. عالمية. مُحكمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

السياسي والاجتماعي لقبائل ايت عطا إلى نهاية القرن التاسع عشر، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ٢٠١١، ص ١٢٦- ١٢٧.

(١٧) استيتو، مرجع سابق، ص ١٢٧ - ١٢٨.

(18) mezzine, op.cit. P.267 – 268.

(١٩) استيتو، مرجع سابق، ص١٢٩.

(٢٠) حميد تيتاو، مرجع سابق، ص ٣٠-٣٤.

(٢١) لمزيد من التفاصيل، راجع: عبد الله استيتو، مرجع سابق، ص٧٥ وما بعدها.

(٢٢) عبد الله استيتو، مرجع سابق، ص ٩٠ - ٩١.

(٢٣) لمزيد من التفاصيل راجع:

Documents du centre des hautes études administratives sur l'Afrique et l'Asie modernes, études sur l'orf dans la région de tafilalt, n555, pp.5 - 12.

(٢٤) جورج سبيلمان، مرجع سابق، ص٤٥.

(٢٥) المرجع نفسه، ص ٤٦ - ٤٧.

(٢٦) كرواز إبراهيم، **ازرف من خلال واقع قبائل آيت عطا**، فاس، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية، بحث لنيل الإجازة في الحقوق ١٩٨٤. ص٢٢.

(٢٧) جورج سبيلمان، مرجع سابق، ص ٤٨.

(٢٨) لمزيد من التفاصيل راجع:

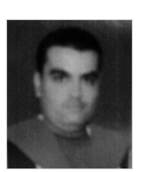
Rapport mensuel d'ensemble du protectorat, situation politique et militaire du maroc occidental, juin 1914, *1er partie, P. 14.*

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية

ISSN: 2090 – 0449



نظرية الفونيم وتطبيقاتها على العربية
رؤية تاريخية



د. محمد أحمد سامي أبو عيد

أستاذ مشارك في اللغويات التطبيقية
كلية إربد الجامعية
جامعة البلقاء – المملكة الأردنية الهاشمية

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

محمد أحمد سامي أبو عيد، نظرية الفونيم وتطبيقاتها على العربية: رؤية تاريخية.- دورية كان التاريخية.- العدد الثالث والعشرون؛ مارس ٢٠١٤. ص ٧٦ – ٨٢.

www.kanhistorique.org

كان التاريخية: رقمية الموطن .. عربية الهوية .. عالمية الأداء

مُلَخَّصْ

عرضت هذه الدراسة لنظرية الفونيم اللغوية وتطبيقاتها على العربية، وفق رؤية تاريخية تطورية، فعرضت للنظرية بوجهها التقليدي، ومن ثَمَّ، عرضت لما آلت إليه النظرية من تطور إلى التحليل البروسودي، أو إلى تطور تمثل بنظرية الملامح التمييزية، وأتت على ذلك، كله بأمثلة من العربية. وكانت الدراسة خلصت إلى أن نظرية الفونيم ما زالت هي الأساس لأي تحليل صوتي، فهي لم تتجاوز، وما جاء بعدها من طروحات ليس إلا امتدادًا علميًا لها، ولم يلغها.

مُقَدِّمَةُ

هذه الدراسة عرضٌ لنظرية الفونيم اللغوية، من وجهة نظر تاريخية؛ والرؤية التاريخية، ثمة، هي ما تحفز الدراسة على تتبع النظرية، من جهة نشأتها وتطورها، والمآلات التي آلت إليها؛ حتى أضحت، وفق ما يزعم البعض، جزءًا من تاريخ علم اللغة، لا من حاضره، وبذلك، سيحفل البحث بأمثلة وافرة تؤشر على تطبيقات النظرية، عبر أطوارها المختلفة، على العربية، ولعل تلك الأمثلة، هي ما يؤسس لشرعية الدراسة؛ إذ هي تتخالف بها مع دراسات أخرى لم تُعنَ، كثيرًا، بتطبيقات النظرية، ضمن منظور تاريخي، بل إن تلك الدراسات راحت تعنى بالجانب النظري على حساب التطبيقي، وهي في كثير من تطبيقاتها أتت بأمثلة من الإنجليزية واللغات الأجنبية بدلاً من العربية.

(١) الفونيم: (إشكالية المصطلح)

يُنظر للفونيم بوصفه أحد أظهر المصطلحات العلمية الناجزة في الدرس اللساني المعاصر، وعلى ذلك، فقد وفد المصطلح للثقافة العربية المعاصرة بوفود الثقافة اللسانية الحديثة، ومن ثَمَّ، أصاب المصطلح ما أصاب غيره، من تعدد في المصطلحات المؤشرة على ذات المفهوم. وبذلك، فليس الفونيم هو المصطلح الوحيد المتداول في هذا السياق، بل ثمة مصطلحات أخرى، من مثل: الفونيمة (الخولي، ١٩٩٠، ص٥٩) والصوت المجرد (الخولي، ١٩٩٠، ص٥٩) والصوتيم (الخولي، ١٩٩٠، ص٥٩) والصوت اللغوي (أبو الهيجاء، ٢٠٠٦، ص١) والوحدة الصوتية (إيلوار، ١٩٨٠، ص٨٧) والصُوتة (الهاشمي، ١٩٨٦، ص١١٨).

وكانت الدراسة انحازت للمصطلح "الفونيم"، بوصفه المصطلح الأكثر دقة في الميدان، لتطابقه مع المصطلح الأجنبي، ومن ثَمَّ، لدقة دلالته على المفهوم، والدراسة بذلك تتجنب ما يمكن أن يتعرض له المصطلح من فوضى مفهومية، في حال تبنت أحد المصطلحات سالفة الذكر، إذ هي مصطلحات غير قارة، لم يجرِ اتفاق بشأنها، بعد. إن ما تجدر الإشارة إليه، ثمة أن حالة التعدد في المصطلحات المؤشرة على مفهوم واحد، ليست ظاهرة موفقة، بل هي ظاهرة مقلقة، تعيق الدارس وتربكه؛ وعلى ذلك، تنشد الدراسة من الباحثين التصدي لتلك الحالة؛ بتوحيد المصطلح العلمي وتعميمه في المحافل اللغوية، كافة.

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

(٢) الفونيم: (نشأة الفكرة)

ترتبط نشأة الفونيم، فكرة، بنشأة الأبجدية الأولى (عمر، ١٩٨٥، ص١٤١)، فبغض النظر عن أن النشأة الأولى كانت سامية أم يونانية؛ فينيقية أم أوجاريتية، فقد اختار الواضع الأول للأبجدية تمثيلاً كتابيًا واحدًا للصوت اللغوي، وغَضَّ الطرف عن تلك التنوعات اللانهائية لذلك الصوت، بوصف تلك التنوعات لا تضعنا إزاء صوت آخر جديد، من الوجهة الوظيفية والدلالية؛ فالصوت العربي "س" مُثِّل بالعلامة الكتابية "س"، مع تنبه الواضع إلى أن الصوت، ومن الناحية النطقية، قد يظهر سينًا خالصة، كما في "سماء" وقد يظهر "صادًا"، كما في "بسطة"، وقد يظهر "زايًا"، كما في "أسدل". هذا، وتتفاوت الكتابات الأبجدية في طرائق تمثيلها للأصوات، فالأبجدية الإغريقية تمثل كل صوت بعلامة كتابية مستقلة، وكذلك صنعت الأبجدية اللاتينية، أما الأبجديات السامية، فشقت طريقًا مغايرًا بتمثيلها للأصوات الصوامت دون الصوائت (عمر، ١٩٨٥، ص١٤١). وعلى أية حال، وبغض النظر عن ذلك التنوع في تمثيل الأبجديات للأصوات، فإن ما اتفقت عليه تلك الكتابات، أنها مثلت الصوت، بوصفه وحدة تجريدية وذهنية ووظيفية، وغضت الطرف عن تلك التنوعات غير الوظيفية وغير الدلالية. وعلى ذلك، تكون النشأة الأولى لفكرة الفونيم وثيقة الصلة بنشأة الفكرة الأبجدية.

(٣) الفونيم: (نشأة المصطلح والتنظير له)

يتفق اللسانيون على أن بودوان دي كورتيني هو المكتشف للطبيعة اللغوية للفونيم، إذ هو أول مَنْ نظّر للوظائف التمييزية للأصوات اللغوية، وكان ذلك التنظير أفضى لنتائج كبرى؛ فقد ميز كرفيزسكي، تلميذ كورتيني، بين الفونيم وتجسيد الفونيم، ونشر بحثًا في ذلك سنة ١٨٨٠م، فضّل فيه أن نستخدم المصطلح "فونيم" بديلاً عن "الوحدة الصوتية" (مونان، د.ت.، ص٣٠)، وإذا كان اللسانيون اتفقوا على المنظر الأول للطبيعة اللغوية للفونيم، فإنهم اختلفوا في أول مَنْ استعمل المصطلح، فالمعجم الفرنسي يشير إلى أن الظهور الأول للمصطلح "فونيم" كان في العام ١٨٧٣م. وذلك في أدبيات النحو الفرنسي، وهي ذات الفترة، التي ظهر فيها سوسير، وعلى ذلك، فإن بعض الدارسين يجعلون سوسير أول مَنْ استخدم المصطلح (شاهين، ١٩٩٣، ص١١٦).

ويرى آخرون أنَّ (Defrich Desgainetts) هو أول مَنْ استخدم المصطلح، وذلك في اجتماع عقدته الجمعية اللغوية الفرنسية سنة ١٨٧٣م. وهم يجعلون لويس هافيت ثاني مَنْ استخدم المصطلح، ومنه انتقل إلى سوسير (عمر، ١٩٨٥، ص١٤٢)، إنَّ ما يمكن أن يُستخلص من مجمل هذه التخالفات، وبغض الطرف عن الأسماء، أن المصطلح "فونيم" لم يظهر قبل العقد الثامن من القرن التاسع عشر، ومنذ ذلك التاريخ شرع المصطلح بالانتشار في أرجاء الدرس اللساني المعاصر. فقد طرحه البروفسور (Serba)، من مدرسة لننجراد اللغوية على مدرسة لندن اللغوية في العام ١٩١١م. وعُرف في إنجلترا في العام نفسه، وكان دانيال جونز استخدم المصطلح للمرة الأولى في محاضرة له ألقاها في العام ١٩١٧م (عمر، ١٩٨٥، ص١٤٣). وفي الضفة الأخرى من العالم كان إدوارد سابير أول لساني أمريكي يهتم بالمصطلح "فونيم"، فقد ألمح إليه في كتاب نشره سنة ١٩٢١م. بعنوان اللغة، في حين ظهر الأساس الفونيمي عنده، في بحث له نشره سنة ١٩٣٣م. وفي العام ذاته، ظهر الاهتمام الأكبر بالنظرية على يد بلومفيلد، وذلك في كتابه "اللغة" (عمر، ١٩٨٥، ص١٤٣).

(٤) الفونيم: (مفهومًا)

تنظر الدراسة لمصطلح الفونيم بوصفه أحد أكثر المصطلحات اللسانية جلبًا للإشكالات المفهومية، إذ لم يتفق الدارسون، بعد، على مفهوم واحد بعينه لذاك المصطلح، ويعود ذلك لاختلاف هؤلاء الدارسين في تحديد الأساس الذي يمكن لمفهوم الفونيم أن ينبني عليه، ولعل من جملة الأسس المقترحة: الأساس السمعي والأساس النطقي والأساس الوظيفي والأساس النفسي (مونان، د.ت.، ص٨٣)، وعلى ذلك، تعرض الدراسة في قابل من السطور لعدد من تلك المفاهيم، وفق ما طرحه عدد من كبار[*] اللسانيين.

٤/١- مفهوم الفونيم عند سوسير:

يكشف سوسير عن مفهومه للفونيم في إطار تكلمه عن التخالف بين اللغة والكلام، فإذا كانت اللغة نظامًا ذهنيًا من القواعد يُختزن في الذاكرة الجمعية للأمة، وكان الكلام تجسيدًا ماديًا فرديًا لذاك النظام، فإن الفونيم يعود للغة لا للكلام، إذ هو ليس مرتبطًا بالحدث النطقي أو العضوي، بل هو قيمة ذهنية للصوت، أما الصوت فهو المجسد لتلك القيمة أو هو مجسد للفونيم (حنا، ١٩٩١، ص١١). وفق هذا المفهوم، فإننا وفي سبيل أن نحصر الفونيمات في لغة محددة، ينبغي لنا أن نحلل عددًا كافيًا من السلاسل النطقية، ومن ثَمَّ، نصنف الأصوات الفونيمات في تلك السلاسل، بتجاهل كل ما ليس له أهمية سمعية من الخصائص الصوتية (سوسير، ١٩٨٥، ص٧٧)، مع التنبه إلى أن الأهمية السمعية، هنا، لا تؤشر إلا على تلك الخصائص المميزة، دلاليًا، لصوت دون آخر.

٤/٢- مفهوم الفونيم عند تروبتسكوي:

يحدد تروبتسكوي الفونيمات استنادًا إلى مبدأ التفاضل[*]، والتفاضل، هنا، ليس إلا ذاك التخالف بين الوحدات الصوتية

(*) يقع اختيار الدراسة لهؤلاء اللسانيين، بناءً على تزعم كل واحدٍ منهم لأحدى المدارس اللسانية المعروفة، فسوسير شيخ البنيوية الأوروبية، وتروبتسكوي زعيم من زعماء المدرسة الوظيفية، وكذلك، فإن بالمر يتزعم الاتجاه التجريدي في النظر للفونيم، وأما دانيال جونز، فيتربع على عرش الصوتيات المعاصرة، وعليه، تكون الدراسة عرضت لأظهر الاتجاهات في النظر للفونيم، بعرض طروحات شيوخها.

(*) استخدم الدارس مصطلح التفاضل بديلاً عن المصطلحات الأخرى من مثل: التخالف أو الفروق أو الخلاف، مع الإشارة إلى أن هذا الاستخدام الخاص بالدراسة مستمد من المصطلح الرياضي Deferntial.

(زكريا، ١٩٨٣، ص٢٣٩)، أو قل هو تخالف يقوم بوظيفة. وبهذا المعنى، فالفونيم ليس له قيمة في حد ذاته، بل هو يستمد قيمته من علاقاته بغيره من الفونيمات، ولعل فكرة التخالف أو التفاضل، هنا، ليست وليدة أفكار تروبتسكوي، بل هي امتداد لذاك الإرث السوسيري، وهو إرث ينص على أن ليس في اللغة، إلا التخالف (فابر، ١٩٩٢، ص١٠٥). وعلى سبيل التمثيل لما قاله تروبتسكوي، فإن الوحدة الصوتية (الدال) في "دَلّ" ليس لها قيمة في ذاتها، بل إن قيمتها تتأتى من تفاضلها مع بقية الوحدات الصوتية في الكلمات المناظرة، من مثل: "ضَلّ" و"ظَلّ" و"ذَلّ" و"طَلّ"، وعليه، يصبح الفونيم، وفق تروبتسكوي ومدرسة براغ، ليس إلا قيمة للتفاضل، فما يميز الدال أنها ليست الضاد، وليست الظاء وليست الذال وليست الطاء.

ويمكن القول: إن تروبتسكوي هو من شكّل مفهوم الفونيم، بوصفه مفهومًا وظيفيًا، إنه، أي الفونيم، الوحدة الفونولوجية التي لا تقبل في لغة ما التحليل إلى وحدات فونولوجية وظيفية أكثر صغرًا (مونان، د.ت.، ص١٠٤)، فإذا ما نظرنا في الكلمات العربية المتتالية: سال، قال، حال...، وجدنا أن اختلاف الصامت الأول في كل منها هو ما أحدث أثراً في المعنى، وهو أثر يتلمسه الناطق اللغوي. والفونيم، وفق تروبتسكوي، لا يُجَسَّد، أي إنه لا ينطق، ولا يسمع، بل هو صورة مجردة غير مادية، لا يحتفظ بأي من خصائص الصوت إلا بما يجعله يترك أثرًا سيكولوجيًا مشتركًا لدى جمهور المتلقين (مونان، د.ت.، ص٣١). ولما كان تروبتسكوي جعل الفونيم يقوم على أساس وظيفي، فإنه جعل لذلك الأساس قواعد، هي (غازي، ١٩٨٥، ص١٤٧):

- إذا كان الصوتان ينتميان للغة واحدة، وكان من الممكن أن يحل أحدهما مكان الآخر، دون أن يحدث ذلك اختلافاً في المعنى، فإن هذين الصوتين ينتميان لفونيم واحد.
- إذا كان الصوتان ينتميان للغة واحدة، ولا يمكن أن يحل أحدهما مكان الآخر دون أن يحدث ذلك اختلافاً في المعنى، فإن هذين الصوتين ينتميان لفونيمين مختلفين.

وعلى سبيل التمثيل، فإن الصوتين "ض" و"ظ" في بعض العاميات العربية، ومنها العامية الأردنية، لا ينتميان إلا لفونيم واحد، هو فونيم "الضاد"، كما في: "ضرب"، و"ضلّ" و"ضوء"؛ فسواء في ذلك، أنطقت الضاد في "ضلّ" ضادًا أو ظاءً، فإن المعنى لا يتغير، وكذلك الحال في بقية الكلمات، وهذا، لا شك، يشير إلى جانب من الاختلافات بين الفصحى والعاميات في النظام الفونولوجي (الصوتي). من جهة أخرى؛ فإن حلول الضاد مكان الظاء في كثير من مواقع العربية الفصحى يحدث أثرًا في المعنى، وذلك ما يكشف عنه زوجا الكلمات الآتية: (ظلَّ، وضلَّ) و(ضنَّ وظنَّ)، وعلى ذلك، فالصوتان (ض) و(ظ) ينتميان لفونيم واحد في العامية الأردنية، في حين، ينتمي كل واحد منهما لفونيم مختلف على مستوى الفصحى.

٣/٤- الفونيم عند دانيال جونز (Jones):

شدَّد جونز (Jones) في المراحل الأولى من عرضه لنظرية الفونيم على المفهوم الفيزيائي المادي للوحدة الصوتية، مقصيًا، بذلك، كل المفاهيم التجريدية والنفسية والوظيفية، وكان جونز عرّف الفونيم بأنه: أسرة من الأصوات في لغة معينة تتشابه في الخصائص العضوية والنطقية والسمعية، وتستعمل على نحو لا يسمح باختلاف المعنى، إن حل أحد هذه الأصوات مكان الآخر (شاهين، ١٩٩٣، ص١٣٣).

٤/٤- الفونيم عند بالمر (Palmer):

يرى بالمر (Palmer) أن الفونيم يستقل، كليًا، عن الخصائص الصوتية المرتبطة به، وعليه، فالفونيم وحدة تجريدية؛ وقد اشترك مع بالمر في نظرته تلك عدد من كبار اللغويين، من مثل: (Jimbo) وجونز في آخر طور من أطوار صياغته لنظريته حول الفونيم، وكذلك فعل توادول، إذ هو يقول: "الفونيم كاللغة تجريد، ولكنه يملك بعض الوجود (شاهين، ١٩٩٣، ص١٣٧)". على أية حال؛ وكما يتضح من النقاش، أعلاه، فإن تعريفات كثيرة قدمت في شرح مفهوم الفونيم، وهي تعريفات اختلفت في تحديد المفهوم، وفق الاختلاف في تحديد الأساس المنطلق منه. إن هذه التعريفات، وإن اختلفت في تحديد مفهوم الفونيم، فإنها تتفق، جميعًا، على أنه أي الفونيم، لا يتحقق بنفسه، بل بأفراده (عمر، ١٩٨٥، ص١٦٧)، من جهة أخرى، فإنه ليس ثمة من تحديد واحد لمفهوم الفونيم لا يمكن أن يقبل النقد، هذا، بالإشارة إلى أن حجم الاختلاف في تحديد مفهوم الفونيم لا يقتصر على كونه اختلافًا بين المدارس اللغوية، بل هو اختلاف يقع على مستوى المدرسة الواحدة، لا بل ويقع على مستوى الباحث الواحد، عبر أطواره الفكرية المختلفة، كما فعل دانيال جونز في تحوله من المادي إلى التجريدي.

(٥) الفونيم والألوفون والفون

إذا كان الفونيم أسرة أو مجموعة أو وحدة صوتية تجمع متعددات، فإن المتعددات هي الألوفونات (عمر، ١٩٨٥، ص١٥٥)، ويعرّف الألوفون على أنه: "كل مظهر مادي مختلف للفونيم"، وتتحدد قيمة كل ألوفون من جهتين: (انتماؤه إلى فونيم معين - تحديد السياق الصوتي الذي يظهر فيه). ويرى بولنجر (Bolinger) أن اللغوي يتعرف إلى الألوفونات بوقوفه، أولاً، على الأصوات المفردة، وثانيًا؛ بتوزيعه لهذه الأصوات على الفونيمات، إذ ينسب كل صوت لفونيم معين (عمر، ١٩٨٥، ص١٥٥)؛ فيكون الألوفون. وكان جونز أطلق على هذه الألوفونات تسميات عدة، منها: العضو والألوفون والتنوع المشروط، على أن أحد هذه الأعضاء أكثر أهمية من غيره، إذ هو الأكثر ظهورًا، والأكثر استعمالاً، وهو بذلك، ينظر إليه على أنه العضو الأساسي، أو هو معيار الفونيم، أما الأعضاء الآخرون، فهم أعضاء مساعدون أو ألوفونات مساعدة، أو تنوعات فرع فونيمية (غازي، ١٩٨٥، ص١٥٠).

علمية، عالمية، مُحكّمة، ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

وعلى سبيل التمثيل، فإن الفونيم العربي /س/، يظهر في السياقات الصوتية على هيئات مختلفة، فهو إما أن يظهر سينًا خالصة، كما في أسفر، أو زايًا، كما في أسدل، أو صادًا، كما في يسطع، وعلى ذلك، فالسين [س] والزاي [ز] والصاد [ص] في هذه الأنساق ليست إلا تنوعات صوتية مشروطة أو ألوفونات لفونيم السين/س/*، مع التنبه، هنا، إلى أن ألوفون السين في أسفر [س] هو الألوفون الرئيس أو العضو الأساسي، في حين إن الألوفونات الأخرى [ز] و[ص] ليست إلا أعضاء مساندة. على أية حال؛ فإن عدد الأصوات المجسدة للفونيم الواحد أكثر من أن تحصى، فالصوت الواحد يختلف نطقه باختلاف الناطق، فللرجل نطق، وللمرأة نطق، وللطفل نطق آخر، والناطق نفسه إذا ما نطق الصوت الواحد أكثر من مرة، فإنه في كل مرة يأتي بصوت جديد، والجوار الصوتي يجعل الصوت ذاته في كل مرة صوتًا آخر (مونان، د.ت.، ص٨٨).

فالتاء، نطقًا، تختلف باختلاف الناطق، فيما إذا كان رجلاً أو امرأة أو طفلاً، وهي بعد الصوت المفخم أو قبله، ليست كما هي في سياق من الترقيق، فالتاء في اصطبر، نطقت وكتبت طاء، في حين تبقى تاءً من الناحية الفونولوجية، والطاء، هنا، ليست إلا ألوفونًا لفونيم التاء، لكن جوارًا صوتيًا من التفخيم جعل التاء، هنا، طاء، أما التاء في اكتسب، فهي تاء مرققة، وفق سياقها الصوتي، أيضًا، ويمكن لنا أن نقول أننا في كل نطق للتاء، إنما نحن ننطق بتاء جديدة. إن أي فوارق بين صوتين، ومهما كانت ضئيلة، قد تستثمر في لغة ما لتجعلنا إزاء صوتين مختلفين ينتمي كل منهما لفونيم مستقل، في حين إن بعض اللغات قد تهمل فوارق كثيرة، وإن عظمت (مونان، د.ت.، ص٩٠). فالتفخيم، وحده، هو ما يفرق الضاد عن الدال، والطاء عن التاء، والظاء عن الذال، والصاد عن السين، ورغم ذلك، فإن العربية تستثمر هذا الفارق الوحيد في ابتكار أصوات جديدة، فتجعل الضاد فونيمًا يختلف عن الدال، والطاء فونيمًا آخر غير التاء، والظاء فونيمًا آخر غير الذال، والصاد فونيمًا يختلف عن السين.

وفي المقابل من ذلك، فإننا نجد الإنجليزية تهمل ذلك الفرق، فتجعل الضاد والدال صوتًا واحدًا، والطاء والتاء، كذلك، تعدهما صوتًا واحدًا، وكذلك، يجري الأمر في الظاء والذال والصاد والسين، في حين تستثمر فروقًا أخرى تهملها العربية، كما في الفرق بين الباء المجهورة والباء المهموسة في: (Parking)، و (Barking). والراء واللام هما صوت واحد في اليابانية، وعلى ذلك يجد اليابانيون صعوبة في التفريق بين الصوتين في لغات تفرق بينهما (حجازي، ١٩٧٨، ص٤٢)، من مثل العربية. وعلى ذلك، فالألوفون هو الصوت المنطوق بعد أن ننسبه لنظام لغوي معين، وبعد أن ننسبه بالتبعية لفونيم محدد هو الآخر، أما الصوت قبل أن ينسب لفونيم معين في لغة محددة فهو الفون (شاهين، ١٩٩٣، ص١١٥).

وعلى سبيل التمثيل، فإن صوت الكاف (ك) ينظر إليه على أنه فون قبل نسبته إلى نظام لغوي معين، فالتكلم على الكاف الفون هو تكلم على كاف فيزيائية مادية لا تختص بلغة، فهي ليست كافًا عربية أو إنجليزية، أو فصيحة أو عامية. أما إذا نسبت الكاف لنسق محدد، فنحن، هنا، إزاء الكاف الألوفون. فالكاف الفصيحة في "كال"، هي ألوفون لفونيم الكاف، في حين، إن الكاف في "كال"، وعلى مستوى العامية الفلسطينية، هي ألوفون لفونيم "القاف"، إذ هي ليست إلا تنوعًا لذاك الفونيم.

(٦) تطور النظرية الفونيمية

تُعّد نظرية الفونيم واحدة من أظهر النظريات اللغوية المثيرة للاختلاف؛ يقول روبنز: "كمية كبيرة من المداد قد استخدمت في الجدال حول نظرية الفونيم" (عمر، ١٩٨٥، ص١٣٩). ومن هنا، توزع اللغويون في نظرهم للفونيم على محاور متعددة، لعل أهمها:

٦/١- محور المدافعين عن النظرية:

قال كرامسكي: "إن اكتشاف الفونيم يُعّد واحدًا من أهم الإنجازات التي حققها علم اللغة"، وأردف قائلاً: "إن ذلك يعادل اكتشاف الطاقة النووية، لأن هذا الكشف في مجال علم اللغة أدى إلى ثورة في التفكير اللغوي، كما أدى اكتشاف الطاقة النووية إلى ثورة في العلوم التقنية". وكان دانيال جونز في طليعة من تبنى النظرية، وحاول جلب الشيوع لها، سواء في ذلك أكان على مستوى تدريسه أو كتاباته (عمر، ١٩٨٥، ص١٣٩).

٦/٢- محور الرافضين للنظرية:

كانت مدرسة لندن اللغوية بزعامة جون فيرث أظهر من رفض النظرية وتصدى لها، فقد أعلن فيرث سنة ١٩٥٧ أن الناس قد أخذوا كفايتهم من التحليل الفونيمي ومن التحليل الفونولوجي التجزيئي، وتنبأ بأن ما سيتلوا من سنوات سيكون حافلاً بالتركيب بدل التحليل (عمر، ١٩٨٥، ص١٤٠). ويرى فيرث أننا لا نعثر على أي وحدة صوتية أو جزء وحدة، يمكن لها أن تسمى "فونيم"، وعليه، راح فيرث يستخدم مصطلح (Sound) "الصوت"، بديلاً عن الفونيم (عمر، ١٩٨٥، ص١٤٠). أما ديفيد أبركرومبي، فينص على أن نظرية الفونيم توقع الناس في الفوضى والاضطراب، إذ تجعلهم يظنون أن الكلام ينتج على هيئة جزيئات صوتية منفصلة، وهو ما لا يحدث على أرض الواقع اللغوي (عمر، ١٩٨٥، ص١٤٠). وبعبارة أخرى، فإن ثمة من رفض القول بنظرية الفونيم، أو هو رفض الاستمرار بالقول بها، بوصفها نظرية قديمة تجاوزها الزمن، وتجاوزتها المعطيات التحليلية المعاصرة، وعليه، أضحت النظرية جزءًا من تاريخ علم اللغة، لا من حاضره.

إن هذا الخلاف جعل الناس يُصَنِّفون على أنهم إما فونيميين أو لا فونيميين، أما الفونيميون فتصلبوا في نظرهم للفونيم، فجعلوه واحدًا لا ينقسم إلى أصغر منه، يقول اللساني الروسي "Silorov":

(*) يعتمد الأصواتيون المعاصرون العلامة: / /، للإشارة للفونيم، في حين تكون العلامة: [ ] للإشارة إلى الألوفون.

علمية. عالمية. مُحكَّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

"إذا نحن تحدثنا عن الفونيم رمزًا، فإن الفونيم ليس فقط غير منقسم إلى وحدات صغرى، ولكنه لا يحلل إلى عناصره الأكوستيكية، إنه مجموع كلي وكيفية غير قابلة للانقسام (عمر، ١٩٨٥، ص١٥٤)، ومن هنا، كان الفونيم عند هؤلاء النفر من الدارسين أصغر وحدة صوتية، وهو ما تخالف معه اللافونيميون، إذ هم في طروحاتهم تجاوزوا الفونيم إلى عوالم أكثر دقة وانقساماً كما في الملامح التمييزية، أو أكثر سعة وتركيبًا؛ كما في التحليل البروسودي، فقدموا بديلين عن نظرية الفونيم، هما:

- نظرية الملامح التمييزية:

بخلاف ما اعتقد الفونيميون، نظر أصحاب الملامح التمييزية إلى الفونيم بوصفه وحدة صوتية قابلة لأن تنقسم إلى وحدات أصغر، هي الملامح التمييزية، ويمكن لنا أن نكشف عن تلك الملامح عن طريق بيان أوجه التشابه بين الفونيمات، ثم البحث، من بعد ذلك، عن جوانب التخالف والتي ستكون هي الملامح التمييزية (إيلوار، ١٩٨٠، ص٩٢). وعلى سبيل التمثيل، فإن الصوت "ط"، هو صوت: وقفي أسناني لثوي مهموس مفخم، والصوت "ت"، هو صوت: وقفي أسناني لثوي مهموس مرقق.

وعلى ذلك، فإن التشابهات بين الصوتين تتمثل في الملامح المتشابهة الآتية: "الوقفية، الأسنانية اللثوية، الهمس"، أما الملامح التمييزية، فليس منها إلا ملمح التفخيم، وبذلك، فإن ملمح التفخيم هو الملمح الفارق بين الطاء والتاء، وهو، أي التفخيم، الوحدة الصوتية الصغرى التي تميز، دلالياً، بين أزواج الكلمات: "طاب وتاب"، و"تمّ وطمّ"، و"طَلّ وتَلّ" و"تين وطين"، هذا، على مستوى العربية الفصحى، إذ يُستغل الملمح لإحداث فرق دلالي، أما على مستوى اللهجات، فليس بالضرورة أن يوظف الملمح لإحداث فرق في المعنى، وبهذا لا يكون الملمح تمييزياً، كما في الأزواج: "تَمِر وطَمِر" في العامية الفلسطينية و"طب وتب" و"طويل وتويل"، في لهجات المدن الشامية.

والباء "B" الإنجليزية هي صوت: وقفي شفوي مجهور مرقق، وأما الباء الأخرى "P"، فهي صوت: وقفي شفوي مهموس مرقق. وبذلك، فإن الإنجليزية تستثمر هذا الفرق بين الصوتين في إحداث تخالف دلالي، كما في (Parking) و (Barking)، غير أن العربية لا تلتفت إلى مثل ذاك الفرق، فلا تخالف في المعنى في "سبت" سواء نطقت الباء مهموسة، وفق سياقها الصوتي، أو نطقت مجهورة. ومن ثَمَّ، فإن ملمحي الهمس والجهر في الباء هما ملمحان تمييزيان في الإنجليزية، وهما ليسا كذلك في العربية.

إن الفونيم بعد هذه النظرية لم يعد هو الوحدة الأصغر في اللغة، بل هو جماع الملامح التمييزية من جهر وهمس وتفخيم وترقيق ووقف وأنفية واحتكاك...(عمر، ١٩٨٥، ص١٥٦). وليس من تحري الدقة، وفق ما يزعم البعض، أن نطلق على هذا النمط من التحليل تسمية "التحليل الفونيمي"، ذلك أن الفونيم، هنا، ليس له مقابل حتمي واحد، إنما كل ملمح من ملامح الفونيم له مقابل، إذ هو، أي الفونيم، ليس إلا حزمة من التقابلات (عمر، ١٩٨٥، ص١٥٦).

- نظرية التحليل البروسودي:

يرى أصحاب هذه النظرية، ومعظمهم ينتسبون لمدرسة لندن اللغوية، بزعامة فيرث، أن الفونيمات أو الوحدات الصوتية تتعالق والفونيمات فوق التركيبية، أو ما يطلق عليه: "السمات التنغيمية، من شدة ولحن ونغمة" (غازي، ١٩٨٥، ص١٥٢). إن مثل هذا التعالق تقول به نظرية الفونيم التقليدية، غير أنها، أي النظرية التقليدية، تسير باتجاه أفقي من التحليل، فتجزيء الكلام إلى فونيمات تركيبية (صوامت وحركات وأشباه حركات) ثم تنظر في المستوى الآخر، أي في ما فوق التركيب، وبالطريقة الأفقية ذاتها، فتقف على التنغيم والنغمة والنبر والطول والمفصل. أما التحليل البروسودي فلا يقول إلا بالتحليل العمودي؛ إذ يربط بين فونيم أو أكثر من فونيم وما فوقه من ملامح فوق تركيبية. وعلى ذلك، فإن تجزيء اللغة إلى صوامت وحركات متتابعة، كما هو الشأن في نظرية الفونيم، ليس إلا أمرًا مصطنعًا، وفق ما يرى البروسوديون (عمر، ١٩٨٥، ص١٨٥).

إن التحليل البروسودي، وبوصفه تحليلاً بديلاً لنظرية الفونيم، إنما يتعامل مع ضربين من العناصر غير قابلين للاختصار بنموذج واحد مشترك، هذان الضربان هما: (أ) الفونيمات فوق التركيبية، (ب) الوحدات الفونيماتية. والوحدات الفونيماتية، هنا، هي الفونيمات في النظرية التقليدية (الصوامت والحركات)، وأما الفونيمات فوق التركيبية، فهي ملامح تتصل بفونيم أو أكثر(عمر، ١٩٨٥، ص١٨٥). إن البروسود، ثمة، إنما يشير إلى حالة التوحد بين ملامح، من مثل: النبر والنغمة والتنغيم والطول والمفصل، والفونيمات التركيبية. وعلى سبيل التمثيل، فإن الجملة العربية: "جاء أحمد" يمكن تحليلها باتجاهين، الاتجاه الأول فونيمي أفقي، ويقضي بكون الجملة سلسلة من الفونيمات التركيبية المتتالية (ج، ا، ء، ـَ، أ، ـَ ح، م، ـَ د)، وهي أيضًا سلسلة من الفونيمات فوق التركيبية المتتالية، من مثل: التنغيم والنبر.

أما الاتجاه الآخر، فبرسودي عامودي يربط بين الفونيم وما يقابله من ملامح فوق تركيبية من تنغيم ونبر وطول...، ويطلق على هذه الوحدة المرتبطة من الفونيم وما فوقه من ملامح اصطلاح (البروسود)، وعلى سبيل التمثيل فإن (الحاء/ ح/) في "أحمد" ترتبط مع الفونيم فوق التركيبي (النبر) في تشكل واحد أو وحدة مستقلة من الجملة يطلق عليها: البروسود: (حَ)، وبهذا، فإن الجملة: "جاء أحمد"، لا تتكون من فونيمات وفونيمات فوق تركيبية، وإنما هي تتكون من بروسودات متوالية.

على أية حال؛ فإن النظريتين "الملامح التمييزية والتحليل البروسودي"، وبغض الطرف عن مواطن الخلاف بينهما، جعلتا نظرية الفونيم، وهي موضوع الدراسة الرئيس، لا ينظر إليها وفق البعض إلا بوصفها جزءاً من تاريخ علم الأصوات وعلم اللغة لا

حاضره. وهو ما لا تتفق الدراسة معه؛ إذ هي، أي نظرية الفونيم، وفي كلا التحليلين التمييزي والبروسودي، لا مناص من كونها مدخلاً طبيعياً للتحليل، ثم لا بد من أن تتجاوز بالتحليل على أساس من الملامح التمييزية، أو التحليل البروسودي. وإن كانت الدراسة ترى في نظرية الملامح التمييزية امتدادًا طبيعيًا وتطويرًا علميًا للنظرية الفونيمية، وهو، أي ذلك التطوير، يجعل التحليل الفونولوجي "الصوتي" يمر بمرحلتين:

- المدخل للتحليل، ولا مناص فيه من أن يكون فونيمياً، يقوم على حالة من التعرف إلى الفونيمات الخاصة بنظام لغوي محدد، وما يجسّد تلك الفونيمات من ألوفونات.
- التحليل المعمَّق، ويقوم على أن يُجزّئ الفونيم إلى وحدات أصغر، هي الملامح التمييزية.

وعلى ذلك؛ فإن الملامح التمييزية ليست كالتحليل البروسودي، فالتحليل البروسودي يتجاهل عناصر لغوية حقيقة من مثل: الملامح: الجهر والهمس والتفخيم والترقيق، وهو بذلك يشكل نهجًا مغايرًا للملامح التمييزية، وهو نهج مغاير لنظرية الفونيم، إذ هو يسير بالتحليل بطريقة عمودية لا أفقية. إن التحليل الصوتي، وفق الملامح التمييزية، ليست نقضًا للفونيم، ولكنه تجزيء له، بالتعرف إلى وحدات أصغر منه لا تلغيه، وإنما تعده مدخلاً للتعرف إليها، كما لا يلغي الفونيم نفسه المورفيم، وكذلك فإن المورفيم لا يلغي التركيب. وعليه، فإن الدراسة ترى، وفق رؤيتها التاريخية النظرية، أن النظرية الفونيمية التقليدية لم تنتهِ، بل تحولت من كونها النظرية الأصلح والأحدث للتحليل الصوتي، إلى كونها النظرية المدخل لتحليل الأصوات، وسواء في ذلك، أكان التحليل بروسوديًا أم تمييزيًا.

وعلى ذلك؛ فإن الدارس للعربية لا يمكنه أن يفرز مجموعة الملامح التمييزية العربية المغيرة للمعنى وغير المغيرة له، دون أن يأخذ، بعين الاعتبار، ما انتهت إليه النظرية الفونيمية التقليدية من تصنيف للأصوات العربية على محاور الفونيمات والألوفونات. وكرة أخرى، فإن الدارس، وقبل ولوجه للتحليل التمييزي، لا مناص له من أن يحدد فيما إذا كان الصوتان "ق" و"ك" ألوفونين لفونيم واحد، كما في العامية الفلسطينية في: "قال" و"كال"، أو هما ألوفونان لفونيمين مستقلين كما يجري الأمر في ذات الكلمتين في الفصحى. وعليه؛ فإن ذلك ليؤكد أن نظرية الفونيم التقليدية، وهي قطب الرحى، في هذه الدراسة، ما زالت هي المدخل الطبيعي لأي تحليل علمي صوتي للعربية ولغيرها من اللغات، ونظريتا التحليل البروسودي والملامح التمييزية هما تطوير وتجويد للنظرية لا تطور عنها، لاغٍ لها، وعلى وجه التعيين، فإن نظرية الملامح التمييزية، ما هي إلا شرح وتفصيل للقول في نظرية الفونيم.

خاتمة

تمتاز هذه الدراسة بالتركيز على تطبيقات النظرية الفونيمية وما بعدها على العربية، فهي تحاول أن تأتي، أي الدراسة، مدججة بالأمثلة والتطبيق، بخلاف كثير ممن درسوا الفونيم، وركزوا على الجانب النظري، وحين جاؤوا بالأمثلة، جاؤوا بها من لغات أخرى، كالإنجليزية والفرنسية. وهي تحاول أن تثبت أن نظرية الفونيم، وبرغم أن البعض يعدها جزءًا من تاريخ علم اللغة، لا حاضره، إلا أنها لا زالت أساسًا للتحليل التمييزي أو البروسودي. فبالتقابل مع الانقسامات الكيميائية: المادة، الجزيئات، الذرات، وبالتقابل مع انقسامات الذرات إلى: الإلكترونات والبروتونات والنيوترونات، نقول: إنه إذا كانت (الإلكترونات والبروتونات والنيوترونات) لا يمكن أن تفهم إلا من خلال فهمنا للذرات، فكذلك الأمر في الملامح التمييزية، إذ هي ليست بديلاً عن الفونيم، بل هي إضافة لعنصر جديد أصغر من الفونيم هو (الملمح)، لكنه، أي، الملمح، ليس إلغاءً للفونيم، بل إعادة قراءة وفهم له، فالفونيم وحدة ثابتة لا يمكن تجاوزها، بل يمكن القول بإمكانية انقسامها، فحسب، والتحليل الصوتي لا يمكن أن يقوم دون الفونيم، فهو الأساس لكلا التحليلين التمييزي أو البروسودي.

إن أي تحليل صوتي لا يمكن أن يبدأ من الملمح بل من الفونيم، لأننا يجب أن نحدد فيما إذا كنا إزاء أصوات هي ألوفونات لفونيم واحد، أو هي ألوفونات لفونيمات مختلفة، وعلى سبيل التمثيل فإن الهمزة [ء] في "آل" في الفصحى هي ألوفون لفونيم الهمزة /ء/، في حين هي في بعض لهجات المدن العربية ألوفون لفونيم القاف في: "قال". وعلى ذلك، لا يمكن إلا أن نبدأ من الفونيم، ولا يمكن أن نرى الفونيم إلا أساسًا لكل أنماط التحليل الصوتي التمييزي والبروسودي.

المراجع:

- أبو الهيجاء، خلدون، ٢٠٠٦، **فيزياء الصوت اللغوي ووضوحه السمعي**، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط١.
- إيلوار، رونالد، ١٩٨٠، **مدخل إلى اللسانيات**، ترجمة: بدر الدين القاسم، مطبعة جامعة دمشق، دمشق، ط١.
- حجازي، محمود فهمي، ١٩٧٨، **مدخل إلى علم اللغة**، دار الثقافة، القاهرة، ط٢.
- حنا، سامي، ١٩٩١، **مبادئ علم اللسانيات الحديث**، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ط١.
- الخولي، محمد علي، ١٩٩٠، **الأصوات اللغوية، النظام الصوتي للغة العربية**، دار الفلاح، عمان، ط١.
- زكريا، ميشال، ١٩٨٣، **الألسنية وعلم اللغة الحديث، المبادئ والأعلام**، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط٢.
- سوسير، فردناند دي، ١٩٨٥، **فصول في علم اللغة العام**، ترجمة: أحمد الكراعين، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ط١.
- شاهين، عبد الصبور، ١٩٩٣، **في علم اللغة العام**، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٦.
- عمر، أحمد مختار، ١٩٨٥، **دراسة الصوت اللغوي**، عالم الكتب، القاهرة، ط٣.
- غازي، يوسف، ١٩٨٥، **مدخل إلى الألسنية**، منشورات العالم العربي الجامعية، دمشق، ط١.
- فابر، بول، ١٩٩٢، **مدخل إلى الألسنية مع تمارين تطبيقية**، ترجمة: طلال وهبة، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط١.
- مونان، جورج، د.ت.، **علم اللغة في القرن العشرين**، ترجمة: نجيب غزاوي، وزارة التعليم العالي، دمشق، ط١.
- الهاشمي، التهامي الراجي، ١٩٨٦، **توطئة لدراسة علم اللغة**، التعاريف، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط١.

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية

ISSN: 2090 – 0449



الثابت والمتغير في اللباس البدوي في الأطلس المتوسط
منطقة إفران نموذجًا



د. لحسن تاوشيخت

أستاذ التعليم العالي
رئيس قطب تدبير المجموعات وخدمة العموم
المكتبة الوطنية – المملكة المغربية

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

لحسن تاوشيخت، الثابت والمتغير في اللباس البدوي في الأطلس المتوسط: منطقة إفران نموذجًا.- دورية كان التاريخية.- العدد الثالث والعشرون؛ مارس ٢٠١٤. ص ٨٣ – ٩٢.

www.kanhistorique.org
كان التاريخية: رقمية الموطن .. عربية الهوية .. عالمية الأداء

مُلَخَّصْ

تُعرف الشعوب ليس فقط من خلال درجة تقدمها العلمي والاقتصادي، وإنما أيضًا من خلال درجة المحافظة على أصالتها وخصوصياتها الثقافية. ويعتبر اللباس من المظاهر الجلية لهذه الهوية التي تدخل في نطاق ما يطلق عليه بالتراث الوطني، إلا أن هذه الهوية تتعرض باستمرار لعوامل التأثير والتغيير، مما يفقدها تدريجيًا طابعها الأصلي، وإذا كان اللباس البدوي في المغرب يُشهد له بالتميز والثبات أمام موجات الموضة؛ فإنه مع الأسف يعيش في الظل ولم يحظ بالعناية الكافية، سواء من حيث إدراجه في المقررات الدراسية، أو من حيث دمجه في مشاريع التنمية المحلية. وانطلاقًا من هذا المعطى أصبح لزامًا أن ينال هذا الصنف من التراث الوطني ما يستحقه من اهتمام، وذلك بضرورة المحافظة عليه وبدعم البرامج المهتمة به والتي تدخل ضمن السياحة الثقافية والدراسات الجامعية والأفلام السينمائية وغيرها، وأيضًا بتوظيف وإدماج هذا التراث في مسار التنمية وبخلق تخصصات ومسالك بحثية تهتم بالتراث المغربي عامة سواء المادي منه أو اللامادي.

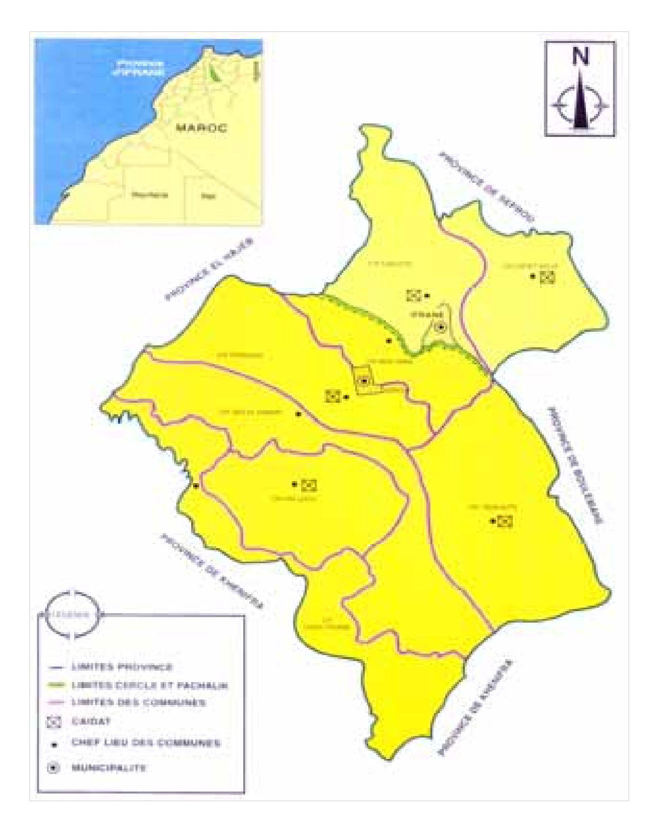
مُقَدِّمَةٌ

يعتبر اللباس من أهم مظاهر الحضارة المادية، فهو المرآة التي تعكس أحوال المجتمع وأوضاعه ومستوى عيشه من جهة، ومن جهة ثانية تدل على صورته الواقعية من حيث الانعزال أو الانفتاح، من حيث المحافظة أو التجدد والاقتباس، كما تشهد على الوضعية الاقتصادية من خلال تطور وسائل الإنتاج والمواد والتقنيات المستعملة ودرجة استهلاكها. واللباس يوضح لنا إضافة إلى هذا جوانب من السلوك النفسي الظاهر والباطن للإنسان، ويرمز في اختلافه إلى صنف العيش والجنس والسن والذوق، ويفتح آفاقًا واسعة للتحليل الأنثروبولوجي والسيميائي.

وتبرز أهمية دراسة اللباس البدوي من خلال تقاطعه مع عدد من التخصصات المهمة والمتطورة كتاريخ الفن وعلم الآثار والاثنوغرافيا والسينما وصناعة النسيج والسياحة... وغيرها. ويعتبر اللباس البدوي المغربي من العادات والتقاليد الموغلة في الزمن، منها من لا يزال يحافظ على أهم خصائصه ومنها من أدخلت عليه تغييرات جديدة تبعًا لتطور الذوق ووسائل الإنتاج ومنها لنفس هذه العوامل اختفت ولم يعد لها وجود إلا في الذاكرة الشعبية.

إن هذه الدراسة التي تحاول أن تلم بخصوصيات اللباس البدوي بالأطلس المتوسط وتحديدًا بمنطقة إفران من حيث الثابت منها والمتغير، من شأنها المساهمة في تأثيث الفضاءات التاريخية والسياحية بإرث لن يكون فيه الماضي إلا حاضرًا بتجلياته البراقة والساحرة. كما أن الدراسة ما هي إلا مقدمة ستشكل ولا شك حافزًا لفنانينا على استلهام عناصر الإبداع من هذا التراث المهدد بالاندثار، كما أنها توفر مادة توثيقية للأعمال السينمائية ولإقامة معارض أو متاحف اثنوغرافية.

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449



الخريطة الإدارية لإقليم إفران

Source: La Province d'Ifrane: *Monographie de la Province d'Ifrane* 1998. Rabat, Imprimerie de la Tour 1998 (P.10)

أولاً: المعطيات البشرية

يجهل على وجه التحديد ضبط قدم الاستقرار البشري في منطقة الأطلس المتوسط وفي إفران على وجه الخصوص، وتعود أقدم المؤشرات إلى فترة العصر الحجري الحديث ويدل على ذلك مجموع الكهوف المنتشرة في المنطقة وخاصةً على جانبي وادي تزكيت، فضلاً عن بقايا المواقع الأثرية مثل زروقة، غابة البحر، أقشمير، وضاية عوا. ولعل المعنى الدلالي لاسم إفران باعتباره استنبط من كلمة أمازيغية إفري: (كهف) وجمعها إفران: (كهوف) يذهب في نفس الاتجاه. الإشارات الأولى عن نوعية العناصر البشرية المستقرة في المنطقة جاءتنا من المصادر اللاتينية التي ذكرت أن الرومان في موريطانيا الطنجية وخاصةً في وليلي كانوا يتعاملون مع صنف من السكان المحليين أطلق عليهم اسم البكوات.[١] ومنذ الفتح الإسلامي وفدت على المنطقة كمستقرين أو عابرين عدة قبائل من أهمها بني يفرن الزناتيين وصنهاجة بفروعها الثلاثة الكبرى: بني مطير، وبني مكيلد، وآيت سغروشن. ومنذ القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي وصل عرب الخلط وبني مالك سفيان وامتدت مواطنهم لتشمل المجالات الحيوية للقبائل الصنهاجية والزناتية بين مدينتي فاس ومكناس، وبين مدينة فاس والأطلس الكبير وبأزغار. وابتداءً من منتصف القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي عادت المجموعة الصنهاجية إلى الواجهة السياسية، فتحركت نحو الشمال، ولم يحد من تحركاتها إلا سلسلة القلاع والحصون التي قام السلطان مولاي إسماعيل بتشييدها ومنها قصبتي أزرو، وعين اللوح والتي شكلت النواة للمراكز الحضرية الأولى في المنطقة.

ومنذ بداية القرن الرابع عشر الهجري/ العشرين الميلادي ظلت العناصر الصنهاجية هي المسيطرة على المجال المحلي وخاصةً الرعوي. وهكذا عبرت موجات بشرية أخرى تنتمي لقبيلة بني مكيلد وادي ملوية واجتازت مجالات بني مطير لتصل إلى تكريكرة عند مشارف مدينة أزرو، ليشمل امتدادها غابات الأرز والهضاب العليا لبقريت، فأصبحت مواطنها تمتد ما بين مثلث أزرو -عين اللوح - تمحضيت. أما بني مطير فانتهى بهم الأمر بالاستقرار ما بين مدينتي إفران والحاجب، في حين فضلت قبيلة آيت سغروشن المقام ما بين مدينتي إفران وبولمان. وقد انقسمت هذه القبائل الثلاثة بدورها تبعًا للتطور التاريخي والنمو الديمغرافي إلى الأفخاذ التالية:[٢]

القبيلة	الفخذ	مكان الاستقرار
بني مكيلد الشمال	- آيت عرفة كيكو	تمحضيت
	- إركلاون	إركلاون
	- آيت عبدي	عين اللوح
	- آيت مولي	"
	- آيت واحي	"
	- آيت لياس	"
	- آيت امحمد أولحسن	"
	- آيت مروان	"
بني مطير الجنوب	- آيت حماد	تزكيت
	- آيت أورتيندي	
	- آيت عبد السلام	
آيت سغروشن	- آيت يدير	ضاية عوا
	- آيت داود أو موسى	
	- الحجاج	

وابتداءً من القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي انضافت إلى هذه الأفخاذ عناصر بشرية أخرى كعرب المعقل، والشرفاء، وآيت غريس الذين استقروا بالخصوص بأزرو، ثم آيت خباش بكيكو.

صفوة القول؛ أن هذا الخليط البشري الذي استوطن منطقة إفران لعب دورًا مؤثرًا في تاريخ المغرب الأقصى وقام بتأطير أو بالحد من وعيه السياسي العديد من الحركات والزوايا كالدرقاوية، والتيجانية، والقادرية، والكتانية، والتي لازالت الكثير من فروعها منتشرة إلى اليوم في مجموع ربوع المنطقة. وإذا كان من المعروف أن بلاد المغرب الأقصى عامة والأطلس المتوسط بالخصوص وتحديدًا منطقة إفران، قد شهدت تأثيرات متبادلة في نمط العيش واللباس بفعل التفاعل البشري المتعدد الأجناس والتقاليد، فإنه سيكون من المغامرة التميز في نوعية اللباس بين ما هو محلي وما هو مقتبس من الحواضر والبوادي المجاورة، وبين ما ينتمي لحضارة أخرى قد

تكون مجاورة أو بعيدة. ومع كل ذلك، فإن ما يجمع هذه المؤثرات أنها قابلة للتدجين ولا يمكن فصلها عن الواقع المعاش المحلي وعن الظروف المناخية المحيطة به.

ثانيًا: المواد الأولية والتقنيات المستعملة

ترتبط صناعة الملبس ارتباطًا وثيقًا بتوفر المواد الأولية سواء ذات الأصل النباتي أو الحيواني. وشكل الصوف أهم مادة حيوانية في منطقة إفران باعتبار نمط العيش السائد المعتمد على الرعي والترحال، وظلت جبال فزاز [الأطلس المتوسط] تحتل المرتبة الثانية في المغرب في تربية الماشية خلال مختلف العصور وإلى يومنا هذا. أما بالنسبة للجلد فبالرغم من توفره، فقد بقي استعماله جد محدود في صناعة اللباس وهم بالخصوص صنع الأحذية والأفرشة وسروج الخيول. أما الكتان والقطن والحرير فيتم استيرادها وخاصةً من مدينة فاس التي كانت بمثابة قطب الصناعة النسيجية في المغرب إلى وقت قريب. ويذكر الحسن الوزان(٣) أن منطقة الأطلس المتوسط كانت مشهورة بزراعة الكتان. بالنسبة للأصباغ والمواد الملونة والتي يتم اقتناءها من مدينتي فاس ومكناس، فيمكن ذكر أهمها في ما يلي:

- النيلة أو النيلج الذي يعطي للمنسوجات لونًا أزرقًا باهتًا.
- لحاء شجر الجوز الذي يستخدم للحصول على اللون الأسود.
- نبات العلك "تكاوت" الذي يستعمل للحصول على اللون الأحمر وكذا في دباغة الجلود.
- الشب لتبييض ودلك وصقل الأقمشة.

كما تتجه نساء المنطقة في الغالب إلى اعتماد مواد ونباتات محلية للحصول على بعض الأصباغ ومنها:

- البقايا المعدنية كصفائح الخيل والسلاسل القديمة التي توضع في وعاء خاص وتعرض للغليان إلى أن تتحلل المواد العالقة، ثم تضاف إليها الصوف الذي يتم إشباعه وتعريضه للشمس، ثم يجفف ويعطي صباغة زرقاء، وللحصول على صباغة سوداء يتم استبدال الماء وتعريض المواد المعدنية للمزيد من الغليان قبل أن تخلط بالصوف وتجفف بأشعة الشمس.
- ألزاز: وهو نبات محلي يستعمل مع البقايا المعدنية بنفس الطريقة السابقة للحصول على اللون الأصفر.
- تنويت: وهي قشور جذور شجر البلوط "الكروش" وتستخدم للحصول على اللونين الأحمر والأسود.
- المسواك أو السواك ويستخرج من قشور شجر الجوز ويستعمل للحصول على اللونين الأحمر والبني.

وبصفة عامة فمختلف هذه المواد تخضع لعمليات التقصير والتبييض والدعك والتخضيب والأكمدة وغيرها من الطرق الملازمة قصد الحصول على الحياكة والأصباغ المناسبة. فالصوف مثلاً كان يتم في المنازل، وتقوم به النساء سواء للاستعمال المنزلي أو للمتاجرة به. فصاحب الغنم يقوم بجز صوف الغنم، ويبيع جزءًا منه لشراء حاجيات الأسرة، بينما تنسج النساء الباقي لتبيعه أو لتحتفظ به للضرورة. وكانت معظم المنازل تتوفر على أدوات غزل الصوف كالمغزل والمكب والنير والمنسج والمشط والنول أو المنوال، وتتعلم الفتيات الغزل منذ الطفولة ليكون حرفة لهن عندما يكبرن وكوسيلة لمحاربة الروتين اليومي والبطالة، وأيضًا للمساهمة في مصاريف الأسرة. كما كانت النساء البدويات بمنطقة الأطلس المتوسط يجدن معالجة المواد الخام من خلال غسلها وندفها وغزلها خيوطًا تكون السدى قبل أن تنصب المنوال ووضع النير وهي الخشبة المعترضة في المنسج لتبدأ عملية تلحيم الغزل. واعتبارًا لهذه المهارة المكتسبة والمنتقلة عبر الأجيال، تمكنت معظم الأسر المحلية من توفير ما تحتاجه من ملابس وأغطية وأفرشة وخيام.

ثالثًا: لباس المرأة

يتميز اللباس التقليدي للمرأة البدوية في منطقة إفران بكونه يحاول أن يوفق بين متطلبات الزينة من ملبس جميل وحلي نفيسة ووشم تعبيري، وبين إكراهات الظروف المناخية المحلية. وعمومًا يمكن التمييز في هذا اللباس، من هامة الجسد الأنثوي إلى أخمص قدميه، ما بين الأصناف التالية:

٣/١- لباس الرأس:

تسبنيت [السبنية]: يعود اسم السبنية(٤) ربما إلى نوع من الأقمشة التي كانت تصنع في مدينة السبان - قرب بغداد في العراق- إلا أنها في المغرب تعني صنف من غطاء الرأس يصنع من الحرير ومزين بأهداب من جوانبه الأربعة، وهو غطاء يميز نساء الأطلس المتوسط عامة.



صورة رقم (١)

تسبنيت

أشتان [الدارة]: قطعة من الثوب الأبيض يستعمل كغطاء للرأس ولكنه يخلو من الأهداب ومن كل تزيين.

أعصاب [العصابة]: عبارة عن شريط من الثوب قد تزين أطرافه بأهداب، ويستعمل لحزم الرأس من فوق السبنية.

تاوشايت [الحجاب]: نوع من الحجاب على شكل نقاب تحمله العروس خلال حفلة الزفاف.

علمية. عالمية. مُحكمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

٢/٣- لباس البدن:

أتفاس أو إشبر [التشمير]: يجهل أصل لفظ أتفاس المتداول بين قبائل بني مكيلد وبني مطير، بينما يمكن اشتقاق لفظ إشبر الذي تستعمله قبيلة آيت سغروشن من الكلمة الأمازيغية "أشابير" التي جاءت بدورها من كلمة التشمير التي ذكرها الإدريسي في كتابه "نزهة المشتاق في اختراق الأفاق" منذ القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي كلباس خاص بالأتراك حيث قال "ولباسهم التشمير".(٥) كما يمكن لكلمة التشمير أن تكون قد حرفت عن كلمة قميص المشتقة من الكلمة اللاتينية (Camisia) ويقال في اللغة العربية شمر الثوب بمعنى رفعه، وتشمر بمعنى مر جادًا أو مختالاً، والمشمر هو المجد. وعلى كل فأتفاس لباس قديم وهو عبارة عن قميص أبيض طويل مفتوح على الجانب الأيمن بشكل مستقيم وله كمين طويلين وفتحة على الصدر. وقد تطورت طريقة تفصيله، حيث أصبح أكثر اتساعًا، ويستعمل من القطن أو الكتان وأحيانًا من رقيق الصوف لكونه من الملابس الداخلية.

الدفينة: أصلها من الكلمة العربية "دفن" وهو لباس يتخذ من نسيج شفاف يظهر من تحته القفطان زاهيا بألوانه وزخرفته، فلا تبرز الدفينة بشكل بارز وإنما تتناسق مع لباس القفطان، ومن هنا يحتمل اشتقاق أصل هذه التسمية. والدفينة تشبه إلى حد ما الفرجية أو المنصورية وغايتها التخفيف من توهج بريق القفطان.



صورة رقم (٢)

نوع من الدفينة عند قبيلة آيت سغروشن

القفطان: لفظ تركي يرجع أصله إلى الكلمة الفارسية "خفتان"، وهو من الألبسة المستحدثة في المغرب الأقصى والمقتبسة عن الأتراك خلال القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، ومن المحتمل أن يكون دخل إلى المغرب منذ العصر المريني.(٦) يتميز القفطان بنسيجه الرفيع من الحرير وكثافة التطريز والزخرفة، ويعتبر من لباس المناسبات وكان يحتكره الرجال في أول الأمر قبل أن يشاع استعماله عند النساء. ولأنه لباس مكلف خاصةً وأنه يصنع من الحرير والمخمل [القطيفة] ويظفر بالشرائط [السفيفة]، فقد كان القفطان في البداية لا تقتنيه إلا نساء الأعيان، قبل أن يصبح عامًا ومن الأزياء التقليدية المغربية، تبرز به العروس في حفل الزفاف ويتخذ في الأعراس. وتعددت أنواع نسج القفطان وتفاصيل خياطته حسب الدوق والموضة، وعمومًا فهو طويل من الأمام ومغلق بأزرار تزينه.

الإزار: لفظ يستعمل في اللغة العربية ويعني قطعة مستطيلة من القماش يتراوح طولها ما بين (٤) و(٦) أمتار ولا يقل عرضها عن المتر والنصف، ويبقى القياس مختلفًا حسب الذوق والبنية الجسمية للمرأة، كما أن نسيجها يتنوع تبعًا لاختلاف الفصول والمناطق من الحرير ورقيق الصوف إلى الكتان ووصولاً إلى القطن وغليظ الصوف. وهذا اللباس موغل في القدم ويتميز بانتشاره الواسع وهو أصل كل الملبوسات الخارجية، ويشبه إلى حد كبير الرداء الذي كان يلبسه الرومان القدامى والمعروف بـ (la toge) والذي كان معروفًا في مجموع الشمال الإفريقي. وتتنوع تفاصيل لف الإزار على الجسد، فهو إما يلبس مباشرةً فوق الجسد أو يتخذ فوق التشمير والقفطان خلال المناسبات، وفي الحالة الأخيرة يكون نسيجه من الحرير الشفاف والمزخرف. وفيما يلي مراحل لف الإزار عند نساء الأطلس المتوسط حسب جون بيزانصونو.(Jean Besancenot).(٧)



صورة رقم (٣)

مراحل لف الإزار

- يتم ثني الإزار من ناحية الطول حسب الطول المرغوب فيه، ثم يمرر طرف منه على الكتف الأيسر ليثبت بواسطة رابطة من الثوب على الجانب الأيسر،
- يستعان بمشبكين من الفضة "تسغناس" حيث تغرسان في الجزء الخلفي من الثوب لتثبيته بنفس الشكل على الجزء الأمامي، بينما يحتفظ بالطرف المتبقي للذراع الأيمن،

- يلف الباقي من الإزار فوق الرأس وتحزم المرأة الإزار عند الخصر داخل الحزام، بينما تسدل ذيول الإزار في الأسفل حيث يتم تسويته وإحكام تثبيته،
- يمكن للإزار – حسب التقاليد – أن يكون طويلاً إلى القدمين أو قصيرًا إلى نصف الساق فقط،
- يمكن للمرأة أن تستعين بالجزء الخلفي من الإزار فوق الحزام سواء لحمل طفلها أو أشياء أخرى.

تميزارت، تحنديرت، تعبانت [الحنديرة]: تميزارت تحريف لكلمة الإزار، بينما تشتق تحنديرت من كلمة الحنديرة، وكلاهما من الألبسة البدوية بالمنطقة على شكل قطعة مستطيلة من نسيج الصوف الأبيض، يصل طولها مترين أو أكثر، ويبلغ عرضها متر وثلاثين سنتمترًا أو أكثر. يلبس هذا اللباس فوق جميع الملابس، حيث يوضع على الكتفين ويثبت أسفل الذقن بواسطة شريط يطلق عليه بالأمازيغية "تسقين" أو"تسريفت" [السريفة]، ويمكن أن يمرر جزء منه أسفل الكتف الأيمن ويشد في مقدمة الصدر حتى تتمكن المرأة من القيام ببعض الأعمال اليدوية. تمثل تميزارت هوية قبلية، إذ تختلف أشكال زخرفتها من قبيلة إلى أخرى، فهي لدى قبيلة بني مكيلد مزينة بسبعة أسطر مستقيمة ورسومات هندسية تسمى "تفنزارت" أو إيلقدن" [الزواق] تنتهي بأهداب من جهة العرض تعرف بـ "إبيران". ومن ناحية الظهر تزين بشرائط من "أشكَوكَ" وهي بقايا "إيلقدن"، ويتم حاليًا إضافة الموزون كعنصر تزيين آخر. ولهذا اللباس طقوس احتفالية خاصة بالأطلس المتوسط، إذ لا تستغني عنه النساء في جميع المناسبات، وتلبسه فوق القفطان الذي يعتبر أرفع لباس، كما أنه يفي بأغراض الستر والحشمة. أما تعبانت فهي عبارة عن رداء ينسج من الصوف الغليظ الملون ولكنه يخلو من كل زخرفة أو من الأهداب، وترميه النساء على الكتفين بدون أن تشده بشريط، وتلبس في الغالب للوقاية من البرد.



صورة رقم (٤)

تحنديرت عند نساء آيت أورتندي [الواجهة الخارجية]



صورة رقم (٥)

تحنديرت عند نساء آيت أورتندي [الواجهة الداخلية]



صورة رقم (٦)

امرأة من آيت مولي بعين اللوح في لباسها اليومي حسب لوحة لجون بزانصونو (1939-1934 Jean Besancenot)[٨]

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449



صورة رقم (٧)
امرأة من آيت أورتيندي وهي تلبس تحنديرت

أسروال [السروال]: تحريف لكلمة السروال[9] وهي لفظ مشتق من الفارسية القديمة "زراوالو"، أو الفارسية الحديثة "شلوار" ويمكن اعتبار استعماله في البادية الأطلسية حديث العهد ولا يتجاوز طوله نصف الساق وقد يتسع في الأعلى ويضيق في الأسفل. وقد تطورت طرق تفصيله وخياطته حسب الذوق وحسب نوعية المنسوج كالصوف والكتان والحرير والقطن.

٣/٣- لباس القدمين:

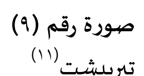
إكوربين [الشربيل]: إكوربين كلمة أمازيغية تستعملها أغلب القبائل للتعبير عن الشربيل الذي يعتقد أنه كلمة إسبانية (Servilla) والمشتقة من (serva-servia) وتعني الخادمة أو الأمة وذلك لشيوع استعمال هذا النوع من الحذاء من طرف الإماء، كما يمكن أن تكون الكلمة تحريفًا للفظ "الزربول" التي كانت تطلق في القسطنطينية في تركيا على نوع من الأحذية الخاصة بالعبيد. والمهم أن إكوربين يصنع من نعل (فراش) واطئة من الجلد مزين في الأعلى بنسيج من المخمل المطرز بخيوط مذهبة أو بالحرير أو الجلد الملون. وكان الشربيل شائع الاستعمال في الأندلس خاصةً في مدينة غرناطة ومنها حملته الهجرات الأندلسية إلى مدينة فاس قبل أن ينتشر في مختلف ربوع المغرب.

صورة رقم (٨)
إكوربين[10]

إيبوركسن [البلغة]: نوع من النعال يصنع فراشها ووجهها من الجلد الذي يتخذ عدة ألوان مثل الأبيض والأحمر والأصفر وقد يزين ببعض الحزوز والرسومات الهندسية. يعتقد كذلك أن البلغة جاءت من الأندلس وتلبسها خاصةً النساء المتقدمات في السن عكس الشربيل المخصص للعروس وللمرأة الشابة.

تبربيشت أو الربحيت [الربحية]: نوع من النعال المزركشة، فراشها من الجلد وكساؤها خليط من الجلد والصوف، تلبس إلى الكعبين وتعد من أحذية المناسبات.





صورة رقم (٩)
تبربيشت[11]

ترغوين [الطرابق]: كان سكان المنطقة في الأصل يلفون أرجلهم وسيقانهم بخروق من الصوف للحماية من الثلج والبرد القارس قبل أن يتعرفوا على الطرابق التي هي نوع من الجوارب الصوفية والتي ربما انتقلت من مدينة فاس وتحت تأثيرات أندلسية إلى المناطق الأطلسية. وهي جوارب تلبس إلى حدود الركبتين وتصنع من طرف النساء أو الرعاة وتتميز بوجود زخارف من الألوان الزاهية على شكل مربعات أو مثلثات أو معينات.



صورة رقم (١٠)
ترغوين[12]

رابعًا: لباس الرجل

إذا كانت في سابق العصور، إمكانيات الحصول على المسكن اللائق والقوت الكافي والملبس الوفير غير متوفرة لغالبية سكان المغرب وخاصةً بالبادية، فقد كانت عادة الرجل ببادية الأطلس المتوسط الظهور بالزي الذي يعبر عن الشهامة والنخوة ومهما غلى ثمنه وبعُد موطنه. وهكذا تنوع الذوق بين ما هو مقتبس من تقاليد انفردت بها الحواضر الكبرى وبين ما هو محلي يحاول أن يحافظ على خصوصيات المنطقة.

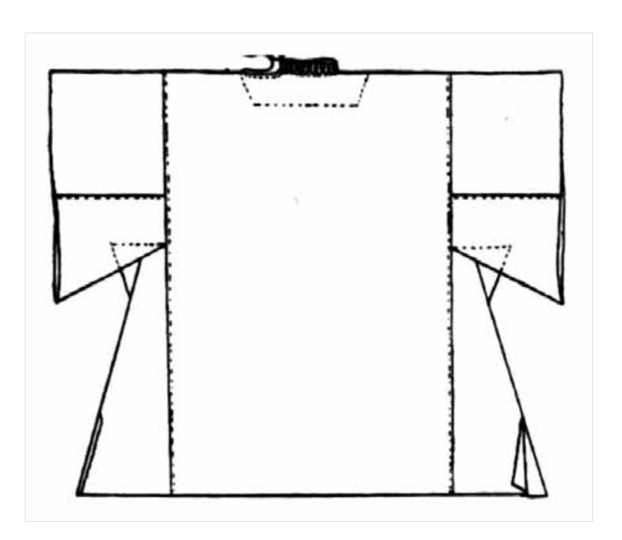
١/٤- لباس الرأس:

الرست أو الرزة [العمامة]: الرست تحريف لكلمة الرأس بالعربية، وفي الأصل كان الأمازيغ حليقي الرؤوس ولا يضعون فوقها أي غطاء وفي هذا يذكر الحسن اليوسي مقولته المشهورة "لو رأى أرسطو قدر البرنس في اللباس والكسكسون في الطعام والحلق بالموسى لأعترف للبربر بحكمة التدبير الدنيوي وأن لهم قصب السبق في ذلك."[١٣] وقد ساهمت الهجرات العربية في نقل تقاليد العمامة إلى المغرب الأقصى منذ بداية الفتوحات الإسلامية، فاتخذت الرزة عدة أشكال وصنعت من أنسجة متنوعة كالصوف والحرير. أطلق عليها أحيانا لفظ "الكرزية" المشتقة من الكلمة الأمازيغية "تكرزيت"، وهي عبارة عن قطعة مستطيلة تلف حول الرأس بطرق مختلفة.

أحزام: لفظ أمازيغي مشتق من الكلمة العربية "حزم"، وهو عبارة عن قطعة مستطيلة من النسيج تلف حول الرأس مرتين أو ثلاث مرات ويتلثم بالباقي، يتخذها العريس في حفل الزفاف للتعبير عن نوع من الحياء والخجل.

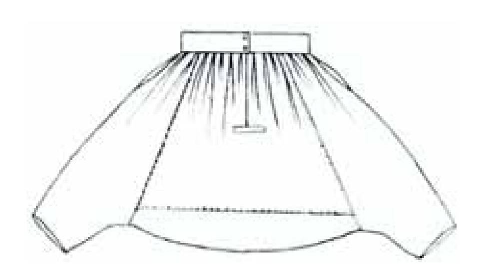
٢/٤- لباس البدن:

أتفاس [التشمير]: عبارة عن قميص أبيض اللون، طويل، مفتوح على الجانب الأيمن بشكل مستقيم، ويربط من الناحية الموالية للكتف بشريط يطلق عليه "تسريفت" [السريفة]. ويصنع أتفاس من الكتان أو القطن أو أحيانًا من رقيق الصوف لكونه من الملابس الداخلية.

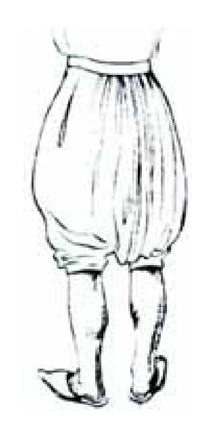


رسم رقم (١)
أتفاس [التشمير][١٤]

أسروال [السروال]: عبارة عن ثوب يلبسه الرجل من السرة إلى الأسفل وقد يطول إلى نصف الساق أو أكثر وقد يتسع في الأعلى ويضيق في الأسفل. يتخذ من الصوف والكتان والقطن والحرير، ويلبس غالبا تحت تجلابيت "الجلابة".



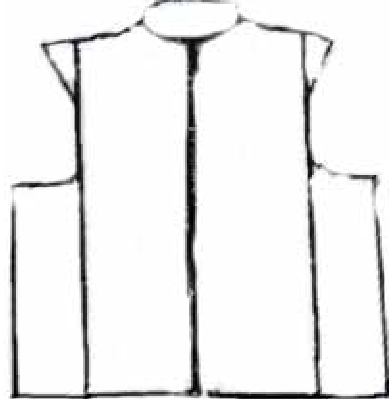
رسم رقم (٢)
رسم لشكل السروال من الأمام[١٥]



رسم رقم (٣)
السروال من الخلف[١٦]

تونديت أو تبدعيت [البدعية]: وهي لباس معروف في إفريقيا الشمالية، قد يكون لفظ "تونديت" تحريفًا لكلمة "تبدعيت" المشتقة من لفظ "البدعية" الذي اختلف حول أصله هل جاء من "البدع" وتعني الغاية في كل شيء أم من فعل "أبدع"، وفي ذلك إشارة إلى أنه لباس مبتدع أو جديد. وتبدعيت عبارة عن صدرية بدون طوق ولا كمين ولا يتجاوز أسفل السرة، وشكل هذا اللباس أحد عناصر كسوة البحارة وخاصةً في مدينة سلا خلال القرنين التاسع والعاشر الهجريين/ الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين. اقتبست قبائل بني مكيلد، وبني مطير، وآيت سغروشن هذا اللباس ومهرت النساء في نسجه من الصوف، وأضفي عليه طابع محلي وتحول من لباس بحري إلى لباس للرعاة والمزارعين، وكان يلبس فوق التشمير للحماية من البرد القارس.

رسم رقم (٤)
تونديت [البدعية]



علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

تفراجيت [الفرجية]: تفراجيت كلمة مشتقة من الكلمة العربية "الفرجية"[١٧] ذات الأصل التركي حيث عرفت قبل القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي. وتعني لباس يتخذه القواد والأعيان فوق القفطان، وقد استورده السلطان السعدي أحمد المنصور الذهبي وأعطاه اسم "المنصورية" أو "المنصور". تتخذ الفرجية نفس شكل القفطان مع كمين طويلين وعريضين ومفتوحين في الأمام إلى الحزام وتسد بأصداف مصنوعة من خيط الحرير الأبيض. وتعني الفرجية في الأطلس المتوسط قميصًا من نسيج رقيق سواء من القطن أو الصوف مع وجود فتحة من الأمام.



صورة رقم (١١)
تفرجيت آيت سغروشن

تجلابيت أو تقبوط [الجلباب]: يعتقد أن أصل لفظ "تجلابيت" مشتق من الكلمة الأمازيغية "ثلبج" وتعني اللباس، وقد تكون من الكلمة العربية "جلباب" التي تعني القميص. لم يكن هذا اللباس شائعًا سوى في المغرب الأقصى ومنه انتقل إلى بلاد الأندلس، حيث أدخلت عليه عدة تغييرات. وفي الأصل كانت "تجلابيت" لباسًا للعامة والفقراء وممتهني الحراسة فضلاً عن الفقهاء والمرابطين والصلحاء، قبل أن يصبح لباسًا وطنيًا مختصًا في المغرب، ومن ثَمَّ تطورت فنون صناعته وأصناف تفصيله. اتخذته قبائل الأطلس المتوسط من نسيج الصوف وبلونين توفرهما المادة الخام وهما الأبيض والأسود، وهو لباس طويل يحيط بالجسد مع غطاء للرأس وكمين طويلين، ويعتبر خاصةً من أزياء فصل الشتاء.



صورة رقم (١٢)
تجلابيت[١٨]

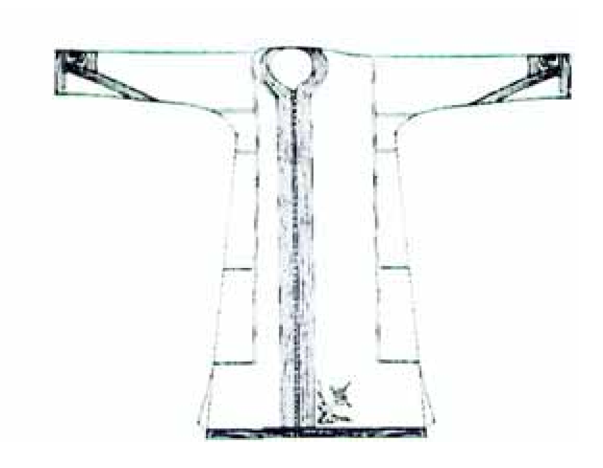
أزنار أو أسلهام [البرنس أو السلهام]: يجهل أصل هذه الكلمة، يمكن أن تكون قد اشتقت من الكلمة العربية "اسلهم" وتعني تغير، ومنها انتقل إلى اللغة الإسبانية ليعرف تحت أسماء (zorame, zurame, zulame). والسلهام عبارة عن لباس مفتوح ينسج قطعة واحدة مع غطاء للرأس، يبتدئ متسعًا وينتهي ضيقًا، ويعد من الألبسة القديمة في المغرب، وعُرف بعدة أسماء أكثرها شهرة وتجدرًا لفظ "البرنس". وذهب ابن خلدون في كتابه العبر إلى اعتماد لفظ البرانس مقابل البتر للتمييز بين قبائل المغرب المستقرة كزناتة وتلك المتنقلة كصنهاجة، كما يورد في سياق حديثه عن لباس الأمازيغ أنه يتكون من"البرانس الكحل، ورؤوسهم في الغالب حاسرة، وربما يتعاهدونها بالحلق."[١٩] ويذكر الحسن اليوسي في كتاب المحاضرات: "لو رأى أرسطو قدر البرنس في اللباس والكسكسون في الطعام والحلق بالموسى لأعترف للبربر بحكمة التدبير الدنيوي وأن لهم قصب السبق في ذلك."[٢٠] ويشير الإمام مالك بن أنس نقلاً عن نافع عن عبد الله بن عمر أن النبي (ﷺ) نهى عن اتخاذ البرنس في الإحرام للحج، فقد جاء في الحديث الشريف: "لا تلبسوا القميص ولا العايم ولا السراويلات ولا البرانس ولا الخفاف إلا أحد لا يجد نعلين."[٢١] وإذا كان البرنس قد ذكرته المصادر القديمة في المشرق والمغرب، وشبهه البعض باللباس الروماني وبلباس الرهبان المسيحيين، فإنه أصبح فيما بعد مقتصرًا على بلاد الغرب الإسلامي، بل وشكل اللباس الوطني للمغرب الأقصى، واتخذ عدة أسماء أخرى مثل "الزنار"، "الهدون"، و"الحيدوس" أو الخيدوس". ويعتبر السلهام لباسًا للمناسبات وللوقاية من البرد، وقد هم هذا اللباس مختلف شرائح المجتمع وعرف انتشارًا جغرافيًا واسعًا. وإذا كانت العامة تنسجه من الصوف الخشن ومن الكتان، فإن الفئات الميسورة اتخذته من رقيق الصوف والحرير والملف والديباج.

علمية. عالمية. مُحكَّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449



صورة رقم (١٣)
أزنار [السلهام] محلي من الصوف

بجادور [الجبادور]: الكلمتان تحريف للفظ "الجاباضولي" الذي يعتقد أنها مشتقة إما من كلمة فارسية أو تركية جرى تداولها في المغرب الأقصى منذ القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي، وتعني في الأصل نوعًا من الصدريات المفتوحة (gilet ouvert)، قبل أن تصبح تدل على نوع من القفاطين الرجالية اختص بها الأعيان من رجال السلطة كالقواد والباشوات. والباجادور عبارة عن لباس طويل وضيق مقارنة مع القفطان، تزينه شرائط مضفرة وأزرار متراصة من النسيج الذهبي، ولا يلبسه في الأطلس المتوسط إلا الفئات الاجتماعية الميسورة أو التي لها نفوذ في الهرم السلطوي.

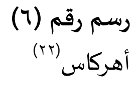


رسم رقم (٥)
البجدور

٣/٤- لباس القدمين:

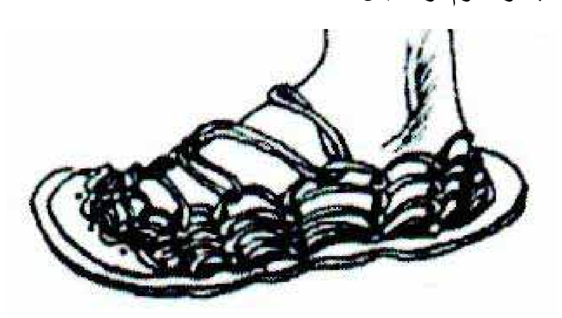
أهركاس [النعل]: أهركاس كلمة مشتقة من اركاسن وتعني بالأمازيغية البلغة، وهي نوع من النعال تصنع في الأصل من الحلفاء ولها فراش من جلد رديء، وتفيد لدى ساكنة مدينة فاس النعال القديمة المتلاشية. يتخذ فراشها في الغالب من جلد البقر أو الجاموس، لها سيور من الدوم أو الجلد ويلف عليها خرق من الصوف في فصل الشتاء للوقاية من شدة البرد.





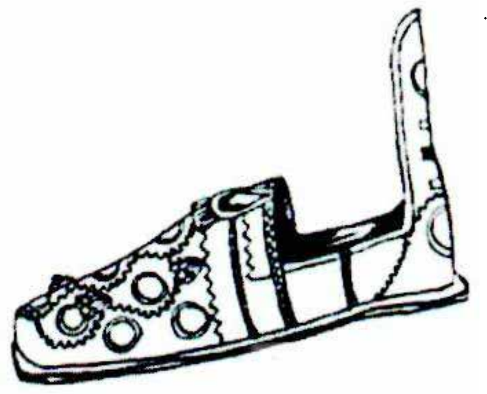
رسم رقم (٦)
أهركاس[٢٢]

إيدوشا: هي كذلك نوع من النعال لها فراش من المطاط المستخرج من بقايا عجلات السيارات، ولها شرائط من الأعلى تصنع من القنب أو الدوم أو الحبال.



رسم رقم (٧)
إيدوشا[٢٣]

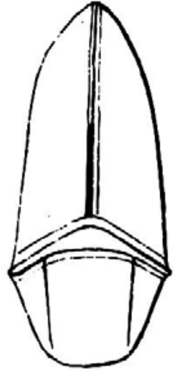
تبربيشت أو سبايد [الربحية]: وهي أيضًا نوع من النعال المزركشة، لها فراش من الجلد وكساء من الجلد والصوف، تلبس إلى الكعبين وقد تطول إلى نصف الساق، وتتخذ لركوب الخيل عند قبائل بني مكيلد.



رسم رقم (٨)
تبربيشت[٢٤]

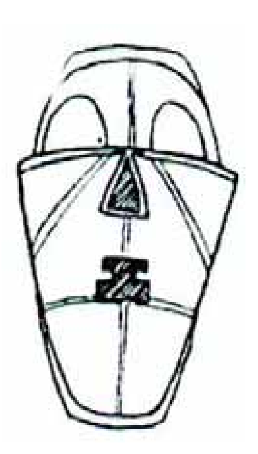
تبوركسين [البلغة]: صنف أخر من النعال لها فراش وكساء من الجلد، انتقلت إلى المغرب من الأندلس وإلى منطقة الأطلس من مدينة فاس، وتعد من لوازم اللباس الوطني.

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449



رسم رقم (٩)

البلغة[٢٥]



رسم رقم (١٠)

تيبوركسن[٢٦]

خاتمة

تُعرف الشعوب ليس فقط من خلال درجة تقدمها العلمي والاقتصادي، وإنما أيضًا من خلال درجة المحافظة على أصالتها وخصوصياتها الثقافية. ويعتبر اللباس من المظاهر الجلية لهذه الهوية التي تدخل في نطاق ما يطلق عليه بالتراث الوطني، إلا أن هذه الهوية تتعرض باستمرار لعوامل التأثير والتغيير، مما يفقدها تدريجيًا طابعها الأصلي، وإذا كان اللباس البدوي في المغرب يُشهد له بالتميز والثبات أمام موجات الموضة، فإنه مع الأسف يعيش في الظل ولم يحظ بالعناية الكافية سواء من حيث إدراجه في المقررات الدراسية أو من حيث دمجه في مشاريع التنمية القروية، وانطلاقًا من هذا المعطى أصبح لزامًا أن ينال هذا الصنف من تراثنا الوطني ما يستحقه من اهتمام وفق المقترحات التالية:

- ضرورة المحافظة على هذا التراث الذي لا زالت العديد من البوادي المغربية تعتز به وتعتبره أحد مكونات شخصيتها، وذلك بدعم البرامج المهتمة به والتي تدخل ضمن السياحة الثقافية والدراسات الجامعية والأفلام السينمائية وغيرها.
- توظيف وإدماج هذا التراث في مسار التنمية المحلية.
- خلق تخصصات ومسالك داخل الجامعة تهتم بالتراث المغربي الغني والمتنوع.

الهوامش:

(1) Boughaz (H): *Recherches sur l'évolution des structures tribales en Mauritanie Tangitane de la fin du Royaume au III° siècle*. Université Paris I, Thèse du Doctorat ès Lettres, 1994.

(2) La Province d'Ifrane : *Monographie de la Province d'Ifrane 1998*. op-cit (P.16).

(٣) الوزان (محمد بن الحسن الفاسي): **وصف إفريقيا**.

(٤) أورد ابن بطوطة هذا الاسم في رحلته المشهورة. الطبعة الأخيرة. الجزء الرابع (ص ١٤٢).

(٥) الإدريسي (أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله إدريس الحمودي الحسني الشريف): **كتاب نزهة المشتاق في اختراق الأفاق**. بيروت، عالم الكتب. الجزء ٢ الطبعة الأولى ١٩٨٩ (ص ٧٢٢).

(٦) أورده ابن بطوطة في رحلته المشهورة، الطبعة الأخيرة، الجزء الأول. (ص ٣٥١).

(7) Besancenot (Jean): *costumes et types du Maroc*. Paris, éditions des Horizons de France 1940 (planches B: 1-5).

(8) Besancenot (Jean): op-cit (photo)

(٩) أورده ابن بطوطة في الرحلة، الطبعة الأخيرة، الجزء الثاني (ص ١٨٦، ١٩٩، ٢٨٢ و٤٤٥) والجزء الرابع (ص ٤٣١ و٤٤٣).

(10) Besancenot (Jean): op-cit (planche E : 6).

(11) Besancenot (Jean): op-cit (planche E : 1).

(12) Besancenot (Jean): op-cit (planche E : 2).

(١٣) اليوسي (الحسن بن علي): **المحاضرات**. الرباط، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر ١٩٧٦ (ص ٨٠).

(14) Besancenot (Jean) : op-cit (planche C :1).

(15) Besancenot (Jean) : op-cit (planche C 6).

(16) Besancenot (Jean) : op-cit (planche C 7).

(١٧) أورده ابن بطوطة في الرحلة، الطبعة الأخيرة، الجزء الرابع (ص ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢١ ،٢٧٨).

(18) Besancenot (Jean) : op-cit (photo).

(١٩) ابن خلدون (عبد الرحمن): **المقدمة**.

(٢٠) اليوسي (الحسن بن علي): مصدر سابق (ص ٨٠).

(٢١) الإمام مالك بن أنس: **الموطأ**. الكويت، مركز البحوث والدراسات الكويتية ٢٠٠٠ (ص ٢٧١).

(22) Besancenot (Jean) : op-cit (planche E : 3).

(23) Besancenot (Jean) : op-cit (planche E : 4).

(24) Besancenot (Jean) : op-cit (planche E :11).

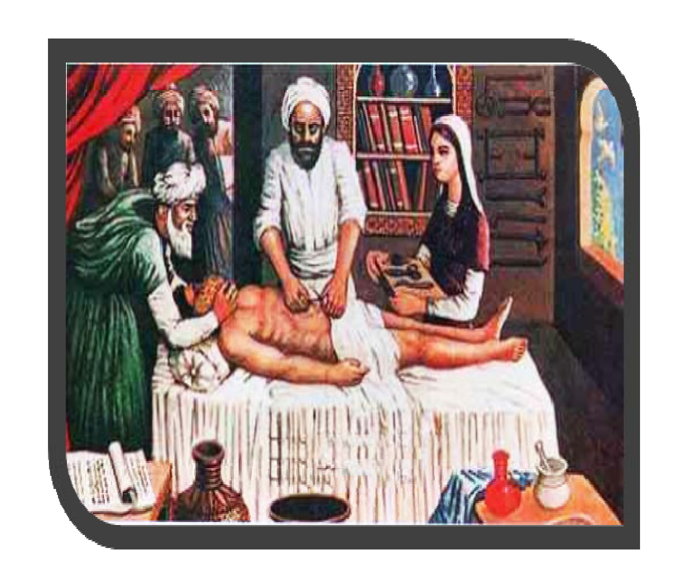
(25) Besancenot (Jean) : op-cit (planche E : 5).

(26) Besancenot (Jean) : op-cit (planche E : 7).

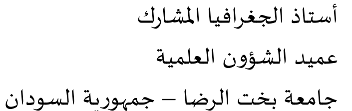
علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية

ISSN: 2090 – 0449





الجغرافيا التاريخية للأمراض



أ. د. عبد الرحمن محمد الحسن

أستاذ الجغرافيا المشارك

عميد الشؤون العلمية

جامعة بخت الرضا – جمهورية السودان

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

عبد الرحمن محمد الحسن، الجغرافيا التاريخية للأمراض.- دورية كان التاريخية.- العدد الثالث والعشرون؛ مارس ٢٠١٤. ص ٩٣ – ٩٩.

www.kanhistorique.org



كان التاريخية: رقمية الموطن .. عربية الهوية .. عالمية الأداء

مُلَخّصْ

تهتم هذه الدراسة بالجغرافية التاريخية للأمراض، وقد هدفت لمعرفة التطور التاريخي للأمراض ومعرفة تأثير البيئة علي الإنسان وانتشار المرض، كما هدفت لمعرفة المرض عبر حقب مختلفة. وتأتي أهمية هذه الدراسة من أهمية الإنسان وتعرضه للأمراض المختلفة، وكذلك نشاطه في البيئة وتأثيره عليها مما يتسبب في تنوع الأمراض وانتشارها. وقد توصلت الدراسة إلي عدد من النتائج أهمها أن علاقة الإنسان بالبيئة كانت علاقة تبادلية على درجة عالية من الثراء والديناميكية، حيث حطم الإنسان العديد من عناصر النسق البيئي من حوله، ولعبت التكنولوجيا دورًا مزدوجًا، فقد أحدثت نقلة هائلة في التشخيص والعلاج من ناحية، كما أنها أسهمت في حدوث التلوث الذي أدى بدوره إلي ظهور العديد من الأمراض من ناحية أخرى. وقد أوصت الدراسة بضرورة الاهتمام بالدراسات التاريخية للأمراض، والمحافظة علي البيئة لتقليل حدة الأمراض.

أهداف البحث:

يهدف هذا البحث إلي: معرفة التطور التاريخي للمرض، والوقوف علي تأثير البيئة علي انتشار المرض، وتتبع المرض عبر حقب مختلفة.

أهمية البحث:

تنبع أهمية البحث من أهمية الإنسان، ومن تأثير المرض عليه، وكذلك من دور تطور الإنسان وأثر ذلك علي انتشار الأمراض وتنوعها.

مُقَدِّمَة

تُعدّ العلاقة بين العوامل الإيكولوجية والصحة والمرض إحدى تجليات علاقة الإنسان بالبيئة، ففي الوقت الذي يكون الإنسان فيه ضعيفًا وعاجزًا عن السيطرة على المخاطر البيئية المحيطة به، فإنه يكون عرضة للإصابة بالعديد من الأمراض، وعاجزًا في ذات الوقت عن مقاومتها، وعندما يكون قويًا في مواجهة الطبيعة يستطيع تجنب العديد من الأمراض والمشكلات الصحية. إن نظرة فاحصة على تاريخ المرض الإنساني تكشف عن أن هذا التاريخ هو انعكاس مباشر لطبيعة العلاقة بين الإنسان وبيئته في الفترات التاريخية المختلفة، حيث تؤكد المصادر التاريخية أن نمط الأمراض السائد في كل فترة من فترات التطور الإنساني هو مؤشر واضح على الوضع الحضاري للإنسان في هذه الفترة. فانتشرت في البيئات المختلفة الكثير من الأمراض والأوبئة التي تركت بصماتها علي هياكل حيوانات ما قبل التاريخ وعلي المومياوات المصرية القديمة، وتبدو أهمية دراسة الجغرافيا التاريخية للأمراض من التعرف علي أثر البيئة الجغرافية علي حدوث الأمراض التي انتشرت في فترات زمنية سالفة، وكيف أدت إلي تغيير المظهر الطبيعي والبشري للمسرح الجغرافي وكانت سببًا في زوال إمبراطوريات وهزيمة جيوش ومحو تاريخ وأمجاد.

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية

ISSN: 2090 – 0449

عصور ما قبل التاريخ

ففي بدايات الوجود الإنساني -في عصور ما قبل التاريخ الحجرية- كان الإنسان يعمل بالصيد والالتقاط، وكان دائم التنقل من مكان إلى آخر في مجموعات اجتماعية صغيرة، وكانت العلاقات الاجتماعية بين هذه المجموعات ضعيفة؛ نظرًا لانعدام الاستقرار، كان الإنسان آنذاك على وفاق مع الطبيعة والبيئة المحيطة به، فلم يقم بإفسادها وإخلال توازنها، وكانت الموارد الغذائية متوفرة؛ فلم يعرف الإنسان أمراض سوء التغذية، وكانت الأمراض المزمنة (Chronic) نادرة الحدوث، وتنوعت معدلات الأمراض المعدية (Infectious) والطفيلية (Parasites) وفقًا لتعقد النظام البيئي الذي تعيش فيه الجماعة، وقد احتفظ الإنسان في هذه المرحلة بعلاقة وثيقة مع عناصر البيئة المحيطة به من أرض ونبات وحيوان، ولذلك عاش في ظروف صحية ملائمة في ظل التوازن البيئي، وإن كان هذا التوازن غير دائم طوال الوقت، فعندما كان الإنسان ينتهك هذا التوازن، تظهر بعض الأمراض الوبائية التي يصحبها معدلات عالية من الوفيات (Pederson 1995 : 747).

وتؤكد بعض المصادر التاريخية أن الإنسان قد أصيب ببعض الأمراض المعدية في هذه المرحلة، وخاصةً الأمراض «حيوانية المنشأ» (Zoonoses) الناتجة عن تعامل الإنسان مع الحيوانات البرية قبل استئناسها، وذلك مثل مرض السعر والحمى الصفراء، والبروسيلا، والجمرة الخبيثة، وغيرها، كما ساهمت بعض الكائنات الصغيرة كالناموس والقراد في نقل العديد من الأمراض كالملاريا والتيتانوس وغيرهما، كذلك فإن بعض الأمراض الطفيلية قد بدأت في الظهور مثل مرض النوم (Sickness Sleeping) الذي ينقل من خلال ذبابة «تسي- تسي » Tsi – Tsi (Cohn 1989 :٣٣-٣٤).

وتشير الدراسات الأركيولوجية (الآثارية) إلى أن العديد من الأمراض المعاصرة هي أمراض موغلة في القدم، حيث كشفت حفائر إنسان ما قبل التاريخ أن مرض الدرن (Tuberculoses) وهو من الأمراض المعدية كان منتشرًا في هذه الحقبة، وتؤكد هذه الدراسات أن معظم الكائنات الناقلة للمرض والتي لم يتم اكتشافها إلا حديثًا هي كائنات قديمة جدًا
(Damjanov 1994 : 171).

وقد كان اكتشاف النار نقلة عظيمة في تاريخ الإنسان، حيث فتحت أمامه مجالاً واسعًا وعالمًا جديدًا من المعرفة هو عالم التغير، وذلك لما تحدثه النار من تحولات سريعة في المادة، ويعود اكتشاف الإنسان للنار إلى بداية العصر الحجري القديم الأوسط، أي قبل حوالي مائة ألف عام، ويرى بعض الباحثين أن اكتشاف النار يمثل الثورة الصناعية الأولى في تاريخ الإنسان (النور وشلابي ١٩٩٥). والحق أن اكتشاف النار قد أثر بصورة إيجابية في صحة الإنسان، حيث تمكن الإنسان من طهي الطعام بدلاً من تناوله نيئًا، كما استخدم النار في التدفئة، وهو ما أدى إلى وقايته من عدد من الأمراض؛ كالأنفلونزا التي كانت في بعض الفترات التاريخية تمثل وباءً خطيرًا يحصد ملايين الأرواح.

الثورة الزراعية

وتمثل معرفة الإنسان للزراعة وقدرته على استئناس الحيوان اللذان حدثا خلال الألف الثامنة قبل الميلاد خطوة جبارة في التاريخ الإنساني، وقد وصف "جوردون تشايلد" (G. Child) الانتقال إلى الزراعة بأنها ثورة العصر الحجري الحديث، في إشارة واضحة لأهمية تلك الخطوة وخطورتها، حيث كانت إيذانًا ببدء أسلوب جديد ومختلف لحياة الإنسان. والواقع أن "تشايلد" لا يعني بالثورة (Revolution) هنا وقوع تغير عنيف ومفاجئ في حياة الإنسان، فمن غير المتصور – كما يقول المؤرخ العظيم ول ديورانت (Will Durant) في (قصة الحضارة)، أن الإنسان قد قفز من الصيد إلى الزراعة في وثبة واحدة، إن ما كان يقصده تشايلد أنه ما إن بدأ الإنسان في ممارسة الزراعة، حتى وقع تغير جذري وانقلاب عميق في أسلوب حياة الإنسان، تغير أدى إلى بدء نشأة الحضارة وتقدمها. (النور وشلابي ١٩٩٥ : ٦٣٢)

إن تغير نمط الحياة من الجمع والصيد إلى الزراعة أدى إلى حدوث تغير في النظام البيئي، فانتقل الإنسان من نمط الترحال والبداوة (Nomadism) إلى الاستقرار (Sedentism) وأدى ذلك إلى تغير في نمط الأمراض السائدة، فقد قلت الأمراض حيوانية المنشأ، وتغيرت الطفيليات الناقلة للمرض، كما ساعد الاستقرار على توفير رعاية أفضل للمرضى، وتقليل مخاطر الوفاة، إلا أن هذا الاستقرار أدى -من ناحية أخرى- إلى وقوع بعض المشكلات الصحية، مثل ظهور الأمراض المتوطنة (Endemic) نتيجة تكاثر الكائنات الناقلة للمرض في أماكن استقرار الإنسان، وهي البيوت التي شيدها الإنسان للإقامة فيها بصورة دائمة، وتمثلت هذه الكائنات في الحشرات والفئران والبعوض التي تتزايد في أماكن وجود المياه وخاصة الآبار الراكدة. (Cohn 1989: ٣٨-٤٠).

وبالإضافة إلى ذلك، فقد أسهمت مجموعة من العوامل في تغير نمط الأمراض السائدة في المجتمعات القديمة، من هذه العوامل تطور نمط إنتاج الطعام، واستئناس الحيوان، واستغلال النباتات الموجودة في البيئة، وتغير أسلوب الحياة بسبب الاستقرار، وقد أدى ذلك إلى حدوث تغير جذري في العلاقة بين الإنسان وبيئته، ومن ثَمَّ وجدت إيكولوجية جديدة للمرض (new ecology of disease)، بدت في ظهور العديد من الأمراض المعدية والأخطار البيئية. فإن التغير في نمط التغذية، وتراكم الملوثات البشرية في الطعام والمياه قد أدى إلى انتشار العديد من أنواع الطفيليات والفيروسات والبكتريا (Pederson 1995 : 748).

يتضح إذن أن ثمة علاقة قوية بين البيئة والصحة والمرض في العصور القديمة، وقد تجلت هذه العلاقة في تباين الأمراض وتنوعها تبعًا لتباين البيئة الطبيعية والثقافية، ومع انقضاء العصور الحجرية، وتأسيس الحضارات الأولى في تاريخ الإنسان، زاد

علمية. عالمية. مُحكَمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

الوعي بأهمية العلاقة بين الإنسان والبيئة، وتمثل الحضارة المصرية القديمة نموذجًا لذلك.

قدماء المصريون

كتب العالم كاهون (Kahun) عن الصحة والمرض في عصر الأهرامات يقول: "كان قدماء المصريين أول مَنْ مارس الطب على أسس منطقية ولا تزال آثارهم تدل عليهم، فقد انفردوا بالتحنيط وبرعوا فيه، وتخصصوا في فروع كثيرة من الطب واهتموا بالبيئة الطبيعية وأثرها على صحة الإنسان، وتوصلوا إلى إيجاد علاقة قوية بين المكان والمرض والمجتمع، وأشار إدوين سميث (E .Smith) إلى أن المصريين القدماء كانوا يعتمدون في تشخيص المرض على البيئة الطبيعية والاجتماعية للمريض (أي مكان إقامته وعلاقاته الاجتماعية)، وذلك عن طريق طرح مجموعة من الأسئلة عن العمل، والمستوى الثقافي، والحالة الاقتصادية، ومدى اعتقاد المريض في السحر والخرافة والدين، ومن أهم الأمراض المرتبطة بالبيئة الطبيعية والاجتماعية والتي انتشرت في المجتمع المصري القديم، البلهارسيا (والتي تصيب الفلاحين عادة) والأنكلستوما والأنيميا والروماتيزم، بالإضافة إلى الملاريا والدوسنتاريا والإسهال وأمراض السل الرئوي.

وقد أوضحت الكتابة الهيروغليفية المصرية القديمة أن الكهنة المصريين كانوا يعرفون الكثير عن الأمراض، وعلى الرغم من اعتقادهم في المؤثرات السحرية والروحية في المرض ولجوئهم إلى العناصر السحرية في العلاج، إلا أنهم كانوا يملكون معرفة جيدة عن الأمراض، وكان العديد من آلهة المصريين القدماء مهتمين بالعلاج. (Pederson 1995 : 748). وتحتوي البرديات الطبية المصرية القديمة علي وصف لعلاج الأمراض التي كانت منتشرة آنذاك والتي برع المصريون القدماء في علاجها بطرق شتي، فقد عثر علي قرطاس كاهون في سنة ١٨٨٩م الذي يرجع تاريخه إلي ٣٥٠٠ عام مضت ويحتوي علي أربعة وثلاثين وصفة طبية لعلاج أمراض النساء والولادة، كما عُثر علي مخطوطات تحوي الكثير من أسماء النباتات الطبية والوصفات لعمل المراهم والمركبات الطاردة للديدان (بول غليونجي ١٩٦٠ : ١٧)، كما توجد وصفات يمكن التأكد منها من وجود الدرن الرئوي (Dixon .D.M 1972 : 29 – 35)، ودلائل لتشوهات وعاهات وتدرنات شوكيه والتهابات بالمفاصل وأنواع الروماتيزم، وكذلك أمراض الأسنان التي كانت متفشية بين الأغنياء، وتوجد رسوم مقابر بني حسن بالمنيا يرجع تاريخها إلي ٢٣٠٠ سنة قبل الميلاد تمثل ثلاثة أشخاص مصابين بالكساح، وبرع المصريون القدماء في علاج الرمد، وكان ذلك بسبب انتشار المرض في وادي النيل بشكل لم يعهد منطقة في الأقطار الأخرى.

اليونان

وثمة خطوة هامة نحو فهم المرض تزامنت مع بدايات المنهج العلمي في فهم الطبيعة، فالدراسة العلمية للعالم الطبيعي والإنساني قادها فلاسفة اليونان، والتي أصبحت فيما بعد الركيزة الأساسية للفكر الغربي، ولقد حاول هؤلاء الفلاسفة أن يوائموا مفهوم المرض مع نسق معتقداتهم الذي كان مرتكزًا على التأمل أكثر من ارتكازه على الأدلة الواقعية، وكان الطبيب أبوقراط (Hypocrates) قد اعتقد في أهمية الطب العلمي القائم على التجريب، وليس القائم على القوى فوق الطبيعية أو الخزعبلات. (Damjanov 1994 : 167). وقد ذكر أبوقراط وفيلولوس (Philolaus) أن من أهم الأمور التي يجب مراعاتها للوقاية من تدهور صحة الإنسان والمجتمع هي معرفة البيئة ودراستها، فإذا كانت غير صالحة فيجب تعديلها، واهتما أيضًا بمعرفة كيفية تعامل الإنسان مع بيئته، وما يكسبه هذا التعامل من خبرات معينة تؤدي في النهاية إلى المرض.

والواقع أنه على الرغم من أن البيئة الإغريقية القديمة كانت من أفضل البيئات الطبيعية والبشرية، إلا أنها لم تكن تخلو من الأمراض والأوبئة الخاصة بها، وأكثر تلك الأوبئة قسوة على المجتمع الإغريقي هو ذلك الوباء العظيم (مرض الجدري) الذي عم معظم أقاليم اليونان بما في ذلك أثينا، وكان الوباء شديدًا وواسعًا، لم يكن له نظير من قبل في أي مكان، حيث عجز الأطباء عن مقاومته، وتعددت وفيات الناس من كل الطبقات، وخاصة الطبقات الفقيرة وساكني الأكواخ، وأحدث الوباء فوضى صحية شاملة في اليونان.

البيئة العربية

وإذا انتقلنا إلى البيئة العربية الصحراوية قبل ظهور الإسلام وبعد ظهوره، نلاحظ أن هذه البيئة قد ساعدت على تأسيس نسق من الطب قائم على الأعشاب والنباتات واستخدامها في علاج بعض أمراض البيئة الصحراوية التي كان يعاني منها السكان كالجدري والحصبة والطاعون والصداع، وكلها أمراض مرتبطة بطبيعة بيئتهم الصحراوية القاسية (المكاوي ١٩٩٠: ٧٥-٧٦). ومن السمات الواضحة للطب الإسلامي تحرره من مفاهيم السحر وتأثير الجان، وسيادة الجانب الروحي على ممارساته واحتوائه على جوانب شعبية وأخرى علمية. ويذخر العصر الإسلامي بالعديد من العلماء الذين نبغوا في الطب مثل ابن سينا، والكندي، والرازي، والزهراوي، وغيرهم، وقد اهتموا بقضايا اجتماعية وبيئية مثل الظروف الاجتماعية للمريض، وتأثير الموسيقى في العلاج ودور النباتات والأعشاب في الوقاية والعلاج (خليل ٢٠٠٦: ٢٦٩). كما أن بعض الجغرافيين المسلمين في العصور الوسطى قد لاحظوا العلاقة الكبيرة بين المناخ والصحة والمرض (البشري والبيوك ١٩٩١م : ١).

حركة الكشوف الجغرافية

وفي نهاية العصور الوسطى، ومع حركة الكشوف الجغرافية، واتساع شبكة المواصلات والتجارة، تغيرت أنماط المرض، وظهرت أمراض جديدة، حيث ارتبط انتشار المرض بهجرات الإنسان من مكان لآخر، فعلى سبيل المثل ارتبطت الهجرة الموسمية من أجل العمل في مناجم جنوب إفريقيا بانتشار مجموعة من الأمراض كالدرن والزهري والملاريا والأنفلونزا. كما أن اكتشاف أمريكا في نهاية

القرن الخامس عشر قد ساهم في انتشار مجموعة من الأمراض بين الهنود الحمر - سكان أمريكا الأصليين- مثل الحصبة والجدري والنكاف، كذلك فقد انتشر في نفس الفترة مرض الطاعون الأسود .(Cohen 1989 : 51-52)

ويعدّ خطاب كريستوفر كولومبس ردًا على ملك إسبانيا والذي يشير فيه إلى رحلته الأولى إلى جزر الهند الغربية سنة ١٤٩٢م أول تقرير مكتوب للإنثروبولوجيا والجغرافيا الطبية. وبداية من سنة ١٦٤٢م وحتى سنة ١٨٩٢م قام الأطباء الألمان وتبعهم أطباء انجليز وفرنسيون بدراسات عديدة على نطاقات جغرافية كبير. تناولت الجغرافيا التاريخية للمرض والطب المداري وأثر المناخ في الوقاية والعلاج من الأمراض المزمنة والطبوغرافيا الطبية والتي تعنى بدراسة كل من السطح والتضاريس وعلاقاتها بحدوث الأمراض والتأثير على الحالة الصحية للسكان، ولم يقتصر الأمر على ذلك بل تطرقت دراساتهم إلى القرى والمدن من خلال دراسة الطب الريفي، والطبوغرافيا الطبية لمدينة مونبليه في فرنسا سنة ١٨١٠م. وتاريخ الكوليرا في اكستر في انجلترا، بل وبدراسات في أجزاء صغيرة من المدن عن أثر المناخ في الصحة في جنوب ديفونشير في انجلترا، والطبوغرافيا الطبية لمنطقة تنبريدج في انجلترا سنة ١٨٤٦م، والطبوغرافيا الطبية لوادي الميسسبي (١٨٥٠ . ١٨٥٤)، والطبوغرافيا الطبية لمقاطعة فلينسيا في إسبانيا سنة ١٨٧٨، وفي المؤتمر الدولي السابع للصحة المنعقد في لندن سنة ١٨٩١، قدم ألفريد هافيلاند مقالاً بعنوان (تأثير الطفل والحجر الجيري على الجغرافيا الطبية)، وأكثر من ذلك تناول بعض الأطباء التوزيع الجغرافي للأمراض حسب النوع إذ أشار البعض إلى جغرافية مرض السرطان والتوزيع الجغرافي لحالات الإصابة بالمرض بين الإناث في انجلترا وويلز من خلال دراسة التوزيع الجغرافي للأمراض في انجلترا.

ومن الملفت للنظر؛ أن المرض قد أحدث تأثيرات حاسمة على المجتمع الإنساني وتنظيماته الاجتماعية خلال القرون الأخيرة، فنظرة على أعداد الوفيات الناتجة عن الأوبئة الكبرى التي شهدها التاريخ الإنساني يتضح أنها فاقت أعداد الضحايا الذين سقطوا في ميادين القتال، فلقد مات في أوربا في منتصف القرن الرابع عشر (١٣٤٨-١٣٥٠) حوالي ٢٥ مليون شخص نتيجة وباء الطاعون وحده، حيث قضى على نصف سكان لندن والبندقية وفلورنسا، ويرى بعض المؤرخين أن إيطاليا قد فقدت في حينها نصف سكانها تقريبًا، وفقدت إنجلترا وفرنسا حوالي ثلث سكانها، وبشكل عام تشير المصادر التاريخية إلى أن أوربا قد فقدت حوالي ربع سكانها في ذلك الوقت، وفي سنة ١٥٢٠ توفي حوالي ثلاثة ملايين ونصف المليون من شعب الأزتيك (Aztecs) المكسيكي نتيجة وباء الجدري، وحصد وباء التيفود مليونين ونصف المليون شخص في روسيا في الفترة من (١٩١٨-١٩٢١)، كما توفي حوالي عشرين مليون شخص في مختلف أنحاء العالم نتيجة وباء الأنفلونزا الذي اجتاح الكرة الأرضية في سنة ١٩١٩، وقدرت ضحايا الوباء في الهند وحدها بحوالي ثمانية ملايين شخص، ونتيجة للأوبئة التي حدثت في أوربا وأمريكا الشمالية خلال القرون الثلاثة الأخيرة، انخفض معدل العمر المتوقع للإنسان حيث تراوح بين (٢٥ – ٣٠) عامًا في حين أن هذا المعدل قد تراوح بين (٧٠ – ٧٥) عامًا خلال سنة ١٩٧٠. (الخفاف ٢٠٠١ : ١١١).

وبذلك أصبحت صورة العلاقة فيما بين البيئة والأمراض أكثر وضوحًا. ومنذ بداية القرن العشرين أخذت خرائط التوزيعات الجغرافية شكلاً أخر من حيث الدقة والتخصص، مما ساعد على إضافة بعدًا آخر للجغرافية الطبية والدراسات الجغرافية للأمراض والأوبئة (شرف ٢٠٠٣ : ١٥). وتُعدّ الخريطة من أنجع الوسائل التي تساعد علي فهم الأمراض ودراستها والتعرف على الأسباب التي تؤثر سلبًا وإيجابًا علي توطنها وتوزيعها الجغرافي. ولقد استخدمت الخريطة منذ أكثر من قرن كأداة للكشف عن مصادر المرض وتأمين الأمن الصحي للمجتمعات من قبل أن يتم اكتشاف الجراثيم التي تسبب الأمراض ومن الأمثلة علي ذلك الخرائط التي استعملت أثناء تفشى وباء الحمى الصفراء في أنحاء متفرقة من العالم في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، ووباء الكوليرا في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين الذي أدى إلى تصميم خرائط تتعلق لأول مرة بمرض الكوليرا.

ومن أشهر الخرائط التي تتعلق بالأمراض البشرية في القرن التاسع عشر تلك التي استخدمها (جون سنو Snow) سنة ١٨٥٤م للكشف عن مصادر وباء الكوليرا الذي تفشي في مدينة لندن آنذاك شكل رقم (١). وهي خريطة رائدة لتوزيع حالات مرض الكوليرا في لندن سنة ١٨٥٥م أي قبل الاهتمام الحقيقي بالجغرافيا الطبية بقرن من الزمان وارجع المرض إلى الاتصال بالماء حتى قبل كشف ميكروب الكوليرا (جابر، البنا ٢٠٠٤ : ٧). وتوضح هذه الخريطة الشوارع لحي سوهو (soho)، أحد أحياء مدينة لندن، حيث كان الناس يحصلون علي الماء اللازم للشرب والأغراض المنزلية في تلك الفترة من مضخات للبلدية أشير إلي مواقعها علي الشكل رقم (١) بالرمز (o).

درس سنو مشكلة الكوليرا سنوات عدة وتوصل إلي أن المياه الملوثة هي المسئولة عن تفشي مرض الكوليرا بين الناس آنذاك. وعندما وصل الوباء العالمي الذي بدأ في سنة ١٨٤٢م إلي انجلترا تفشي في حي (سوهو) بشكل كبير. مثلَ على الخريطة (سنو) كل حالة وفاة بوضع نقطة علي المكان الذي كان يعيش فيه المتوفى في حي (سوهو). ولقد بلغ عدد الوفيات في المنطقة آنذاك حوالي (٥٠٠) حالة. وعندما اكتمل شكل الخريطة أصبح واضحًا من نمط التوزيع الجغرافي للوفيات، إن المياه الملوثة هي المسئولة عن تفشي المرض وتركزت حالات الوفاة حول مضخة المياه التي تقع على شارع برود (Broad Street). وبطلب من (سنو) أوقفت السلطات المعنية في المدينة المضخة بحيث لا يستطيع السكان استخدامها. وكانت النتيجة مشجعة، حيث إن عدد الحالات الجديدة التي تم التبليغ

ISSN: 2090 – 0449
علمية. عالمية. مُحكَمة. ربع سنوية

عنها فيما بعد انخفض بسرعة إلي الصفر تقريبًا. وهكذا ثبتت صحة نظرية (سنو) عن دور المياه في نشر مرض الكوليرا، وأن مصادر العدوى المحلية كانت تكمن في استخدام المياه من تلك المضخة (Howe,1980) .

ففي الشكل رقم (٢) وضح ويليت willets (١٩٦٣) الجغرافيا التاريخية وبؤر مرض النوم الأفريقي والمسارات التي اتبعتها ذبابة التسي تسي الناقلة للمرض في الانتشار من بؤرتها الأصلية في غرب أفريقيا إلي أماكن أخرى من القارة الإفريقية تكون فيها الظروف مناسبة لتكاثرها.

كما وضح (دادلي ستامب) في سنة ١٩٦٤م على خريطة العالم الموطن الأصلي المحتمل لمرض الكوليرا خلال سنة (١٨١٦م - ١٨٢٣م)، شكل رقم (٤)، وطرق انتشار الكوليرا في الفترة (١٨٤٢م- ١٨٦٢م)، شكل رقم (٥).

العصر الحديث

وأما في العصر الحديث، وبالتحديد منذ بداية القرن العشرين، فقد وقع ما يسمى بالانهيار البيئي العظيم (Ecological degradation) حيث حدث العديد من الانتهاكات للنظام البيئي، ودمر الإنسان عناصر كثيرة من ذلك النظام. فإن وجود تجمعات سكانية كبيرة تعيش في بيئة غير صحية دون توفير وقاية طبية مستدامة يمكن أن يجعل منها مصادر لظهور أمراض أخرى جديدة لم تكن مألوفة من قبل. وهذا ما يتوقعه الجغرافيون في مجال الجغرافيا الطبية (Blij 1993 : 171). ففي هذا القرن، ساهمت أنشطة الإنسان – في الدول الصناعية المتقدمة والدول النامية أيضًا- في تدمير النظم البيئية، فملايين الأنواع والمجموعات الحيوية المتميزة مهددة بالضياع، كما اضطرب التنوع والتكامل في الأنساق الطبيعية نتيجة الأشكال المختلفة من التلوث، وتشهد الكرة الأرضية تغيرات سريعة تؤثر في تركيب الأنواع النباتية والحيوانية، حيث تقطع الأشجار بصورة مأساوية، ففي سنة ١٩٧٥ كان (٣٠%) من سطح الأرض مغطى بالغابات، تراجعت هذه النسبة إلي (١٢%) سنة ١٩٨٥، وتقدر نسبة تدمير الأشجار بعشرة آلاف شجرة في الدقيقة، كما أن نسبة فقد الكائنات الحية تتراوح بين نوع واحد إلي خمسين نوعًا في اليوم؛ أي نسبة تتراوح بين (٣٦٥ – ١٨٢٥٠) نوعًا في العام، ويوجد الآن حوالي مائتان وخمسون ألف نوع نباتي، يتوقع أن ينقرض منها حوالي (٢٥%) خلال سنة ٢٠٥٠. (Anyinam 1995 : ٣٢٣).

إن ما حدث هو مذبحة بيئية بالغة البشاعة -إن صح هذا التعبير- وعملية إبادة قاسية لعناصر النظام البيئي، ومع الأسف فإن ذلك الأمر ما يزال مستمرًا، بل ومتزايدًا، وسيترك ذلك - دون شك- تأثيرات خطيرة على الإنسان من كافة النواحي. وبجانب تلك المذبحة، فإن القوة الضخمة للتكنولوجيا الحديثة قد مارست ضغوطًا قوية على البيئة الطبيعية، حيث حطمت الروابط الأساسية في نسيج العمليات الحيوية التي تحافظ على النسق الإيكولوجي الذي يعيش الإنسان في كنفه، ومع مرور الوقت، أفرز التطبيق العشوائي وغير الواعي لهذه التكنولوجيا عمليات جديدة أثرت بقوة في العالم الطبيعي، إن هذه القدرة على التحكم في البيئة قد سمحت للإنسان بتنمية المحاصيل الزراعية، وتوليد كميات ضخمة من الطاقة الكهربائية، والتوسع في صناعة السيارات والآلات، مما أدى ذلك إلى إفراز وتراكم مشكلات بيولوجية خطيرة، حيث تم تدمير رأس المال البيولوجي (Biological capital) كالماء والهواء والتربة، وبقية عناصر النسق الإيكولوجي التي لا يستطيع الإنسان العيش بدونها.

فقد أدى التقدم التكنولوجي إلى حدوث تلوث ضخم في الأرض، بحيث أضحت ظاهرة التلوث (Pollution) من أبرز المشكلات البيئية في النصف الثاني من القرن العشرين، صحيح أن التلوث موجود منذ وجود الإنسان على الأرض، إلا أنه ظل محدودًا ولم يصل إلى حد المشكلة إلا عندما تقدمت الصناعة، وارتقى المستوى التكنولوجي للإنسان، ومن ثَمَّ أصبح التلوث مشكلة العصر الملحة والمقلقة. (عبد المقصود ١٩٨١ : ٩٩).

لكن التقدم العلمي والتكنولوجي قد حقق من جانب آخر فوائد ضخمة للبشرية فيما يتعلق بمعرفة المرض وكشف أسبابه، فالتقدم في علم الفيزياء واكتشافاته المتعددة أدى إلى تطوير أدوات جديدة للتشخيص، كما أن الفحص الكيميائي لإفرازات الجسم وأنسجته وخلاياه وإدراك الدور للذي تلعبه الميكروبات في حدوث المرض أدى إلى وجود معرفة متنامية عنه، وأدى التطور الذي طرأ على بقية العلوم الطبيعية منذ بداية القرن العشرين إلى حدوث تغيرات جذرية في فهم المرض، وحدوث تأثيرات حاسمة في ممارسة الطب، ففي النصف الثاني من القرن العشرين، بدأت الألغاز الأساسية للحياة تتكشف من خلال اكتشاف العناصر الوراثية بما فيها الأحماض النووية (Nucleic acids)، وكان ذلك يعني أنه لأول مرة في التاريخ يمكن تفسير المرض من خلال مفاهيم القوى الكيميائية والفيزيائية التي تحدد كل صور الحياة، وأصبح من المؤكد أن الأمراض -شأنها شأن العمليات البيولوجية الأخرى- تتبع القوانين والمبادئ العامة للحياة. (Damjanov 1994 : 168).

خاتمة

يتبين من خلال الإطلالة التاريخية السابقة أن الدراسة توصلت إلى عدد من النتائج، تمثلت في أن علاقة الإنسان بالبيئة كانت علاقة تبادلية على درجة عالية من الثراء والديناميكية، وأن هذه العلاقة قد اتسمت بالتوتر خلال القرن العشرين واستمر في القرن الحادي والعشرين، حيث حطم الإنسان العديد من عناصر النسق البيئي من حوله، ولعبت التكنولوجيا دورًا مزدوجًا، فقد أحدثت نقلة هائلة في التشخيص والعلاج من ناحية، كما أنها أسهمت في حدوث التلوث الذي أدى بدوره إلى ظهور العديد من الأمراض من ناحية أخرى.

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449



وبالإضافة إلى ذلك فقد شهد هذا القرن حدوث أمراض عديدة ارتبطت بصورة أو بأخرى بالعوامل الإيكولوجية. وعليه توصي الدراسة بضرورة الاهتمام بتاريخ المرض عبر الحقب المختلفة، وعلى الباحثين إيلاء هذا الجانب مزيدًا من الدراسة، وكذلك الاهتمام بالبيئة بأشكالها المختلفة والمحافظة عليها من التلوث والإتلاف والذي بدوره يؤدي إلى انتشار كثير من الأمراض.

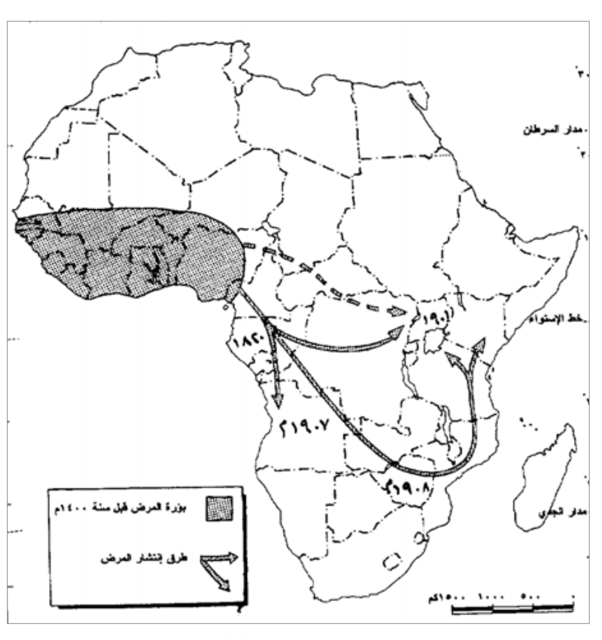
الملاحق:



الشكل رقم (١)

التوزيع الجغرافي للوفيات من وباء الكوليرا، سوهو – لندن ١٨٥٤م

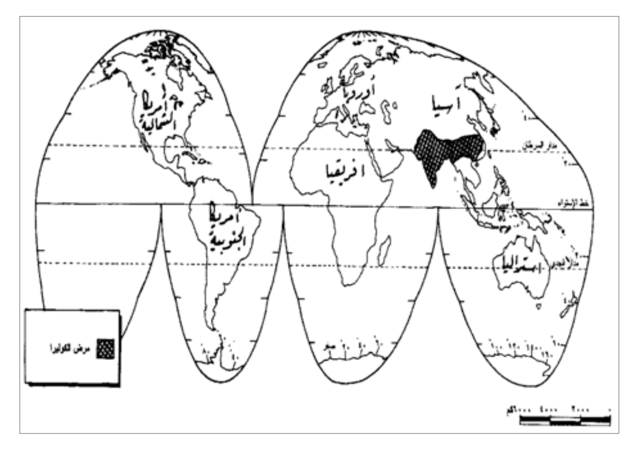
المصدر: ستامب Stamp 1964 : 35



الشكل رقم (٢)

طرق انتشار مرض النوم الإفريقي من بؤرته الأصلية في غرب إفريقيا

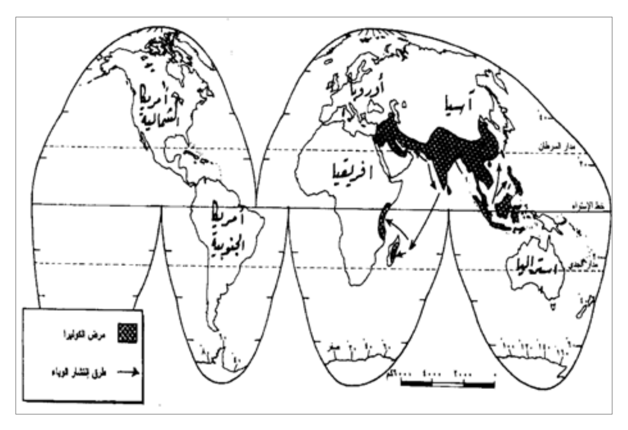
Source: Willett, K.C., 1963, "Trypanosomiasis and the Testse Fly in Africa", Annual Review of Entomology, Vol. P.167.



الشكل رقم (٣)

الموطن الأصلي المحتمل لمرض الكوليرا قبل سنة ١٨١٦

المصدر: Stamp 1964 : 28

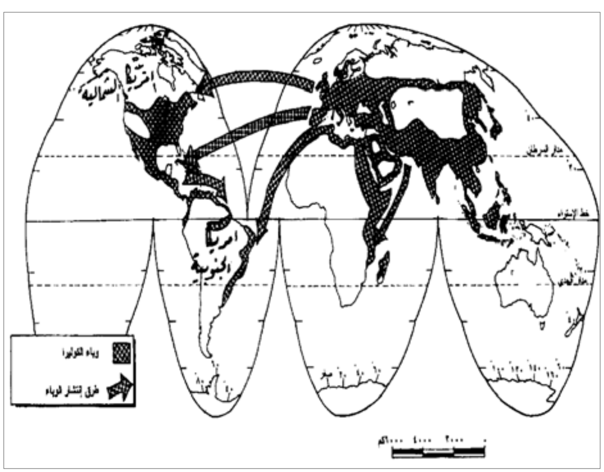


الشكل رقم (٤)

طرق انتشار وباء الكوليرا

والمناطق التي تفشي فيها خلال الفترة (١٨١٦ - ١٨٢٣م)

المصدر: Stamp 1964 : 29



الشكل رقم (٥)

طرق انتشار وباء الكوليرا

والمناطق التي تفشي فيها خلال الفترة (١٨٢٤- ١٨٦٢م)

المصدر: Stamp 1964 : 31

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

المراجع:

- البشري، البيوك، محمد السيد، فاطمة حمد (١٩٩١)، **أهمية البحث والتدريس في مجال الجغرافية الطبية**، الكتاب العلمي للندوة الجغرافية الرابعة، ج ٢، جامعة أم القرى، مكة المكرمة ٥٦ – ٧٠.
- الخفاف، عبد علي (٢٠٠١)، **أسس الجغرافية العامة دار الكندي للنشر والتوزيع**، عمان، الأردن.
- النور، شلابي، أسامة وأبو بكر (١٩٩٥)، **تاريخ الإنسان حتى ظهور المدنيات**، منشورات شركة إلجا Alga مالطة.
- بول غليونجي (١٩٦٠)، **طب وسحر**، دار القلم للطباعة والنشر، مصر.
- جابر، البنا، محمد مدحت، فاتن محمد (٢٠٠٤)، **دراسات في الجغرافيا الطبية**، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.
- خليل، نجلاء عاطف (٢٠٠٦)، **في علم الاجتماع الطبي - ثقافة الصحة والمرض**، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، مصر.
- شرف، عبد العزيز طريح (١٩٨٦)، **البيئة وصحة الإنسان في الجغرافيا الطبية**، دار الجامعات المصرية، الإسكندرية.
- عبد المقصود، زين الدين (١٩٨١)، **البيئة والإنسان، علاقات ومشكلات**، منشأة المعارف، الإسكندرية.
- مكاوي، علي (١٩٩٠)، **علم الاجتماع الطبي: مدخل نظري**، ط١، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية.

- Anyinam, C, A (1995), *Ecology and Ethnomedicine*: *Exploring Links Between Current Environment Crisis and the Practice of Indigenous Medicine*. Social Science and Medicine. 321-329.
- Chon, J, P, (1988), *Culture and Conservation*. Bioscience 39 (July- August) , 450 – 453.
- Damjanov , Rubin, E., 1984 , I. (Eds.): Advances in the Biology of Disease, Vol. I, Williams and Wilkins, Baltimore,
- Dixon, D. M. 1972 Masticatories in Ancient Egypt. Journal of Human Evolution 1:433 441.
- Pederson, P. (1995). Culture – centred ethical guide lines for counsellors. I n j . C . Ponterotto, J . M . Cases, L . A . S u z u k i , & C . M . A l e x a n d e r (Eds.), *Handbook of multicultural counselling* (pp. 34-50). thousand Oaks, C A : Sage
- Stamp (D.L), 1964 The Geography of life and Death, Cornell University Press, New Yourk .
- Blij, H,J, 1993, Human Geography – Culture , Society , and Space , U.S.A , John Wiley & Sons , Inc .
- Howe,G,M, 1980, Medical Geography, in Brown, E, Geography Yesterday & Tomorrow, Oxford University press , The Royal Geographical Society Pp. 280 – 288 .
- Willett,K,C,1963, Trypanosomiasis and the Tsetse Fly in Africa , Annual Review of Entomology , Vol 8 .

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449



الوضع السياسي في الجزائر أواخر سقوط الدولة الزيانية (٩١٠ – ٩٦٢ هـ/ ١٥٠٥ – ١٥٥٤م)

أ.د. خالد بلعربي

أستاذ تاريخ المغرب الإسلامي الوسيط
قسم التاريخ - كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة سيدي بلعباس – جمهورية الجزائرية

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

خالد بلعربي، الوضع السياسي في الجزائر أواخر سقوط الدولة الزيانية.- دورية كان التاريخية.- العدد الثالث والعشرون؛ مارس ٢٠١٤. ص ١٠٠ – ١٠٥.

www.kanhistorique.org

كان التاريخية: رقمية الموطن .. عربية الهوية .. عالمية الأداء

مُلَخّصْ

يحاول هذا المقال التطرق إلى الأوضاع السياسية التي عاشتها الجزائر (المغرب الأوسط) أواخر الدولة الزيانية التي قامت على أراضيه، حيث كانت الجزائر تعيش أوضاعًا جد مضطربة نتيجة محاولات المرينيين في المغرب الأقصى، والحفصيين في المغرب الأدنى التدخل في شؤونها الداخلية، والتلاعب بأقدارها ومصيرها، ومحاولة الإطاحة بها من كل جانب تمهيدًا لاحتوائها، أضف إلى ذلك الصراع حول السلطة داخل البيت الزياني. إن هذه الوضعية التي آل إليها المغرب الأوسط في أواخر العهد الزياني من صراعات داخلية، وتدخلات مرينية وحفصية، وسيطرة القبائل على الكثير من المناطق، كل ذلك جعل شواطئ المغرب ومدنه على وجه الخصوص عرضة لتهديدات الجيوش الإسبانية وهجماته المتكررة، فنقلوا بذلك الحرب من أرض الإسبان إلى أرض بلاد المغرب الأوسط. وخنقوا بذلك الدولة الزيانية وهددوها، وزادت وحدة الدولة تصدعًا، وضعف ملوك بنو زيان المتأخرين على مقاومتهم. وقد استعمل الإسبان كل الوسائل للتوغل داخل البلاد، فبعد أن كانت سيطرتهم لا تتعدى وهران وضواحيها القريبة، امتدت إلى أبعد من ذلك لا بقوة السلاح فقط، بل لعدم وعي ملوك بني زيان المتأخرين وشعورهم بالخطر المحدق بهم وبالتالي وأمام هذا الوضع المضطرب الذي عاشته الدولة كان لابد من مواجهة هذا الخطر، فاستنجد الجزائريون بالعثمانيين الذين لبوا النداء للوقوف في وجه هذا الخطر الصليبي، وتمكنوا من تحرير سواحل الجزائر وتطهيرها من الخطر الإسباني وأصبحت الجزائر بعد سقوط الزيانيين ولاية عثمانية.

مُقَدِّمَةُ

يعد موضوع مقالنا الموسوم بـ "الوضع السياسي في الجزائر أواخر سقوط الدولة الزيانية" من بين المواضيع الجديرة بالدراسة لأهميته من جهة، ولكونه يعطينا فكرة عن طبيعة الحكم ورجالات السياسة الذين حكموا الجزائر أو المغرب الأوسط خلال هذه الفترة الهامة من التاريخ. ومن نافلة القول؛ أن الموضوع لم ينل ما يستحقه من العناية في الدراسات التاريخية الحديثة، ودراسة مستقلة وعميقة، فقد تركز جل اهتمام الباحثين على الفترة التي سبقت هذا التاريخ، وأعني بذلك الفترة الممتدة من سنة (٦٣٣هـ/١٢٣٥م) إلى غاية سنة (٩١٠هـ/١٥٠٥م)، أما الفترة التي عاشتها الجزائر سياسيًا بعد هذا التاريخ، فالدراسات حولها قليلة تعد على الأصابع، بل لا تكاد تظفر بشيء من اهتمام الباحثين في التاريخ لقد وردت بعض التلميحات والإشارات إلى هذا الموضوع في بعض المقالات والمراجع التاريخية، والرسائل الجامعية، وهي تستحق كلها التنويه، لكنها عالجت الموضوع بصورة عامة في سياق دراسة تاريخ الجزائر، ينهض على ذلك ما كتبه الدكتور صالح عباد حول "الجزائر خلال الحكم التركي (١٥١٤ – ١٨٣٠)"، أو ما كتبه الدكتور مولاي بلحميسي في مقال بمجلة الأصالة العدد (٢٦) حول

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية

ISSN: 2090 – 0449

"نهاية دولة بني زيان"، أو الدراسة التي أعدها الدكتور يحي بوعزيز حول المراحل والأدوار التاريخية لدولة بني عبد الواد الزيانية. ولعل القاسم المشترك بين هذه الدراسات يكمن في إحدى الخلاصات التي توصل إليها أصحابها وهي أن الجزائر أو المغرب الأوسط دخلت مرحلة الضعف سنة (٩١٠هـ/١٥٠٥م) أي بعد وفاة السلطان الزياني أبو عبد الله محمد الرابع المعروف بالثابتي، واحتلال المرسى الكبير من قبل الإسبان، حتى أصبحت الجزائر محل تنافس إسباني وعثماني بعد ذلك.

أولاً: أوضاع الجزائر قبل الاحتلال الإسباني

كانت الجزائر قبل الاحتلال الإسباني لها، تعيش أوضاعًا جد مضطربة نتيجة محاولات المرينيين في المغرب الأقصى، والحفصيين في المغرب الأدنى التدخل في شؤونها الداخلية، والتلاعب بأقدارها ومصيرها، ومحاولة الإطاحة بها من كل جانب تمهيدًا لاحتوائها، وقد عانى سلاطين بنو زيان الذين كانوا يحكمون الجزائر أو المغرب الأوسط خلال هذه الفترة من كثرة التدخلات، واضطروا لذلك إلى خوض عدة حروب مع جيرانهم المرينيين والحفصيين من أجل الدفاع عن حدود دولتهم. فبمجرد أن ينهي الزيانيون حربهم مع المرنيين من المغرب وتقل أخطارهم تبرز أخطار الحفصيين من الشرق حيث تجدد أطماعهم على المغرب الأوسط محاولين السيطرة عليه وضمه إلى مملكتهم الحفصية في الشرق. وقد استطاع الحفصيون خلال هذه الفترة الهيمنة على الكثير من المناطق في المغرب الأوسط خاصةً في الجهة الشرقية منه وذلك بداية من حكم السلطان الحفصي أبو فارس عبد العزيز ٧٩٦هـ.[١]

ومما تجدر الإشارة إليه كذلك في هذه الفترة هو تهالك أمراء بني زيان في الخلافات والصراعات، بل والحروب فيما بينهم أحيانًا وذلك من أجل إحكام قبضتهم على السلطة في تلمسان، وكان ذلك يحدث بتدخل المرينيين في الغرب، أو الحفصيين في الشرق، حتى صار حكام بنو زيان المتأخرين لعبة في يد البيت المريني أو الحفصي، يتحكمون فيهم بالترهيب حينًا، والترغيب أحيانًا، وهو ما أضعف كيان الدولة، وكسر بنيتها بهذا التدخل المستمر، وأصبح أعضاء البيت الزياني يتسابقون إلى كرسي العرش عن طريق مدينة فاس أو تونس، ويتنافسون على رضى سلاطينها، ونيل حظوظهم.[٢] ومثالنا في ذلك أنه عندما حاول السلطان الحفصي أبو عمر عثمان غزو المغرب الأوسط سنة ١٤٦٣م راسله السلطان الزياني أبو ثابت محمد المتوكل على الله قبل وصوله ينشد الطاعة ويقدم الولاء مجنبًا المغرب الأوسط من أهوال الحرب،[٣] وعندما حاول السلطان الزياني أبو عبد الله محمد الرابع الثابتي أن يقام تسلط الحفصيين وأعلن قطع الدعوة لهم على منابر تلمسان قاوموه وأرغموه على الخضوع والاستسلام،[٤] لأن الدولة الزيانية خلال هذه المرحلة كانت في حالة ضعف شديد لا تقوى على مواجهتهم.

علاوة على ذلك؛ فقد كان المتنافسون من البيت الزياني خلال هذه الفترة يضطرون إلى الاستعانة بالقبائل العربية كبني عامر، والدواودة، وأولاد سعيد، والشابيين، وذلك من أجل الوصول إلى السلطة، وهو ما أدى إلى ضعف الدولة الزيانية، فدخلت بذلك في مرحلة الإنعاش بحيث أخذت تلفظ أنفاسها شيئًا فشيئًا مع مرور الأيام فضلاً عن السنوات. كما ساعد على ضعفها كذلك الحروب الداخلية التي كانت تندلع من قبل المناهضين لسلطانها مثل مغراوة بنو عامر.[٥]

إن الضعف الذي لحق بدولة بني زيان والحروب التي كانت المغرب الأوسط مسرحًا لها والروابط القبلية التي كانت تطبع مجتمع المغرب الأوسط خلال هذه المرحلة أدى إلى انفصال العديد من القبائل وظهور إمارات ترفض الخضوع لسلطة الدولة الزيانية في المغرب الأوسط، ومن القرائن الدالة على ذلك إمارة بنو جلاب في تقرت بقيادة سليمان المريني الجلابي،[٦] ولم تكن الوضعية السياسية على السواحل تختلف عن وضعية أطراف الصحراء، كانت بعض المدن تعيش في نوع من الاستقلال عن الزيانيين كانت مدينة الجزائر التي كانت تابعة للزيانيين قد استسلمت لملك بجاية أبو العباس عبد العزيز لعدم قدرة السلطة الزيانية في تلمسان الدفاع عنها، كما ظلت وهران في عداوة مع بني زيان، وكانت باقي المدن الساحلية تعيش وضعية وهران تقريبًا. لقد وقع المرسى الكبير بيد البرتغاليين سنة ١٤٧١م، فسيطروا على الميناء حتى ١٤٧٧م حيث خرجوا منه نهائيًا. وقد سعت الكثير من القبائل العربية خلال هذه الفترة إلى فرض هيمنتها على الكثير من المناطق التابعة للدولة الزيانية نتيجة ضعف هذه الأخيرة كقبائل بني هلال، وبني سليم.[٧]

إن هذه الوضعية التي آل إليها المغرب الأوسط في أواخر العهد الزياني من صراعات داخلية، وتدخلات مرينية وحفصية، وسيطرة القبائل على الكثير من المناطق، كل ذلك جعل شواطئ المغرب ومدنه على وجه الخصوص عرضة لتهديدات الجيوش الإسبانية وهجماته المتكررة، فنقلوا بذلك الحرب من أرض الإسبان إلى أرض بلاد المغرب الأوسط، وخنقوا بذلك الدولة الزيانية وهددوها، وزادت وحدة الدولة تصدعًا، وضعف ملوك بنو زيان المتأخرين على مقاومتهم وقد استعمل الإسبان كل الوسائل للتوغل داخل البلاد، فبعد أن كانت سيطرتهم لا تتعدى وهران وضواحيها القربة امتدت إلى أبعد من ذلك لا بقوة السلاح فقط بل لعدم وعي ملوك بني زيان المتأخرين وشعورهم بالخطر لأنهم كانوا غارقين في الصراعات الداخلية فيما بينهم.

ثانيًا: ضعف الدولة الزيانية والاحتلال الإسباني للجزائر

إن التفكك السياسي الذي عرفته الجزائر في مطلع القرن السادس عشر الميلادي قد شجع الإسبان الذين استكملوا وحدتهم السياسية، وقضوا على الحكم الإسلامي في الأندلس سنة ١٤٩٢م، على غزو الشواطئ الجزائرية بعد البدء بالمغربية، وذلك مبالغة في النكاية بالمسلمين، ومنع اللاجئين الأندلسيين من التفكير والعودة إلى وطنهم السليب، ثم تطويق المسلمين في بلاد المغرب لضرب أي

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

محاولة من شأنها التفكير في إعادة غزو جديد لشبه الجزيرة الإيبرية، ثم محاولة منهم كذلك استغلال الإمكانيات الاقتصادية للجزائر، وموانئه الإستراتيجية من الناحية العسكرية. وبالتالي تحقيق السيادة الإسبانية على الحوض الغربي للمتوسط، والتي لا يمكن أن تتم دون احتلال الجزائر.[٨]

لقد اندفع الإسبان تحت قيادة إيزابيلا وفرديناند وبمباركة رجال الدين الإسبان وعلى رأسهم الكاردينال "كزيميناس دي سيسيزس" (ximénes de cisnéros) نحو بلاد المغرب بعد سقوط الأندلس، وإنهاء خلافهم مع البرتغال، بخصوص مدينة مليلية بواسطة معاهدة دور دي سلاس سنة ١٤٩٤. كان الهدف واضحًا هو تصفية النفوذ الإسلامي في البحر الأبيض المتوسط، حتى يتمكن الصليبيون الجدد من استعادة أمجاد الكنيسة الإفريقية التي انتهت بالفتح الإسلامي لبلاد المغرب سنة ٩٢هـ.[٩]

كانت بلاد المغرب خلال هذه الفترة تتقاسمها من الوجهة النظرية ثلاث دويلات، الزيانيون، الحفصيون، المرينيون، وعندما ظهر الخطر الإسباني، كان ملوك هذه الدول وسلاطينها غارقون في دوامة الحروب والصراعات الداخلية فيما بينهم من أجل الاستمتاع بالسلطان والجري وراءه مهما كلفهم ذلك من جهد ووقت وأموال. كما هو حال الدولة الزيانية في أواخر أيامها، حيث كان النزاع حول الحكم بين أفراد الأسرة الحاكمة قد أدى إلى إضعافها وإنهاك قواها وبالتالي تجزئها وتفككها وتقلص نفوذها أكثر فأكثر خلال النصف الأول من القرن العاشر الهجري، السادس عشر للميلاد، وبالتالي فالجزائر أو المغرب الأوسط سيجد نفسه خلال هذه الفترة من الناحية الجيوسياسية أمام فسيفساء من الكيانات السياسية الواهية، المتناحرة فيما بينها والمتقوية بالأجنبي المسيحي، هذه الوضيعة استغلها الإسبان وبدأوا يستعدون لتنفيذ مخططهم في الهجوم على السواحل الجزائرية. وضع الإسبان مخططهم الهجومي موضع التنفيذ، اقنع "كزمنيس" حكام إسبانيا المتعصبين بضرورة القيام بحملات بحرية تحت قيادة دون ديقوري كوردو (Don diego de cordoe) على السواحل الجزارية.

١/٢- احتلال المرسى الكبير ووهران:

ابتداء من سنة ١٥٠٣م، أصبح الخطر الإسباني على الجزائر حقيقة واقعة، قد تنافس على عرش الدولة الزيانية الأخوان، أبو زيان الثالث المسعود، وأبو حمو الثالث بوقلمون وتغلب الثاني عن الأول بعد المساعدة التي قدمها له الملك الإسباني حينذاك شارل كارلوس فأدخله السجن.[١١] واغتنم الإسبان هذه الإضرابات داخل الدولة الزيانية وأقدموا على احتلال المرسى الكبير سنة ١٥٠٥ بقيادة "دون رايمون دي قرطبة" الذي لم يجد في انتظاره إلاَ أربعمائة رجل من الحامية الزيانية في المرسى، دافعوا عنها بكل ما أوتيوا من قوة إلى أن قتل قائدهم فاستسلموا بعد ثلاث أيام من الحصار الذي ضربه الإنسان عليهم، وعلى الرغم من قدوم قوات أهلية كبيرة التي كانت تتكون من ٢٢ ألف مقاتل وألفي فارس منهم جيش ملك تلمسان في ١٧ سبتمبر ١٥٠٥ لمنع الإنسان من إحكام قبضتهم على المرسى الكبير، إلاَ أن هذه القوات فشلت في ذلك،[١٢] حاول الإنسان منذ استيلائهم على المرسى الكبير إقامة علاقات مع السكان بهدف الحصول على المؤونة، لكنهم وجدوا مقاومة الكثير من القبائل تقف في وجههم.

أدى الاحتلال الإسباني لمرسى الكبير إلى اهتزاز عرش الدولة الزيانية، فاغتنم الأمير الزياني يحي الثابتي شقيق السلطان أبي زيان المسعود، المخلوع والسجين، الاستقلال بمدينة تنس وأحوازها سنة ١٥٠٦م، و ذلك بتحريض من الإسبان ورعايتهم وحمايتهم.[١٣] وقد تسبب التدخل الإسباني في تنس في حدوث حروب بين قبائل تنس والزيانيين، ولم يستفد من ذلك سوى الإسبان الذين ثبتوا أقدامهم في المنطقة. كما شجع ضعف الدولة الزيانية وتفككها الإسبان على احتلال مدينة وهران في ١٨ مايو ١٥٠٩، انطلقت الحملة على وهران يوم ١٦ مايو، وكان يشارك فيها ١٥ ألف جندي، يقودهم "بيدرو نافارو"، بلغت المرسى الكبير يوم ١٧ مايو ١٥٠٩ أين انضمت إليها قوات الحامية الإسبانية هناك، سار الجيش الإسباني نحو وهران، واحتل المرتفعات وأخضع المدينة لقصف مكثف، ثم تمكن من دخولها في نفس السنة، بعد أن قتل هذا الجيش حوالي أربعة آلاف من سكان المدينة.[١٤]

كان احتلال وهران ضربة موجعة للدولة الزيانية، فقد خسرت بذلك مدينة تجارية هامة بالنسبة لها، وقد كان احتلال الإسبان لوهران تأثيرًا كبيرًا على بلاد المغرب، فقد تحرك بنو حفص لطردهم منها بعد التنسيق الذي حصل بين سلطان بجاية عبد العزيز وعاهل تونس، وعلى الرغم من القوات الكبيرة التي توجهت إلى وهران لتحريرها بقيادة أبي فارس ابن السلطان عبد العزيز، إلاَ أن الإسبان تمكنوا من إلحاق الهزيمة بها.[١٥]

٢/٢- توسع نفوذ الإسبان :

لم يقتصر نفوذ الإسبان على المرسى الكبير ووهران اللتين سيطروا عليهما بالقوة فحسب، بل امتد ليشمل كل المدن الساحلية الجزائرية تقريبا، فاحتلوا بجاية سنة ١٥١٠،[١٦] ومستغانم[١٧] ١٥١١، وهنين ١٥٣١،[١٨] وبعد نحو أربع سنوات تمكنوا أيضًا من احتلال مدينة عنابة الساحلية[١٩] بعد احتلاهم لتونس في صيف ١٥٣٥م. وكان من المفروض في مثل هذه الظروف الصعبة التي كانت تمر بها الدولة الزيانية أن تتوحد القوى الداخلة للدولة وتتكتل لمواجهة الخطر الإسباني الذي أصبح حقيقةً واقعة، لكن الذي حدث هو العكس، فحدثت في تلمسان اضطرابات ضد أبو حمو الثالث، وتحزب ضده أنصار أخيه المسجون أبي زيان، واستنجدوا بخروج في مدينة الجزائر الذي كان موجودُا في تنس لمحاربة يحي الثابتي الموالي للإسبان، فلبي رغبتهم حتى لا يمكن الإسبان من الانقضاض على عاصمة الدولة الزيانية، واتجه إليها سنة ١٥١٧ وأطلق سراح أبي زيان وأعاده إلى عرشه في حين فر أبو حمو الثالث إلى فاس ومنها إلى وهران حيث أمده الإسبان بقوات

علمية. عالمية. مُحكمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

كبيرة، فأعاد الكرة على تلمسان واستردها من عروج سنة ١٥١٨ بمساعدة الإسبان الذين تمكنوا من قتل عروج وأخيه اسحاق الذي كان يرابط في قلعة بني راشد.[٢٠]

ظل أبو حمو الثالث[٢١] يسير في فلك الإسبان، ويقدم ما يريدون بدون تردد إلى أن توفي سنة (٩٣٤هـ/١٥١٨م)، فكان سلطان بني زيان قد تقلص ونفوذهم تضاءل إلى مدينة تلمسان وأحوازها، فخلفه ابنه أبو محمد عبد الله محمد الثابتي[٢٢] الذي حاول أن يتبع سياسة الحياد بحيث لا يميل إلى أي طرف العثمانيين أو الإسبان، ثم قام بنفي أخيه أبا سرحان المسعود، المعارض لهذه السياسة والمنافس له، لكن أبو سرحان المسعود تمكن من العودة إلى تلمسان بعد مساعدة خير الدين في الجزائر له، وسيطر على تلمسان سنة ١٥٢٩م.[٢٣]

٣/٢- مدينة الجزائر توقع معاهدة الاستسلام مع الإسبان:

كانت مدينة الجزائر المنشقة عن الدولة الزيانية خلال هذه الفترة يحكمها سالم بن التومي وبمجرد سقوط بجاية انتاب مسئولوها الخوف، حيث أنهم كانوا يدركون عدم قدرتهم الدفاع عن المدينة، لذا اجتمع مجلس أعيان المدينة لدراسة الوضعية الصعبة لتي آلت إليها مدينتهم وما يجب اتخاذه. وكان قرار المجلس توقيع معاهدة الاستسلام بدل الوقوع تحت الحصار، كما تقرر في ٣١ جانفي/ يناير ١٥١٠ إرسال وفد يقوده سالم بن التومي بصفته رئيس المجلس إلى بجاية لإعلان ولائه للإسبان،[٢٤] وكان سالم بن تومي يعتقد من ورائه توقيعه على معاهدة الاستسلام، تخليص مدينة الجزائر من الحصار الاقتصادي لكنه أوقعها في إذلال سياسي.

إن ضعف الذي آلت إليه مدينة الجزائر مرضه أساسا ضعف الدولة الزيانية التي أصبحت عاجزة الدفاع عن مدنها بسبب سياسة ملوكها المتأخرين الذين قلت شجاعتهم، و طمع الناس فيهم، فلجئوا إلى أعدائهم، الذين اضطلعوا على نقاط ضعفهم و الإقدام على إذلالهم. إن السرعة التي تمكن بها الإسبان من فرض سيطرتهم على السواحل الجزائرية، لا تعود فقط إلى التفكك السياسي الذي كانت تعاني منه الجزائر خاصةً في مطلع القرن العاشر السادس عشرة الميلادي ولكنها تعود كذلك إلى تطور ساح الإسبان بمقارنتها مع سلاح الجزائريين ووسائل دفاعهم،[٢٥] ومع ذلك لم يستطع الإسبان تحقيق ما كنوا يصبون إليه من خلال فصل مسلمي الأندلس والجزائر، واستغلال خيرات هذه الأخيرة، واحتلال سواحلها بل ظل احتلالهم مقصورًا على بعض المواقع والمدن الساحلية، كما تؤكد ذلك وثائق إسبانية كثيرة. ويرجع بعضهم عدم احتلال الإسبان للمدن، والمناطق الداخلية إلى انشغالهم بحروبهم في المناطق الأخرى من أوروبا كإيطاليا، وكذلك بغزو العالم الجديد، ثم إلى المقاومة التي أبداها الجزائريون تحت زعامة بعض المرابطين المجاهدين كابن القاضي ومن تلاهم.

ثالثا: دخول الأتراك إلى الجزائر ونهاية ملك بني زيان

كان دخول الأتراك العثمانيين إلى الجزائر استجابةً لطلب الجزائريين، ونجدة لهم، ومشاركة في الدفاع عن بلادهم، وتحرير ما وقع منها تحت الاحتلال الإسباني، في هذه الفترة كان البحر المتوسط مسرحًا لانتصارات مدوية أحرزها الإخوة عروج، وخير الدين، وإسحاق الذين كانوا يمتازون بالشجاعة ومعرفة فنون الملاحقة، مما أهلهم لأن يصبحوا بحارة مهرة في البحر. لقد لفت ذلك انتباه أعيان مدينة الجزائر وجعلهم يستنجدون بهم للتخلص من السيطرة الإسبانية والتحرير الفعلي، ولم يتردد عروج في تلبية هذه الصرخة، فهاجم الحصن الإسباني بعد أن استولى على بلدة شرشال المجاورة، ولكن مدفعيته لم تتمكن من القضاء الحصن الإسباني وهو ما جعل العلاقة بينه وبين سالم بن التومي تسوء وكانت نهايتها مقتل بن التومي،[٢٦] وإعلان عروج نفسه حاكمًا على الجزائر.

أمام هذا الوضع الجديد في المدينة حاولت إسبانيا السيطرة من جديد على المدينة خاصةً بعد الخوف المتزايد لحكام تلمسان الزيانيين من بابا عروج، فجهزت حملة عسكرية ضخمة سنة ١٥١٦ بقيادة دييقو دي فيرا (Diego de vera) للقضاء على خطر عروج قبل استفحاله. ولكن هذه الحملة فشلت أمام خطط عروج الهجومية.[٢٧] هذا النصر الذي حققه عروج بالتعاون مع سكان مدينة الجزائر، ساعد على استقرار الأمر لحكام الجزائر الجديد، كما جعل المناطق الأخرى الواقعة تحت الهيمنة الإسبانية تشد الرحال إلى مدينة الجزائر تطلب النجدة والمساعدة وتعلن الولاء، كدلس، والمدية، ومليانة، ثم تلمسان عاصمة الزيانيين.[٢٨] والظاهر أن أعيان مدينة تلمسان، كانوا يتحسرون على الوضعية التي آلت إليها دولتهم، فاستنجدوا بعروج الذي كان حينذاك بمدينة تنس التي تمكن من تحريرها من المنشق يحي الثابتي، ثم زحف نحو تلمسان الزيانية سنة (٩٢٣هـ/١٥١٨م)[٢٩] وأخرج منها أبو حمو الثالث الذي تولى حكم تلمسان بعد وفاة محمد الخامس سنة (٩٢٢هـ/١٥١٧م)، ثم نصب على العرش الزياني في تلمسان السلطان أبا زيان المسعود، ورغم هذا النصر الذي حققه عروج إلاّ أنّه كان يدرك أن سيطرته على المدينة ستكون صعبة وذلك لبعدها عن مدينة الجزائر، وعليه فقد أرسل حامية عسكرية تتكون من (٥٠٠) جندي إلى قلعة بني راشد التي تتوسط الطريق بين تلمسان والجزائر، لتأمين خط الرجعة إلى هذه الأخيرة ووصول الإمدادات إليها منها أو من الجزائر، أسند قيادة تلك الحامية إلى أخيه إسحاق، وقد سعى عروج إلى إقامة حلف دفاعي وهجومي بينه وبين سلطان فاس محمد الوطاسي ضد النصارى، فرحب به هذا الأخير، غير أن الإسبان لم يكونوا مرتاحين لهذه الانتصارات التي حققها الإخوة بربروس والخطوات التي خطوها في طريق جعل الجزائر تحت سلطهم، فكان ردهم سريعًا من خلال قضائهم على حامية قلعة بني

علمية. عالمية. مُحكَمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

راشد، ثم حاصروا عروج في تلمسان، وتمكنوا من دخولها وقتل الكثير من سكانها، وكان من بين القتلى "عروج".[٣٠]

أعاد الإسبان الملك في تلمسان إلى أبي حمو الثالث الذي قبل أن يدفع ضريبة سنوية لهم مقدارها (١٢٠٠٠) دوكاتو، (١٢) من الخيل و(٦) من إناث الصقور، كعلامة عن التبعية، بقيت الدولة الزيانية تعيش الإضرابات السياسية حتى أصبحت لقمة سهلة للتدخل الأجنبي يظهر ذلك في تصرفات السلطان أبي عبد الله محمد (١٥٢٨ - ١٥٤٠) الذي سخر اليهود[٣١] لخدمته وتعامل مع كل مَنْ يضمن له الوفاء والبقاء في السلطة إذ جعل اليهود وسطاء بينه وبين الإسبان في التعاون الاقتصادي والعسكري، وقد أغضب ذلك سكان تلمسان وجعلهم يثورون على السلطان بمساعدة بعض الأتراك المسلمين الذي لجئوا إليهم، وتولية أبي زيان أحمد الثاني سنة (٩٤٩هـ/١٥٤٢م) بدلاً منه،[٣٢] وقد حاول السلطان المخلوع أبو عبد الله محمد العودة لحكم عرش الدولة الزيانية، غير أن أبا زيان تمكن من هزمه سنة (٩٤٩هـ/١٥٤٢م)، وأعاد الكرة مرة أخرى تحت مظلة الإسبان الذي كان يقدر عددهم بنحو تسعة آلاف راجل، وخمسمائة فارس، فسقطت تلمسان في يده، حاول أبو زيان أن يعيد عرشه عدة مرات ولم يتمكن من ذلك إلا بعد أن ثار بسكان الدولة في تلمسان في وجه أبي عبد الله محمد، واستدعوا أبا زيان لاستلام السلطة مرة أخرى،[٣٣] وتخلص أهل تلمسان من عداوة الإسبان بعد مقتل أبو عبد الله محمد الموالي للإسبان وهو في طريقه إلى وهران، ثم تقربوا الأتراك سنة (٩٥٧هـ / ١٥٥٠م).

ومما زاد الأمور تعقيدًا وسوءًا، ظهور الدولة السعدية في المغرب الأقصى بقيادة الشريف المهدي (٩١٥-٩٦٤هـ / ١٥٤٤-١٥٥٧م) الذي كان يرنو هو الآخر إلى الجزائر أو المغرب الأوسط حيث رأى في الجزائر المجال الخصب للتوسع ولاسيما وأن الأوضاع كانت مواتية بسبب التدخل الأجنبي فيها، فأراد أن يخلق من قوته بديلاً للأتراك والإسبان في هذه المنطقة فأرسل جيشًا لهذا الغرض بقيادة ابنه الشريف محمد الخوراني إلى تلمسان، فاحتلها يوم ٥ جوان ١٥٥٠م،[٣٤] ثم تقدم الجيش السعدي نحو الشلف في اتجاه مدينة الجزائر لضرب السلطة التركية تفطن حسن باشا حاكم الجزائر لنوايا السعديين، فأسرع بالنهوض إليهم، وأرسل إليهم جيشًا بزعامة حسان قورصو، فتصدى للسعديين قرب وادي الشلف، فهزمهم وأرغمهم على الانسحاب إلى المغرب الأقصى،[٣٥] وبالتالي حرر تلمسان التي قدم إليها حسن باشا، وعزل عن عرشها أبا زيان أحمد الثاني، وولى مكانه أخاه الحسن بن محمد بن عبد الله الثاني، وهو آخر أمراء بني زيان، أعلن عن مبايعته للأتراك بدون شروط سنة (٩٥٧هـ/١٥٥٠م)، و بقي في منصبه إلى أن عزله "صالح رايس" سنة ١٥٥٤ بسبب عدم قدرته على تسيير أمور الرعية في تلمسان من جهة، ثم ميوله إلى الإسبان من جهة أخرى وألحق تلمسان وأحوازها في الجزائر،[٣٦] وكان ذلك يعني نهاية للدولة الزيانية التي عمرت ثلاث قرون وثمانية عشر عام، وأصبحت حضارتها مدينة إقليمية، تتبع عاصمة الراي وهي مدينة الجزائر.

خاتمة

إن أهم ما يمكن استخلاصه من خلال هذا البحث أن ضعف السلاطين الزيانيين المتأخرين على جميع الأصعدة، من تنافس على السلطة، وعدم قدرتهم الرد على هجومات المرينيين والحفصيين هو الذي أدى بظهور الخطر الإسباني على سواحل المغرب الأوسط ومدنه، فلو أهتم هؤلاء السلاطين بتقوية وتدعيم جهاتهم الداخلية ما كان هذا ليحصل، وأمام هذه الوضعية استمد الجزائريون العون من العثمانيين لانقاد بلادهم من مخالب هذا الاحتلال.

علمية. عالمية. مُحكَمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

الهوامش:

(١) عبد العزيز فيلالي، **تلمسان في العهد الزياني**، ج١، دار موفم للنشر والتوزيع الجزائر ٢٠٠٢، ص ٧٠.

(٢) يحيى بوعزيز، "**المراحل والأدوار التاريخية لدولة بني عبد الواد الزيانية**"، مجلة الأصالة"، العدد ٢٦ جويلية – أوت ١٩٧٥، ص ٢٥.

(٣) حكم السلطان أبو عمرو عثمان الدولة الحفصية من (٨٣٩هـ/١٤٣٥م) إلى غاية (٨٩٣هـ/١٤٨٨م) يُنظر: الزركشي، **تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية**، تحقيق محمد ماضور، المكتبة العتيقة تونس (ب.ت)، ص ١٣٦-١٣٧.

(٤) يحي بوعزيز، المقال السابق، ص ٢٣.

(٥) مولاي بلحميسي، "**نهاية دولة بني زيان**"، مجلة الأصالة، العدد ٢٦، جويلية – أوت ١٩٧٥، ص ٣٣-٣٤.

(٦) صالح عباد، **الجزائر خلال الحكم التركي (١٥١٤ – ١٨٣٠)**، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر ٢٠٠٥، ص ١٠.

(٧) المرجع نفسه، ص ١٠-١١.

(٨) محمد رزوق، **الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين (١٦-١٧م)**، مطبعة إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب ١٩٩٨، ص ١٤٢.

(٩) ناصر الدين سعيدوني، "**الجالية الأندلسية في الجزائر**"، مجلة أوراق مدريد، العدد الرابع ١٩٨١، ص ١١١-١٢٤.

(١٠) صالح عباد، المرجع السابق، ص ٩.

(١١) أحمد التوفيق المدني، **حرب الثلاثمائة بين الجزائر وإسبانيا**، الجزائر (ب.ت)، ص ٥٣٣.

(١٢) س أيكس دوساندوفال، "**تسجيلات وهران والمرسى الكبير**"، المجلة الإفريقية، العدد ١٥ السنة ١٨٧١، ص ١٧٨.

(١٣) عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ج١، ص ٧٥.

(١٤) صالح عباد، المرجع السابق، ص ٣٠.

(١٥) نفسه، ص ٣١.

(١٦) تم احتلال بجاية التي كانت خاضعة لنفوذ الحفصيين خلال هذه الفترة في ٥ جانفي ١٥١٠، بجيش يقوده بيدرونافارو انطلق من جزر البيار نحو بجاية.

(١٧) احتل الاسبان مستغانم في ٢٦ مايو ١٥١١ وفرضت عليها معاهدة بالتزام دفع الضرائب و المكوس للإسبان.

(١٨) كان ميناء "هنين" الأهم بالنسبة للدولة الزيانية في بداية القرن السادس عشر الميلادي.

(١٩) كانت عنابة هي الأخرى خلال هذه الفترة تابعة للحفصيين، وتمكن الإسبان من دخولها سنة ١٥١٠.

(٢٠) يحي بوعزيز، المقال السابق، ص ٢٥.

(٢١) حكم أبو حمو الثالث دولة بني زيان مرتين؛ الأولى من سنة (٩٢٢هـ/١٥١٦م) إلى غاية سنة (٩٢٣هـ/١٥٧٧م)، والثانية من سنة (٩٢٤هـ/١٥٢١م) إلى سنة (٩٣٤هـ/١٥٢٨م).

(٢٢) حكم أبو عبد الله دولة بني زيان من سنة (٩٣٤هـ/١٥٢٨م) إلى غاية سنة (٩٤٧هـ/١٥٤٠م).

(٢٣) عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ج١، ص ٧٧.

(24) *See*: Haedo (F), *Histoire des rois d'Alger*, traduit et annotée par H.D. de gramont, Revue Africaine N°24 1880. P.55-56.

(٢٥) صالح عباد، المرجع السابق، ص ٤٦.

(٢٦) شارل أندري جوليان، **تاريخ إفريقيا الشمالية من الفتح الإسلامي إلى سنة ١٨٢٧**، تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر، والشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر ١٩٧٨، ص ٣٢٧.

(٢٧) كورين شوفالييه، **الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر (١٥١٠-١٥٤١)**، ترجمة جمال حمادنة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ١٩٩١، ص ٣١.

(٢٨) المشرفي عبد القادر، "**بهجة الناظر في أخبار الداخل تحت ولاية الإسبانيين بوهران من الأعراب كبني عامر**"، المجلة الإفريقية العدد ٦٥ السنة ١٩٢٤، ص ١١٣.

(٢٩) ابن الأعرج محمد الحسني السلماني، **زبدة التاريخ وزهرة الشماريخ**، مخطوط، المكتبة الوطنية الرباط، رقم ٢٩٧، ورقة ١٠٤.

(٣٠) حسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ج٢، ترجمه من الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، الرباط ١٩٨٠، ص ٩.

(٣١) أحمد توفيق المدني، **كتاب الجزائر**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ١٩٨٩، ص ص ٢٤٨-٢٤٩.

(٣٢) الأخضر عبدلي، **مملكة تلمسان في عهد بني زيان**، شهادة التعمق في البحث، المرحلة الثالثة كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية ، تونس ١٩٨٧، ص ١١٧.

(٣٣) عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ج١، ص ٧٨.

(٣٤) عبد الحميد حاجيات، **خطر النصارى وانهيار الدولة الزيانية**، ضمن كتاب "**الجزائر في التاريخ**"، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ١٩٨، ص ٤٥٧.

(٣٥) المرجع نفسه، ص ٤٥٨.

(٣٦) أحمد توفيق المدني، **الجزائر**، ... المرجع السابق، ص ٣٢٩.

علمية. عالمية. مُحكمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449



تراجم لبعض علماء مدرسة الباي في وهران من خلال بعض الآثار المخطوطة

د. عبد الحق شرف
أستاذ محاضر في التاريخ والحضارة الإسلامية
رئيس المجلس العلمي - كلية العلوم الإنسانية
جامعة ابن خلدون – الجمهورية الجزائرية

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:
عبد الحق شرف، تراجم لبعض علماء مدرسة الباي في وهران من خلال بعض الآثار المخطوطة.- دورية كان التاريخية.- العدد الثالث والعشرون؛ مارس ٢٠١٤. ص ١٠٦ – ١٠٩.
www.kanhistorique.org
كان التاريخية: رقمية الموطن .. عربية الهوية .. عالمية الأداء

مُلَخَّصْ

تعتبر مدرسة الباي بوهران مَعلمة تراثية مهمة في تاريخ وهران خصوصًا، وتاريخ الجزائر عمومًا، حيث ظلت هذه المدرسة مدة غير يسيرة من الزمن، منارة علمية يفد إليها أرباب العلم والتعلم في الغرب الجزائري خلال العهد العثماني. وقد تربع على عرش التدريس بها ثلة من خيرة علماء الجزائر العثمانية، قدّموا ما جادت به قرائحهم من علوم، ولقّنوها إلى أبناء المنطقة. وعلى الرغم من ذيوع صيت هذه المدرسة وعلمائها، فإن أغلب معالمها طمست بُعَيْدَ الاحتلال الفرنسي، وأُهمل ذكر علمائها الذين أصبح أغلبهم في طيّ النسيان. وقد حفظت لنا بعض المدونات التاريخية؛ خاصة منها مؤلفات العربي المشرفي، تراجم بعض علماء هذه المدرسة الذين درّسوا بها خلال الست سنوات الأخيرة قبل الاحتلال الفرنسي، فغدت المعلومات الواردة بين طي هذه المدونات على اقتضابها مهمة في بابها.

مُقَدِّمَة

إن الحديث عن تاريخ مدينة وهران العتيقة، لا يجب أن يمر مرور الكرام دون أن نستحضر في ذاكرتنا مدرسة الباي، تلك المنشأة التراثية التي ومنذ تشييدها في البداية بأم العساكر، على يدي الباي محمد بن عثمان الكبير،[١] لعبت الأدوار الأساسية، وتمتعت بصيت واسع في العالمين العربي والإسلامي. ورغم ما ذكره صاحب الثغر الجماني من أن "العلم كاد أن يتفجر من جوانبها"،[٢] إلا أن التاريخ لم يرحمها. فقد انتقلت العاصمة من معسكر إلى وهران، وتوفي الأب الروحي لها الباي محمد بن عثمان، ونقص الاهتمام بها. إلا أن هذه المدرسة،[٣] وبعد انتقال العاصمة إلى وهران أضحت تلعب دورًا بارزًا بها، وذلك لتوفرها على خيرة علماء المنطقة وقتها.

مدرسة الباي في وهران

تعتبر مدرسة الباي في وهران من أهم المدارس التي بناها الباي محمد بن عثمان الكبير في الغرب الجزائري بـ"خنق النطاح" سنة (١٢٠٧-١٢٠٨هـ/١٧٩٣م) التي تعرف في وقتنا الحاضر بـ "جامع الباي". وتعتبر كذلك من أبرز المدارس العلمية وقتها، حيث كانت تضم أساتذة على قدر كبير من الكفاءة،[٤] ولذلك لا غرابة أن تغصّ بطلبة العلم والمعرفة.

وقد كان بناء هذه المدرسة نابعًا من حب الباي محمد بن عثمان للعلم واعتنائه بالعلماء؛ فقد عُرف عنه تشييده المستمر للمدارس، التي كانت مقصد طلبة العلم من كل حدب وصوب، حيث هيأ لهم المؤمن، والوسائل التي تساعدهم على طلب العلم. وقد أورد صاحب طلوع سعد السعود نصًا يصب في المصب نفسه، مما جاء فيه: "وكان يحب الطلبة، ولذلك بنا لهم المدرستين: الأولى بالمعسكر، والثانية بوهران"،[٥] وفي رواية أخرى: "وبنا المدرسة الجليلة العظيمة بخنق النطاح التي بها ضريحه وتعرف للآن بالمدرسة."[٦]

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

كما كان يعظّم العلماء، فشيّد لهم المساجد، ورتّب لهم المرتبات زيادة على المنح والهدايا، التي يفاجئهم بها بمناسبة الأعياد والأفراح. ويكفي كدليل قاطع على ذلك، ما ألّفه الحافظ أبو راس الناصر المعسكري في أخلاقه المرضية وسيرته المحمودة. حيث ألّف كتاب "عجائب الأسفار"،[٧] وكذا ابن سحنون الذي ألف كتاب "الثغر الجماني"، ومصطفى بن زرفة الدحاوي الذي ألف "الرحلة القمرية في الأخبار المحمدية".[٨] ومن أهم العلوم التي كانت تدرّس بهذه المدرسة، كتب الفقه مثل حواشي الشيخين الزرقاني، والخرشي، وكتب النحو مثل شرح المكودي ومقامات الحريري، وشرح المحلّي في الأصول، وعدّة علوم أخرى كالتصوف، والفلك، والبيان.[٩] وبعد وفاة الباي محمد بن عثمان الكبير سنة (١٢١٣هـ/١٧٩٨م) في بلدة "صبيح" وهو في طريقه إلى الجزائر، دفن بمدرسته. إلا أنه وفي بداية الاحتلال الفرنسي اتخذ جنوده هذه المدرسة المباركة حمامًا يستحمون فيه، ولهذا السبب طمس قبر الباي محمد بن عثمان.[١٠]

علماء مدرسة الباي

إن المخطوطات المتاحة، وعلى رأسها مخطوطات العربي المشرفي،[١١] سمحت بالترجمة لبعض من درّسوا بمدرسة الباي في وهران من سنة (١٢٤٠هـ/ مايو ١٨٢٤م) إلى سنة (١٢٤٦هـ/١٨٣٠م)، حيث ذكر صاحبها معلومات تاريخية نادرة لا نجد لها ذكرًا في المصادر الأخرى، التي لم تسعفنا بالحديث عن العلماء الذين درّسوا بهذه المدرسة في آخر أيامها.

وعلى الرغم من ذلك، فإن النزر القليل الذي وصلنا من كتابات العربي المشرفي، الذي كان أحد طلبة هذه المدرسة، كان كافيًا لجبر بعض الكسور التي أصابت تاريخ هذه الفترة. ذلك أنه دوّن الأحداث التي عاصرها وشاهدها بأم عينيه، حيث ذكر وعرّف بأبرز العلماء الذين تتلمذ لهم في هذه الفترة، وخاصة منهم علماء مدرسة الباي بوهران، في الفترة التي مكث بها (من سنة١٢٤٠هـ/ ١٨٢٤م إلى سنة١٢٤٥هـ/ ١٨٣٠م) يطلب العلم ويحصّله.[١٢] كما أن مراسلات المهدي البوعبدلي مع أبي القاسم سعد الله التي نُشرت أخيرًا ضمن كراسات المجلس الإسلامي الأعلى، وبعد اطلاعنا عليها، وجدنا فيها معلومات قيّمة للغاية.

ومن أهم العلماء الذين درّسوا بهذه المدرسة نذكر:

١- الطاهر المشرفي:

هو ابن الشيخ عبد القادر، بن عبد الله، بن محمد المدعو بن دحّ المشرفي المعسكري. أخذ العلم عن والده بمعسكر، ثم انتقل إلى فاس للدراسة. ومن شيوخه بالإجازة: عبد الله بن شقرون والطيب بن كيران. وكان للطاهر بن الشيخ عبد القادر المشرفي، ثبت يرويه العلماء ويتداولونه،[١٣] وهو الثبت الذي أجاز به تلميذه بن عبد الله سقاط. وله عدة مؤلفات منها شرح نظم والده "عقد الجمان الملتقط من قعر قاموس الحقيقة الوسط"، وشرح "النصيحة الزروقية "في التصوف. وصفه عبد الحي الكتاني بقوله: "العلاّمة الجليل قاضي وهران ودفينها على عهد الترك وشارح النصيحة الزروقية".

كما حلاّه العربي المشرفي بالعلامة الماهر،[١٤] وقدَّم لنا ترجمة هامة عنه، لا نجدها في أي مصدر آخر. فلأهميتها ننقلها كاملة من كتابه طرس الأخبار: "كان على منهاج والده وسمته، نقله ملك الأتراك إلى وهران للنّفع به، فكانت العلماء تختلف على مجلسه العلمي. وقد جبره ملك الأتراك على القضاء بعد رفض منه وامتناع، فأحسن السياسة الشرعية، ولا يختلف اثنان في عدله، رتب له إمام الوقت ستين دينار ذهبا شهرية على قراءة التلخيص". وبعد الطاهر المشرفي إمام الراشدية، من أبرز علماء هذه المدرسة، حيث كان مرتبه الشهري على تدريس علم المعاني والبيان ستون دينارًا من الذهب يأخذها على مختصر السعد فقط. ومرتبه على تدريس النحو والتصريف، والفروع الفقهية كبير جدًا.[١٥] توفي بوهران لكننا نجهل تاريخ الوفاة، وترك ولدان هما محمد بن الطاهر ومصطفى بن الطاهر.

٢- محمد بن عبد الله سقاط:

من كبار المحدثين والمسندين في المغرب العربي، زين العابدين المشرفي المعروف بـ "سقاط"، حفيد الشيخ عبد القادر المشرفي، وقد كان السلطان عبد الرحمن بن هشام وحاشيته يحضرون مجالسه العلمية في سرد صحيح البخاري وكثير من العلوم. وصفه الطيب بن المختار في كتابه القول الأعم بـ: "إمام الحديث وعالم الوقت". تعلم على يد شيوخ الناحية الغربية، أمثال الشيخ أبي راس أحمد الناصر المعسكري، ثم رحل إلى المشرق، وأخذ العلم به عن جملة من المشايخ، وأخذ الإجازة عنهم، في العلوم العقلية والنقلية.

وممن أجازه بالمشرق والمغرب نذكر:

- حسين بن مصطفى بن خليل التونسي.
- صالح بن حسين الكواشي التونسي.
- الهادي بن محمد الشريف الحسني.
- شرف الدين مفتاح الدين بن حسام الدين البخاري.
- محمد الشعاب المدني.
- حسن كريت بلد رشيد، الذي أجازه في الطريقة الخلوتية.
- الشيخ محمد السعيدي الملقب بالدرويش القادري، الذي أجازه في الطريقة القادرية.
- البناني المكي المغربي.
- البناني، محمد بن محمد بن محمد العربي.
- محمد بن علي بن منصور الشنواني.
- محمد حسين الميقاتي السكندري المالكي.
- عمر بن عبد الكريم بن عبد الرسول العطار المكي.
- سيدي عمار بن محمد بن منصور القسنطيني.

وكان بن عبد الله سقاط، يحفظ صحيح البخاري، وصحيح مسلم بالإضافة إلى حفظ السير والتواريخ وشيوخ المذاهب،

علمية. عالمية. مُحكمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

وفهرسته تشهد له بذلك. توفي رحمه الله بمكناس، وقيل مات مسمومًا.[١٦] وقد ذكره العربي المشرفي قائلاً: "شيخنا الحافظ، التابع لجادة الحجة شمس الدين، العلاّمة سيدي محمد بن عبد الله سقاط"،[١٧] "كان عالمًا مشاركًا في جميع الفنون".[١٨] وقد كانت مجالسه بمدرسة الباي حافلة في سرد جامع البخاري والصحيح، كما انفرد بتدريس التفسير في المدرسة ذاتها لم يشاركه فيه أحد. وتفيد العبارات التي أوردها المشرفي على علو كعبه، وغزارة علمه حين يقول: "قرأنا عليه الفقه وعلى غيره ممَنْ عاصره، فلم نجد له بديلاً في التحقيق، وقرأنا عليه علم العروض، فلم نجد فيها عند غيره تحقيقه وتدقيقه، وما قرأناه عليه إلا مرة واحدة قراءة تحقيق، وأشرفنا على معانيه ودوائر أبحره".[١٩]

وقد ذكر العربي المشرفي في موضع آخر، نصًا هو من الأهمية بمكان، يتحدث فيه عن مكارم هذا الشيخ وعلمه، جاء فيه: "وكان رضي الله عنه شيخ الإسلام بوهران وأم العساكر، وكان يحضر مجلس تدريسه للفقه والنحو والتفسير خلق كثير، وجم غفير، ولم يشاركه في تدريس التفسير أحد، وكان يقتصر على مطالعة البيضاوي... وكان علماء الآفاق يحضرون مجلس درسه في التفسير إذا جاؤوا عند الباي للعيد بوهران، ويلقون عليه المسائل الغامضة، ويجيبهم عنها جوابًا بالغًا مسكتًا".[٢٠]

٣- أحمد بن التهامي:

من علماء أولاد سيدي أحمد بن علي بمعسكر، من كبار علمائها الذين إليهم المفزع في المشكلات، وحل العويصة والمعضلات، وشيخ الجماعة بها على حد تعبير صاحب القول الأعم. وهو والد مصطفى بن التهامي، الذي تزوج عمة الأمير عبد القادر. كان عالمًا فقيهًا، وذا جاه عريض، عيّنه الأمير عبد القادر رئيسًا لمجلسه الشوري العالي الأميري. وحسب رواية ابنه مصطفى، فإنه توفي في مصر خلال ذهابه للحج، خلال ثورة الأمير.[٢١]

حلاّه تلميذه العربي المشرفي بما يلي: "شيخ شيوخنا، العلاّمة الخيّر، وقمر الدين النيّر، الذي إليه المفزع في المشكلات، وحل العويصة والمعضلات، ذو الفضل السامي، السيد أحمد بن التهامي"،[٢٢] وفي موضع آخر بقوله: "شيخ شيوخنا العلامة ذي الفضل السامي، سيدي أحمد بن التهامي الغريسي".[٢٣] ويستفاد مما أورده المشرفي كذلك، أن أحمد بن التهامي كان من علماء الفقه في مدرسة الباي بوهران، حيث كان مجلسه غاصًا بطلبة العلم، حيث كان يصل إلى خمسمائة طالب أحيانًا، والألف طالب أحيانًا أخرى، حيث كان يملي من حفظه مسودة الخرشي من غير أن ينقص منها حرفًا أو يزيده.[٢٤] وتفيد مراسلات الدكتور أبو القاسم سعد الله، والشيخ البوعبدلي، حسب رواية هذا الأخير، أن أحمد بن التهامي كان مفتيًا في وهران في عهد العثمانيين؛ وبها توفي ودفن.[٢٥]

٤- خليل الفرَندي:

وقد كان من ضمن الثلاثة الذين يشرفون على تدريس مختصر خليل[٢٦] في مدرسة الباي، وصفه المشرفي قائلاً: "كان يعرف متشابهة - يقصد مختصر خليل- كما يعرف متشابه القرآن".[٢٧]

٥- عبدالقادر المستغانمي:

كان يشرف على تدريس علم الكلام، ومختصر الأخضري في المنطق، ومختصر السنوسي، تشهد بذلك عبارات المشرفي إذ يقول: "وقرأت على الثاني – يقصد عبد القادر المستغانمي- علم الكلام، ومختصر الأخضري في المنطق، ومختصر السنوسي".[٢٨]

٦- محمد بن يوسف العامري التراري:

وكان يشرف على تدريس المختصر (مختصر خليل).[٢٩]

٧- محمد بن سعد التلمساني:

هو العلامة محمد بن سعد بن الحاج الحسني البيدري التلمساني، من أعلام الفقه والحديث، والبلاغة في الجزائر، قبل الاحتلال. كان علامة، ماهرًا، محققًا. ولي القضاء في تلمسان على عهد الأتراك، وهاجر إلى فاس في مستهل شوال سنة (١٢٧٥هـ/ ١٨٣٦م) بعد استيلاء الفرنسيين على الجزائر. توفي في فاس في ١٧ محرم ١٢٦٤هـ/ ٢٥ ديسمبر ١٨٤٧م. من آثاره: شرح على الهمزية، وشرح على الرسالة.[٣٠] وكان من المتصدرين في مدرسة الباي[٣١] لشرح البخاري سنة (١٢٤٥هـ/ ١٨٢٩– ١٨٣٠م)، وتفسير البيضاوي،[٣٢] وحاشية الخفاجي.[٣٣]

٨- محمد بن صابر المستغانمي:

وصفه العربي المشرفي بـ"العلاّمة الداهية، من تفتح له عن تدريس العلوم الشاهية، وصاغ في التصوير والسبك والصوغ الغساني جابر".[٣٤]

٩- محمد بن عامر البرجي:

العلامة الزاهد، الورع العابد، نديم الدفاتر، لا يُرى إلا ساهرًا وسامرًا. وقد كان يدرّس مختصر خليل.[٣٥]

١٠- السيد محمد بن حسن:

مستشار الباي محمد بن عثمان. من بيت علم وصيانة، ونزاهة وأمانة، وبركة وخير، وقرى ومير، ومنصب كريم، وحسب حميم. كان رحمه الله ذا يد في النحو واللغة وسائر العلوم، ولا سيما الأدب فينسلّ إليه من كل حدب. وليس بين أيدينا ما يؤكّد على أن هذا الشيخ كان مدرسًا في مدرسة الباي، سوى الإشارة الواردة بين طي كتاب "فتح الإله" للشيخ أبي راس، خلال زيارته لوهران، مع أخريات القرن الثامن عشر، حيث جاء في فتح الإله ما يلي: "وكنت مرّة قصدت وهران، وافدًا على حضرة من ناب في مدحه لسان الحال، عن لسان المقال... السيد محمد باي بن عثمان، أخلص الله جهاده... فقال لي لسان الدولة، وفارس الجولة، الذي عظم الله مكانه ورفعته... العالم الفقيه، الحبر النزيه، الأمثل الأفضل، الأحفل الأكمل، الأنبل، الأقبل، الأجمل، ذو البلاغة والجزالة واللسن، السيد محمد بن حسن...".[٣٦]

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

خاتمة

يتضح من العرض السابق أن مدرسة الباي في وهران، قد لعبت دورًا رياديًا لا يستهان به ما يربو عن الثلاثين عامًا، واحتضنت بين جدرانها عددًا من العلماء الأفذاذ، الذين ذاع صيتهم في الأقطار وانتشر، وما جولات وصولات الشيخ سقاط المشرفي في المشرق والمغرب، التي أجاز فيها وأُجيز، لدليل كاف على ذلك.

الهوامش:

(١) اصطُلح على تسميتها في المدرسة المحمدية "نسبة إلى بانيها أبي الفتوحات المنصور بالله سيدي محمد بن عثمان، فاتح وهران". يُنظر: أبو راس الناصر، **عجائب الأسفار ولطائف الأخبار**، مخطوط في الخزانة الوطنية، رقم: ١٦٣٢، ص: ١٧٨.

(٢) ابن سحنون الراشدي، **الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني**، قسنطينة: مطبعة البعث، ١٩٧٣م، ص: ١٢٧.

(٣) في سنة ١٢٠٧هـ/ ١٧٩٢م، بنا الباي قلعة البرج الأحمر، وبنى مدرسة بـ"خنق النطاح" التي بها ضريحه. يُنظر: أحمد ابن هطال التلمساني، **رحلة محمد الكبير باي الغرب الجزائري إلى الجنوب الصحراوي الجزائري**، تحقيق وتقديم: محمد بن عبد الكريم، القاهرة: عالم الكتب، ١٩٦٩، ص: ٢٩.

(٤) حمدادو بن عمر، **أبو راس الناصر المعسكري وكتاباته التاريخية**، مذكرة ماجستير، جامعة وهران، ٢٠٠٣، ص: ٤٢.

(٥) ابن هطال، المصدر السابق، ص: ٢٥.

(٦) المازاري، **طلوع سعد السعود**، ج١، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٩٩٠، ص: ٢٩٤.

(٧) الكتاب حققه الدكتور محمد بوركبة في إطار دكتوراه في التاريخ والحضارة الإسلامية بإشراف الأستاذ الدكتور بن نعمية عبد المجيد، ونوقشت بجامعة وهران سنة ٢٠٠٨.

(٨) ابن هطال، المصدر السابق، ص: ٢٥- ٢٦.

(٩) حمدادو، المرجع السابق، ص: ٤٣.

(١٠) ابن هطال، المصدر السابق، ص: ٢٤.

(١١) **العربي المشرفي:** هو العربي بن عبد القادر بن علي المشرفي المعسكري الجزائري، المكنى بأبي حامد، من أبرز علماء الجزائر في القرن التاسع عشر. اشتهر بتآليفه الكثيرة، التي اشتملت على عدة فنون، من تاريخ وأدب وسير وغيرها. توفي سنة ١٨٩٥ بفاس بعد أن عمّر حوالي تسعين سنة. ولمزيد من التفاصيل أكثر عن هذه الشخصية راجع كتابنا: **العربي بن علي بن عبد القادر المشرفي ت١٨٩٥ حياته وآثاره**، الجزائر: المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، ط١، ٢٠١١.

(١٢) العربي المشرفي، **ديوان نظم في من أيقظ للدين جفن الوسن مولانا الحسن**، مخطوط بالخزانة الملكية في الرباط تحت رقم: ٥٣١٠، و١١١ظ.

(١٣) الكتاني، **فهرس الفهارس**، ج٢، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ب. ط، ص: ٤٦٦.

(١٤) العربي المشرفي، **ذخيرة الأواخر والأول فيما يتضمن أخبار الدول**، مخطوط في المكتبة الوطنية المغربية تحت رقم: ٢٩٥٦، ص: ٨ – ٩.

(١٥) العربي المشرفي، **الرد على أبي راس الناصر المعسكري**، مخطوط في مكتبة بلقرد بوكعبر، ولاية معسكر، ص: ٤.

(١٦) الكتاني، المصدر السابق، ج٢، ص: ٥٧٨.

(١٧) العربي المشرفي، الذخيرة، ص: ٨ – ٩.

(١٨) العربي المشرفي، **ياقوتة النسب الوهاجة وفي ضمنها التعريف بسيدي محمد بن علي مولى مجاجة**، مخطوط بخزانة البشير المحمودي، البرج، معسكر، ص: ٢٠.

(١٩) العربي المشرفي، الرد على أبي راس، ص: ١٠.

(٢٠) المصدر نفسه، ص: ١١.

(٢١) يحي بوعزيز، **أعلام الفكر والثقافة في بلاد الجزائر المحروسة**، ج٢، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٩٩٥، ص: ٢٤٧.

(٢٢) العربي المشرفي، **الذخيرة**، ص: ٨- ٩.

(٢٣) العربي المشرفي، ديوان نظم، و١١١.

(٢٤) العربي المشرفي، **ياقوتة النسب**، ص: ٢٥. ديوان نظم، و١١١.

(٢٥) أبو القاسم سعد الله، **مراسلات الشيخ المهدي البوعبدلي (١٩٠٧-١٩٩٢م)**، كراسات المجلس، الجزائر: منشورات المجلس الإسلامي الأعلى، ع٥، ٢٠٠٧، ص: ١٣٨

(٢٦) العربي المشرفي، **الذخيرة**، ص: ٩.

(٢٧) العربي المشرفي، **ديوان نظم**، و١١١و.

(٢٨) المصدر نفسه، و١١١و.

(٢٩) المصدر نفسه، و١١١و.

(٣٠) ابن سودة، **إتحاف المطالع بوفيات القرنين الثالث والرابع**، ج٧، ضمن موسوعة أعلام المغرب، تنسيق محمد حجي، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٩٩٦م، ج٧، ص: ٢٥٨١.

(٣١) العربي المشرفي، **ديوان نظم**، و١١١ظ.

(٣٢) **البيضاوي:** هو عبد الله عمر بن محمد بن علي المعروف بالبيضاوي، المتوفي سنة ٦٨٥هـ أو ٦٩١هـ من تآليفه: مختصر الكشاف، والمنهاج في الأصول وشرحه، وشرح المطالع في المنطق. يُنظر: السيوطي، جلال الدين، **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**، تحقيق أبو الفضل محمد إبراهيم، مطبعة عيسى البابلي الحلبي وشركاؤه، ط١، ١٩٦٤م، ج٢، ص: ٥١.

(٣٣) **الخفاجي:** شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر أحد شيوخ الحنفية، ولد سنة (٩٧٩هـ/ ١٥٧١م)، سمي بالخفاجي نسبة إلى قبيلة خفاجة. كان لغويًا وأديبًا مشاركًا، توفي في مصر سنة (١٠٦٩هـ/١٦٥٩م). يُنظر: عمر رضا كحالة، **معجم المؤلفين**، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٩٣م، ب. ط، ج١، ص: ٢٣٨.

(٣٤) العربي المشرفي، **الذخيرة**، ص:٨.

(٣٥) العربي المشرفي، **ديوان نظم**، و١١١ظ.

(٣٦) أبو راس الناصري، **فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته**، تقديم وتحقيق: محمد عبد الكريم، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، ١٩٩٠، ص: ١٠٠.

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

تأثير العوامل الثقافية في الكتابة التاريخية الجزائرية (١٩٦٢ – ١٩٩٦)

بشير بلاح
باحث دكتوراه في التاريخ المعاصر
جامعة الجزائر (٢)
الجمهورية الجزائرية

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:
بشير بلاح، تأثير العوامل الثقافية في الكتابة التاريخية الجزائرية (١٩٦٢ – ١٩٩٦).- دورية كان التاريخية.- العدد الثالث والعشرون؛ مارس ٢٠١٤. ص ١١٠ – ١١٧.

www.kanhistorique.org
كان التاريخية: رقمية الموطن .. عربية الهوية .. عالمية الأداء

مُلَخّصْ

لمّا كان التاريخ علمًا يتوخّى معرفة الماضي، وتحليلها، لاستنباط قوانين وقواعد تنير إمكانات السلوك البشري الحاضر والقادم، وأن المجتمعات لا تحيا فقط في الحاضر بل تهتم أيضًا بالماضي لتحديد منطلقاتها وضبط مساراتها المستقبلية في ضوء ذلك؛ ونظرًا لاطّراد الاختراقات الحداثية العميقة للساحة الثقافية الجزائرية وما ترتب عنها من انقسامات -على أساس اللغة خاصةً باعتبارها وعاء المفاهيم ومحدِّد التصورات الفلسفية والعلمية- في ظل بطء استجابة الفكر الإسلامي لتحديات ومتطلبات الحياة العصرية المتجددة بأصالة وفعالية كما تؤكده هذه المديونية الحضارية؛ فقد تباينت تصورات الجزائريين لتاريخهم، ومنه غدا منهج ومضمون الكتابة التاريخية محل اختلاف ملموس بين المؤرخين الجزائريين. وقد ركزت الدراسة على تأثير عاملين ثقافيين في أعمال هؤلاء المؤرخين؛ أولاً: تأثير الفضاء الثقافي واللغوي، الذي يستمد منه المؤرخ تصوره للعالم، فاختلفت منطلقات وآفاق المؤرخين الجزائريين وهم يتناولون قضايا تاريخ بلادهم (وغيرها) على أساسه؛ فرجّح بعضهم الرموز العربية الإسلامية حرصًا على الوحدة والأصالة الثقافية، بينما مال آخرون إلى القضايا المعاصرة والجدلية، تحرّيًا لإضعاف جاذبية النماذج التقليدية وتأكيد نجاعة البدائل العصرية والعلمانية في تجاوز الانسداد وتحقيق التقدم. وثانيًا: الإيديولوجيا، فكثيرًا ما شكلت عائقًا إبستيمولوجيًّا منع كثيرًا من المؤرخين من تحقيق قراءة موضوعية لمشكلات واحتياجات الجزائر وحقائق تاريخها. فبينما يمجّد العروبيون والأصاليون -مثلاً- حركة الإصلاح العُلَمائية، ويعيدون مشاكل الجزائر إلى السياسة الثقافية الاستعمارية السابقة وهيمنة الفرنسية بعد الاستقلال، دون التفات إلى العوامل الذاتية التي أطلق عليها مالك بن نبي "القابلية للاستعمار"؛ يثمّن اليساريون والعلمانيون ودعاة الأمازيغية دور الحركات السياسية والثورية، ويعتقدون أن تمكُّن الفرْنسة هو وسيلة التنوير ومناط خلاص المجتمع والدولة.

مُقَدِّمَة

تنوعت العوامل المؤثرة في كتابة التاريخ في الجزائر، فالكتابة من أهم وسائل التواصل الإنساني التي يتم بها الوقوف على أفكار الآخرين والتعبير عما في النفوس، أي مرآة للروح، حتى ذهب بعضهم إلى أن "الأسلوب هو الإنسان"، والكتابة التاريخية لا تشذّ عن ذلك إذ تعبّر عن عقائد أصحابها وتسقطها على أفق ثقافي واجتماعي يتطلّعون إليه، ومستقبل يفكرون فيه ويخططون له. فما من مؤرخ إلا ويضع بعضًا من "ذاته" أو "روحه" أو "نفسه" أو مشاغله (أي ثقافته) في مجال اهتمامه الذي ينهمك في التأريخ له، كما أنه يعكس الأفكار والمشاغل القائمة حين كتب وحيث وضع مؤلّفه التاريخي (ممّا لا ينفكّ عن الثقافة)، وهو ما عبّر عنه كروتشه (B. Croce)[1] بقوله "كل تاريخ حقيقي هو تاريخ معاصر، يعني تاريخ الحاضر."[2] وقد ذهب "مارك بلوخ"(M. Bloch)[3] في كتابه

"دفاع عن التاريخ، أو مهنة المؤرخ" إلى أننا "شعرنا أم لم نشعر؛ فإن من تجاربنا اليومية نستعير دائمًا تحليلنا لمختلف العناصر والمواد التي نستخدمها لإعادة بناء الماضي"؛[٤] ما يجعل الكتابة التاريخية -حسب بعض المؤرخين- رهينةَ المؤرخ الذي يضع تاريخًا وليس رهينة الوثيقة، فتكون كتابة التاريخ خطابًا على واقعٍ، وكتابةً على وجود حقيقي، وقراءة معيّنة لتاريخ ما!.[٥] يضاف إلى ذلك أن كل علاقة وثيقة بالكتابة التاريخية هي - كما عبّر "كييركغارد"[٦] (Kierkegaard)- محاولة خلود، تنطوي بالضرورة على مكنونات أصحابها. وفيما يلي تأثير عاملين منها:

أولاً: تأثير الفضاء الثقافي واللغوي

تعني الثقافة في أوسع معانيها صميمَ الإنسان نفسه؛ أي أنها داخلة في كل ما يتصل بالإنسان فكريًّا وأخلاقيًّا وبدنيًا ونفسيًا، بما يجعله مختلفًا عما سواه من الكائنات. أما بالمعنى المحدود، فتدلّ على ذلك الجانب من الحضارة الذي يجعل كل فريق من الناس أو شعبًا ما يملك تراثًا خاصًّا به، قد يأخذ صورة أسلوب حياة أو مجموعة من المعتقدات والمفاهيم؛ أي كل ما يميّز شعبًا عن آخر.[٧] فالثقافة على هذا الأساس ناظمُ وجود الأفراد والجماعات، وأصل ومرجع كافة التجاذبات والتدافعات التي تعتري علاقات الأمم والمجتمعات في الداخل ومع الخارج، لأنها هي التي تحدّد خصوصياتها، وتصوغ شخصيتها[٨] لذلك تتباين مساعي وأعمال الأفراد والجماعات تبعًا لتصوراتها وقناعاتها عن الحياة والمجتمع. ويترتّب عنه في مجال التاريخ ما هو معروف من تمجيد أو ازدراء أشخاص أو مفاهيم أو أحداث معيّنة، وسعيٍ لإسقاط خصائص بعضها دون بعض على صورة المستقبل التي يريدها هذا الطرف أو ذاك. خاصةً وأن المؤرخ نفسه - كما يرى كولنغوود[٩] (Collingwood)- جزءٌ من الظاهرة التي يدرسها، وأن له مكانه الخاص منها، ويمكنه أن يراها فقط من وجهة نظر يتبنّاها في هذه اللحظة.[١٠]

إن كتابة التاريخ عمل فكري، وإنتاج ثقافي يحاول اكتشاف جذور فكرية في مجال ثقافي معيّن، من أجل تحقيق أبعاد هوية مرغوبة لمجتمع أو أمة ما، ويجعل التاريخ بمثابة "الحاسة السادسة للإنسان الحديث" على حدّ تعبير "نيتشه" (Nietzsche)، حيث يبحث كل جيل فيه عن العناصر التي تفيد في استشراف آفاق المستقبل، وما ذلك إلا إسقاطٌ لآماله وتطلعاته على التاريخ؛ لاستخراج وشرْعَنة ما يعين على رسم توجّهات ومعالم حياته المستقبلية التي يريدها في ضوء قيمه ومبادئه، ما يطابق مقولة "كروتشي" (Croce) الشهيرة (المستشهَد بها أعلاه): "التاريخ بأجمعه هو تاريخ معاصر"، التي تعني أن التاريخ يتألّف أساسًا من رؤية الماضي من خلال عيون الحاضر وعلى ضوء مشاكله.[١١] حتى قال بعضهم أن التاريخ مسرحية تؤلفها الأجيال الماضية وتمثلها الأجيال الحالية. وهكذا؛ تنوعت مواضيع ومقاربات البحث التاريخي، التي قُصد بها استنباطُ قواعدَ ونظم تنير إمكانات سلوك المجتمع والدولة الجزائريّيْن الحاضر والقادم، من خلال صُوَرِ ثقافةِ الجزائر المستقبلية المتعدّدة، التي حاولت طوائف المؤرخين والكتاب الجزائريين رسمها أو الإيحاء بها، تبعًا لخلفياتهم وأهدافهم الثقافية والاجتماعية والسياسية.

من الطبيعي إذن أن يحبّذ الدائرون في فلك الثقافة العربية الإسلامية المواضيع المنطوية على عرض وتوضيح الجذور الثقافية المشتركة للمجتمع الجزائري - رغم حضور مواضيع أخرى[١٢]-، وبيان أطّرادِها، ومدى تمسّك أسلاف الجزائريين بها، باعتبارها مناطَ وحدتهم ومعْقَد نصرهم وارتقائهم، وتأكيد ارتباط الجزائر بالعالمين العربي والإسلامي في كافة المجالات؛ كقضايا تاريخ وحضارة الجزائر والعالم الإسلامي في العصر الوسيط (باعتبارها مُبلورةً لشخصية الجزائر الثقافية والحضارية)، وتاريخ الجزائر الحديث (لملحميّته العسكرية في معترك الصراع بين الإسلام والمسيحية، أو بين الغرب والدولة العثمانية، ولبداية تبلور شخصيتها السياسية والاجتماعية في نظر من يرى ذلك)، وانتفاضات القرن التاسع عشر (التي عكست تمسّك الجزائريين بالهوية العربية الإسلامية)، وتاريخ الحركة الإصلاحية (لدورها الرئيس في إعادة بناء الشخصية الجزائرية على أسسها العريقة)، وكذلك ثورة أول نوفمبر ١٩٥٤ التي مثلت القطيعة التامة مع النظام الاستعماري.

من الأمثلة على ذلك: جهود أبي القاسم سعد الله في بعث رموز وذخائر التراث الجزائري العربي الإسلامي، خاصةً في "تاريخ الجزائر الثقافي" (١٩٨١-٢٠٠٧)، وفي أعماله عن أمثال "محمد العيد آل خليفة رائد الشعر الجزائري في العصر الحديث" (١٩٦١)، و"القاضي الأديب: الشاذلي القسنطيني" (١٩٧٤)، و"رائد التجديد الإسلامي: ابن العنابي" (١٩٧٧)، و"الطبيب الرحالة: ابن حمادوش الجزائري" (١٩٨٢)، و"شيخ الإسلام عبد الكريم الفكّون" (١٩٨٦)، وتحقيقاته لكتابات أعلام الجزائر كـ"رحلة ابن حمادوش" (١٩٨٣)، و"منشور الهداية" للفكون، و"تاريخ العدواني"، وغيرها. وعن تأكيده على الوحدة الثقافية للشعب الجزائري أمثلة كثيرة، منها كتابته عن كتاب "الحوض" لمحمد بن علي بن إبراهيم السوسي في الفقه المكتوب بالأمازيغية بحروف عربية، وعن "الأُفعول" في الحميرية والبربرية.[١٣]

وكي لا نقتصر على هذا المثال، نذكر عيّنات أخرى لا تقلّ أهمية تغطي مراحل مختلفة من تاريخ الجزائر وتؤكد هذه الوجهة، كمساهمات وتحقيقات أمثال أحمد توفيق المدني، وموسى لقبال، وعبد الحميد حاجيات، وإسماعيل العربي، ومحمد بن عميرة، وأبو الصفصاف، وعمار هلال، ويحي بوعزيز بالعربية، وحتى بعض الأطروحات باللغة الفرنسية كأطروحة عمار هلال "المثقفون المعرَّبون الجزائريون بين الهويّة، والحداثة، والوطنية، والاستقلال (١٩١٨-١٩٦٢)"[١٤] أطروحة دكتوراه من جامعة نانسي، ١٩٩٠؛ وأطروحة عبد الله بوشان "دور الإسلام في الثورة الجزائرية"[١٥] من جامعة مونبولي؛ وأطروحة أحمد نذير "الحركة الإصلاحية

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية

ISSN: 2090 – 0449

الجزائرية ودورها في تشكّل الإيديولوجيا الوطنية"[١٦] أطروحة الدرجة الثالثة، باريس، ١٩٦٨. وكذلك بعض الأدباء والتربويين وعلماء الاجتماع الذين أرّخوا للصحافة والتربية والتعليم والأصالة الثقافية، كتركي رابح الذي تمحور إنتاجه حول التعليم الحرّ في الربع الثاني من القرن العشرين؛ ومحمد ناصر الذي انصبّت جهوده على الصحافة العربية، والحركة الإصلاحية في الجنوب الجزائري في النصف الأول من القرن العشرين، وعبد الله شريط وعمار طالبي في تأصيل ونقد الثقافة الجزائرية، وغيرهم. دون إهمال مساهمات العصاميين في التحقيق والتأليف حول تاريخ الجزائر الثقافي، أمثال عبد الرحمان الجيلالي خاصة في الجزأين الثالث والرابع من تاريخ الجزائر العام، اللذين عُني فيهما بالثقافة الجزائرية الحديثة وأعلامها؛ والمهدي البوعبدلّي، ومحمد علي دبوز، ومحمد بن عبد الكريم، ونور الدين عبد القادر، ومولود قاسم نايت بلقاسم، ورابح بونار، ومحمد الطاهر فُضَلاء، وغيرهم.

وأما المتعلمون بالفرنسية من خريجي المدارس والمعاهد والكليات الفرنسية، فقد عكسوا المعادلة، بتفضيلهم للقضايا المتصلة بالحداثة[١٧] والوطنية والتعدّدية الثقافية (كتاريخ الاتجاه الاستقلالي، والمسألة الأمازيغية، ودور النخبة العصرية الجزائرية، والنضال النقابي، وتحرّر المرأة، وتاريخ الفن، والأدب الشعبي، والمسائل الاقتصادية، وكفاح اليسار ودوره في الحركة الوطنية والثورة التحريرية)، التي تتيح مقاربات عصرية ونقدية، تستلهم المناهج والمفاهيم الغربية، وتضيقُ فيها مساحات التراث والإحالة على التقاليد. ولنذكر بعض الأمثلة الدالة؛ كوردان عمر في "المسألة البربرية في الحركة الوطنية الجزائرية"،[١٨] وشاكر سالم في "بربر اليوم"[١٩] المتّسم حسب "ميني" بشيء مقبول من الإيديولوجيا"،[٢٠] وعاشور كريستين في "أبجدية الصيرورة: الإيديولوجية الاستعمارية واللغة الفرنسية في الجزائر"،[٢١] وبن آشهو عبد اللطيف في "تكوّن التخلف في الجزائر"،[٢٢] وتلميذة "إيفون توران" (Yvonne Turin): يحياوي فضيلة في "الرواية والمجتمع الكولونيالي في جزائر ما بين الحربين"،[٢٣] وما كتبه جبار عبد الحميد عن "القضية الوطنية والاستعمارية والحركة الشيوعية، حالة الجزائر: الحزب الشيوعي والحركة الوطنية ١٩٣٥-١٩٥٦"،[٢٤] وحضري محي الدين في "الاتحاد السوفياتي والمغرب، من ثورة أكتوبر إلى استقلال الجزائر، ١٩٧١-١٩٦٢"[٢٥] تقديم محفوظ قداش، وفارس محمد في "عيسات ايدير، وثائق وشهادات حول الحركة النقابية الجزائرية"[٢٦]، وغيرها.

مما ينجم عن هذه الفروق: تركيز الفريق الأول على وجوه الثقافة العربية الإسلامية باعتبارهم أفضل ممثلي الثقافة والمجتمع الجزائريين، كما يجسّده مثلاً "تاريخ الجزائر الثقافي" لأبي القاسم سعد الله، خصوصًا الأجزاء المتعلقة بالفترة ١٨٣٠-١٩٥٤؛ يعتبر الفريق الآخر أن المثقفين بالفرنسية هم مَنْ يستحقّ تمثيلهما، كما قد يستدلّ على الأقل من "المثقفين الجزائريين" لنوارة حسين، التي حصرت كبار المثقفين الجزائريين في تسعة (الأمير خالد، وفرحات عباس، وفرانز فانون، ومولود فرعون، ومولود معمري، وألبار كامو، وكاتب ياسين، ومالك حداد، وجون سيناك)؛[٢٧] واحد منهم فقط مزدوج اللغة هو الأمير خالد الذي كتب مع ذلك أشهر أعماله بالفرنسية، والباقون أحاديو اللغة. منهم ثلاثة أجانب (مارتينيكي، وفرنسيان)، وثلاثة مناضلين يساريين ملتزمين على الأقل، وعدّة اندماجيين،[٢٨] وداعيان إلى الثقافة الشعبية. بينما أهملت على الأقل مالكًا بن نبي (أشهر من كتب عن الثقافة من المسلمين)، وعبد الله شريط. وربما كان المؤرخ الفرنسي "جون ديجو" أدقّ حينما أدرج أحدهم (ألبار كامو Albert Camus) تحت فصل "أدب الفرنسيين في الجزائر"، لا في فصل "أدب الجزائريين"، واعتبر آخر جون سيناك[٢٩] (Jean Sénac) ملهمًا لأدباء جزائر الستينيات والسبعينيات الشباب بالفرنسية لا واحدًا منهم، رغم ترؤسه اتحاد الكتاب الجزائريين في الستينيات بعدما نسبه إلى الولَه بشيغيفارا (Che Guevara)، والإسراف في تعاطي الكحول.[٣٠] والملاحظ أنّ محفوظ قداش قدّم للكتاب ولم ينبّه إلى ذلك. وهذه صورة من تأثير الميول الثقافية على الكتاب والمؤرخين فيما يقدّرون وينتقون أو يهملون ويحذفون.

كما تطّرد في السياق جهودُ هذا الفريق الثاني في التعريف بالمصادر والمراجع المتصلة بتاريخ الجزائر باللغة الفرنسية بما يمثله من خدمة للباحثين وانفتاح على تلك المصادر، ومساهمة في تقريب وجهات نظر الطرف الفرنسي ومواقفه من القراء والمثقفين الجزائريين وفي تجاوز أو تخفيف حدّة الخلافات التاريخية بين الجانبين. ومن الأمثلة عليه: "البيبليوغرافيا التركيبية للثورة الجزائرية مشروحة ومعلّق عليها" لجيلبار ميني (٦٥ صفحة) بالعدد ١٥/١٤ (خريف وشتاء ٢٠٠١) من مجلة نقد؛[٣١] وكتاب "المعارف التاريخية في المغرب"[٣٢] الصادر عام ٢٠٠٦ عن مجلة "إنسانيات"، المجلة الجزائرية للأنثروبولوجيا والعلوم الاجتماعية؛ والعددان ١٩-٢٠ (جانفي-جوان ٢٠٠٣) من نفس المجلة حول "الاسطوريوغرافيا المغاربية: المجالات والتطبيقات"؛[٣٣] وكذلك عدداها ٢٥-٢٦ (جويلية- ديسمبر ٢٠٠٤) حول موضوع "الجزائر قبل وبعد ١٩٥٤".[٣٤]

أما اللغة، فيعنينا هنا تأثيرها الفكري والروحي على الكتابة التاريخية. فهي أهم وسائل التواصل بين الناس؛ أي المرآة التي تعكس الفكر الجماعي. وبما أنها رائد وأساس الحياة النفسية الداخلية على صعيد الخيال كما على صعيد النشاط الفكري والروحي؛ فهي كذلك مكوّنٌ لهذا الفكر. لذلك ذهب "إدوار سابير"[٣٥] (E. Sabir) إلى أن اللغة التي تنتمي إلى مجتمع بشري معيّن، والتي يتكلّمها أبناؤه ويفكّرون بواسطتها هي التي تنظّم تجربة هذا المجتمع، وهي التي تصوغ بالتالي "عالَمه" و"واقعه الحقيقي". فكل لغة تنطوي على رؤية خاصة للعالم. بينما اعتبر "بنجامن لي وورف"[٣٦] (B. Lee Whorf) اللغةَ أساس تشكُّل الأفكار ودليلاً

ISSN: 2090 – 0449 | علمية. عالمية. مُحكمة. ربع سنوية

للنشاط الفكري للفرد، فهي ترسم له الإطارَ الذي تنخرط فيه تحاليلُه للواقع وانطباعاتُه وجميع ما يسجله دماغه؛ لأن العالم ليس سوى فيْضٍ من الصور المختلفة في أشكالها وألوانها يلتقطها دماغ الإنسان وينظّمها بفضل بنية النظام اللّغوي الذي يتكلّمه.[٣٧] وهو نفس ما ذهب إليه "غادامير"[٣٨] (Gadamer) حينما أرجع لغة الأوروبيين التصورية الفلسفية ومشتقاتها، ولغتهم التصورية للعلم الحديث إلى منظور خاص من المنظورات المطبّقة على العالم، ذي أصل إغريقي، مؤدّاهُ التفكيرُ بطريقة تبني العلاقة بعالم الشعوب الهندوجرمانية قبل أي تراث مكتوب آخر.[٣٩]

وذلك ما يؤدي في مجال كتابة التاريخ إلى اعتماد أجهزة مفهومية وقواعد فلسفية ومعايير قيمية مستلهَمَة من هذا الفضاء الثقافي (الحاضِن للمؤرخ) أو ذاك؛ فتبايُن مضامين ومنهجيات كتابة التاريخ؛ خاصة وأن ذات المؤرخ لا تغيب، وأن العلم والمعرفة ليسا نظرًا خالصًا، وإنما سلطة وسلطان في يد من يملكهما.[٤٠] ويمكننا أن نضرب لذلك أمثلة مختصرة من كثرة أسماء الأرُزّ حسب حالته ونوعه في لغات جنوب آسيا، وتعدّد الأسماء الدالّة على الثلج في أطواره المختلفة عند الإسكيمو، وأسماء الناقة (٢٥٥ اسمًا) والماء (١٧٠ اسمًا) والبئر (٨٨ اسمًا) والسيف والأسد والفرس.. في اللغة العربية. كذلك ما يستحضره المرء من صورٍ ثقافية في أمثالٍ تُضرب لنفس المواقف الإنسانية على تبايُن المضامين التراثية أو التاريخية. ولنأخذ مثالاً ما يُضرب مثلاً للاستغراق وعدم جدوى المراجعة أو لاتخاذ قرار خطير وتحمّل عواقبه في العربية: "سبَقَ السيفُ العَذَل" الذي قاله ضبّة بن أدّ حينما لامَهُ الناسُ على قتله قاتلَ ابنه في الحرم، وما يقابله في الفرنسية "لقد عبرنا الروبيكون" « ont a franchit le Rubicon » الذي قاله يوليوس قيصر بعدما عبر ذلك النهر الفاصل بين إيطاليا وغاليا دون إذن مجلس الشيوخ، فاندلعت الحرب الأهلية، ففيهما مواضع تأمل عميق.

فضلاً عن تباين معنى المفاهيم من لغة لأخرى، كمفهوم الأمة الذي يتحدّد لدى بعضهم باللغة والأرض، ولدى آخرين بالإدارة أو الدولة، وعند غيرهم بالدين، وغير ذلك. مثال ذلك أن سعد الله يفهم الأمة بالمعنى الإسلامي الواسع، أما المجموعة الوطنية الجزائرية فهي عنده "الشعب الجزائري"، بينما يتضح أثر الثقافة الفرنسية لدى معظم المثقفين بالفرنسية التي تعرّف الأمة فيها بأنها "مجموعة بشرية سياسية متضامنة، مندمجة في دولة إقليمية"،[٤١] كمصطفى لشرف الذي يعتبر الجزائريين "أمة"، كما في كتابه "الجزائر، الأمة والمجتمع"، أو محي الدين جندر في "مدخل إلى تاريخ الجزائر"،[٤٢] وكذلك محفوظ قداش على الأقل في "تاريخ الوطنية الجزائرية ١٩١٩-١٩٥١".[٤٣] وفي ذلك ما لا يخفى من التوجيه والإيحاء بمعاني عقَدِيّة وحضارية ذات تأثير عميق على تصور الدّارسين والصاعدين لطبيعة وموقع ودور المجموعة البشرية الجزائرية في اكتفائيتها الذّاتية، أو تكامليتها الإقليمية (المغاربية) والمِلّيّة (الإسلامية)، وما يترتب عنه من خيارات وتحيّزات وتحالفات. لذلك اشتدّ تأثير لغة التكوين والتأليف (العربية أو الفرنسية أساسًا) على أعمال الكتّاب والمؤرخين الجزائريين من حيث انتقاء المواضيع التي لا بدّ أن تقترب من الفضاء الثقافي للغة البحث، وطريقة المقاربة أو التحليل المقتبسة من ذات المجال الثقافي أو المتأثرة به حتمًا، وفي حدود المفاهيم، في سعيٍ دؤوب لإقناع الجمهور (أو الوصاية والمشرفين بالنسبة للباحثين الجامعيين) وحيازة رضاه من أجل ضمان الشهادة العلمية واكتساب الرواج والمصداقية العلمية أو التجارية.

ثم يأتي ما ينجم عن تنافس تلك الأعمال في الساحة الثقافية والعلمية الجزائرية على استقطاب الجمهور والباحثين، وما يتوطّد من توجهات ثقافية وفكرية وطروحات مذهبية أو عقَدية جرّاء التوجيه الذي تمارسه والاستقطاب الذي تُحدِثه، خاصةً وأن الإنتاج بلغة معينة يساهم في تراكم تراثها الثقافي، ويوسّع مجال انتشارها وتأثيرها. ولنا أن نتساءل مثلاً: هل لمقتنع بمنهج وآراء سعد الله أو ناصر الدين سعيدوني أو موسى لقبال - مثلاً- ألا تستغرقه الأجواء والمفاهيم العربية الإسلامية، ولو بإفساح المجال قليلا (أو كثيرًا) للعاطفة ومجاملة الذات، واحتمال الوقوع تحت طائلة النّزعات "الأدبية"، و"الشعرية"، والتغني بـ"أمجادنا" الغابرة، النابعة من فكرة "عصمة الأمة" التي ترعرعت في أحضانها الإسطوريوغرافيا العربية الإسلامية، باعتبار تطورها التاريخي يسيرُ بخطوات يرسمها الله، وأن استمرارها منوطٌ بقوة الإجماع المبرّأ من الخطأ ؟[٤٤] أو أنّ لمتأثرٍ بكتابات بعض المؤرخين الناقدين ودعاة المراجعة أمثال محمد حربي، وحسن رمعون مثلاً ألاّ تستهويه الثقافة الفرنسية التي يعترفون لها بالأستاذية، بالنظر إلى خصائصها العلمية والمنهجية، ورصيدها التاريخي الموضوعي الكبير الذي يكاد يهيمن على الاسطوريوغرافيا الجزائرية، بالرغم مما شابَهُ من نزعة "مركزية الذات" (Ethnocentrisme) الأوروبية ؟.

ثانيًا: تأثير الانتماء الإيديولوجي

يؤثّر الانتماء الإيديولوجي أيّما تأثير في كتابة التاريخ، إلى حدّ أنه قد يحجب عن المؤرخ كثيرًا من الحقائق، وقد يدفعه إلى غربلة الأحداث والوقائع من أجل انتقاء ما يخدم توجّهاته ويشبع طموحه منها، أو يحمله على التركيز على جوانب معيّنة من التاريخ من أجل إبراز دوره أو دور زعيمه أو تياره الإيديولوجي أو تنظيمه السياسي أو الجمعوي، وإهمال جوانب أخرى، لنفي فضائل المنافسين - بَلْه الخصوم- أو التقليل من أدوارهم ومساهماتهم.[٤٥] على أن ذلك لا ينفي وجود طائفة من المؤرخين النّزهاء الذين لا يقصّرون في تحرّي الموضوعية وبيان الحقائق، وإن كان الجميع يدّعي ذلك. وقد يكون من المفيد المقابلة بين سيرورة مؤرّخيْن من الكبار (كأبي القاسم سعد الله ومحمد حربي) ليتضح ما سنعرضه في هذا المبحث.

أما سعد الله (خرّيج المدارس الحرّة، والمعلم السابق فيها، والمساهم أيضا في الثورة بفكره وقلمه)، فقد عرفنا مدى اهتمامه

بالإصلاح وبالوطنية التي أرهصَت لها النهضة. وأما حربي خرّيج الثانويات والكليات الفرنسية (١٩٥٠-١٩٥٤)، فقد ناضل في صفوف حركة انتصار الحريات الديمقراطية MTLD، وانضم إلى الثورة عام ١٩٥٦. وتولى عدة مسؤوليات، منها عضو لجنة الإعلام والأخبار التابعة لفدرالية جبهة التحرير بفرنسا، ثم ترأسها ليصبح عضوًا في لجنة الفيدرالية تحت رئاسة عمر بوداود. لكنه استقال منها لغياب التفاهم بينه وبين رئيسه الذي كان لا يرتاح إليه بدعوى شيوعيته عام ١٩٥٨. ثم عيّن من طرف كريم بلقاسم على رأس الديوان المدني لوزارة القوات المسلّحة رغم نفور الأخير من الشيوعيين. ويفسر محمدًا حربي ذلك بطموح كريم بلقاسم إلى استمالة خاله علي كافي إلى جانبه في صراعه مع بن طوبال وبوصوف، واتخاذه رقيبًا على خاله في آن.[٤٦] تلاه انتقاله إلى وزارة الخارجية ضمن فريق كريم بلقاسم (١٩٦٠)، ثم سعد دحلب (١٩٦١)، وتقلده مناصب هامة فيها، قبل أن يشارك في وفد الحكومة المؤقتة إلى مؤتمر حركة عدم الانحياز ببلغراد سنة ١٩٦١، ويرأس لجنة الخبراء في مفاوضات إيفيان الأولى. لعب دورًا سياسيًا ملموسًا بعد الاستقلال، فشارك (قُبيْله) في صياغة برنامج طرابلس (جوان ١٩٦٢)، وانضم إلى حكومة بن بلة، ثم ساهم في صياغة "ميثاق الجزائر" سنة ١٩٦٤، كما في تنمية التوجه اليساري لحزب جبهة التحرير الوطني.

لكن بومدين قبض عليه بعد انقلاب ١٩٦٥ لتورطه في تشكيل "منظمة المقاومة الشعبية الشيوعية" التي كانت تستهدف النظام الجديد، ليلبث في السجن خمس سنين، فرضت عليه الإقامة الجبرية بعدها، قبل أن يفر إلى فرنسا سنة ١٩٧٣، أين تابع دراسته الجامعية التي انتهت بالدكتوراه سنة ١٩٧٨ بأطروحته "جبهة التحرير الوطني، الأسطورة والواقع، من الأصول إلى استلام الحكم ١٩٤٥-١٩٦٢"، التي نشرها سنة ١٩٨٠ وصارت أشهر أعماله. ونشر عدة أعمال معظمها عن الثورة الجزائرية التي غدا مرجعًا فيها.[٤٧] وعليه، يمكننا تفسير تقليله من دور جمعية العلماء المسلمين -إن لم نقل تحامله عليها كما سيأتي- والاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري، ومحاولته تبرير بعض مواقف الحزب الشيوعي من الاستعمار الفرنسي، وكذلك تقييمه للقاعدة الاجتماعية للحزب الاستقلالي (حركة الانتصار MTLD) والثورة، التي يراها بروليتارية-ريفية، بائسة (فقيرة)، أمية، متعلقة بالإسلام والعربية، محافظة، مهدوية (مؤمنة بمجيء المهدي) منقادة للعاطفة الدينية، معادية للقيم الأوروبية ولمن يتشبّه بالأوروبيين، ميالة إلى استخدام العنف لتطهير المجتمع الجزائري من الآفات وتوحيد قواه، وفرض الانضباط الأخلاقي والقيمي.[٤٨]

وكأمثلة عن تأثير الانتماء الإيديولوجي والولاء السياسي على انتقاء مواضيع البحث والتأليف نذكر: مساهمة محمد حربي الهامة حول مصالي حاج في "الأفارقة"[٤٩] الصادر تحت إشراف شارل اندري جوليان بباريس سنة ١٩٧٧ من منطلق تعاطفه معه (وهو المعارض التروتسكي الفارّ من الجزائر مثل مصالي اللاجئ في فرنسا) من حيث اعتقاده بكونهما ضحية "البيروقراطية الستالينية"؛ وتقديمه لمذكرات مصالي (إلى جانب شارل اندري جوليان وأجرون) الصادرة بباريس سنة ١٩٨٢؛ وأطروحته المعلمية المذكورة أعلاه: "جبهة التحرير الوطني، الأسطورة والواقع، من الأصول إلى استلام الحكم ١٩٤٥-١٩٦٢"،[٥٠] التي "شرّح فيها بمبضعه الأحداث البارزة وكذلك المجهولة، وقام فيها بتحليلات مُرعِبة أحيانًا، لشدّة صقلها بصرامة متلطِّفة، لكنها لا تقدّم التنازلات" على حد تعبير رفيقه "جلبار ميني"؛[٥١] وعمل محفوظ قداش ومحمد قنانش حول "نجم الشمال الإفريقي (١٩٢٣-١٩٣٧)" الصادر في الجزائر سنة ١٩٨٤ باللغتين (١٣٠ صفحة بالعربية، و١٥٥ صفحة بالفرنسية)؛ و"حزب الشعب الجزائري ١٩٣٧-١٩٣٩" الصادر في الجزائر سنة ١٩٨٥ (٢٨٦ صفحة بالفرنسية والعربية) لنفس المؤرخيْن؛ وتكريس محفوظ قداش الجانب الأكبر من أطروحتَه "تاريخ الوطنية الجزائرية" المذكورة آنفًا لنجم شمال إفريقيا/ حزب الشعب/ حركة انتصار الحريات الديمقراطية؛ ودرويش محمد في "الحركة الكشفية، مدرسة الوطنية"[٥٢] الصادر في الجزائر سنة ١٩٨٥؛ أو حتى خليل محمد في "بلاد القبائل، أو التضحية بالأسلاف"؛[٥٣] ومعمري خالفة في "عبان رمضان، بطل الثورة الجزائرية"،[٥٤] وغير ذلك كثير. وهذا مقابل تثمين دور الحركة الإصلاحية ورموزها، وإبراز الجذور الثقافية للمقاومة الجزائرية مثلاً من طرف آخرين مما أوردنا عليه بعض الشواهد آنفاً وسيرِدُ غيرُها.

كما تفيدنا - في مجال تقييم المنظمات والهيئات السياسية والجمعوية- مقارنةٌ سريعة بين بعض المواقف المتباينة من قضايا محددة وحساسة. فأبو القاسم سعد الله - مثلاً- معروف بتقديره لدور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، خاصةً نسبةَ فضل إحياء المجتمع الجزائري وإعداد أرضية الثورة إليها، بل المساهمة القوية في انطلاقها، كما في قوله "أنّ انتفاضات الجزائريين خلال القرن الماضي كانت تقوم على البندقية وحدها، فلم تفلح، أمّا نوفمبر فقد سبقه بعث حضاري ووعي فكري (إشارة إلى عمل الإصلاحيين)، ومن ثمّة نجحت البندقية"،[٥٥] واعتباره أن الجزائر كانت ستكون بدون جمعية العلماء كريشة في مهبّ الريح سنة ١٩٥٤، وقوله "ويبقى أن نعرف مستقبلاً كم من الذين فجّروا الثورة كانوا من خِرّيجي خلايا حزب الشعب، وكم منهم كانوا من خريجي مدارس جمعية العلماء".[٥٦] بينما لا يثمّن -مثلاً- أدوار اليساريين أو الاندماجيين السابقين الملتحقين بالثورة.

وفي أمر قد يكون ذا صلة، يلاحظ توقّف تأريخ سعد الله للحركة الوطنية عند العام ١٩٤٥ (باستثناء الجزء العاشر من تاريخ الجزائر الثقافي الذي كتبه بناء على تعاقد مع المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر ١٩٥٤)، حيث يعود ذلك في تقديرنا إما إلى ضعف تأثير العلماء في الساحة الجزائرية بعد غياب ابن باديس، مقابل ارتفاع أصوات منافسيهم

علمية، عالمية، مُحكّمة، ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

السياسيين، مما قلّل حماس سعد الله لمرحلة (١٩٤٥ – ١٩٥٤)؛ أو لتراجع النشاط الثقافي (الذي يحظى بالأولوية لديه) مقابل اتساع رقعة العمل السياسي بقطع النظر عن نجاعته وحصيلته. وفي المقابل ينفي محمد حربي- مثلاً- عن العلماء أيّ دور وطني أو مساهمة ثورية، فيقتبس عبارات أحمد نذير (المتعاطف مع الإصلاحيين) دليلاً له، حيث ينقل عنه أنهم "ينحدرون في الأغلب من أصول بورجوازية، بالنظر إلى أوضاعهم المادية الميسورة، والثقافة التي كانوا ينتسبون إليها. فما الذي يجمعهم بـ أولائك الفلاحين المعدَمين الذين التحقوا بالجبال؟ وبأشباه البروليتاريين الذين بثّوا الرّعب في المدن؟ وبـ أولائك العصاميين الذين تزعموا حركة التحرّر؟".[٥٧]

ثم يذهب إلى أنّ خشية العلماء لجبهة التحرير غداة الثورة كانت كبيرة إلى درجة أن زعيمَهم الشيخ البشير الإبراهيمي الذي كان بالقاهرة سوف يحتمي بمصالي- الذي لم يكُن يُكِنُّ له الوُدّ مع ذلك- لاتّقاء شرّ هذه الحركة الناشئة (أي الثورة).[٥٨] كما يشكو - في الشأن الثقافي- من أنّ نشاطَ العلماء الفكريّ قد أعاقَ انفتاحَ المجتمع الجزائريّ على الثقافات الأخرى.[٥٩] بينما لا يخفي تأثّره بالماركسية، وخاصةً بالتروتسكية المناوئة لـ"البيروقراطية البورجوازية"، التي اكتشفها داخل نظام جبهة التحرير الوطني إبان الثورة وبعد الاستقلال،[٦٠] وقادته أيضًا إلى المطابقة بين معاناة تروتسكي ومصالي حاج من التهميش والاضطهاد على يد "البيروقراطية الستالينية".[٦١] ويبلغ الأثر الأيديولوجي مداه حينما يلتمس الأعذار للحزب الشيوعي الجزائري قبل وبعد ١٩٥٤،[٦٢] رغم ستالينية هذا الحزب ومعاداته المعروفة للتروتسكيين. ويعود ذلك التبرير إلى القاسم المشترك الماركسي.

كما نلمس شيئًا من الإيديولوجيا لدى محفوظ قداش (المناضل في صفوف حزب الشعب/ حركة الانتصار) في أطروحته المعلمية "تاريخ الوطنية الجزائرية (١٩١٩-١٩٥١)". فهو يؤكد هيمنة "المنظمة الجماهيرية القوية حزب الشعب (PPA)/ حركة الانتصار للحريات الديمقراطية (MTLD) على الساحة السياسية الجزائرية، وإجبارها بجذريتها الأحزاب الأخرى على إيلاء القضية الوطنية أهمية مطّردة".[٦٣] بينما يصف مقاربة العلماء للقضية الوطنية بأنها "دينية"،[٦٤] وبأن جمعيتهم كانت تبحث عن حلّ في الإطار القانوني الاستعماري،[٦٥] ويبرئ الشيوعيين من "الإصلاحية" ويعتبر أنهم سرعان ما اعتنقوا مبدأ الاستقلال الوطني بعد بعض التردد.[٦٦] ويحصر عمل تهديد النظام الاستعماري ما بين (١٩٢٧) و(١٩٣٥) في نجم شمال إفريقيا والحزب الشيوعي وحدهما.[٦٧]

وفيما يلي جدول بتردّد أسماء رموز الحركة الوطنية الكبار (مصالي- ابن باديس- عباس) في كتابيْ سعد الله: "الحركة الوطنية الجزائرية" بأجزائه الأربعة (١٨٣٠-١٩٤٥)، ومحفوظ قداش: "تاريخ الوطنية الجزائرية (١٩١٩-١٩٥١)" بجزأيه، مع اعتبار فارق الإطار الزماني والتركيز التاريخي:

المؤرخ/ الرمز	مصالي حاج	فرحات عباس	عبد الحميد بن باديس
قداش	١٦٣ مرة	١٠٩ مرات	٦٧ مرة
سعد الله	٤١ مرة	٧٠ مرة	٥٤ مرة

ومنه يتضح البوْن الشاسع بين تقدير الرجلين لقادة العمل الوطني بتأثير العوامل الأيديولوجية والسياسية المنطلقة من خلفية ثقافية، في رأي من يرى أن المواقف السياسية لا تعدو كونَها استجابات ثقافية؛ تصدر عن قناعات ونظرات خاصة حول الوجود والإنسان في أصله وقيمته، وعلاقته بالكون، ومصيره، لتقوم بتشكيل هوية المجتمع والأمة، وتنظيم العلاقات بين الأفراد والجماعات.

خاتمة

تعدّدت الآراء في مجال الكتابات التاريخية الجزائرية وتنوعت، فغدت ساحته خضمًّا من النظرات والتصورات والحجج المتباينة، تقابَلَ فيها التقليدي والعصري، والقديم والجديد، والأصيل والوافد؛ بما حتّمه واقعُ وطبيعة فصائل المجتمع والدولة، وسعيها إلى إنجاز التوازنات أو التسويات أو الاختراقات الكفيلة بتحقيق تطلعات ومصالح المجتمع والدولة في معترَكات التنمية أو التأصيل أو التحديث، بحسب تفاوت تقديرات مختلف تلك الفئات لما تحسَبه أكثر ضمانًا للفعالية الحضارية، وأدْعى إلى حيوية وتقدم المجتمع. ومن هنا، تكونت رؤى وطروحات تسعى إلى إثبات قيمها، لتكون منظومةً متكاملة تقنع الجمهور أو تحملُه على تبنّيها وتمثُّلها في سبيل تحديد معالم حياته الاجتماعية وأفقه الحضاري.

ISSN: 2090 – 0449 علمية. عالمية. مُحكَمة. ربع سنوية

الهوامش:

(١) **بنديتو كروتشي (١٨٦٦-١٩٥٢)**: فيلسوف ومؤرخ وسياسي إيطالي، هيغلي، ثم ماركسي، فليبرالي. يدمج الفلسفة بالتاريخ. آمن بالعقل، ونسب الإبداع إلى الحدس، وجعله مستقلاً عن السياسة والنظريات الفلسفية.

(٢) جوزف هورس، **قيمة التاريخ**، ترجمة نسيم نصر (عويدات، بيروت، ١٩٧٤)، ص ١٩.

(٣) **مارك بلوخ (١٨٨٦-١٩٤٤)**: مؤرخ فرنسي، منظّر "التاريخ الجديد". اشتهر بتأسيس مجلة "حوليات التاريخ الاقتصادي والاجتماعي" (Annales d'histoire économique et sociale) سنة ١٩٢٩ وتنشيطها بالتعاون مع "لوسيان فابر" Lucien Febvre (١٨٧٨-١٩٥٦) (ثم فرنان برودال Fernand Braudel (١٩٠٢-١٩٨٥))، وهي المجلة التي اعتبر البعض أنها قامت بأكبر جهد تجديدي على صعيد منهجية ومقاربات الفكر والبحث التاريخيين في القرن العشرين، من خلال التركيز على الحقائق الجماعية والبنيوية الاقتصادية والاجتماعية بدلا من الأفراد والأحداث؛ وتوظيف العلوم الاجتماعية الأخرى في مجال التاريخ.

(4) Charles-Olivier Carbonell (Sous la direction de-), *Les Sciences historiques de l'antiquité à nos jours* (Larousse, Paris, p. 232.

(٥) أحمد جدي، **محنة النهضة ولغز التاريخ في الفكر العربي الحديث** (مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٥)، ص ١٧- ١٨.

(٦) **سورن كيركغارد (١٨١٣-١٨٥٥)**: فيلسوف قسّيس دانماركي. مؤسس الفلسفة الوجودية القائمة على النظر في الإنسان على "ما يوجد" لا تحليل ماهيته المجرّدة. دعا إلى مذهب يستولي على الإنسان في إنّيّته (Eccéité) (أي يحقّق وجوده العيني من حيث مرتبته الذاتية) ويضعه في علاقة شخصية مع الله، وخلص إلى أن المسيحية وحدها تضع علاقة شخصية بين الفرد والله.

(٧) حسين مؤنس، **الحضارة** (المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٤١٩/ ١٩٩٨)، ص ٣٧٩، ٣٨٠.

(٨) ميكل تومبسون (Michael Thompson) وآخرون، **نظرية الثقافة**، ترجمة علي سيد الصاوي (المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٤٢٠/١٩٩٩)، ص ٣٦.

(٩) **روبن جورج كولنغوود (١٨٨٩-١٩٤٣)**: فيلسوف ومؤرخ بريطاني مثالي. اشتهر بكتابه "مفهوم التاريخ" الذي أثّر عميقًا على الفلسفة النقدية التاريخية بعد الحرب العالمية الثانية. كان حجّة في تاريخ بريطانيا في العهد الروماني، وله مساهمات أصيلة في علم الجمال، وفلسفة التاريخ.

(١٠) هانز- جورج غادامير Gadamer، **الحقيقة والمنهج**، ترجمة حسن ناظم (دار أويا، طرابلس، ٢٠٠٧)، ص ٦٩٥.

(١١) إدوارد كار، **ما هو التاريخ**؟، ترجمة ماهر كيالي (المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٠)، ص ٢٢.

(١٢) رغم حضور المواضيع الأخرى السياسية والاجتماعية، إلا أنها تستمدّ جدواها ومبرّراتها غالبًا من المشروعية الثقافية المستندة إلى الدفاع عن الهوية الجزائرية في وجه محاولات الإلغاء أو الدمج الفرنسية، وتداعياتها التي عمّقت عوامل الضعف الذاتي للشخصية المسلمة المتفاقمة عبر القرون، وهي العوامل التي نراها في صلب أزمة العالم الإسلامي الحضارية الراهنة، بينما يغفل عنها من لا يرى سوى نتائجها؛ وهي: ارتهان المسلمين الشامل في العصر الحديث.

(١٣) **أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر** (دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٧)، ج ٤.

(14) Les intellectuels arabophone algériens entre l'identité, *le modernisme, le nationalisme et l'indépendance (1918-1962)*, thèse d'état dactylo., Nancy, 1990.

(15) *Le rôle de l'islam dans la guerre d'Algérie*, thèse 3e cycle histoire, université de Montpelier III, 1975.

(16) *Le mouvement réformiste algérien*. Son rôle dans la formation de l'idéologie nationale, thèse de 3e cycle, Paris, 1968.

(١٧) **الحداثة**: هي المواكبة الواعية للعصر، والفعل فيه على كافّة الأصعدة. وهي أيضًا مرحلة من التاريخ، وحالة فكرية وثقافية ثورية فرضت نفسَها في أوروبا أواخر القرن الثامن عشر، تتميّز بعناصر ثلاثة هي: تحرر الفرد، والتطوّر الهائل في العلوم والتكنولوجيا، وهيمنة الاقتصاد.

(18) *La question berbère dans le mouvement national algérien, 1926-1980*. Dar el Ijtihad, Alger, 1993.

(19) Berbères d'aujourd'hui, *L'Harmattan*, Paris, 1989.

(20) Gilbert Meynier, *Bibliographie synthétique de la guerre d'Algérie*, in NAQD , Histoire et politique N° 14/15, Automne/Hiver 2001, p. 150.

(21) Abécédaire de devenir. *Idéologie coloniale et langue française en Algérie*, E.A.P., Alger, 1985.

(22) *Formation du sous-développement en Algérie, 1830 - 1962*, Imprimerie commerciale, Alger, 1978.

(23) *Roman et société coloniale dans l'Algérie de l'entre-deux-guerres*, ENAL- GAM, Alger- Bruxelles.

(24) *La question nationale et coloniale et le mouvement communiste, le cas de l'Algérie. Le parti communiste et le mouvement nationaliste 1935-1956*, thèse sc. p., Grenoble, 1975.

(25) L'U.R.S.S. et le Maghreb, *De la révolution d'octobre à l'indépendance de l'Algérie, 1917-1962*, L'Harmattan , 1985.

(26) Aisat Idir, *Documents et témoignages sur le syndicalisme algérien*, ENAP-ENAL, Alger, 1991.

(27) Nouara Hocine, *Les intellectuels algériens, Mythes*, Mouvances et Anamorphose (Dahlab-ENAG, Alger, 2005), pp. 193-232.

(٢٨) لنتأمل مثلاً تصريح مولود معمّري: "إن اللغة الفرنسية لا تمثل بالنسبة إليّ لغةَ العدوّ المقوتة، بل أداةَ تحرّر منقطة النظير، وهي بالتالي أداةُ تواصلٍ مع بقية العالم. وأعتقد أنها تعبّر عن مكنونِ نفوسنا أكثر مما تخوننا". راجع:

Abdallah Mazouni, *Culture et enseignement en Algérie et au Maghreb* (Maspero, Paris, 1969), p. 221.

(٢٩) **وهراني المولد**، ساهم مع مولود معمري ومراد بوربون في تأسيس الاتحاد العام للكتاب الجزائريين سنة ١٩٦٣. تجهمت له السلطات بعد انقلاب ١٩٦٥.

(30) Jean Déjeux, *La littérature algérienne contemporaine* (Presse universitaire de France, Paris, 1975), p. 89.

(31) Gilbert Meynier, *Bibliographie synthétique de la guerre d'Algérie annotée et commentée*, in NAQD , Histoire et politique N° 14/15, Automne/Hiver 2001.

(32) Savoirs historiques au Maghreb, Insaniyat, Editions CRASC, Oran, 2006.

(33) Insaniyat, N° 19-20 (Janvier-Juin 2003).

(34) Insaniyat, N° 25-26 (Juillet-Décembre 2004).

(٣٥) **إدوار ساپير**: فيلسوف وعالم لغوي أمريكي، من أعلام المدرسة البنيوية الأمريكية في النصف الأول من القرن العشرين.

(٣٦) **بنجمن لي وورف**: لغوي أمريكي، ذاع صيته في الثلث الثاني من القرن العشرين بفكرة "أن لكل لغة عالم كلي خاص كفيل بصياغة نظرة إلى العالم لا تطابق أية نظرة تنطوي عليها اللغات الأخرى".

(٣٧) أنظر:

علمية. عالمية. محكمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449



Umberto Eco, *La recherche de la langue parfaite* (Editions Seuil, Paris, 1994), pp. 37,135, 373.

(٣٨) **هانز-جورج غادامير** (١٩٠٠-٢٠٠٢): فيلسوف ألماني. مؤسس التأويلية (L'herméneutique) المعاصرة، خاصة من خلال كتابه "الحقيقة والمنهج" ١٩٦٠ (Wahrheit und methode) . وهذه التأويلية تقوم أساسًا على أن اتضاح معنى النص لا يتم بفهم الفقرات المفردة، وإنما بتراكم فهم مجموع هذه الفقرات وإدراك أبعادها الكلية، وعدم الاقتصار على القراءة الحرفية.

(٣٩) غادامير، الحقيقة والمنهج، مرجع سابق، ص ٦٩٦.

(٤٠) انظر مثلاً: سالم يفوت، سلطة المعرفة (دار الأمان، الرباط، ١٤٢٦/٢٠٠٥)، ص ٥٥-٧٤.

(41) Lemnouer Merouche, *Conjonctures intellectuelles et notions de groupe*, in NAQD Histoire et politique N° 14/15, Automne/Hiver 2001, p.57.

(42) Mehieddine Djender, *Introduction à l'histoire de l'Algérie* (ENAG Editions, Alger, 2009), p. 73.

(43) Mahfoud Kaddache, *Histoire du nationalisme algérien* (ENAL, Alger, 1993),T. 1, p. II.

(٤٤) هاملتون غب Hamilton Gibb، **دراسات في حضارة الإسلام** (دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٩)، ص ١٨٥-١٨٦.

(٤٥) قارن على سبيل المثال بين مقاربات المؤرخين السنة والشيعة والإباضيين والصوفيين واليساريين مثلاً لمختلف جوانب التاريخ الإسلامي من الفتنة الكبرى إلى اليوم؛ وبين مقاربات أمثالهم من المؤرخين الأوروبيين "التقدميين" والليبراليين و"المحافظين" كذلك لقضايا وأحداث تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر؛ أو المؤرخين المسلمين والمسيحيين لتاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصرين الوسيط والحديث. وأقرب الأمثلة إلى موضوعنا المقارنة بين تناول كلٍّ من الجزائريين والفرنسيين لتاريخ الجزائر، وتناول الكتاب والمؤرخين الجزائريين للانقسامات والصراعات إبان ثورة التحرير.

(46) Mohammed Harbi, *Une vie debout-mémoire politique-tome 1 : 1945-1962* (Casbah éditons, Alger, 2001), pp. 255-261.

(٤٧) أهمها:

Aux origines du FLN, *Le Populisme révolutionnaire en Algérie*, Bourgois, Paris, 1975; Le F.L.N mirages et réalité-des origines à la prise du pouvoir (1945-1962) Editions Jeune Afrique, Paris, 1980; *Les archives de la révolution algérienne*, Editions Jeune Afrique, Paris, 1981; *La Guerre commence en Algérie*, Editions complexe, Bruxelles, 1984; *L'Algérie et son destin*,Croyants ou citoyens, Arcantère Editions, Paris, 1992.

(48) Mohammed Harbi, *L'Algérie et son destin*, op. cit., pp. 231-247.

(49) Charles-André Julien (dir.), *Les Africains*, Jeune Afrique, Paris 1977.

(50) Mohammed Harbi, *Le F.L.N mirages et réalité-des origines à la prise du pouvoir (1945-1962)* éditions Jeune Afrique, Paris, 1980.

(51) Gilbert Meynier, *Bibliographie synthétique de la guerre d'Algérie*, op. cit., p. 127.

(52) Le scoutisme, *école du patriotisme*, OPU, Alger, 1985.

La Kabylie ou l'ancêtre sacrifié, L'Harmattan, 1984.53

(54) Abane Ramdane, *héros de la guerre d'Algérie*, L'Harmattan, 1998.

(٥٥) **أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر**، مرجع سابق، الجزء٤، ص ١٤.

(٥٦) نفسه، ص ١٤٧-١٤٨.

(57) Mohammed Harbi, 1954, *La guerre commence en Algérie* (Editions Barzakh, Alger, 2005), p. 45.

(58) Idem.

(٥٩) المرجع نفسه، ص ٢٤.

(60) Mohammed Harbi, *Le F.L.N mirages et réalité-des origines à la prise du pouvoir (1945-1962)* (éditions Jeune Afrique, Paris, 1980) pp.293-312.

(61) Ibid., p. 6.

(62) Ibid., pp. 136-138.

(63) Mahfoud Kaddache, *Histoire du nationalisme algérien* (ENAL, Alger, 1993),T. 1, p. IV.

(64) Ibid., T. 1, p. III.

(65) Ibid., T. 1, p. IV.

(66) Ibid., III

(67) Idem.

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449





الكتابات الغربية ودورها في تشويه تاريخ الجزائر العثماني



بلقاسم قرباش

باحث دكتوراه في تاريخ الدولة العثمانية
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة معسكر – الجمهورية الجزائرية

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

بلقاسم قرباش، الكتابات الغربية ودورها في تشويه تاريخ الجزائر العثماني.- دورية كان التاريخية.- العدد الثالث والعشرون؛ مارس ٢٠١٤. ص ١١٨ – ١٢٣.

www.kanhistorique.org

كان التاريخية: رقمية الموطن .. عربية الهوية .. عالمية الأداء

مُلَخَّصْ

إن كتابات كتلك التي خلفها أسرى أمثال: فرانسيس نايت وهايدو، والأب دان، وسرفنتيس؛ ومارتين ماريا وسوزانا دونالسون؛ وتيدنا... وغيرهم، كل هذه الكتابات تعتبر مصادر مهمة لكتابة تاريخ الجزائر العثماني، لكن أغلبها كانت كتابات تراكمية جاءت لخدمة المصالح الاستعمارية المستقبلية. يضاف إلى هذه الروايات، العديد من الرسائل والعرائض، القوائم، الترجمات، التقارير، الشهادات البحوث، التصريحات، الأغاني الشعبية، وعدد هائل من الوثاق ومذكرات الأسرى ممن بقوا أحياء بعد عودتهم من الأسر، وكذلك المخطوطات المتعلقة بالأسر التي لا تزال حتى اليوم مجهولة في العديد من الدول الغربية. وفي المقابل فحتى المصادر الانجليزية اعتمدت في أغلبها على النموذج الأوربي ومصادره، بحيث أن الكتاب الانجليز لم يقاوموا خيالهم المرهف، فأوجدوا المسارح دون أي مؤرخين أو أي احتمال ديني، مثل رسامي النهضة الذين صوروا المسيح (عيسى عليه السلام) ورسله الحواريين بملابس إيطالية معاصرة وبأسلوب وموضع في الناصرية مع أن البناء على الطريقة الفلورنسية، ونفس الشيء فعله الكتاب الانجليز الذين صوروا السكان المغاربة بالزي الانجليزي الصناعي بحيث أنه ولا أي فرد مغربي في الدراما الإليزابيثية يوحي بالانتماء للإسلام. فهؤلاء الكتاب الذين افتدوا من الأسر لم يكونوا موضوعيين لأنهم كانوا دائما معاقين بـ أولائك الكارهين والحاقدين على الإسلام.

مُقَدِّمَة

إن أعمال كتلك التي خلفها فرانسيس نايت وماريا مارتين ودييغو هايدو والأب بيار دان وميغال دي سرفنتيس وأوكلاي وشالر... وغيرهم تُعدّ مصادر مهمة في كتابة تاريخ الجزائر، بحيث غطت النقص الذي خلفته المصادر المحلية الجزائرية خاصة الجانب السياسي، كما ساهمت هذه المصادر نفسها في الترويج للاستعمار. لكن السؤال الأكثر أهمية هنا هو: ما هي أفضل طريقة للسيطرة على المجتمع الفرنسي وجعله يوافق على الحرب ضد الجزائر؟ من المحتمل، أن أفضل طريقة للسيطرة هي" التحكم بالعقل"، ولهذا لجأ أصحاب القرار في فرنسا إلى الصحافة الفرنسية التي لم تكن سوى موظف بدون أجر تابع لوزارة الدفاع في الحملة على الجزائر حيث استخدمت هذه المصادر كأداة للتضخيم والحشد.

أولاً: نظرة المصادر الأوربية إلى الجزائر العثمانية

يفتتح لومون كتابه (la captivité de l'amiral bonard):

"كنا نريد أن نمنح البربر فرصة للكشف عن القسوة والديانة الخاطئة التي نشأت عليها شخصيتهم."[1] لم تختلف نظرة الكتاب الأوربيين إلى الجزائر العثمانية، فأغلب هذه الكتابات المعاصرة تستقي نظرتها من مصادرها الغربية (شهادة الأسرى وتقارير القناصل ومنظمات افتداء الأسرى) دون العودة إلى المصادر العربية التي تعتبر طرفًا مهمًا في كتابة تاريخ هذا الجزء الجنوبي من البحر

المتوسط، فالقاضي عند إصدار حكمه يجب عليه أولاً الاستماع إلى أدلة طرفي النزاع، ليحكم في الأخير على ضوء المعطيات المتوفرة لديه. وقد جاءت أغلب هذه المصادر والكتابات متشابهة في أطروحاتها، خدمة للمصالح الاستعمارية المستقبلية، ففي وقت كانت فرنسا تعتبر الجزائر مملكة مستقلة وتنعت حكامها بالملوك (les rois d'Alger) واستخدام بحارتها في مهاجمة السواحل الاسبانية في سنة ١٥٤٣ عندما هاجم خير الدين نيس، ثم سنة ١٥٥٢ عندما استخدم صالح رايس لقصف السواحل الاسبانية وغيرها من المساعدات المهمة، ها هي اليوم تستخدمهم كحجة لاحتلال الجزائر وهذا باتهامهم بالقرصنة على السواحل الأوربية.

إن هذه الشهادات التي قدمها لنا الأسرى يضاف إلها عددًا هائلاً من الرسائل والعرائض، القوائم التقارير الترجمات، البحوث، المناظرات، الشكاوي، الأغاني الشعبية، مذكرات الأسرى الأحياء (الناجون) وهناك أيضًا آلاف مخطوطات الأسر التي هي اليوم مجهولة (مثل مذكرات جون وايت هيدس في المكتبة الليبرالية)، مع آلاف الرسائل التي خلفها الوكلاء التجاريون بشمال إفريقيا وما قدمه القناصل لنا عن النزاعات البحرية والعبودية والمفاوضات والافتداء.[٢] يقول جون ب. وولف: "كل مَنْ يرغب في كتابة تاريخ عام عن إيالة الجزائر التركية - البحرية سيكون مدينًا كثيرًا للأشخاص الذين عاشوا في الجزائر وكتبوا عن تجربتهم بالإضافة إلى مسؤولي الدول الأوربية الذين أرادوا أن يبقوا حكوماتهم على اطلاع على الأحوال والمشاكل... إن أعمال هايدو[٣] ومرمول[٤] لا تقدر بثمن ولولاها لما قارب أي كتاب عن المغرب حدود الثقة العلمية... ومن سوء الحظ أنه لا وجود لوثائق أخرى مكتوبة من قبل الأتراك أو الجزائريين لا بصفتهم مسؤولين ولا رحالة، نعني بذلك الوثائق المتوفرة لنا نحن الذين لا نعرف غير اللغة الأوربية".[٥]

ما يمكن ملاحظته من خلال كلامه هو اعتماده على مجرد المصادر الأوربية في تحليل أوضاع دولة تختلف مع أوربا دينيًا وأثنيا وحتى فكريًا دون العودة إلى المؤلفات العربية والتركية (أي حل مشاكلي من خلال استنباط حلول مشاكلك السابقة مع أن مشكلتي تختلف عن مشكلتك جذريا)، ورغم أنه زار العديد من الدول الأوربية خلال عمله على تأليف هذا الكتاب إلا أنه لم يزر دول البحر المتوسط الجنوبية ولا حتى تركيا للاطلاع على مصادرها مع أن قيمة تأليف هذا الكتاب كان ذا ميزانية ضخمة. كما أن الكاتب اعتبر بأن الكتابة في الموضوع من غير الاعتماد على هايدو ومارمول يُعدّ عملاً غير علمي، مع العلم أن الأول كان قسًا بنديكتيًا ساهمت إيديولوجيته في كتابة مؤلفاته، في حين أن الثاني كان جاسوسًا تم أسره من طرف السعديين بعد أن شارك في حملة شارلكان على تونس سنة ١٥٣٥ وما تولد لديه من حقد ضد الإسلام يظهر جليًا في كتابه "إفريقيا". في المقابل نلحظ أن جون وولف لم يعتمد على الحسن بن محمد الوزان[٦] الملقب بليون الإفريقي صاحب كتاب "وصف إفريقيا" الذي كان يعرف جيدًا جغرافية هذه المنطقة وكذا ثقافته الإسلامية القريبة من سكانها، مع أن مارمول اعتمد بشكل واضح على منهج ليون الإفريقي في تأليف كتابه.

وتنتهي مقدمة مترجم كتاب هايدو (la captivité à Alger):

"عمل هايدو هو صرخة قلب نبيل، ونداء للرأفة المسيحية الذي عن طريق آباء الافتداء لطف بكثير من البؤساء، نحن نحترمه كثيرًا".[٧] كل هذه الشهادات التي قدمها هايدو ساهمت في جعله أبرز مصادر التأريخ لتاريخ الجزائر العثماني، رغم أنّ بعض الكتاب شككوا في صدق إقامته في الجزائر إلا أن ديغرامون نفى ذلك بقوله: "لقد أقام هايدو عدة سنوات بالجزائر بين سنة (١٥٨١-١٥٨٧)"، ويضيف في هامش ترجمته لكتاب هايدو (Les Rois d'Alger): "عن طريق ذكائه استطاع فيرديناند دينيس (Ferdinand Denis) التشكيك في صحة إقامته في الجزائر... لكن باكتشاف مخطوط للأب دان "مشاهير الأسرى المسيحيين المستولى عليهم في البحر من قبل الكفار المسلمين" تم دحض كل هذه الشكوك".[٨] حقيقةً فإن كتابات هايدو تُعدّ أحد أهم المصادر والوثائق في كتابة تاريخ الجزائر في الفترة العثمانية ولكنها لا تمثل المصدر العلمي الموثوق كما ادعى جون ب. وولف في كتابه سالف الذكر.

ويقول صاحب كتاب "القراصنة والحرب البحرية": "أصبح القورصو (La Course) بالنسبة للجزائر المصدر الوحيد للغنى تقريبًا وهو ما يعرف بالجهاد (La Guerre Saint)، وكانت مهمة السفن الجزائرية هي إيذاء العدو الوهمي والمبتدع إسبانيا، ومن أجل هذا كان يجب تحطيم تجارتها وسلب سواحلها".[٩] إن نظرة الكاتب لم تختلف عن سابقاتها فهو يرى أن الجزائر كانت تقود حربًا وهمية ضد عدو وهمي هو إسبانيا، تتلقى فيها الأوامر من الإدارة التركية بحيث أنها كانت مجرد طرف ثانوي مصيرها متعلق بالحرب العثمانية الإسبانية. إن أحد أبرز المصادر في كتابة تاريخ الجزائر خلال القرن السادس هو مُؤلف سرفنتيس[١٠] (La Captivité d'Alger)، وتبرز أهمية هذا المصدر في اعتماد صاحبه على شهادة حية، إضافة إلى مكانته العلمية والاجتماعية، ويقول مارتيال دويل: "إذا سمح لي الوقت لأقول بعض الأشياء التي قام بها هذا الجندي بحيث إنني متأكد بأنها تهمكم وستبهركم أكثر من مغامرات "دون كيشوت".[١١]

أما فيما يخص رواية دون كيشوت فهي ترجع لنفس الكاتب سرفنتيس حيث ألفها أثناء فترة أسره في الجزائر التي نشرت في جزأين ١٦٠٥، ١٦١٥، ومن خلال اطلاعنا على الرواية لاحظنا النظرة السلبية للكاتب نحو الأندلسيين والعرب والأتراك، ففي إحدى صفحاتها يقول: "لم يفهم صاحب المنزل في البداية لماذا دعاه دون كيشوت سيّد القصر، ولكن بما أنه كان داهية أندلسيا ولصًا مغرقًا اللصوصية في مهنته أجابه: "على هذا الأساس يا سيدي ستكون الحجارة سريرًا وتبرًا لسيادتك وأنا على يقين أنك لا تنام إلا كالحارس الليلي، وهكذا يمكنك أن تترجل وستتأكد من أنك ستجد ما تقضي به لا ليلة واحدة دون نوم بل سنة كاملة".[١٢] كما ذكر

ISSN: 2090 – 0449
علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية

فيها مشاهد من أسره بطريقة غير مباشرة والنزاع الوهمي بين الخيال والحلم والواقع. وهناك أيضًا مصدر آخر هو مُؤلف الأب دان (Histoire de Barbarie et de ces Corsaire)، والذي يعتبر أحد أهم المصادر المعتمدة من طرف الكتاب الغربيين، ومما يذكره عن الجزائر قوله: "كان البحر دائما مغطى بالقراصنة الأتراك والبربر الذين قاموا بتخريب عظيم وقسوة لا تصدق."(١٣)

من خلال هذه الكتابات يمكن أن نكتشف بأن أغلبها كان يصب في قالب واحد هو اللصوصية القرصنة، القسوة، العبودية، دون الإشارة إلى أعمال قراصنتهم أو المسلمين الذين كانوا يعمدون يوميًا في روما، وهاهو ماتاي يميز بين الأخوين بربروسة وأندري دوريا فيصفهما بمصطلح (les deux frère Pirate)، أما الثاني فيقول عنه (Corsaire)، وكلمة (Pirate) هي كنية سيئة يوصف بها البحارة الخارجون عن القانون، أما (Corsaire) فتطلق على البحارة المخولون من طرف الدولة لممارستها، وهنا أراد الكاتب إسقاط هذا المعنى عمدًا.(١٤)

في مقارنته بين خير الدين وأندري دوريا قائد الأسطول المسيحي يذكر لامب قائلاً: "وكان بمقدور خير الدين أن يصبح قرصانًا عظيمًا، لكنه فضّل أن يبحر مستظلاً بعلم واحد هو العلم التركي الذي كان يرفعه مع راية قيادته، وكان يحمل رتبة أمير بحر، ويتقاضى مرتبه من الخزينة التركية، ويبني سفنه في المسفن، وينفذ خطة أمة واحدة، محاربًا ست إمارات أو قوى معادية، أما خصمه أندري دوريًا فعادة ما كان يوصف بأميرال الإمبراطورية، وكان يبدل أعلامه كما يبدل ولاءه وكانت له ثلاث عشرة سفينة هي ملكه الخاص في الأساطيل الجنوية والفرنسية والإسبانية، وكان يطالب بنسبة مئوية من الغنائم ولابد من الإشارة إلى أن "أندري دوريا" الذي كان يعمل لصالح الملك الفرنسي فرانسوا الأول كان قد غيّر ولاءه لصالح الإمبراطور الإسباني شارل الخامس، إذ لم يكن مقتنعًا بالمبلغ الذي كان يدفعه له الملك الفرنسي، في حين عرض عليه الإمبراطور مبلغ ستة آلاف دوقة عن كل سفينة».(١٧)

أما الباحثة الأمريكية "سندي فالار" فتصف القباطنة العثمانيين كالآتي: "لقد كان القراصنة البرابرة قادة مراكب مفوّضين للإمبراطورية العثمانية أكثر من كونهم قراصنة، وكان الهدف من غاراتهم قد تحوّل من النهب الصِرف وأسْر الأشخاص إلى الجهاد ضد روما والمسيحية".

ثانيًا: العبودية في الجزائر بين الحقيقة التاريخية والدعاية الاستعمارية الأوربية

في سنة ١٨١٥ كان قد بلغ عدد العبيد الأوربيين الذين رُحِّلُوا إلى أوربا وأمريكا للعمل في المزارع والمصانع خلال الثلاثة قرون أكثر من ثلاثين مليون عبد يضاف إليهم الأسرى المسلمين الذين وجهوا للعبودية في أوربا، وظل لوبي تجار العبيد هو أقوى اللوبيات هناك حتى إنهاء هذه التجارة. يذكر "روبرت دافيس" (Robert Davis) أن عدد الأسرى الأوربيين في الجزائر مابين (١٥٨٠- ١٦٨٠) قد بلغ ٨٥٠ ألف أسير، لكن هذا العدد كان يتطلب أسر (٨٥٠٠) مسيحي في السنة بحيث أن هذا الرقم يبقى عددًا خياليًا ويترك الشك والريبة حوله، خاصةً مع بداية تدهور ولاية الجزائر العثمانية، وفي المقابل فقد بلغ عدد الأسرى المسلمين الذين احتجزتهم فرنسا أواخر القرن الثامن عشر أكثر من عشرة آلاف أسير في السنة في الوقت الذي لم يتجاوز فيه الأسرى المسيحيون ألف أسير في مدينة الجزائر خلال نفس الفترة.

إن هذه الكتابات الأوربية كانت مجرد كتابات تراكمية تطلبت مصالح منظمات الافتداء كتابتها من أجل إعطاء صورة قاتمة حول هؤلاء البربر المتوحشين وما يعانيه إخوتهم في الدين من اضطهاد وعبودية في هذه المناطق، بحيث أنه كلما ضخمت هذه الحكايات كلما تمكنوا من توفير أموال إضافية للفداء. ويضاف إلى كل هذا المداخيل التي كان يجنيها هؤلاء الأسرى في حال طبع مذكراتهم عن العبودية في الجزائر، حيث يذكر جيمس ريلي أن قصة والده عن الأسر قد بيعت منها مليون نسخة وكان من بين قراءه لينكولن أبراهام رئيس الولايات المتحد الأمريكية.(١٥) وفي سنة ١٧٩٧ صدر كتاب الأسرى الأمريكان في الجزائر (The American captives) ثم صدرت سنة ١٨٠٠ طبعته الثانية، وتباع هذه الطبعة حاليًا بـ (٢٥٠٠ دولار) أما الأولى فتباع بـ (٣٥٠٠ دولار).

يرى العديد من المؤرخين الأوربيين أن الحرية الدينية في الجزائر كانت معدومة حيث كان يفرض على المسيحيين الدخول في الإسلام مقابل امتيازات كثيرة، في حين أن الباقين على مسيحيتهم كانوا يشتغلون في كل الأعمال المنحطة إلى غاية افتدائهم أو الهرب أو الموت. في حين يفند أحد الكتاب الأوربيين هذه الادعاءات بقوله: "لقد كان للأسرى المسيحيين الحرية في تأدية عباداتهم الدينية، حيث كان يوجد في مدينة الجزائر ثلاث معابد مستعملة خاصةً من طرف الأسرى لأنه بالنسبة للمسيحيين الآخرين والذين يريدون الاستماع للقداس، إما الحضور لدى القنصل أو في شقة بعض القساوسة."(١٦) وهذه الشهادة يمكن اعتبارها مناقضة لما جاءت به مصادرهم والتي تتمحور في غالبها حول العبودية والاضطهاد والمعاملة اللاإنسانية لهؤلاء الأسرى، وإلا كيف نفسر أن منهم من عمل لدى حاكم الجزائر في حين أن الكثير منهم استطاع الرقي في سلم المراتب إلى أن أصبح حاكمًا عامًا للأسطول الجزائري، وفي بعض الأحيان قائدًا للأسطول العثماني أمثال: علج علي، وحسن آغا، وعلي بتشنين، ومراد رايس، وحسن فيزينيانو وغيرهم الكثير.

لقد كان الأسرى الذين يجلبون يبقون وسط إخوتهم في الدين في شمال إفريقيا، مقاومات أخرى وعقوبات ضد الباقين في الأسر حتى يتم تحريرهم أو يهربون أو يموتون، أما أولائك الذين يعودون إلى أوطانهم فيقصون حكاياتهم في المدن والأسواق ويعطون نظرتهم حول العالم الإسلامي.(١٧) ومن هنا، فإن النظرة السلبية التي كان يرسمها هؤلاء الأسرى عند عودتهم إلى الديار كانت تعطي تصورًا سلبيًا وفكرة قاتمة لدى السكان العاديين الذين لا يعرفون عن

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

الجزائريين سوى أنهم أعداء دينهم، خاصةً وأن الكنيسة كانت تجوب بهؤلاء الأسرى المحررين المدن حيث يضخمون قصصهم، وذلك تقديرًا للمساعدات التي قدمتها لهم الكنيسة من أجل تحريرهم وكذا لمساعدة جمعياتها[١٨] من أجل استمالة المزيد من المتطوعين لجمع مزيد من الأموال.

يذكر فيتكيس دانيال: "آلاف البريطانيين المنسيين والتي لا توجد أسماؤهم حتى في قوائم افتداء الأسرى، هناك قصة مهمة جدًا كتلك التي حدثت في سنة ١٦٦٣، فالملك تشارلز الثاني[١٩] زار توماس ليرتينغ قائد الأسطول والذي سمع منه قصص مذهلة عن الكيكر(Quaker)[٢٠] ورفقائه الانجليز المأسورين وكيف أنهم كانوا يغامرون بحياتهم حيث استطاعوا طرد هؤلاء المغتصبين إلى ديارهم "دون أن تسقط ولا قطرة دم واحدة."[٢١] وقد كان أولئك الأسرى ذوي الحرف والمهارات يمتازون بتقدير خاص من قبل الحكام ففي ٢٨ أكتوبر ١٦٩٩ ذكر مولاي إسماعيل للسفير الانجليزي أن بعض الأسرى المسيحيين من نحاتي الفخار لم يكن لديهم ما ينحتونه، حيث يقومون بتثبيت أعمدة السفن التي ليست من اختصاصهم، إضافة إلى أنهم كانوا يشتغلون في كل الأعمال العظيمة.[٢٢]

لقد اعتمدت المصادر الانجليزية كلها على النموذج الأوربي ومصادره، بحيث أن الكتاب الانجليز لم يقاوموا خيالهم المرهف، فأوجدوا المسارح دون أي مؤرخين أو أي احتمال ديني، مثل رسامي النهضة الذين صوروا المسيح (عيسى عليه السلام) ورسله الحواريين بملابس ايطالية معاصرة وبأسلوب وموضع في الناصرية والبناء على الطريقة الفلورنسية، ونفس الشيء فعله الكتاب الانجليز الذين صوروا السكان المغاربة بالزي الانجليزي الصناعي بحيث أنه ولا أي فرد مغربي في الدراما الإليزابيثية يوحي بالانتماء للإسلام، فهؤلاء الكتاب الذين افتدوا من الأسر لم يكونوا موضوعيين لأنهم كانوا دائمًا معاقين بـ أولائك الكارهين والحاقدين على الإسلام.[٢٣] ويقول جوزيف مورغان: "بكل تعاسة، كان من الصعب جدًا إنهاء كل هذا، ففي القائمة التي طبعت سنة ١٦٨٩، يوجد (١٦٠) سفينة انجليزية أسرت من طرف الجزائريين بين (١٦٧٧ – ١٦٨٨)، فما هو عدد الانجليز الذين أخذوا عن كل سفينة إذن؟ يمكننا ترجيح مابين (٧٠٠٠) إلى (٩٠٠٠) أسير بريطاني بين رجل وامرأة أخذوا للعبودية في الجزائر خلال هذه السنوات."[٢٤]

يذكر دفيس روبرت أن سفن القرصنة لشمال إفريقيا تمنحنا نظرة عن أواخر القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر، فحوالي (٣٥) ألف أوربي خلال هذه الفترة وجدوا بالساحل البربري، كثير منهم في طرابلس وتونس وفي مدن مختلفة في المغرب، لكن الجزء الأكبر أو الغالب من هؤلاء الأسرى وجدوا في الجزائر. وما يمكن أن نحدده من خلال هذا العمل هو أن غالبية هؤلاء الأسرى قد كانوا بحارة أسروا مع سفنهم عكس ما يروج له كتابهم الذين رأوا أن العبودية في الجزائر كانت موجهة نحو الطبقة البائسة في أوربا، ولكن حتى وإن سلمنا بما جاء به هؤلاء الكتاب، سنلحظ أن أغلب أولئك الأسرى المعدومين كانوا يفضلون حياتهم في الأسر على البقاء في أوربا ملزمين بالفقر الأبدي، خاصةً ما توفره لهم امتيازات الدخول في الإسلام.

أما فيما يخص النساء، يرى العديد من الكتاب الأوربيين ومن بينهم روبرت دافيس، وجوزيف مورغان (Joseph Morgan) أن المرأة بمجرد أن يتم أسرها تأخذ إلى قصر الداي لتصبح من حريم الباشا، حيث أنه كثيرًا ما تُحوَّلُ إلى الإسلام وتبقى هناك مع أبنائها. لكن كارتر (Carter) أسير الداي يذكر أن "امرأة" كانت معهم أرسلت فور وصولها إلى المستشفى الإسباني حيث ستبقى حتى يتم افتداؤها.[٢٥] وفي كتاب (The Barbary Slaveship) تحدث ألان ألديس (Aldan Adiss) عن الممارسات الجنسية التي كان يقوم بها المسلمون الأتراك ضد الأسرى من الأطفال وخاصةً النساء دون أن يذكر مصادر المعلومة، حيث يقول: "القفص رقم ستة وسبعة، كلاهما جاهز للعرض "فخامتك". كلا القفصين مضاعف الحجم حيث كان يتم جمع النساء مع بعض في حبل مشترك... واحد من هذه الحبال كانت يحتوي أمهات جميلات، ونفس العدد من البنات المراهقات وعشرات الأخوات وعدد قليل من التوائم".[٢٦]

في حين يقدم لنا الأب دان عدد الأسرى المسيحيين الموجودين في البلدان البربرية خلال القرن السابع عشر، حيث أن الجزائر وحدها كانت تحتوي على أكثر من ٢٥ ألف، فبالنسبة للمرتدين كان هناك (٨٠٠٠ آلاف) منهم (١٠٠٠) أو (١٢٠٠) امرأة. وتحدثنا سوزانا راونسن (Susanna Rowson)[٢٧] أن أحد زملائها واسمه سبستيان كان يعمل في حديقة القاضي، أخبرها بأن هذا الأخير كانت لديه إحدى عشرة زوجة، وثلاثين خليلة، وابنتين جميلتين.[٢٨] أما فولتير في عمله (المرأة العجوز) يريدنا أن نعتقد بأن الأسيرات كن قد اغتصبن من كل الرجال بلا استثناء، ولكن موليير (Molière) يقدم لنا المرأة على أنها بعد سنوات من الأسر في شمال إفريقية، ما تزال صالحة للزواج في أسرة برجوازية راقية، والظاهر أنه لم يكن من الصعب جدًا على امرأة شابة أن تنتهي إلى الحكم بأن زواجًا في الجزائر قد لا يكون مختلفًا كثيرًا عن الزواج في أوربا، والأكيد أن مثل هذا الزواج كان أفضل من وضعية وصيفة في البيت مدى الحياة.[٢٩]

وتمثل رواية ماريا مارتين(Maria Martin)[٣٠] إحدى أهم المؤلفات الغربية عن حالة الأسرى في الجزائر، فقد ذكرت أن مالكها كان رجلاً مسنًا قبيح الوجه، قصيرًا وملطخًا بالأوساخ، اشتراها من سوق العبيد وقام القاضي (cadi) بتسجيلها كملكية خاصة له، حيث كلفت برعاية ابنه. وتتحدث عن كره المسلمين للمسيحيين بقولها: "هم يكرهون المسيحيين... حيث يدرسون في قرآنهم، أن مَنْ يقاتل ويموت في معركة ضد المسيحيين، يدخل فورًا الجنة، أما في حالة النصر و إن تحطمت منازلهم تحول مباشرة إلى الجنة."[٣١] وتذكر أيضًا الممارسات الجنسية التي كان يقوم بها الأتراك في الجزائر ضد المسيحيات حيث تقول: "لم يكن نادرًا على

علمية. عالمية. مُحكمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

المعذبين إجبارنا على تجريد أنفسنا والبقاء عراة، ثم الوقوف لدقائق على أرجلنا في نار متأججة، وفي أحيان أخرى يدخلون الجمر والفحم في صدورهن... وفي مرات كن ينثرن الرز المغلي على أجسادهن العارية".[٣٢] وفي المقابل يذكر كارتر أن دين المسلمين هو دين عظيم يعبدون فيه إلهًا واحدًا، وأن محمدًا (رسول الله) هو نبي كبير رغم أن مجتمعه ورهبانه لم يعلموه عن الإسلام ولا عن محمد إلا ما قرأه هو بنفسه.

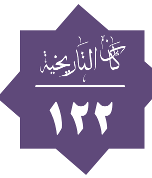
إن الدارس والمتأمل في هذه المصادر الأوربية سيلاحظ أنها ساهمت بشكل مباشر في تشويه صورة الجزائر لدى السكان البسطاء، وهذا ما ظهر جليًا في الحملة الفرنسية على الجزائر والتي ضمت متطوعين من مختلف البلدان الأوربية تدفعهم الرغبة في الانتقام ممَنْ عذبوا إخوانهم واسترقوهم، حيث لم يلق هذا الاحتلال معارضة كبيرة من طرف الرأي العام الفرنسي. فهذه الروايات لم يدونها مؤرخون ولا باحثون ولا علماء، وإنما في الأغلب كتبها قساوسة ورجال دين ومواطنون أوربيون بسطاء، ولهذا افتقدت للموضوعية، ويضاف إلى كل هذا ما كان يجنيه هؤلاء الأسرى الفقراء من نشر رواياتهم بعد عودتهم إلى الديار فمثلاً: رواية "جون فوكس" (John Focus) التي طُبعت مرة ثانية بعد (٢٣) سنة على صدورها، ورواية "فرانسيس نايت" التي طُبعت مرتين خلال العام الأول من صدورها، ورواية "مارتين أوكلاي" التي صدرت مرتين خلال سنتين، و"جوزيف بيتس" الذي نشر رواية جديدة عن الجزائر هذا بعد أن لقيت روايته الأولى عن القرصنة نتائج عظيمة، ورواية "ادوارد وات" التي طُبعت أربع مرات سنة ١٦٠٠، وكتاب "مدينة القرصنة" لمؤلفه "بَالَنْتِينْ" الذي طُبع ثلاثين مرة ولا يزال حتى الآن يصدر في طبعات جديدة، فتخيلوا قيمة الواردات التي تجنيها دار النشر هذه، إنها فعلاً تجارة مربحة لا يمكن تصورها.

خاتمة

في الحقيقة؛ إن المصادر الغربية كان لها دور كبير في كتابة تاريخ الجزائر خلال الفترة العثمانية، حيث غطت النقص الذي خلفته المصادر العربية، والتي اهتمت في غالبها بالتأليف الديني والأدبي. وفي المقابل فإن هذه المصادر الغربية لم تكن موضوعية في تحليلها لأوضاع الجزائر، حيث كانت دائمًا معاقة برجال الدين الذين كانوا يقودون محاكم التفتيش، معتمدين على هؤلاء الأسرى لدعم دعاياتهم، ولجذب المزيد من التبرعات، يضاف إلى هذا أن هذه المصادر لم يكتبها باحثون وإنما في الغالب كتبها أسرى فقراء، كانوا يريدون الربح المادي من خلال نشر أعمالهم، لأنهم وبعد تحريرهم لم يكن لديهم ما يقومون به، ولهذا كان من السهل التأثير عليهم ودفعهم نحو التأليف، وإن هؤلاء الذين عادوا إلى أوطانهم روجوا لقصصهم في المدن والأسواق عن الجزائر، كل هذه الشهادات خلقت فكرة سلبية عن المنطقة.

إن أحد أبرز المؤلفات الغربية التي انتقدت هذه الكتابات، هو "قود فراي" فيشير في كتابه "الأسطورة البربرية"، الذي رأى أن الجزائر لم تكن في يوم من الأيام وكرًا للقراصنة، وإنما كانت منطقة تنطلق منها الحملات العسكرية على الدول التي لم تكن في حالة سلم مع المنطقة.

علمية. عالمية. مُحكَّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449



الهوامش:

(1) Lemon. A, *la captivité de l'amiral Bonard et de l'amiral Bruat*, Paris, collection Hetzel, J-Libraire Cloye, 1863.
(2) Daniel. j. Vitkus, *Piracy, Slavery, and Redemption, Barbary captivity narratives from early modern England*, New York, Colombia University Press, 2001, p.6.

(٣) **هايدو**: هو رجل دين إسباني كان سجينًا في الجزائر بين سنتي (١٥٧٨ - ١٥٨١)، له عدة مؤلفات منها:
Histoire des Rois d'Alger_ Topographie et Histoire générale d'Alger_ de la Captivité d'Alger.

(٤) **مارمول كاربخال**: ولد في غرناطة، كان ضمن جيش شارلكان الذي احتل تونس سنة ١٥٣٥، ثم بقي في شمال إفريقيا كجاسوس لاسبانيا مدة (٢٢) سنة أسر خلالها من طرف سلطان السعديين، حيث بقي أسيرًا لمدة ٧ سنوات وثمانية أشهر. أنظر: مارمول كاربخال، **أفريقيا**، ترجمة: محمد حجي وآخرون، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرباط، ١٩٨٤.
Enciclopidia universal illustrada Europeo Americana, Madrid- Barceilona, T XXXlll.

(٥) جون. ب. وولف، **الجزائر وأورب**، ترجمة: أبو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٨٦ ص٤٩٥.

(٦) يختلف المؤرخون في سنة ولادته فيرجعها بعضهم إلى سنة ١٤٩٥ والبعض الآخر إلى سنة ١٥٠٠، يرجع نسبه إلى قبيلة بني ربات الزناتية، الواقعة أقصى غرب بلاد غمارة من سلسلة جبال الريف المغربية، انتقل مع أسرته إلى فاس، حيث درس على يد أعلامها وعلى رأسهم الإمام محمد بن غازي المكناسي، بعد أن نبغ في مختلف العلوم وذاع صيته قربه السلطان المغربي إليه، وأوكل له مهام سياسية خطيرة، وقد ساهم نشاطه الدبلوماسي والتجاري لأسرته إلى القيام بعدة رحلات سجل فيها مذكراته "وصف إفريقيا". وفي إحدى هذه الرحلات إلى تونس تم أسره من طرف القراصنة الإيطاليين والذين سلموه كهدية للبابا في روما، الذي قام بتعميده لكن البعض يرى أن الوزان تظاهر بالمسيحية واشتغل في تدريس اللغة العربية بروما.

(7) Fray Diego de Haedo, *De la Captivité d'Alger*, Tr. Moliner – Violle, Alger, Imprimeur Topographie Adolphe Jourdan, 1911, p.5.
(8) Fray Diego de Haedo, *Histoire des rois d'Alger*, Tr. De Grammont. H.D, Alger Adolphe Jordan, 1881.
(9) Henry Brogniart, *Les Corsaire et la guerre maritime*, Paris, Augustin Challanel édition, 1904, p.22.

(١٠) **ميغيل دي سرفنتيس** (١٥٤٧ - ١٦١٦)، من أبرز كتاب الأدب الاسباني عرف بروايته دون كيشوت، ولد في بلدة هيناريس بإسبانيا حيث لم يلتحق بأي جامعة ورغم هذا فقد كان واسع الاطلاع، شارك في معركة ليبانتو التي جرح بها، وتم أسره من طرف بحارة الجزائر سنة ١٥٧٥، فبقي فيها رغم محاولته الهرب عدة مرات إلى أن تم افتداؤه من طرف عائلته والكنيسة.

(11) Martial Douël, *L'héroïque misère de Miguel de Cervantes esclave Barbaresque*, Romans et Récits, N°75, Paris, Editions de la Vraie France, 1930.

(١٢) سرفانتيس، **دون كيشوت**، ترجمة: صياح الجهيم، دار الفكر اللبناني، بيروت، ١٩٩٩، ص١٦.

(13) Pierre dan .R.p, *Histoire de Barbarie et de ses corsaires des royaume, et des villes d'Alger, de Tunis, de salé, et de tripoli*, Paris, chez pierre Rocolet, Imprimeur & Libraire ordinaire du Roi, seconde édition, 1646, p.19.
(14) Mattei. A, *Protestation contre détracteur du systèmeadministratif suivi actuellement en Algérie*, Paris, E. Denni, libraire éditeur, 1869.

(١٧) أنيس القيصي، **النشاط البحري العثماني في البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر**، www.iraqnla.org، ملخص من أطروحة الدكتوراه، تاريخ التصفح: ٢٠١٢/٠٢/١٥، س.١١:٠٠.

(١٥) جيمس ويلسن ستيفن، **الأسرى الأمريكان في الجزائر** (١٧٩٥ – ١٧٩٦)، ترجمة: على تابليت، منشورات ثالة، الجزائر، ٢٠٠٧.

(16) Charles Taillard, *L'Algérie dans la littérature française*, Rémpression de l'édition de paris, paris, 1925, p.15.
(17) Robert. C. Devis, *Cristian slave, Muslum masters, White slavery in the Mediterranean, the Barbary coast and Italy*, Palgrave Macmillan, 2003, p.127.

(١٨) هي منظمات كانت مكلفة بافتداء الأسرى مثل منظمة الثالوث المقدس وافتداء الأسرى ومنظمة سيدة الرحمة التي كانت مكلفة بتحرير الأسرى المتواجدين في العالم الإسلامي.

(١٩) **تشارلز الثاني** (1630-1685): ابن تشارلز الأول، وهو أول الملوك الذين استعادوا العرش من أسرة ستيوارت، وفي سنة ١٦٥١م نصبّه الاسكتلنديون ملكًا إلا أن كرومول هزم جيشَهُ، واضطر للهرب إلى فرنسا. وبعد أن مات كرومول في سنة ١٦٥٨م أصبح الشعب الإنجليزي غير راض بحكومة الوصاية التي خلفت موت كرومول، ولذلك دعوا تشارلز الثاني للعودة، وأصبح ملكًا في سنة ١٦٦٠م، وقد منحهُ برلمانه الأول سلطات واسعة، ومن أهم الأحداث في عهده حربان مع الهولنديين والطاعون الكبير و حريق لندن الكبير و مؤامرة راي هاوس وإجازة قانون الإحضار. أنظر: الموسوعة العربية العالمية قرص إلكتروني، مادة: تشارلز.

(٢٠) هي طائفة مسيحية بروتستانتية تلقب بجامعة الأصحاب، ويتميزون باعتدالهم وقلة تعصبهم على المذاهب الأخرى.

(21) Daniel J. Vitkus, op.cit, p.6.
(22) Ibid.
(23) Ibid, p.٧.
(24) J. Morgan, *A complete History of Algiers, From the Earliest to the present time*, V2, London, J. Bettenham, 1729, p.135.

(٢٥) كارتر، **مذكرات أسير الداي كارتر قنصل أمريكا في المغرب**، ترجمة: اسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية ١٩٨٢، ص٢٢.

(26) Aldan Adiss, *Barbary slaveship, slavery during the Napoleonic war*, T2, Edition Bondage Books, 2011, p.20.

(٢٧) ولدت سنة ١٧٦٢ بيرسموث، إنجلترا، وهي ابنة الملازم الأول للبحرية الملكية وليام هاوسوال، وسوزانا ماسغراف التي توفيت عند ولادة راوندسون، ألفت سوزانا راوندسون أول عمل لها "فيكتوريا" سنة ١٧٨٦، وفي نفس السنة تزوجت وليام راونسن، ثم نشرت عملا جديدا "شارلوت تامبل" سنة ١٧٩١، ثم عملها المهم " العبيد في الجزائر"، توفيت ٢ مارس ١٨٢٤. أنظر:
Watts, Emily Stipes. *The Poetry of American Women from 1632 to 1945*, Austin, Texas: University of Texas Press, 1978.

(28) Susanna Rowson, *Slaves in Algiers*, Philadelphia, Wrigley & Berriman, 1794, p.46.

(٢٩) جون. ب. وولف، مرجع سابق، ص٢٢٨.

(٣٠) ولدت في انجلترا سنة ١٧٧٩، من عائلة محترمة وغنية، تزوجت سنة ١٧٩٧ بالقبطان هنري مارتين قائد إحدى أساطيل الشركة الهندية الشرقية، حيث قضت ستة سنوات أسيرة في الجزائر.

(31) Maria Martin, *History of the captivity and sufferings of Msr.* Maria *Martin*, Boston, Printed for W.Crary, 1807, p.49.
(32) Ibid, p.86.

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449





التأويل التاريخي (الهرمينوطيقا التاريخية) المفهوم، الأهداف، الضوابط، الحدود



محمد أبـجي

باحث في مناهج التاريخ وطرق تدريسه
كلية علوم التربية
جامعة محمد الخامس – المملكة المغربية

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

محمد أبجي، التأويل التاريخي (الهرمينوطيقا التاريخية): المفهوم، الأهداف، الضوابط، الحدود.- دورية كان التاريخية.- العدد الثالث والعشرون؛ مارس ٢٠١٤. ص ١٢٤ – ١٢٨.

www.kanhistorique.org

كان التاريخية: رقمية الموطن .. عربية الهوية .. عالمية الأداء

مُلَخَّصْ

يتناول هذا المقال موضوع تأويل الوثيقة التاريخية عند المؤرخ، وقد استوضحنا في هذا المقال دلالة التأويل التاريخي والمراحل التي يستند إليها المؤرخ في عملية تأويل الوثيقة التاريخية، ودواعي وغايات هذه العملية. كما تطرقنا في هذا المقال أيضًا إلى الشروط التي ينبغي استحضارها من طرف المؤرخ/ الباحث في التاريخ أثناء بحثه عن المعاني الحرفية والمعاني الحقيقية للوثيقة التاريخية، كما أشرنا إلى المنزلقات التي ينبغي تجنبها من طرف المُؤَول حتى لا يحرف الحقيقية المتضمنة في الوثيقة - إن وجدت فيها فعلاً-. وفي الأخير أوضحنا الحدود والصعوبات التي تقف أما الباحث/ المؤرخ التي غالبًا ما ينبغي الاعتراف بعدم القدرة على تجاوزها، وإن تم تجاوزها فإننا نكون أمام عملية التقويل وليس عملية التأويل.

مُقَدِّمَةُ

تعتبر الوثيقة التاريخية المادة الخام التي يبحث فيها المؤرخ/ الباحث في التاريخ عن الجواب للمشكلة التاريخية التي يشتغل عليها، ونظرًا لتعدد أنواع الوثائق حسب لغتها وتخصصها فإنها تستدعي عملية فهمها وتأويلها قبل أن يستخلص منها المؤرخ المعطيات التي تجيب عن الأسئلة التي هو بصدد عن إجاباتها، وهذا الهدف عادةً ما تعترضه صعوبات مثل: لغة الوثيقة (رموز، أرقام، ....)، مجال تخصص الوثيقة (ديني، اقتصادي، عسكري)، زمن الوثيقة (قديم - حديث)، لذا وجب على المؤرخ إذا أراد أن يبلغ مقصده في معرفة ما يرغب صاحب الوثيقة قوله، اللجوء إلى التأويل؛ أي تأويل الوثيقة التاريخية أو التأويل التاريخي، فماذا نعني بالتأويل التاريخي، و ما هي مراحله وأهدافه وضوابطه وحدوده ؟

أولاً: مفهوم التأويل (Herméneutique)

يُعدّ لفظ "تأويل" في اللغة العربية اشتقاقًا صرفيًا من الأَوْل، وهو الترجيع والرجوع. وقد اعتبر السيوطي (ت. ١٥٠٥ه) أن التأويل يعني العاقبة والمآل. أما ابن منظور صاحب لسان العرب فقد أورد التفسير بمعنى التأويل.(١) مما يبرز أنه في الثقافة العربية هناك عدم اتفاق حول مفهوم التأويل ونجد هذا الاختلاف بشكل واضح بين الفقهاء والفرق الكلامية والصوفية واللغويين.(٢) وقد أوضح الجرجاني هذا الاختلاف حيث قال: "التأويل في الأصل الترجيع. وفي الشرع صرف اللفظ عن معناه الظاهر إلى معنى يحتمله إذا كان المحمل الذي يراه موافقًا بالكتاب والسنة مثل قوله تعالى: يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ (يونس٣١) إن أراد به إخراج الطير من البيضة كان تفسيرًا، وإن أراد إخراج المؤمن من الكفر أو العالم من الجاهل كان تأويلاً".(٣) كما نجد العروي يؤكد أنه في الفكر الإسلامي تحمل كلمة تأويل معنًا خاصًا ومحددًا؛ و يعني فقط نوعًا من التفسير حسب قواعد معلومة.(٤)

في الثقافة الغربية فقد تعددت معاني مصطلح الهرمينوطيقا الذي اشتق من الألفاظ اليونانية (Hermenuein) و(Hermenus) والتي تعني التفسير والإعلام، أما في العصور

الوسطى فقد تحول المصطلح من تفسير النص الأسطوري إلى تفسير النص الديني، وفي بداية القرن التاسع عشر جعل الفيلسوف الألماني شلايرماخر (Schleiermacher) التأويل عامًا لكل النصوص متجاوزًا النص المقدس.[٥] أما في مجال التاريخ -يمكن القول- إن التأويل التاريخي هو التعامل مع نص باعتباره موضوعًا علميًا يُقرأ عالميًا بتوظيف علوم مختلفة كاللسانيات والأنثروبولوجيا، وبتحليل خطابه أو عناصره تحليلاً يعتمد الإحصاء والتوزيع والتصنيف، وهو نص قابل للفهم من خلال تجاوز ظاهره بتعدد المتلقين وتزايد المعارف.[٦] وكذلك ذاك العلم المبني على قواعد وأسس تجعل من التأويل والتفسير في مجال التاريخ بناءً علميًا متناسقًا ومتلازمًا مع الواقع التاريخ العياني، يؤكده ويعضده، ولا يخرج عن سياقه المنطقي عبر ضوابط ومحددات علمية.[٧]

ثانيًا: مراحل وخطوات نقد التأويل

يتم نقد التأويل بالنسبة للمؤرخ وفق مرحلتين أساسيتين؛ أولها البحث عن إدراك المعنى الحرفي، والثانية بالبحث عن المعنى الحقيقي للوثيقة وغرض المؤلف مما كتبه.[٨] وذلك بالتمييز بين المعاني الحرفية (الذي قاله الكاتب) والمعاني الحقيقية/ الواقعية (الذي يريد الكاتب قوله).[٩]

١/٢- تحديد المعنى الحرفي للوثيقة:

تحديد المعنى الحرفي لوثيقة/ نص تاريخي معين عبارة عن عملية لغوية، ولا بد لفهم الوثيقة/ النص التاريخي من معرفة اللغة التي كتب بها، لا تكفي المعرفة العامة لهذه اللغة، بل من الضروري فهم دقائقها، فضلاً عن الإلمام بلغة العصر التاريخي الذي ترجع إليه الوثيقة، نظرًا لتغيير اللغة الواحدة من عصر لأخر، واختلاف الكلمات من مكان جغرافي لأخر، واختلاف أساليب الكتابة من كاتب لآخر واختلاف معاني الكلمات من سياق لأخر.[١٠] لذا لفهم ما الذي قاله الكاتب يجب معرفة اللغة التي استخدمها، ولغة العصر الذي تنتمي إليها الوثيقة، والمعاني الخاصة بكلماته وعباراته. ولغة المنطقة/ الدولة ومعانيها الخاصة، والاستعمالات اللغوية التي لم تستخدم منذ زمن (archaïsmes). ومعرفة لغة الوسط (الدير، ثكنة عسكرية، إدارة...) ومصطلحاتها التقنية/ الفنية، ومعرفة لغة الكاتب (طريقة العناية بالتحرير، الأسلوب، المعجم، المعاني التي يعطيها للكلمات، التركيب والبناء...).

كما ينبغي مراعاة المعنى العام للنص (السياق) ولا نؤول بشكل منعزل كل فقرة أو كلمة، لأنه غالبًا ما يوجد خلف كل كلمة واقعًا عاطفيًا، وواقع نفسي – اجتماعي (psycho-social) حتى يتم استيعاب الذي تمثله كل كلمة بالنسبة للعصر الذي قدمت فيه.[١١]
كما ينبغي تمييز معاني نفس الكلمات بين اللغتين العامية والأكاديمية، وكذلك في اللغتين اليومية والقانونية. وتوخي الحذر في نقل نص إلى لغتنا أنشئ في لغة أجنبية، إذ المعاني المتناقضة دائمًا ممكنة، وتتمظهر في ما نسميه "الأخطاء الصديقة" (faux amis). فضعف امتلاك اللغة التي نترجم منها يجعلنا نعطي الكلمات المعاني التي تملكها في لغة المصدر وبالتالي إعطاء هذه الكلمات معنى خاطئ في اللغة الهدف.[١٢] أما في ما يخص الوثائق الرسمية خاصةً الأوامر الإدارية؛ قد يكتفي المؤرخ بقراءة ظاهر الوثيقة لإدراك غرض المؤلف، والتوصل إلى إدراك المعنى الحقيقي، وذلك لأن واضع النص في مثل هذه الظروف، يتوخى استعمال الألفاظ التي توضح المعنى دون أي تردد في الأمر،[١٣] ولأن الشكل العام للوثيقة يؤذن بافتراض أنها مكتوبة بالمعنى الحرفي.[١٤]

٢/٢- إدراك المعنى الحقيقي للنص ومعرفة غرض المؤلف مما كتبه:

(أ) دواعي البحث عن المعنى الحقيقي للنص ومعرفة غرض المؤلف مما كتبه

عندما ينتهي الباحث/ المؤرخ من تحديد المعنى الحرفي للألفاظ والتراكيب التي تحتمل الشك في معانيها، عليه أن يصل إلى معرفة غرض الكاتب والمعنى الحقيقي لما كتبه، فمن الجائز أنه كتب بعض الأساليب والتراكيب غير الواضحة، وفي هذه الحالة لا يؤدي ظاهر النص إلى المعنى المقصود، وتعترض المؤرخ حالات كثيرة من هذا النوع من الأساليب والتراكيب التي تحتوي على تشبيه، أو استعارة، أو كناية، أو رمز، أو هزل، أو مداعبة، أو تلميح، أو تحريض.[١٥]
وتأويل الوثيقة/ النص التاريخي تستدعيه مجموعة من الأسباب؛ أنه ثمة نصوص تاريخية ما يمكن أن نسمها بالنصوص الصامتة والنصوص المبتورة التي تخفي وراء السطور والمصطلحات أو وراء البتر مجموعة من الحقائق المستترة، مما يستدعي تدخل المؤرخ عبر التفسير والتأويل. وأن بعض النصوص التاريخية - كأية نصوص مكتوبة- تتكون من مجموعة من المصطلحات المركبة، المتضمنة لمجموعة من المعاني المحددة بلغة النص وظروف إنتاج الخطاب، وكافة أشكال المعرفة المنتمية لحقل النص، وكل هذه المجموعة من المعطيات المحيطة بالنص التاريخي لا تجعله يعبر عن نفسه، مما يستدعي تدخل "المؤرخ للوقوف على حقيقته وجوهره، وهو ما يفرض عليه الدخول في عملية التأويل". ثم إن المعنى الظاهري أو الصريح للنص التاريخي يخفي وراءه معنى مضمرًا وجب البحث عنه عن طريق التأويل، كما أن التأويل في التاريخ يصبح مشروعًا عندما يكون المعنى الحرفي للنص غير معقول، أو مضطربًا أو منافيًا للوقائع التاريخية المعروفة، ففي هذه الحالة لا يمكن للمؤرخ الحصيف أن يصمت أمام مشهد تاريخي غير عادي، لا تزكيه المعطيات ولا يقبله العقل. وفي غياب أي شاهد ملموس، يضطر للجوء إلى التأويل.[١٦]

أضف إلى ذلك؛ انقطاع السند وما يسببه ذلك من استفهام لدى المؤرخ، وفي هذا الصدد يقول عبدا لله العروي: "كل استفهام مسبوق باستغلاق، بانقطاع السند، وهو أمر كثيرًا ما يحدث بعد كارثة طبيعية... أو بعد هزيمة عسكرية، وكلما انقطع السند تجمد الواقع التاريخي،... ويقف المؤرخ أمامه، أمام مخلفاته، مستغربًا مستعبرًا،... ما هو المفتاح لفك اللغز؟".[١٧] كما أن انفتاح علم التاريخ على سائر العلوم الأخرى أخذت تقتحم مجاله نصوص

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

جديدة تنتمي إلى حقول معرفية متنوعة المشارب كالأدب والفقه والأنثروبولوجيا وعلم النفس واللسانيات، وقد لعب هذا الانفتاح دورًا أساسيًا في التوجه نحو التأويل في التاريخ، ذلك أن نصوصًا تندرج في مثل هذه الحقول المعرفية تستلزم بطبيعتها عملية التأويل. كما أن بعضها يمثل وجهة نظر قوى المعارضة، لكن بخطاب يعتمد على الرمز والتمويه كالتعبير بكلام ينسب إلى الموتى، أو بالخوارق والكرامات الصوفية، أو التعبير بالأحلام، أو بالمعنى المضمر، أو باستعمال صيغة المبني للمجهول في رواية الخبر. وبالمثل يرد الكلام في العديد من أمثال هذه النصوص "التاريخية" على لسان الحيوانات، وهو تعبير لا تفرضه الضرورة التعليمية التي يستهدفها صاحب النص فحسب، بل أيضًا لتفجير جملة من المكبوتات السياسية والاجتماعية لديه، وجل هذه الصيغ التعبيرية تُعدّ أشكالاً نصية تاريخية مجازية قابلة للتأويل.

ثم التورية حيث يوجد في التاريخ الصوفي بعض المتصوفة والأولياء الذين اعتمدوا على التأويل، أو الفعل الذي يستدعي التأويل الباطني أو الظاهري وسيلة للبحث عن جوهر الحقيقة أو التصريح بها، أي التمويه والتستر عن ذكر المقاصد، الأمر الذي يستدعي تدخل المؤرخ لفك طلاسم هذه التوريات التي تحويها نصوصه وتأويلها بما ينسجم مع الواقع التاريخي. كما يُعدّ الإيحاء أيضًا أحد الحوافز التي تجعل المؤرخ يلجأ إلى التأويل، فثمة أعمال فنية كالصور واللوحات والتماثيل، توحي بالعديد من التأويلات للمؤرخ، وكذلك الحال بالنسبة لفن النحت والموسيقى والأشكال الفنية كالرقص والموسيقى والأهازيج والحركات الفلكلورية، وأشكال الهندسة المعمارية والنقوش التي تزين جدران البيوت والزليج، والزخارف التي تتميز بها صناعة الخزف والأواني، كل هذه الأعمال الفنية الإيحائية وغيرها تسمح بهامش واسع من التأويل. كذلك الرموز والألوان لها دلالات، وشعارات الدول وألويتهم وراياتهم، وعلامات الألقاب والكنى والشارات مثل: شارات الملك وشارات الجيوش والنقود، والمسكوكات، ودلالات الأنساب والقبائل كلها تفتح باب للتأويل.[١٨]

(ب) شروط أو ضوابط نقد التأويل للوصول للمعنى الحقيقي

ومن أجل تأويل مناسب للنص يجب على المؤرخ أن يضع نفسه محل الكاتب/ المؤلف واختراق فكره، وهذا الأمر ضروري لتفادي الأفكار المسبقة وعدم التركيز على قراءة جزء من الوثيقة فقط، باستحضار جميع جوانب شخصية الكاتب (زمنه، منطقته الجغرافية، مهنته، هدفه من التأليف، أسلوب النص).[١٩] ولتجنب التأويلات الخاطئة لا ينبغي أبدًا أن نحاول تخمين ما يريد الكاتب قوله، بل يجب استخراج ما يتضمنه النص، ليس أكثر! وإذا كان النص ملتبسًا فلا ينبغي تمجيد التفسيرات الأكثر إيجابية لأطروحة الكاتب، لكن ينبغي أن نفسر كذلك بأمانة إلى الاحتمال الذي يمكن أن يميل إليه النص.[٢٠] هذا على الأقل ما تدعو إليه المدرسة الوضعانية التي لا تؤمن بتعدد التأويلات. وفي هذا يقول رائدا هذه المدرسة في فرنسا (Charles Victor Langlois) و (Charles Seignobos): "إن الوثيقة لا تحتوي إلا أفكار كاتبها، وينبغي أن يتخذ المرء قاعدة له أن يبدأ بفهم النص في ذاته، قبل أن يتساءل عما يمكن استخلاصه منه من أجل التأريخ؛ وهكذا نصل إلى هذه القاعدة المنهجية العامة وهي: دراسة كل وثيقة ينبغي أن تبدأ بتحليل مضمونها لغير غاية إلا تحديد فكرة المؤلف الحقيقية".[٢١]

وفي الحقيقة؛ يمكن إجمال ضوابط وشروط تأويل الوثيقة التاريخية عمومًا والنص التاريخي خصوصًا - وإن من الصعب حصرها أو الاتفاق حول مواصفاتها- في يلي:[٢٢]

- ينبغي أن يشكل النص موضوع التأويل وحدة تتسم بالتناسق والكمال والشمولية والانتظام، لأن المؤرخ إذا انطلق من نص يغلب عليه التفكك والاضطراب والابتسار والتقطع، فإن النص ذاته يصبح غير قابل للتأويل، وكل سعي وراء ذلك يكون مجرد لغط أو "كماليات" فكرية. ولا يكون التأويل حسب العروي ممكنًا إلا "إذا كانت المادة المدروسة "وحدة منسقة" تتسم بصفات الكمال والشمولية".[٢٣]
- يجدر بالمؤرخ قبل تأويل النص، تأمله اعتمادًا على تصورات ذهنية ومعارف أولية تعطي للمؤول أبعاد النص المؤول، وفي هذا يقول العروي: "إذا أراد المؤرخ أن يدرك ... معنى فلا بد له أن يقوم بعملية ذهنية مزدوجة يشارك فيه العقل والحدس على السواء، لا بد أن يتم تعارف واستئناس بينه وبين المادة المدروسة فيبني على أساسها مقياسًا هو الأنموذج الذهني... مقياس إجرائي منسوب للكلة المدروسة".[٢٤]
- فهم النص التاريخي الذي يستدعي بانغلاقه التأويل، وهذا الفهم يتشكل من خلال ما يقوم به المؤرخ من عمليات المقايسة والمقابلة والمعارضة والترتيب، انطلاقًا من مجموع المستندات/ الوثائق التي يجمعها، أو ما يسميه البعض بمسند البحث، يحتك بها ويستأنس حتى تصبح لديه نوعًا من المعتاد والمألوف، فيصبح في عقله تصور يعكس النظام الضمني لتلك المستندات تقوده إلى حكم يستنبط منه مجموعة من الأقيسة أو المقاسات بهدف إعادة تركيب تلك المجموعة في شكل "كلة" مغلقة على حد تعبير العروي، وإذا نجح في هذا المسعى يكون بذلك قد فهم النص، وتُعدّ هذه القاعدة مشتركة عند كل المؤولين رغم الاختلاف في النتائج.
- حاجة المؤول إلى معرفة تاريخية تحيط بأهم التجارب التاريخية الكبرى للبشرية المادية منها والروحية، وذلك قصد استلهام المعنى الذي يحاول استخراجه من النص التاريخي المؤول.
- تجاوز القراءة السطحية للنص التاريخي إلى قراءة شمولية تقوم على النظرية الكلية الفاحصة، مع مراعاة التقيد بمقصدية النص، وعدم التسرع والتعميم. وقد كان العلماء المسلمين على حق حين وقفوا من التأويل موقف مَنْ لا يرضى بمجرد الظن.

ISSN: 2090 – 0449

- البحث عن المعنى المضمر في النص، أي المعنى غير المصرح به في الجملة اللغوية المنطوق بها.
- احترام القراءة السياقية للنص من خلال وضعه في سياقه المرجعي أي سياق التاريخ. فالمعنى المراد تأويله يحتاج إلى معنى آخر يثبته، وعلى المتلقي أن يرصد معنى للمعنى الذي أثبته في لحظة التأويل، ونعني بذلك ضرورة استحضار ظروف إنتاج الخطاب، وربط النص بثقافة المحيط الذي أنتجه. وفي إطار استحضار ظرفية إنتاج الخطاب، ينبغي التمييز بين تاريخية المؤلف وتاريخية النص، فتاريخية المؤلف تتمثل في ظروفه ووضعه السوسيو- اقتصادي والنفسي، وكذا التيارات الثقافية والحزبية التي كان ينخرط فيها. أما تاريخية النص فهي الحقيقة التاريخية التي يفصح عنها النص باعتبار أن ما يطرحه يكون موجهًا لأناس يعيشون في عصر له خصوصياته الثقافية والدينية والاجتماعية.
- مراعاة انعدام وجود تناقض المعنى المؤول مع معطى الواقع، وإلا فقد التأويل مصداقيته. فالتأويل التاريخي يجب أن ينتهي إلى التعاضد مع الواقع لا التنافر معه، لأنه يكمل صورة الواقع أو الحقيقة التي يبحث عنها المؤرخ.
- عدم إسقاط الحاضر على الماضي في عملية التأويل التاريخي، فالنص يؤول حسب اختلاف ظروف البحث وظروف الإنصات، وإن كان البعض يرى صعوبة التحرر من المحيط الثقافي للمتلقي.
- احترام منطق النص وبنيته الداخلية ومقارنته بنصوص خارجية إذ لا يستقيم تأويل نص ديني كنص في السير والمغازي.

تأويل النص يحتاج إلى التحليل اللغوي في مستوييه الصوتي والدلالي، بتفحص الجانب الصوتي في المصطلحات الواردة في النص لأن مراعاة هذه الاختلافات الصوتية ودلالاتها يُعدّ أداة مهمة تسعى -بامتياز- إلى الحيلولة دون السقوط في جروف التأويل الخاطئ، لأن المعنى قد يتغير أحيانًا حسب اختلاف مخارج الأصوات. وقد كان ابن خلدون من السباقين إلى ضرورة مراعاة مخارج الحروف للدلالة على المعنى وفي هذا يقول: "اعْلم أن الحروف في النطق كما يأتي شرحه بعد؛ هي كيفيات الأصوات الخارجة من الحنجرة تعرض من تقطيع الصوت بقرع اللهاة وأطراف اللسان مع الحنك والحلق والأضراس، أو بقرع الشفتين أيضًا، فتتغاير كيفيات الأصوات بتغاير ذلك القرع، وتجيء الحروف متمايزة في السمع، وتتركب منها الكلمات الدالة على ما في الضمائر، وليست الأمم كلها متساوية في النطق بتلك الحروف. فقد يكون لأمة من الحروف ما ليس لأمة أخرى... ولما كان كتابنا مشتملاً على أخبار البربر وبعض العجم، وكانت تعرض لنا في أسمائهم أو بعض كلماتهم حروف ليست من لغة كتابنا ولا اصطلاح أوضاعنا، اضطررنا إلى بيانه ولم نكتف برسم الحرف الذي يليه كما ذكرناه؛ لأنه عندنا غير واف بالدلالة عليه فاصطلحت في كتابي هذا على أن أضع ذلك الحرف العجمي بما يدل على الحرفين اللذين يكتنفانه ليتوسط القارئ بالنطق به بين مخرجي ذَيْنِكَ الحرفين فتحصل تأديته".[٢٥]

- الابتعاد عن التأويل الموجه المنطلق من مقولات جاهزة أو تصورات قبلية، والتحرر من أي احتواء للذات المفسرة، ووهمها بالقدرة على التأويل انطلاقًا من توجهات معينة. وفي هذا الصدد يقول فوستيل دي كولونج: "بعض العلماء المحصلين يبدؤون بتكوين رأي... بعد هذا فقط يقرؤون النصوص، وهم بهذا في خطر أن لا يفهموها، أو يفهموها فهمًا خاطئًا، ذلك أنه بين النص والعقل المستبق برأي... يقوم نوع من النزاع الصريح، ويرفض العقل أن يدرك ما هو مضاد لرأيه، والنتيجة عادةً لهذا النزاع ليست أن يسلم العقل ببينة النص، بل على العكس النص يؤول ويُكيف ويطوى ليتكيف مع فكرة العقل السابقة.... وإقحام الأفكار الشخصية في دراسة النصوص... فيُخيل إلى المرء أنه يبصر شيئًا، وهو في الواقع لا يبصر شيئًا. ويُخيل إليه أنه يشاهد واقعة، وفورًا تتخذ هذه الواقعة اللون والمعنى اللذين يريد العقل أن يجدهما فيها. ويُخيل إليه أنه يقرأ نصًا، ولكن عبارات هذا النص تتخذ معنى خاصًا حسب الرأي السابق الذي كونه الإنسان عنه".[٢٦]
- تجاوز التأويل المأدلج حيث أن كل فعل تأويلي يفقد مصداقيته إذا اقترن بالإسقاط الإيديولوجي المقنع، والتقييم الشكلي الاعتباطي الذي يعمل على تجويف النص التاريخي من دلالته، وتحويله إلى هيكل فارغ لا قيمة له.
- مراعاة معاني الدلالات الرمزية في النسيج الثقافي؛ فعند افتراض وجود دلالة رمزية في النص التاريخي، فإن تأويل المؤرخ يغدو ضروريًا، لكن يتحتم عليه الأخذ بعين الاعتبار ما تعكسه الدلالة الرمزية في الفكر، ومدى تجذرها في الثقافة العربية إذا كان النص المؤول يهم التاريخ العربي، وبما تختزنه هذه الثقافة من مأثورات ومعتقدات شعبية ومتخيل اجتماعي، على أن يكون النص مكونًا من جملة معاني تربط بينها الدلالة المباشرة التي تحيل عليها الوحدات المكونة له.

إن ما سبق ذكره يهم في مجمله الوثائق المكتوبة، أما بالنسبة لتأويل التمثال من رسومات ومنقوشات ومصبوغات وهندسيات منسوخة وأواني خزفية... فبعكس التحاف أو الفنان أو الشاعر أو الفيلسوف الذين يندفعون إلى شتى طرق التأويل ينبغي على المؤرخ إذا استعصى عليه تأويله أن يلوذ إلى الصمت في انتظار شواهد أخرى، أي تزكية مكتوبة أو خبر مروي يستغله لتفكيك اللغز المصور.[٢٧]

ثالثا: حدود التأويل

تعترض المؤرخ أثناء عملية التأويل عدة صعوبات، وأول هذه الحدود حسب العروي هو إذا كانت المادة المدروسة لا تشكل "وحدة منسقة" تتسم بصفات الكمال والشمولية والانتظام بقيمة

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

جوهرية، ويعتبر التأويل في غيابها غير ممكن، وإذا تم التسرع في تعميم إشكالية الفهم تنشأ الشبهات والمغالطات.(٢٨) وهنا تطرح مسألة أساسية، وهي أيضًا من حدود التأويل التي لا ينبغي للمؤرخ الوقوع فيها وهي مسألة التقويل؛ فعندما يفرض القارئ أي قارئ على النَّص معاني لا يحتملها ولا يطيقها، أو أنَّه يرفضها، فإن المؤِّول قد تجاوز الحد والحدود، وانتقل من عملية التَّأويل إلى عملية التَّقويل، أي تقويل النَّص ما لا يقول، وربما ما لا يريد أن يقول.(٢٩) أما في ما يخص الوثائق الأيقونية والتصويرية فتعترضها عدة صعوبات لذا ينبغي أن نفهم ما تقدمه هذه البيانات والرسومات بدقة، ففي العصور الوسطى وعلى سبيل المثال حينما نكون أمام رسم يصور ملكًا مستلقيًا في سريره وتاجه فوق رأسه، فهذا الرسم لا يريد أن يقول بأن الملك احتفظ بالتاج فوق رأسه لينام، بل هو دلالة ورمز لقوة سلطانه.(٣٠)

نفس الصعوبات تطرحها الصور والرسومات التي ترد في الجرائد والصحف، ووسائل الإعلام الحديثة ففي كثير من الأحيان ما نجد الصحف والقنوات التلفزيونية توظف نفس الصورة لشخصية معينة التقطت له في مناسبة غير التي وردت بشأنها الصورة، وتستخدم نفس الصور التي تتوفر لديها في الأرشيف لأن صاحب الصورة لم يوافق على نشر صورته لأسباب تخصه، أو تقوم هيئة التحرير بربط صورة هذه الشخصية بعنوان أو موضوع لا يعبر بالضرورة عن حقيقتها، أو أن تتكلف برسم صورة لتلك الشخصية قصد السخرية منه (كاريكاتير). لذا فكل تأويل خاطئ يؤدي إلى التضليل وتحريف الحقيقة مما يتحتم معه ضرورة اتخاذ الحيطة والحذر تجاه هذه الوثائق خاصةً أن لا شيء أصبح صعبًا من الناحية التقنية لإدخال تغييرات تحرف تلك الصور (المونتاج) أو الفوتوشوب (Photoshop).(٣١)

خاتمة

نخلص الآن إلى أن التأويل التاريخي عملية فكرية وذهنية معقدة، تتطلب من الباحث في التاريخ جهدًا فكريًا مسترسلاً مرفوقًا بكثير من التأني والصبر للوصول للنتائج المرجوة. كما أن كل تأويل للوثيقة التاريخية يستدعي المزاوجة بين ما هو **ذاتي** و ما هو **موضوعي**؛ ما هو **ذاتي** مرتبط بالمؤرخ الذي ينبغي أن يكون ملمًا بلغة الوثيقة وزمنها، والحقبة أو الفترة التاريخية التي تؤرخ لها، وطبيعة التخصص الذي تتحدث عنه. وما هو **موضوعي** مرتبط بالوثيقة التي ينبغي أن تكون وحدة منسقة تتيح لها إمكانية تأويلها.

الهوامش:

(١) محمد الخراط، **تأويل التاريخ العربي عند بعض المفكرين المغاربة المعاصرين**، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، الدار البيضاء – بيروت، ٢٠١٣، ص ٣٧.

(٢) محمد الخراط، المرجع نفسه، ص ٣٨.

(٣) علي بن محمد السيد الشريف الجرجاني، **معجم التعريفات**، تحقيق ودراسة محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة، القاهرة، ب. ت، ص ٤٦.

(٤) عبد الله العروي، **مفهوم التاريخ: الألفاظ والمذاهب**. المركز الثقافي العربي، الطبعة الرابعة، الدار البيضاء-بيروت، ٢٠٠٥، ص ٣١٤.

(٥) محمد الخراط، المرجع نفسه، ص ٤٠-٤١.

(٦) محمد الخراط، المرجع نفسه، ص ٥١.

(٧) إبراهيم القادري بوتشيش، **النص التاريخي بين الدلالة التقريرية والهرمنيطيقا**، مجلة علامات، العدد ١٦، ١٩٩٨، ص ٣٠.

(٨) قاسم يزبك، **التاريخ ومنهج البحث التاريخي**، دار الفكر اللبناني، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٩٠، ص ١١٣.

(9) Jacques PYCKE, *la critique historique*: *quel long chemin à parcourir entre le témoignage et la synthèse*, ACADEMIA-ERASME, Louvain-la-Neuve, 1992, p.97.

(١٠) حسن عثمان، **منهج البحث التاريخي**، الطبعة الثامنة، دار المعارف، القاهرة، ص ١٢٠.

(11) Pierre SALAMON, *Histoire et Critique*, 2e édition, Edition de l'Université de Bruxelles, Belgique, 1976, p. 105.

(12) Jacques PYCKE, op.cit, p.100.

(١٣) أسد رستم، **مصطلح التاريخ**، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت – صيدا، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢، ص٥٨.

(١٤) عبد الرحمان بدوي، **النقد التاريخي**، وكالة المطبوعات، الطبعة الرابعة، الكويت، ١٩٨١، ص ١١٨.

(١٥) حسن عثمان، المرجع نفسه، ص ١٢١.

(١٦) إبراهيم القادري بوتشيش، المرجع نفسه، ص ٣٣ - ٣٤.

(١٧) عبد الله العروي، المرجع نفسه، ص ٣١٢.

(١٨) إبراهيم القادري بوتشيش، المرجع نفسه، ص ٣٥-٣٦-٣٧.

(19) Léopold Génicot, *critique historique*, CABAY, libraire-éditeur, Louvain-la-Neuve, 1979, p.٤٨.

(20) Pierre SALAMON, op.cit, p.108.

(٢١) عبد الرحمان بدوي، المرجع نفسه، ص ١١٢.

(٢٢) إبراهيم القادري بوتشيش، المرجع نفسه، ص ٣٨-٣٩-٤٠-٤١.

(٢٣) عبد الله العروي، المرجع نفسه، ص ٣١٤-٣١٥.

(٢٤) عبد الله العروي، المرجع نفسه، ص ٣١٤.

(٢٥) ابن خلدون عبد الرحمان بن محمد، **مقدمة ابن خلدون**، تحقيق درويش الجويدي، المكتبة العصرية للطباعة، الطبعة الأولى، بيروت – صيدا، ١٩٩٩، ص ٣٩.

(٢٦) عبد الرحمان بدوي، المرجع نفسه، ص ١١١.

(٢٧) عبد الله العروي، المرجع نفسه، ص ١٢٤.

(٢٨) عبد الله العروي، المرجع نفسه، ص ٣١٤ - ٣١٥.

(٢٩) أحمد عزت السيد، **حدود التأويل**، مجلة جامعة دمشق – المجلد(٢٨) العدد الأول، 2012، ص ٥٣٥.

(30) Jacques PYCKE, op.cit, p.101.

(31) Jacques PYCKE, op.cit, p.104.

علمية. عالمية. مُحكمة. ربع سنوية

ISSN: 2090 – 0449

مرسوم التنصير الإجباري الصادر بتاريخ ١٧ فبراير ١٥٠٢م

Decree Christianization compulsory for the Muslims of the Kingdom of Castile

ترجمة وتعليق



محمد عبد المومن

أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي

ماجستير في تاريخ وحضارة الأندلس

تطوان – المملكة المغربية

Los codigos Españoles concordados y anatados. Tomo decimo. Novisima Recopelacion de los Leyes de España Tomo IV. Que contiene el libro duodecimo; suplemento e indice. Madrid 1850.

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

مرسوم التنصير الإجباري الصادر بتاريخ ١٧ فبراير ١٥٠٢م/ ترجمة وتعليق: محمد عبد المومن.- دورية كان التاريخية.- العدد الثالث والعشرون؛ مارس ٢٠١٤. ص ١٢٩ – ١٣١.

www.kanhistorique.org ISSN: 2090 - 0449

تقديم

بعد حصار دام ثمانية أشهر، اجتمع أبو عبد الله الصغير النصري بفحص غرناطة مع الملكين الكاثوليكيين،[١] فرناندو،[٢] وإيزابيلا[٣] لتوقيع اتفاقية ٢٥ نوفمبر ١٤٩١،[٤] والتي بموجبها أعطيت للمدينة مهلة شهرين للاستسلام، لتسقط بذلك آخر معاقل المسلمين في الأندلس. تضمنت الوثيقة السالفة الذكر شروطًا، اعتبرت جيدة بالنسبة لسكان المدينة المستسلمة، حيث أعطت لهم حرية العبادة، ونصت على عدم التمييز بينهم وبين المسيحيين من رعايا مملكتي قشتالة وأراغون. وبذلك تحول سكان مملكة غرناطة إلى مدجنين،[٥] مثلما كان حال غيرهم من المسلمين، الذين فضلوا البقاء في مناطقهم، خصوصًا في بلنسية وأراغون وقشتالة.

بعد دخول الملكين الكاثوليكيين للمدينة يوم ٢ يناير ١٤٩٢ ومعهم قوات عسكرية تمركزت أساسًا في قصر الحمراء انقسم سكانها إلى ثلاث فرق؛ فريق اعتنق عقيدة المنتصر أغلبهم من أصحاب السلطة والنفوذ الذي فضلوا الحفظ على مكانتهم الاجتماعية ولو اقتضى ذلك التظاهر بالمسيحية أو التحول إليها بشكل فعلي.[٦] وفريق اختار أن يغادر البلاد نحو دار الإسلام لأن غرناطة وقد تزايدت وتيرة الهجرة مع فتوى الونشريسي (توفي ٩١٤ هـ) المسماة: "أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر وما يترتب عليه من العقوبات والزواجر".[٧] وأما جمهرة المسلمين الذين أحبط نفوسهم رحيل النخب المثقفة، فقد فضلوا البقاء بأوطانهم، ظنًا منهم أن الإسبان سيحترمون اتفاقية الاستسلام المشار إليها سالفًا.

كان الملكان الكاثوليكيان مجبران على إبقاء سياستهم "المتسامحة" إلى حين، لكن معارضيهما إدعوا أنه يجب تحويل المسلمين إلى المسيحية لأسباب سياسية أكثر منها دينية. وإجمالاً يمكن القول؛ أن الأمور بقيت مستقرة إلى أن احتل الكاردينال سيسنيروس[٨] منصب رئيس أساقفة إسبانيا سنة ١٤٩٩، وبمجرد توليه المنصب طالب الملكين الكاثوليكيين بالعدول عن سياستهما، لكن الرجل لم يكتفي بالكلام فقط، بل بدأ حركة نشيطة لتحويل المسلمين إلى المسيحية، وقد أدى أسلوبه الفظ[٩] إلى ثورة سكان ربض البيازين،[١٠] وهي الثورة التي امتدت إلى جبال البشرات،[١١] وجبال رندة،[١٢] وأثناء هذه الثورة حاول الملكان الكاثوليكيان استمالة سكان المناطق الجبلية الثائرة وذلك بمنحهم عددًا من الامتيازات، لكن هذه السياسة لم تفلح، فلجأ إلى إرسال قواتهما إلى البشرات، وجبال رندة، حيث حدثت مواجهات مسلحة، قتل خلالها الكثير من الغرناطيين، وتكبد فيها القشتاليون خسائر فادحة. وبالموازاة مع ذلك أصدرت عدد من المراسيم، خصوصا مرسوم يوليوز ١٥٠١، الذي منع على المسلمين بموجبه حمل السلاح.

ومباشرة بعد قمع الثورة أي في بداية سنة ١٥٠٢ (بالضبط يوم ١٧ فبراير ١٥٠٢) - عشر سنوات تقريبًا بعد استيلائهم على مدينة غرناطة – صدر مرسوم التنصير الإجباري، الذي خير مسلمي

علمية. عالمية. مُحكمة. ربع سنوية

ISSN: 2090 – 0449

قشتالة بين المسيحية، أو المغادرة، أو الموت. وهو المرسوم الذي قمنا بتعريبه، لاقتناعنا بأهميته، بالنسبة للباحثين المهتمين بتاريخ الأندلس عامة، وبتاريخ الأندلسيين الغرباء بشكل خاص.

لغة الوثيقة

في كتابه: "نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين"، ذكر المؤرخ المتميز محمد عبد الله عنان، أنه اطلع على كثير من الوثائق الرسمية والكنسية الإسبانية، لكنه فضل التخلي عن ترجمتها، لسبب واضح وهو طبيعة اللغة التي كتبت بها تلك الوثائق. إن لغة الوثيقة التي قمنا بتعريبها، لغة قشتالية قديمة، أصبحت الكثير من مفرداتها وتراكيبها وقواعدها مهجورة الآن، وتحتاج ترجمتها صبر وإلى معرفة جيدة باللغة الإسبانية، بالإضافة أيضًا إلى إحاطة بجوانب التاريخ الأندلسي والإسباني.

مصدر الوثيقة

نشرت هذه الوثيقة في مدريد سنة ١٨٥٠ ضمن كتاب يضم المراسيم والقوانين التي سنها الملوك الإسبان خلال القرن السادس العاشر، وهي توجد في الصفحتين الرابعة والخامسة من الكتاب المعنون بـ:

Los codigos Españoles concordados y anatados. Tomo decimo. Novisima Recopelacion de los Leyes de España Tomo IV. Que contiene el libro duodecimo; suplemento e indice. Madrid 1850.

وختامًا؛ إن هذه الوثيقة لم يسبق أن ترجمت كاملة إلى اللغة العربية، ونرجو أن نكون قد وفقنا في تعريبها.

مرسوم التنصير الإجباري
الصادر بتاريخ ١٧ فبراير ١٥٠٢

"بالنظر إلى المصيبة الكبرى التي تحدث، والتي طرفها الأول المتنصرون حديثًا، وطرفها الثاني المسلمون من مواطني ورعايا ممالكنا وإقطاعياتنا، وحيث إن هذه المصيبة تضر بالهدف الأساسي الذي بذلنا الكثير من أجله في مملكة غرناطة التي كان كل سكانها من الكفار، وبفضل الرب إلهنا لم يبق منهم أحد، وبذلك أزلنا عن ديننا عار وجود هذه النحلة التي كان يسمح بوجودها في إسبانيا وهذا أمر لم يكن لائق.

ولأن الرب إلهنا قد أذن بتغلبنا على أعدائنا القدماء في زماننا هذا، وهم الذين حاربوا ديننا وحاربوا ملوكنا السابقين وحاربوا ممالكنا، فمن الطبيعي أن نظهر له شكرنا على هذه النعمة الكبرى وعلى سائر نعمه علينا، فلنخرج من ممالكنا أعداء اسمه المقدس، ولا نسمح أكثر بالبقاء في ممالكنا لسكان يمارسون عادات ذميمة، ولنأخذ في الحسبان القضية الكبرى، ألا وهي ارتداد عدد من المسيحيين بسبب مشاركتهم لليهود الذين في ممالكنا واتصالهم بهؤلاء، كما أن اتصال المسلمين الذين يعيشون في ممالكنا بالمتنصرين حديثًا خطير جدًا، لأن هذا يمكن أن يؤدي إلى عودة هؤلاء لماضيهم وخطاياهم الأولى- فالنفوس البشرية ضعيفة والشيطان لا ينفك عن محاربة الإنسان - وهذا يحدث بسهولة كما أثبتت التجربة، ورأيناه بأنفسنا في هذه المملكة وخارجها.

فالقضية الأساسية التي يجب العمل عليها، هي التخلص من هؤلاء المسلمين إلى خارج ممالكنا وإقطاعياتنا - ولأن اتخاذ الاحتياطات أفضل من معاقبة الجناة بعد وقوعهم في الخطايا. وحتى لا تقع فضيحة تؤدي إلى طردهم أو إخراجهم رغم كونهم مسالمين ويعيشون بسلام - لهذا وجب إبعادهم عن الناس سواء كانوا صغارًا أو بالغين، وكذلك عن بعضهم البعض تحت التهديد بالعقاب أو التأديب.

لهذا يرى مجلسنا، الذي يضم أساقفة كبار وفرسان وشخصيات أخرى علمية وفكرية، وبعد مشاورات مطولة، أنه يجب إخراج المسلمين من مملكتي قشتالة وليون، وأن لا يسمح بالعودة إليهما. كما يطلب أن تطبق مضامين هذه الرسالة كما هي. وعليه:

فكل المسلمين البالغين من العمر ١٤ سنة فما فوق، والمسلمات البالغات ١٢ سنة فما فوق، واللذين يعيشون في هاتين المملكتين(١٣) سواء كانوا من رعاياهما أو من الذين دخلوا إليهما لسبب من الأسباب وعاشوا فيهما- باستثناء المسلمين الأسرى اللذين يجب أن يكبلوا بالسلاسل ليتم تمييزهم - يجب أن يخرجوا من ممالكنا وإقطاعياتنا قبل نهاية شهر أبريل من العام الجاري ١٥٠٢. ويسمح لهم بأخذ أمتعتهم التي يرغبون في أخذها، لكن يمنع عليهم أن يُخرجوا أو أن يُكلفوا أحدًا بأن يُخرج لهم ذهبًا أو فضة أو أية مواد ممنوعة.

علمية. عالمية. مُحكمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449



عليهم أن يخرجوا ويُخرجوا أمتعتهم من موانئ كونطية بيثكايا(١٤) فقط، وليس من موانئ أخرى أو أماكن أخرى. ولذلك نطلب أن تزود هذه الموانئ بموظفين يراقبون ما يخرج عبرها، وفي حالة ضبط أحد أراد إخراج ذهب أو فضة أو مواد ممنوعة، فإنه يعاقب بالموت وبمصادرة كل أمتعته لصالح ديوان الجبايات.

نحظر على هؤلاء المسلمين وعلى غيرهم أن يخرجوا عبر البحر أو أن ينتقلوا برًا إلى مملكة أرغون أو مملكة بلنسية أو إمارة كطالونيا،(١٥) أو إلى مملكة نابارا،(١٦) (١٧) لأننا في حرب مع مسلمي إفريقيا ومع الأتراك، كما يمنع عليهم أن يتوجهوا إلى إفريقيا أو إلى الأراضي العثمانية، تحت التهديد بالموت ومصادرة الأملاك لصالح ديوان الجبايات، لكن يسمح لهم بالتوجه إلى أرض السلطان،(١٨) أو إلى أي مكان يرغبون في التوجه إليه باستثناء الأماكن السالفة الذكر.

نأمر ونؤكد على أن المسلمين المطرودين- سواء كانوا من رعايا أو ليسوا من رعايا الممالك السالفة الذكر - باستثناء الأسرى- يمنع عليهم العودة أو القدوم إلى هذه الممالك، وإلى الأراضي التابعة لها سواء بقصد العيش أو المرور أو بأي نية أخرى منعًا أبديًا، وإذا حدث أن توجدوا وألقي عليهم القبض في إحدى هذه الممالك والإقطاعيات أو دخلوا إليها بطريقة غير شرعية بدون إذن أو تصريح، يحكم عليهم بالموت وبمصادرة أمتعتهم لصالح ديوان الجبايات.

يُمنع على سكان ممالكنا أو أي شخص آخر يقيم فيها أن يستقبل، أو يقبل، أو يأوي بشكل سري، أو علني مسلمًا أو مسلمة من الذين سلف ذكرهم، سواء في منازلهم أو أراضيهم أو في أي مكان من ممالكنا وإقطاعاتنا، ويسري هذا ابتداء من نهاية شهر أبريل المقبل وإلى الأبد تحت التهديد بمصادرة الأمتعة والعقارات والحصون وأية أملاك أو أموال أخرى وتسليم الكل لديوان الجبايات.

تحت التهديد بالموت، يُمنع على المسلمين والمسلمات الأسرى من الاتصال والتحدث إلى من تحولوا حديثًا للمسيحية بأحاديث تمس إيماننا الكاثوليكي، أو يمكن أن تؤدي إلى الارتداد عن عقيدتنا".

الهوامش

(١) الملكان الكاثوليكيان: هما الزوجان، الملكان، فرناندو الثاني من أراغون، وإيزابيلا الأولى من قشتالة .منح البابا إسكندر السادس هذا اللقب لهما.

(٢)**فرناندو الثاني**: (١٠مارس ١٤٥٢ - ٢٣ يناير ١٥١٦) أحد الملوك الكاثوليك، ملك آرغون ثم اسبانيا بعد وحدتها مع قشتالة.

(٣) **إيزابيلا الأولى**: (٢٢ أبريل١٤٥١ - ١٥٠٤) ملكة قشتالة ثم إسبانيا بعد وحدتها مع مملكة أراجون، كانت لقراراتها آثار عظيمة في تاريخ إسبانيا.

(٤) انظر: ترجمة عدد من بنودها في كتاب **دولة الإسلام في الأندلس – العصر الرابع - نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين** – من تأليف محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الرابعة، ١٩٩٧، ص ٢٤٢ وما بعدها.

(٥) هم مسلمون لبثوا في المناطق التي استولى عليها المسيحيون، ولم يتنصروا، لكنهم أجبروا على ذلك في أوائل القرن السادس عشر بموجب مرسوم (١٥٠٢/٠٢/١٧).

(٦) للمزيد من التفاصيل، انظر: كتاب محمد عبد الله عنان المشار إليه سابقًا، الصفحة ٣١٥.

(٧) أحمد بن يحيى الونشريسي. **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب**. خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، منشورات وزارة الأوقاف للمملكة المغربية، الرباط، ١٩٨١، الجزء الثاني، ص ١٣٧.

(٨) **فرانثيسكو خيمينيث** دي ثيسنيروس كاردينال إسباني ولد في توريلاغونا ١٤٣٦، وتوفي سنة ١٥١٧، شخصية مهمة ومؤثرة في التاريخ الإسباني، حيث تولى عددًا من المناصب أهمها: أمين سر الملكة إيزابيلا، وكبير المفتشين محاكم التفتيش، ورئيس أساقفة إسبانيا.

(٩) تم التنصير خلال هذه الحقبة بطريقتين: عن طريق التعميد الإجباري كما حدث في غرناطة وبسطة وألمرية ووادي آش أو عن طرق الإغراء كالإعفاء من أداء الضرائب وهذا حدث في البشرات ووادي اللغرين واللنخرون.

(١٠) أحد أرباض مدينة غرناطة النصرية، بني على أنقاض مدينة إلبيرة، يُعدّ حاليًا من أهم أحياء المدينة.

(١١) منطقة تقع جنوب جبال سييرا نيفادا قرب غرناطة في منطقة الأندلس ذاتية الحكم. يقع القسم الغربي من المنطقة في مقاطعة غرناطة ويقع القسم الشرقي منها في مقاطعة ألمرِيّة.

(١٢) سلسلة جبلية توجد في أقصى الجنوب الإسباني ضمن إقليم مالقة تُعرف بعض أجزائها باسم الجبل الأحمر.

(١٣) المقصود مملكتا قشتالة وليون.

(١٤) إقليم يقع في أقصى شمال إسبانيا يتبع حاليًا لمنطقة الحكم الذاتي لبلاد الباسك.

(١٥) لم يتم إجبار مسلمي بلنسية وأراغون على التنصر إلى سنة ١٦٢٥.

(١٦) كانت نابارا مملكة مستقلة تقع في أقصى شمال شبه الجزيرة الإيبيرية على الحدود مع إسبانيا وأصبحت سنة ١٥١٢ تابعة لإسبانيا.

(١٧) صدر قرار التنصير الإجباري في مملكة نابارا سنة ١٥١٢ مباشرة بعد انضمامها للتاج الإسباني.

(١٨) هكذا في الأصل، ولم أتوصل للمقصود بأرض السلطان.

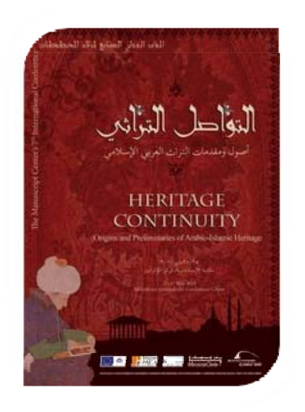
علمية. عالمية. مُحكمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

وقائع المؤتمر الدولي
التواصل التراثي: أصول ومقدمات التراث العربي الإسلامي
المنعقد في مركز مؤتمرات مكتبة الإسكندرية في الفترة ٢٥ ـ ٢٧ مايو ٢٠١٠

The Manuscript Center's 7th International Conference

Heritage Continuity

25 - 27 May 2010



د. علي عفيفي علي غازي
دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر
صحفي وأكاديمي مصري

انعقد المؤتمر الدولي السابع لمركز مخطوطات مكتبة الإسكندرية تحت عنوان "**التواصل التراثي: أصول ومقدمات التراث العربي الإسلامي**" بقاعة الندوات بمبنى مركز المؤتمرات التابع للمكتبة بالإسكندرية، عروس البحر الأبيض المتوسط، في الفترة من الخامس والعشرين إلى السابع والعشرون من شهر مايو الماضي (٢٠١٠)، برعاية الأستاذ **الدكتور إسماعيل سراج الدين** مدير مكتبة الإسكندرية، ورئاسة الأستاذ **الدكتور يوسف زيدان** مدير مركز المخطوطات. شارك في المؤتمر باحثون مصريون، وفرنسيون، وبريطانيون، ويونانيون، وألمانيون وسوريون، وكويتيون، وأردنيون، ولبنانيون، وسعوديون، وإيطاليون، وعراقيون، وقطريون، وفنلنديون متميزون، وتضمن أبحاث جديدة مبتكرة، تناولت جذور التراث العربي المنطلق من أصول ومقدمات سبقته في المجالات المختلفة العلمية والفكرية والأدبية والفنية، ثم كان مؤثرًا في الحضارة الأوروبية الحديثة ليلعب دوره كحلقة من مهمة وضرورية في تراث الإنسانية. توزعت أعمال المؤتمر في مدار ثلاثة أيام على خمس عشرة جلسات والجلسة الافتتاحية والجلسة الختامية التي تضمنت توصيات المؤتمر.

درب استكشاف

افتتح الدكتور **إسماعيل سراج الدين** أعمال المؤتمر بالترحيب بالضيوف والباحثين المشاركين في مستهل أعمال المؤتمر الدولي السابع لمركز المخطوطات، كخطوة جديدة على الدرب الذي انتهجته مكتبة الإسكندرية، درب استكشاف الماضي، وفهم الحاضر، واستشراف المستقبل، ليكون متممًا ومكملاً للسعي الدؤوب لتأسيس وعي عميق بالتراث والمخطوطات، وهو المسار الذي ابتدأ بعد العام الأول من حياة مكتبة الإسكندرية، حيث انعقد في عام ٢٠٠٤ مؤتمر (المخطوطات الألفية) ليعرفنا بالمخطوطات التي أتمت من عمرها ألف سنة أو يزيد، وفي الربيع التالي (٢٠٠٥) انعقد المؤتمر الثاني للنظر في (المخطوطات الموقعة) التي حظيت بخطوط مؤلفيها، أو بأقلام أعلام كبار وقعوها إجازة وتصحيحًا، أو تذييلا، واستكمالاً.

وكانت (المخطوطات الشارحة) عنوان المؤتمر الثالث، وكان لقاء الربيع التالي (٢٠٠٧) هو مؤتمر (المخطوطات المترجمة)، وانعقد المؤتمر الخامس في ربيع عام ٢٠٠٨ حول (المخطوطات المطوية) التي انطوت في غيرها، أو طواها الزمان عن أعيننا، ثم انتقل مركز المخطوطات في العام الخامس إلى (آفاق النشر التراثي) لينظر فيما نشرناه من تراثنا، وما لم ننشره فظل متواريًا.

واليوم نبحث قضية بالغة الأهمية، هي (التواصل التراثي) بالنظر في أصول تراثنا العربي الإسلامي، ومقدماته المبكرة، كي نزداد فهمًا ووعيًا بالماضي الفاعل في الحاضر، المرشد للمستقبل، لنخطو خطوة جديدة نحو فهم هذا التراث العربي في سياقه التاريخي والمعرفي، في إطار اهتمام مكتبة الإسكندرية من خلال مركز المخطوطات بقضية التواصل بين الحضارات والثقافات الإنسانية، وهو انعكاس وتأكيد لطبيعة الدور الذي تم إحياء المكتبة من أجله، وهو الدرب الذي تسير عليه لأجل إبراز التفاعل الخلاق بين البشر. وتجدر الإشارة إلى: أن جهود مركز المخطوطات ومتحف المخطوطات لم تقتصر طيلة السنوات الماضية على إقامة المؤتمرات الدولية، والمعارض، وإنما توازت مع جهود طيبة في تطوير أعمال الترميم الفني للمخطوطات والكتب النادرة، وفي الخدمات البحثية المتاحة للمتخصصين في قاعات الاطلاع، وهو ما يستحق التحية للعاملين بالمركز ولمديره.

التواصل التراثي

ثم ألقى المحاضرة الافتتاحية الأستاذ **الدكتور يوسف زيدان** مدير مركز المخطوطات موضحًا أن "لكل تراث تراث، ولكل سابق أسبق"، كحقيقة بديهية نخرج بها من درس الحضارات، التي هي نتاج

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

تراثيات تعاقبت وتراكبت، وأفضى بعضها إلى بعض، على نحو صنع في نهاية الأمر تراث الإنسانية. وهذه المقولة تنطبق تمامًا على التراث العربي الإسلامي، الذي يشكل ظواهر حضاري كبرى نتجت عن عمل مديد، امتد قرابة الألف عام من العطاء الإنساني المتنوع لمشاهير العرب والمسلمين، في مجالات العلم واللغة والدين والفن والأدب، فتراثنا لم ينطلق دون مقدمات أو أصول سابقة، فالمداولة بين الناس، وانتقال مشعل الحضارة بين الأقوام، له قوانين وقواعد لابد من التعمق فيها للوصول إلى وعي وإدراك عميق بالتراث السابق.

إلا أن الأكثرين ظنوا كل خلق خلقًا أول، وتوهموا أن اللاشيء يسبق الظهور المفاجئ لكل موجود، ومن هنا هيمنت على أذهانهم رؤى غير واقعية للتاريخ، بل ولحاضرهم أيضًا تتمحور حول الذات، وتعدها وجودًا مستقلا عما سبقها، وعما تلاها، وكأنها مسبوقة بالعدم، وليس بعدها إلا العدم، والحضارة العربية الإسلامية ليست مختلفة عن ذلك، فالزمن السابق على الإسلام كانت له أحكامه، فالجاهلية ليست الجهل، وليست الظلام، ويشهد بذلك قول الحق تبارك وتعالى "أفحكم الجاهلية يبغون"، كما أن اللغة العربية لم تأتي من عدم، ولا صلة بينها وبين العبرية والسريانية من قبلها، وبينها وبين العديد من اللغات من بعد، فرغم أن القرآن الكريم قرآنا عربيًا، إلا أن به بعض الألفاظ التي نظمها في عقده: حبشية وفارسية وسريانية. فالحضارات لا تخلق من عدم.

ولهذا فقد اختلف في تراثنا اتجاهان: الأول يرى أن الحضارة العربية الإسلامية نسيج واحد، ولم ولن تتكرر، والآخر يرى أنها ركب يمتد بجهود الجماعات المتعاقبة، المبدعة علمًا وفنًا وفكرًا، وهو مذهب المؤتمر "التواصل التراثي"، الذي يُعني بالنظر في الأصول التي انطلق منها التراث العربي الإسلامي والمقدمات التي سبقته في المجالات المختلفة، بغية استكشاف طبيعة هذا التواصل في المرحلة المبكرة، المفصحة عن بداياته، الكاشفة عن أصوله ومقدماته؛ لأجل تأسيس وعي حقيقي بهذا التراث، الذي كان مؤثرًا في الحضارة الأوروبية الحديثة، حتى تجلوا في الأذهان حقيقة المتصل التراثي وطبيعة التواصل بين الحلقات التي شكلت تراث الإنسانية.

تجديد الأصول

وافتتح الأستاذ الدكتور **رشدي راشد (فرنسا)** أبحاث المؤتمر ببحث عنوانه **"تجديد الأصول: نشأة الفكر العلمي والفلسفي في الإسلام"** بين فيه دور الأصول العلمية والفلسفية اليونانية في نشأة الفكر العلمي والفلسفي في الحضارة الإسلامية، وبين ضرورة التخلي عن مفهوم النقل والترجمة السائد لمن يريد فهم هذه الظاهرة، فلا يمكن بحال فهم نقل الأصول اليونانية إلى العربية إذا نسينا البحث العلمي والفلسفي الجديد الذي أدى إلى تجديد هذه الأصول، فيبحث في جدلية النقل والتجديد بتحليل أمثلة من علم المناظر والرياضيات والفلسفة.

التواصل الحضاري

تلا ذلك بحث الأستاذ **الدكتور عبد الله الغنيم (الكويت)**، بعنوان **"التواصل الحضاري في التراث الجغرافي العربي"**، محاولا إلقاء الضوء على جوانب مما استفاد العرب من علوم الأمم السابقة، وكيف أدى هذا الاحتكاك العلمي إلى تحريك عجلة التطور العلمي في مجال الجغرافيا في عصر النهضة العربية، فلم يكن علم الجغرافيا عند العرب منفصلا أو منبت الصلة عن تطور ذلك العلم عند الأمم القديمة السابقة عليهم، فقد ترجم العرب أعمال علماء اليونان والرومان والفرس والهنود، وامتحنوا أفكارهم ونظرياتهم، وبرز ذلك في اعتناق العرب فكرة كروية الأرض، وإعادتهم النظر في حساب درجة العرضية، وتطوير صناعة الخرائط، مستفيدين من فكرة الأقاليم السبعة التي قسم إليها القدماء الأرض، كما نظروا فيما قدمه أرسطو وغيره من العلماء في مجال الآثار العُلوية واستعرضوا رؤيتهم لأسباب حدوث الزلازل والبراكين، والظواهر الجوية المختلفة، وقدموا مجموعة من الإضافات الجوهرية في هذا المجال.

أصول التراث العربي

ثم قدّم الأستاذ **الدكتور أيمن فؤاد سيد (مصر)** بحث متميز جديد حمل عنوان **"أصول ومقدمات التراث العربي من خلال كتاب الفهرست للنديم"** استعرض فيه الأعمال الأولى للمؤلفين العرب والمسلمين، التي لم يصل إلينا أغلبها، والتي كانت أساسًا للمؤلفات الإبداعية التي أنتجها علماء القرنين الثالث والرابع للهجرة، بحيث يعد كتاب الفهرست للنديم كتابًا مؤسسًا في حركة الإنتاج الفكري العربي الإسلامي، وتأثيرها في الفكر الإنساني. فيقدم كتاب الفهرست أشمل عرض لأصول الثقافة الإسلامية ومناهلها المختلفة. فهو يعرض الأصول الأولى للتأليف والتصنيف عند المحدثين والإخباريين، ونشأة علمي النحو واللغة وتطورهما حتى قرب نهاية القرن الرابع الهجري، كما أن العرض الذي يقدمه عن التواصل بين الحضارة الإسلامية والفكر اليوناني وأخذها عنه نقلا وترجمة ثم استيعابًا وإبداعًا لا نجده بهذا التفصيل عند مؤلف آخر.

حمامات السوق

ثم قدم الباحث **الدكتور عادل محمد زيادة (مصر)** بحثًا هامًا متميزًا ومتفردًا وجديدًا في موضوعه بعنوان **"حمامات السوق تراث إسلامي موروث"**. قدّم فيه عرضًا للآراء بشأن أصل عمارة الحمامات واختلافها، وأوضح أن كثرة إنشاء الحمامات العامة في المدن الإسلامية كان يرجع لارتباطها بدعوة الإسلام للنظافة والتطهر، وأن إنشائها لم يكن دليل حضارة أو ترف وغنى فحسب، بل لضرورات اجتماعية لا غنى عنها بالنسبة للرجال والنساء على السواء. وأثبت أن دور الحمامات العامة في المدن الإسلامية لم يقتصر على وظيفتها الأساسية وحدها بل تعداها إلى أبعد من ذلك بكثير لتحتل مركزًا رئيسًا على الأصعدة الدينية والاجتماعية

علمية. عالمية. مُحكَمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

والأدبية، وحتى الخرافية، ثم انتقل إلى التطور الذي أحدثه المسلمون في تخطيط الحمامات في بعض أقاليمهم بما يتوافق مع طبيعة المناخ، وبما يتوافق أيضًا مع عاداتهم وتقاليدهم. وأخيرًا اختتم البحث بالحديث عن بعض العادات والتقاليد الاجتماعية العربية والإسلامية التي لعبت دورًا هامًا في الفنون الشعبية الإسلامية التي ساهمت فيها الحمامات وارتبطت بها دون غيرها من المشيدات الاجتماعية الإسلامية الأخرى.

الأدب الجاهلي

ثم قدَّم الأستاذ **الدكتور أحمد هويدي (مصر)** بحثًا بعنوان **"الأدب الجاهلي في ضوء نظرية مصادر التوراة"** طرح من خلال عددًا من القضايا والتساؤلات حول أهمية دراسة الآداب السامية لدراسة الأدب الجاهلي، وجذور الشعر الجاهلي في العهد القديم، ونظرية مصادر التوراة وأهميتها لدراسة العهد القديم، وكيف يمكن تطبيق نظرية مصادر التوراة على الأدب الجاهلي، فقد كان من نتائج دراسة علاقة الآداب السامية بآداب العهد القديم ظهور الكثير من النظريات العلمية في مجال دراسة العهد القديم، ومنها نظرية مصادر التوراة، التي يطرح البحث تساؤلا عن مدى الاستفادة منها في دراسة الأدب الجاهلي، فرغم كثرة الدراسات في مجال الساميات في أقسام اللغات الشرقية، واللغة العربية، إلا أنها أغفلت الدعوة إلى دراسة العلاقة بين الآداب السامية القديمة بصفة عامة، وأدب العهد القديم، والأسفار الشعرية، بصفة خاصة، ولهذا يحاول الباحث تقديم دراسة جديدة في موضوعها على المكتبة العربية، للتعمق في العلاقة بين الآداب السامية القديمة والأدب الجاهلي.

الأدب العربي

ثم قدَّمت **الدكتورة هدية الأيوبي (فرنسا)** بحثًا بعنوان **"المؤثرات الأسطورية في الأدب العربي بين الجاهلية والإسلام"** استعرضت فيه لعدد من المحاور تتلخص في مناقشة الاختلاف في تحديد مصطلح الأسطورة، وما للأسطورة من تجليات عند الشعوب القديمة التي لها صلة بالأدب العربي مثل: أساطير الخلق، الطوفان، جلجاميش، العالم الآخر، وغيرها. كما يُبرز البحث تجليات الأسطورة في الشعر الجاهلي، تلك التجليات التي ظهرت في أنماط الخرافات الجاهلية، في البطولات الخارقة: عنترة والزير سالم، وغيرها من التجليات. وهناك أيضًا تجليات الأسطورة في الأدب العربي بعد الإسلام، ونرى ذلك في الأحداث السياسية، والمعتقدات الشعبية، والرموز الدينية، والرموز الفلكية، والأحلام، وكذلك يتقصى البحث آثار المصادر التي أثرت في الأدب العربي؛ كترجمة أعمال مثل: كليلة ودمنة، وألف ليلة وليلة، السندباد، وغيرها.

كليلة ودمنة

ثم قدم الأستاذ **الدكتور أحمد سليم غانم (السعودية)** بحثًا عن **"نتاج المثاقفة في كليلة ودمنة: قراءة في تجليات التواصل التراثي"**. رصد من خلاله مناحي التواصل التراثي عبر تتبع معطيات الاستقبال مرورًا بالآثار الثقافية الهندية والفارسية والسريانية والإغريقية واليونانية والنبطية والعربية، والآثار الدينية اليهودية والمسيحية والإسلامية، والمعتقدات والمذاهب المختلفة مثل المانوية والمزدكية. ثم انتقل إلى معطيات التأثير في العربية، وتخطي الجنس الأدبي في إطار فني النثر والشعر على السواء، في التجارب الأدبية المتلاحقة بغية رصد مناحي التواصل عبر آليات بحثية ومباحث رئيسية من خلال محورين: ناقش في أولهما تداعيات التناول الأيديولوجي لقضايا الاستقبال من الثقافة العربية، وتفاوت الاستقبال وتداخله أحيانًا في الثقافات والأديان والمعتقدات. وفي الثاني ناقش أنماط التحول الأجناسي وآليات التشكيل الموضوعي والصياغي، وثنائية الشعبي والرسمي.

التراث الإسلامي

وشارك الباحث **الدكتور حسن حنفي (مصر)** ببحث جديد في موضوعه عن **"جدل التواصل والانقطاع في التراث الإسلامي"** بدأه بإيضاح معاني التواصل والانقطاع في التراث الإسلامي، فالتراث الإسلامي إحدى حلقات التراث القديم الفارسي والهندي شرقًا، واليوناني والروماني غربًا، أخذ عنهم، ونقد وطور، انقطع وتواصل، لكنه تواصل أكثر مما انقطع، حتى العصور الحديثة، ومازال الإشكال مطروحًا اليوم بين موقفين: الانقطاع عند السلفيين، والتواصل عند الإصلاحيين العلمانيين. فالتراث الإسلامي متعدد الجوانب: فرق كلامية، مذاهب فلسفية، طرق صوفية، مناهج أصولية، وظهر ذلك في مفارقات معروفة: الظاهر والباطن، النظر والذوق، النقل والعقل، الشريعة والحقيقة، الأثر والرأي. ويظل التراث قائمًا حيًا ما لم ينقطع أحد جانبيه. والسؤال الجوهري الذي هدف إليه الباحث هو: ألا تقتضي الظروف الحالية تغيير اختيارات التراث الأولى التي تواصلت منذ أكثر من ألف عام، وأن تنقطع معها، وتتواصل مع بدائل تراثية أخرى، أكثر قدرة على الاستجابة لمطالب هذا التراث؟ وأليس هذا هو الدرس المستفاد من دراسة جدل التواصل والانقطاع في التراث الإسلامي؟

الجاهلية والإسلام

وعالج الأستاذ **الدكتور رضوان السيد (لبنان)** في ورقته البحثية بعنوان **"التصورات الدينية والتواصل التراثي بين الجاهلية والإسلام"**، مسألة التواصل الديني واللغوي بين الجاهلية والإسلام باعتبارها إشكالية تتطلب البحث والتساؤل والاستكشاف، من خلال ثلاثة مسائل: **الأولى** تناولت معنى التواصل ومفاهيمه في مجالات الأفكار والبُنى والمنظومات المنقولة أو المتوارثة بشتى الطرق والوسائل. متضمنة وجوه الوعي بالتواصل المقصود، في مختلف العصور، ولدى مختلف الفئات من أرباب الثقافة العالمية. معنية بقضايا وآليات تناسل النصوص أو ما صار يُعرف بالتناص Inter textuality، والمأمول من وراء طرح الإشكالية بهذه الطريقة الخروج من الأُطروحات التي سادت حول طبيعة القرآن والإسلام على مدى حوالي قرن ونصف القرن، في البحوث المعتبرة علمية، أو أنها تتخذ لنفسها سمات العلمية.

علمية. عالمية. مُحكمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

المسألة الثانية: الرؤى الإسلامية القديمة لمسائل التواصل. وأجملها في ثلاث رؤى، الرؤية القرآنية: وهي تقرر على المستوى الديني أن الدين واحد، وتسرد تاريخًا لدعوات النبوة والخلاص ما بين آدم ومحمدٍ عليهما الصلاة والسلام. الرؤية الإسلامية التاريخية: وهي تبدو أكثر صرامة ووضوحًا في القطيعة مع الجاهلية أو حِقَب ما قبل الإسلام في أنحاء الجزيرة العربية، في الأمور التي تتعلق بالتوحيد من قريبٍ أو بعيد، وما يتعلق بعادات العرب وأعرافهم. الرؤية اللغوية واللسانية: يصف القرآن لغته بأنها عربية. وعلى رغم تميز البنية اللغوية للقرآن عن السائد في حياة العرب شعرًا ونثرًا في القرنين السادس والسابع للميلاد، فإن اللغويين اعتبروا لغة القرنين السادس والسابع مرجعيةً نهائيةً في كل شئ تقريبًا، فاستخدموها في تفسير القرآن، وفي القواعد اللغوية والأصولية في الفقه واشتراع الأحكام، وفي النماذج البيانية والشعرية، إلى الحدود التي أعاقت التطوير اللساني والشعري في بعض الأحيان.

المسألة الثالثة: الرؤى الغربية للتواصل بين الإسلام وما قبله. وقد مرت تلك الرؤى خلال القرنين التاسع عشر والعشرين بأربع مراحل. في المرحلة الأولى الفيلولوجية والتاريخانية: ظهرت طريقتان للنظر في القرآن والإسلام، كانتا تمتزجان حينًا، وتفترقان حينًا آخر. فقد ظهر اتجاهٌ غلبت عليه الصبغة التأريخية والفيلولوجية شبه البحتة. وقد تميز بكتابة تواريخ لكل شيء بما في ذلك القرآن. وفي المرحلة الثانية من الدراسات عن القرآن والإسلام، غلبت فكرة المنظومات الحضارية، وبُنى النصوص. وتضاءل البحثُ في الأصول والمصادر، فظهرت دراساتٌ نصيةٌ ومضمونيةٌ للقرآن تدرس عوالمه الداخلية، وبُناه الذهنية واللغوية، ورؤيته العالم. وتقدم البحث خطواتٍ باتجاه الاعتراف بالإسلام باعتباره دينًا مستقلاً، وباتجاه اعتبار الحضارة الإسلامية إحدى حضارات العالم الكبرى. أما في المرحلة الثالثة ما بين الخمسينات والثمانينات من القرن العشرين، وبتأثير المتغيرات في اللسانيات، وقراءة النصوص، وفي الأيديولوجيات، فإن الدراسات والبحوث الغربية اتجهت إلى قراءة القرآن والإسلام، باعتبارهما فواتاً تاريخياً، وبُنى عتيقة، ومنظومة تقف في مواجهة الحداثة. ولذا فقد غلبت على تلك الدراسات الأيديولوجيات التحريرية والتفكيكية، والقطائع المعرفية والتاريخية.

اللاهوت المسيحي

وقدم **القس وجيه يوسف (المملكة المتحدة)** بحث عن **"اللاهوت المسيحي وعلم الكلام الإسلامي: عمار البصري نموذجًا"**، هادفًا إلى استبيان مدى التأثير والتأثر المتبادل الذي حدث بين علماء المسلمين، وبخاصة المتكلمين، واللاهوتيين المسيحيين، وكيف أثر الطرفان في تشكيل الصياغات اللاهوتية والكلامية عند الآخر. متحدثًا عن عمار البصري نموذجًا لعملية التأثير هذه. محاولا التأكيد على أن اللاهوت العربي المسيحي، إنما هو أفضل صياغة لاهوتية تصلح للحوار مع الإسلام، إذ هو تعبير خارج من قلب الحضارة العربية، نص موضوع باللغة العربية، عمل مكتوب بأقلام عرب، مسألة صراع لتحديد الهوية الدينية. فقد شهد القرن الأول من العصر العباسي حركة تفاعل منقطعة النظير بين المفكرين المسلمين وعلماء اللاهوت المسيحيين، كان لها أثر عظيم الشأن في الحراك الفكري، أدى إلى انفتاح فكري واحتكاك عقائدي بين أتباع الديانات المختلفة، وبخاصة الإسلام والمسيحية، تلون حواره بلون جدلي، إذ رأى المسلمون في المسيحية حيدًا عن الحق.

تفاعل إسلامي ـ مسيحي

وقدم **القس عيد صلاح (مصر)** بحثًا عن "**التفاعل المسيحي – الإسلامي في مصر حتى القرن العاشر الميلادي**"، متناولاً أصول التراث العربي المسيحي في مصر في ضوء التلاقي الإسلامي المسيحي الذي أنتج تفاعلاً كبيرًا عبر سنوات؛ بل قرون طويلة تأثيرًا وتأثرًا، وفي الحالة المصرية نجد التأخر في الإنتاج الأدبي العربي، حتى القرن العاشر الميلادي الذي شهد تحولا كبيرًا في التفكير المسيحي للكنيسة المصرية على يد الأنبا ساويروس. كذلك تعرضت الورقة البحثية لمدرستي الاندماج والانعزال في الفكر المسيحي المصري حول التفاعل مع القضايا الفكرية الجديدة في القرون الأولى للفتح الإسلامي لمصر، ثم أسباب ظهور الكتابات العربية المسيحية، وصولاً إلى ما تميز به اللاهوت العربي المسيحي، الذي ولد بين حضارتين: حضارة الفلسفة اليونانية، باللغة اليونانية، وحضارة الفقه الإسلامي في القرينة الجديدة المكتوب باللغة العربية. وتناول أيضًا التأثير والتأثر المتبادل بين الفكر الإسلامي (علم الكلام) والفكر المسيحي (علم اللاهوت) وكيفية استثمار هذا التفاعل في عصرنا الحاضر.

التأثير اليهودي

وتلا ذلك بحث الباحث **الدكتور مصطفى عبد المعبود (مصر)**، عن "**حقيقة التأثير اليهودي ومظاهره في التراث العربي الإسلامي**"، راصدًا من خلاله أوجه الشبه بين الفكر الديني اليهودي ونظيره الإسلامي؛ لأن أوجه الشبه، على وجه التحديد، هي لُب ما يستند إليه اليهود في قولهم بالأثر اليهودي في التراث العربي الإسلامي بشكل عام، حيث تنسب أوجه الشبه إلى الأصول اليهودية، وبناءً على ذلك يُرد إلى تلك الأصول كل ما هو لاحق بها، ومتفق معها بصورة أو بأخرى، وفي سبيل الوصول إلى حقيقة التأثير اليهودي في التراث العربي الإسلامي، أوضح المقصود بالتراث اليهودي، وعلاقته بالتراث العربي الإسلامي، متناولاً التلاقي الزماني والمكاني بين اليهود والعرب، ومجال التأثير اليهودي على المستوى اللغوي، والديني، والفكري، ليصل في النهاية إلى تحليل التأثير اليهودي، ليؤكد على أن الظهور الأول للشريعة اليهودية على مسرح الدين السماوي الواحد، قد أعطى الحجة القوية لكثير من المستشرقين، وخاصة اليهود منهم، إلى القول بأن اليهودية هي الصورة الأصل لمعظم ما تحويه الشريعتان اللاحقتان بها؛ أي المسيحية والإسلام. ولكنهم في الوقت نفسه ألغو الأخر، رغم الثابت تاريخيًا من التلاقي الزماني والمكاني ولفترات طويلة بين أتباع الديانات السماوية الثلاث، بل تعداه للإفادة من الآخر.

علمية. عالمية. مُحكمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

أهل السنة والجماعة

وتبعه الباحث **الدكتور محمد يسري سلامة (مصر)** ببحث عن **"مظاهر التواصل التراثي في فكر أهل السنة والجماعة"** تناول بعض مظاهر الامتداد المعرفي والتواصل الثقافي في تراث أهل السنة بوجه عام، وفي تراث القرون الثلاثة الأولى للهجرة بوجه خاص، وذلك في محورين: الأول الامتداد الكتابي، المتمثل في اتصالهم بأهل الكتاب، من اليهود والنصارى، وإفادتهم من علومهم، مع تعدي ذلك إلى نقل ما استحسنوه من أقوال العلماء الكتابيين المعاصرين لهم، والرهبان منهم خاصة، أما المحور الثاني فهو الامتداد العروبي، متمثل فيما أولاه أهل السنة من اهتمام بالغ بالصفة العروبية الأصيلة في الإسلام، والتركيز على هويته العربية، مع تناول موقفهم من دعاوى الشعوبية، وعداوتهم لها، وقرنهم إياها بالإلحاد والزندقة، وقام الباحث بمقارنات دقيقة بين مضامين تلك المحاور وبين الشائع المتداول في الفكر المنتسب إلى أهل السنة في العصور اللاحقة، وإبراز ما في هذا المتداول من اتفاق واختلاف عنهم، وحيدة عن طرائقهم في الفكر والنظر.

القانون الروماني

كما قدم البروفسور **الدكتور كرياكو نيقولاو (اليونان)** بحثًا عن **"الرجم في عقوبة الزنا بين القانون الروماني والشريعة الإسلامية"**، متناولاً الفرق بين تعريف جريمة الزنا وعقوبتها بين القانون الروماني والشريعة الإسلامية، التي اعتبرت جريمة الزنا من الكبائر، وشددت العقوبة عليها تحت تأثير الأعراف العربية السائدة قبل ظهور الإسلام.

العرب قبل الإسلام

وقدم الأستاذ **الدكتور صلاح عبد العزيز محجوب (مصر)** ورقة بحثية عن **"أيام العرب قبل الإسلام في المصادر السريانية"** بادئًا دراسته بتعريف كتابات التاريخ السريانية بوجه عام، ثم استعرض محتوى تلك المصادر فيما يتعلق بأيام العرب قبل الإسلام، هادفًا إلى التعرف على رؤية المؤرخين السريان للتاريخ العربي قبل الإسلام، فقد سجل الكتاب السريان جوانب من حياة العرب الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعسكرية والدينية قبل الإسلام، عاصر كتابها في الغالب الأحداث التاريخية التي سجلوها أو سمعوها شفاهة في تلك العصور، محاولا الإجابة عن السؤال: هل يعين الأدب السرياني على فهم أفضل لحياة العرب قبل الإسلام؟

المصادر اليونانية والسريانية

وعرضت الباحثة **الدكتورة ماجدة محمد أنور (مصر)** لدراستها عن **"النقط وضبط الكلام من اليونانية والسريانية إلى اللغة العربية"**، ساعية إلى تقصي نظام النقط وضبط الكلام والتنغيم بين اليونانية والسريانية والعربية، من خلال إيضاح مفهوم التنغيم في المصادر اليونانية، والسريانية، بدراسة مخطوطة "علامات التنغيم للعلامة النحوي السرياني يعقوب الزهاوي"، ثم أوضحت مفهوم النقط وضبط الكلام في التراث العربي، مقارنة بين نظامي النقط وضبط الكلام في السريانية والعربية. فقد بحث الفلاسفة اليونانيون نظام ضبط الكلام أو النبرات المميزة للكلام، وهو ما أطلق عليه مصطلح التنغيم، ضمن مباحثهم الفلسفية، فأبرزوا أهمية التنغيم في الأسلوب الخطابي لما له من تأثير قوي في نفس السامع، وكذلك عرف السريان التنغيم من خلال ترجماتهم للتراث اليوناني، ودراسته وتطبيقه على قراءة النصوص الدينية قراءة صحيحة، بغرض فهم تلك النصوص وتوضيح معانيها، وضبط الكتاب المقدس وقراءته قراءة صحيحة، كما أن التراث العربي القديم يشهد على وجود ظاهرة النقط وضبط الكلام والتنغيم في البحث الديني واللغوي والفلسفي.

الألفاظ الحبشية

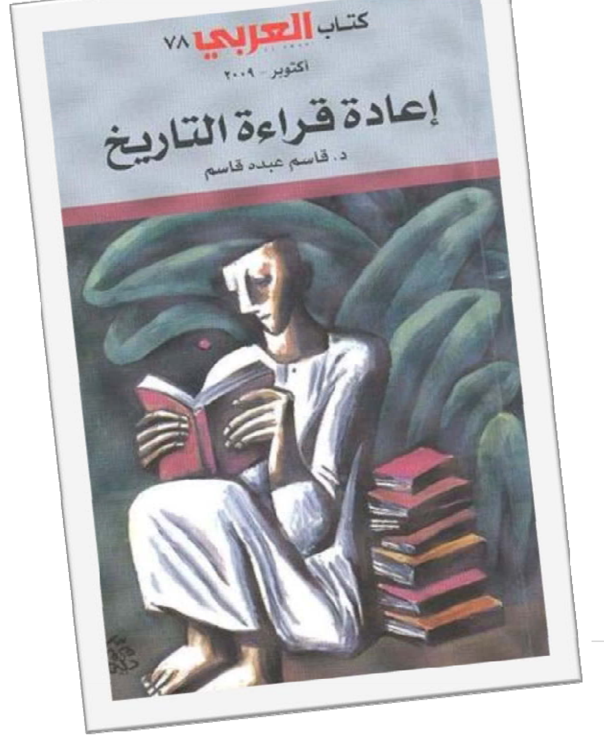
كما قدم الأستاذ **الدكتور مجدي عبد الرازق (مصر)** بحثه في **"الألفاظ الحبشية في القرآن الكريم والسنة: دراسة في الدلالة المعجمية"** موضحًا أنه ليس هناك أدنى شك في أن اللغتين الحبشية والعربية شقيقتان تشتركان في أصل واحد، حيث يجمعهما تراث واحد هو التراث السامي القديم، ولهذا فإنهما مشتركتان في الكثير على مستوى البنية اللغوية، والأصوات ودلالة الألفاظ، فقد أمدت الحبشية العربية بمفردات خاصة بها متفردة في تركيبها اللغوي، ولا نجد ما يقابله في العربية، لا على المستوى الصرفي، ولا على المستوى الدلالي. وتكمن أهمية هذه الألفاظ الدخيلة من الحبشية من كون معظمها ألفاظًا دينية دخلت في صميم التعبير القرآني، إلى جانب ألفاظ كالحواريين، وفطر، ومحراب، ومشكاة، وبرهان، كما لم يقف تأثير الحبشية عند حد كلماتها الدخيلة في العربية، بل نقلت إليها عبر مفرداتها مفردات دينية من اللهجات العربية الجنوبية، ومن الآرامية ومن العبرية غير الآرامية. ولذلك يرصد البحث ما يجده في القرآن الكريم، وألفاظ الحديث النبوي، وسيرة الرسول الشريفة، وعلى لسان المهاجرين، وعلى لسان الصحابة، من الفاظ ترجع إلى أصول حبشية، وذلك من خلال تحقيق لفظ الكلمة ومعناها، وكيفية استعمالها في اللغتين، والعلاقة بينهما وبين سائر ألفاظهما، والبحث عن وجود اشتقاق ظاهر للكلمة في لغة من اللغتين دون الأخرى.

الصابئة والإسلام

واختتم **الأستاذ محمد رفعت (مصر)** ببحث فريد ومتميز في موضوعه عن **"المندائية والإسلام"** تناول فيه بالتحليل والتوثيق بعض مظاهر التماثل العقدي بين ديانة الصابئة المندائيين والمعتقدات الإسلامية الدينية، في مختلف مناحي العقيدة والممارسات التعبدية والشعائرية، وذلك عبر استقراء النصوص الدينية المندائية وتعبيراتها اللغوية، ومقابلتها بما صح من النصوص الدينية الإسلامية التي وردت في القرآن والسنة، وذلك بالإضافة إلى استعراض أصول المندائيين ولغتهم وعقائدهم من واقع مصادرهم الأصلية، والبحث بهذا يلقي الضوء على موضوع هام لم يتطرق إليه كثير من الباحثين، ألا وهو ما يظهر من تراث عقائدي مشترك بين المندائيين والمسلمين فيما يخص أركان الديانة الخمسة، ومنازل الأرواح، كما وردت في كتاب المندائيين المقدس "كنزا ربا" أي "الكنز العظيم".

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449





إعادة قراءة التاريخ

المؤلف: أ.د. قاسم عبده قاسم

تعريب: عبد الله العروي

الناشر: مجلة العربي

الكويت، أكتوبر ٢٠٠٩

كتاب العربي: ٧٨



عرض



محمد بن ساعو

أستاذ التعليم المتوسط

ماجستير في التاريخ الوسيط

ولاية برج بوعريريج – الجمهورية الجزائرية

الكتاب بعنوان: "إعادة قراءة التاريخ"، لمؤلفه الدكتور قاسم عبده قاسم، الطبعة الأولى، مجلة العربي التابعة لوزارة الإعلام الكويتية، في إطار كتاب العربي ويحمل الرقم (٧٨) في هذه السلسلة، ونشر بتاريخ: ١٥ أكتوبر ٢٠٠٩، وهذه الطبعة الورقية من القطع الصغير، نوعية ورقها جيدة وبالألوان والخط واضح والطباعة راقية، والكتاب يقع في حوالي مائتي (٢٠٠) صفحة، بتقديم من الدكتور سليمان إبراهيم العسكري. وهو يضم مجموعة من المقالات، كانت قد نشرت في مجلة العربي لتأتي هذه المرة مجتمعة في كتاب واحد، وقد اجتهد الكاتب في ترتيبها وتنظيمها حتى تكون متناسقة، رغم ذلك فإن القارئ بإطلالة بسيطة على الكتاب يلاحظ تكرارًا لأفكار ومفاهيم الكاتب في مختلف المواضيع المدروسة، وربما هذا هو الشيء الوحيد الذي غفل عنه الكاتب خلال عملية تركيب وتنسيق المقالات على شكل مؤلف واحد، لكنه وفق كثيرًا في ترتيب مواضيعه وإدراجها في محورين:

المحور الأول بعنوان: (قراءة التاريخ... رؤية معاصرة) يقدم فيه الكاتب القراءات المختلفة للتاريخ، حيث تناول مواضيع: قراءة التاريخ – القراءة الشعبية للتاريخ – التاريخ والآثار- القراءة الدينية - المأثور الشعبي- اللغة - المعنى والمغزى- الوعي بالتاريخ وضرورة إعادة كتابته كما تحدث عن الأفلام التاريخية العربية. **المحور الثاني**: تاريخنا مع الآخر، تناول فيه الكاتب قضايا علاقة العرب والمسلمين مع الآخرين عمومًا، حيث تضمن هذا المحور أدب الشكوى عند يهود أوربا - الحروب الصليبية - تأثير العرب في أوربا - وكشف عن الوجه الأخر للحروب الصليبية، وعلاقة التتار بالعالم العربي...الخ.

الكاتب ناقش هذه المواضيع بكثير من الدقة والموضوعية، ويظهر ذلك من خلال محاولته ضبط المصطلحات والمفاهيم خاصةً مع اعترافه بصعوبة ذلك، لأن الكثير من المفردات مطاطة وتحتمل الكثير من المعاني، إضافة إلى اختلاف معناها من ثقافة لأخرى وهو ما يتطلب الحذر في استخدام مثل هذه المصطلحات. ومن خلال قيامي بدراسة وعرض الكتاب لاحظت أنه ليس مجرد كتاب تاريخي بالمعنى الكلاسيكي، إنما هو كتاب متعدد الأبعاد (وهو المفروض في كتب التاريخ) ويظهر من خلاله أن الكاتب حاول إسقاط الأحداث التاريخية على الواقع الحالي المعاش للاستفادة من التاريخ، وعدم تكرار أخطاء الماضي، وأخذ المعطيات التاريخية مرجعية في كيفية بناء علاقتنا مع الآخرين.

المحور الأول: قراءة التاريخ...رؤية معاصرة

١/١- قراءة التاريخ

دراسة التاريخ هي دراسة إنسانية لأنها استجابة لرغبة الإنسان في معرفة **نفسه** والآخر، والتاريخ يحمل نوعًا من الإنذار المبكر لِمَنْ يعرف قراءته، وإذا كانت الدراسات الإنسانية تهتم بحفظ التجربة الإنسانية وتفسرها في الحاضر، فإن التاريخ يستلزم استدعاء الماضي وإعادة بناءه بمنهجه الإسترددادي وإعادة قراءته وتفسيره لخلق صلة بينه وبين الحاضر ليفيدنا مستقبلاً. فقديمًا كانت غاية قراءة التاريخ هي تبرير مختلف الظواهر فاتخذت **القراءة** سمة أسطورية ثم جاءت القراءة الدينية للماضي للتلقين الأخلاقي والديني

علمية، عالمية، مُحكّمة، ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

وهناك القراءة العنصرية للتاريخ التي تبرر التحركات الاستعمارية والقراءة الاشتراكية التي تبرر القبضة الشيوعية على التجمعات الخاضعة لها، وفي ظل هذه التطورات ظهرت قراءات جديدة كالقراءة الشعبية التي تبرز دور الناس العاديين (العامة) في صناعة التاريخ.

تختلف قراءة التاريخ من عصر لآخر ومن مجتمع لآخر، فكل جيل يبحث عن العناصر التاريخية التي تفيده في توضيح الحاضر واستشراف المستقبل، ولا يتعامل المؤرخون مع الحقائق فقط إنما أيضا مع المشاعر والدوافع والأسباب، ويحاولون وضع الحقائق في سياق الحياة الاجتماعية، وهو ما يسمى "التحليل التاريخي". فما يهمله جيل سابق قد يجد فيه جيل لاحق فائدة، فالتاريخ يعاد قراءته مرات ومرات عبر رحلة الإنسان؛ ونحن إذا رأينا أن أسلافنا جابهتهم مشكلات ما يمكننا تجنب أسبابها، وهذا هو هدف قراءة التاريخ الذي لم يتحقق على نحو فعال إلى الآن. قد تكون هذه النظرة النفعية للتاريخ محل اعتراض بعض المؤرخين المثاليين، ورغم أن التاريخ الذي كتبه القدامى يظهر أنه مجرد تدوين إلا أنه يعكس قراءة ما حسب عصره، وبتطور وسائل الحفظ والتدوين فإن مهمة المؤرخ المسجل والراوي لم تعد لها أهمية فصارت مهمة المؤرخ تفسير لماذا حدث ما حدث وليس ماذا حدث.

٢/١- القراءة الشعبية للتاريخ

الموروث الشعبي نمط من القراءة الشعبية للتاريخ، لأنه يحمل تفسيرات شعبية لأحداث تاريخية، وتتميز بخاصيتين تبدو متناقضتين: (أنها تحمل أفكار ثابتة تشكل المنحنى الثقافي في المجتمع، وأن القراءة الشعبية للأفكار الثابتة تتجدد مع كل حقبة زمنية). من خلال النثر والشعر والحكاية والعادات والخرافات والأغاني والرقصات...؛ يحمل الموروث الشعبي رؤية الشعوب لأصولها ولتاريخها وأبطاله، ويحمل التفسير الشعبي للظواهر الطبيعية.

ظل المؤرخون زمنًا طويلاً يتجاهلون الموروث الشعبي، ونتيجة التطورات التي حدثت بين الحربين العالميتين وبعدهما حدثت "الثورة التاريخية" وهي ثورة صامتة حققت من التقدم في مجال المعرفة التاريخية في الربع الأخير من القرن ٢٠م ما لم يتحقق طوال تاريخ التاريخ بأسره، وكان من نتائجها تطور مناهج البحث وأدواته وتغير النظرة إلى المصادر التاريخية التي يعتمد عليها الباحثون من ناحية أخرى، وتغير النظرة القديمة للتاريخ باعتباره مرادفًا لسير الحكام إلى نظرة جديدة ترى في التاريخ مرادفًا لمسيرة البشر الحضارية، ومن ثَمَّ كانت أعمال البشر جديرة بالبحث، وأهم ما تمخض عن الثورة الصامتة هو أن التاريخ لم يعد علما ينتمي إلى الماضي إلا من حيث موضوعه، لكنه صار ينتمي للحاضر والمستقبل من حيث هدفه وفائدته، وتحولت مهمة المؤرخ من ماذا إلى لماذا حدث ما حدث وما تأثير ما حدث على حاضر الجماعة الإنسانية ومستقبلها.

إن الدراسات التاريخية السردية أصبحت غير كافية لإشباع الرغبة في المعرفة التاريخية، والموروث الشعبي يقدم لنا رؤية كلية للأحداث التاريخية، فضلاً عما تحمله من حقائق تاريخية لا تحملها المصادر التقليدية، ويرى باحثون أن الموروث الشعبي موضوع علم تاريخي هو علم الفولكلور، لأنه يحاول كشف ماضي الإنسان من زاوية أخرى غير الزوايا التي يعمل فيها علم الآثار وعلم التاريخ. لقد ضمت كتب المؤرخين العرب من عصور التألق الفكري الكثير من عناصر الموروث الشعبي، وبه حقائق وإيحاءات تاريخية فـ (كليلة ودمنه) بها إشارة للحروب الصليبية والحروب ضد الروم، و لم تخضع الكتابات التراثية إلى الآن إلى دراسة منهجية منظمة لأن الباحث لا يمكنه القيام بذلك بمفرده، إنما يجب أن توكل إلى مؤسسة منظمة. وبهذا فالقراءة الشعبية للتاريخ نوع من إعادة تفسير الوقائع لصالح الجماعة وسبب ذلك أن المؤرخين سابقًا ينسبون الفعل التاريخي إلى شخص الحاكم الفرد ويحولون الناس إلى قطيع من الأغنام التي يقودها هذا الحاكم، ولأن هذا غير صحيح فالقراءة الشعبية تعيد إثبات دور الناس الذين صنعوا التاريخ حقيقة.

٣/١- التاريخ و الآثار:...تكامل أم تفاصل؟!

يعتبر التاريخ أكثر فروع العلم الإنساني ارتباطًا بالإنسان، وتعتبر رسوم الكهوف بداية باكرة في سبيل كتابة قصة الإنسان، وجاءت الروايات التاريخية الأولى مثقلة بالأسطورة، ثم تطورت العلوم ومنها التاريخ الذي خرج من رحم الأسطورة إلى العلم، ومن السرد والحكاية إلى السببية، كما تطورت مناهج البحث وظهرت المصادر التي يعتمد عليها المؤرخ، منها الآثار التي ساهمت في سد الفجوة المعرفية، وأصبحت جهود علماء الآثار بديلاً مناسبًا عن التسجيلات التاريخية المكتوبة وتمدنا أحيانًا كثيرة بمعلومات لم تذكر في المصادر التقليدية، خاصةً وأن كتابات هذه المصادر كتبت لتكون تاريخًا بما يشوبها فضلاً عن كتابتها بعد وقوع الحادث، أما المصادر الأخرى (تراث شعبي- فن-أدب-آثار) فقد وجدت دون قصد أن تكون تاريخًا لكنها في معظم الأحيان جاءت تلقائية أو كانت هدفًا اجتماعي- ثقافي- ديني ، كالأسواق؛ المساجد؛ رغم أن هناك آثار قصد بها أن تكون تاريخ، كبعض منشآت المماليك والعثمانيين، ومنه فإنه لا يمكن أخذ الآثار كما هي، لكن يجب قراءتها في ضوء المصادر الأخرى.

٤/١- القراءة الدينية للتاريخ

حاول الإنسان ترقيع النقص في ذاكرة التاريخ بالأسطوريات، فكانت الأسطورة تحكم التاريخ لأنها حكاية يلعب دورها الآلهة وأشباههم، وبمجيء الأديان السماوية كان لكل دين رؤية للإنسان في دوره وعلاقته، وبهذا اختلفت القراءة في هدفها من دين لآخر.

-القراءة اليهودية للتاريخ: ركزت على فكرة الاختيار والوعد المقدس، والكتابات التاريخية العبرانية فيها اختلاط بين الفكر التاريخي والديني وقامت بالتقليل من دور الآلهة، وفكرة (الاختيار) جعلتهم يسجلون أن الرب تدخل في توجيه حركة التاريخ لمصلحتهم،

علمية. عالمية. مُحكَمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449



وتدور فكرة التاريخ عند اليهود حول فلسفة غائبة هدفها طمأنة اليهود إلى الوعد المقدس بالأرض وأن الله سوف يتدخل في النهاية لصالح شعبه المختار.

-القراءة المسيحية للتاريخ: هي ذات هدف مستقبلي أيضًا والحياة مرحلة تتوسط مجيء المسيح الأول وصلبه ومجيئه الثاني في آخر الزمان لتدمير الشر والقضاء على الدجال، ولقد جاء المسيح لخلاص البشرية، ورضي لنفسه بالصلب فداء للبشر وعلى المؤمنين إتباع نهجه في التضحية، فالقراءة المسيحية ترى أن تاريخ البشرية قبل المسيح كان تمهيدًا لقدومه، وتاريخها بعده سعى للخلاص وانتظار قدومه فالتاريخ كتبه الله وليس للإنسان أي دور إيجابي فيه وعليه انتظار إرادة الله، وفي إطار فكرة التاريخ المسيحية قسم أوغسطين تاريخ العالم إلى ستة عصور، وتأثر بهذه الفكرة مؤرخو العصور الوسطى، وكتبوا الأحداث الجارية آنذاك وفق القراءة الكاثوليكية، وهي قراءة غنية بالغيبيات تمجد الملوك المناصرين للكنيسة، ومن عيوبها الإيمان الأعمى بروايات الشهود العيان وتضمنها عناصر غيبية.

-القراءة الإسلامية للتاريخ: تختلف جذريًا عن القراءتين السابقتين، ففكرة التاريخ في القرآن الكريم تقوم على أن التاريخ فعل إنساني فهو نتاج تفاعل الإنسان مع البيئة، والتغير لا يحدث فجأة إنما بتراكم بطيء للأسباب التي تؤدي إليه، فالتاريخ لا يجري اعتباطًا إنما يحمله قوانين وضعها الله لكن هذه القوانين لا تمنع الإنسان من أداء دوره التاريخي، إنما تجعله مسئولاً عنه لأن الله ميزه بالعقل والحرية، وهذا هو النهج الذي اتبعه المؤرخون المسلمون، فساروا على أن التاريخ أداة في خدمة الجانب الأخلاقي والتعليمي في المجتمع المسلم.

٥/١- المأثور الشعبي...هل يبقى؟

كانت الكتابة أعظم ابتكارات الإنسان والوعاء الحافظ للتاريخ، وكان يمكن أن يختفي المأثور الشفاهي مع ظهورها لكنه استمر بدور كبير، وهو البذرة الأولى التي نما منها المأثور الشعبي ولعبت الكتابة دورها في حفظ جزء مهم منه، وبقي الكثير منها يتداول دون كتابة، لكن هذا لا يعني أن المأثور الشعبي مرتبط باللغات الشفاهية، وظهور الطباعة كان سيكون خطوة نحو تلاشي المأثور الشعبي لو أن الأمر حقًا مرتبط بالتطور التكنولوجي وليس مرتبطًا بالتركيب العقلي والنفسي للإنسان ذاته، وبقيت الشفاهية أيضًا لأنها تمثل الجماهير وحقها النفسي التعويضي مقابل الطباعة التي لم تكن متاحة للجميع، وباكتشاف الراديو والتلفاز ظن البعض أن عهد الكتاب قد ولى، لكن لم يحدث.

الدور الثقافي الاجتماعي للمأثور الشعبي لا يزال مطلوبًا، لأنه نتاج ثقافي يرتبط بالجماعة الإنسانية، ولأن الثقافة فعل شعبي وليس ممارسة حكومية، فالمأثور الشعبي مرتبط بوجود الشعب نفسه، ومثلما لم تؤد المطبعة إلى اختفاء الشفاهية فإن العولمة، والنشر الإلكتروني، لن يحرم الإنسان من متعة التفاعل الحميمي مع الكتاب، فربما تنجح العولمة في المجال الاقتصادي والسياسي لكنها لن تنجح في كبت الهوية الثقافية لأي جماعة إنسانية.

٦/١- اللغة سلاحًا

الترويج لفكرة إيديولوجية وإعلامية ما، يمتزج بالاختيار الواعي والمدقق للمفردات اللغوية المستخدمة، وفي تاريخ الصراعات البشرية هناك اهتمام باختيار الخطاب الممهد للفعل، ولكل عصر خطابه فالاقتناع هو الذي يؤدي إلى العمل، وتطور الصراع السياسي إلى حرب أو سلم لا يتم تلقائيًا إنما تلعب اللغة دورًا هامًا في تهيئة العقول لقبول إحدى الحالتين، واللغة تربي قناعات لدى كل طرف في عدالة موقفه اتجاه موقف خصمه، وقد تؤدي إلى البلبلة والارتباك، إن لم تكن كذلك، وسوف نختار مثالين للدلالة على ذلك:

١- استخدم الصليبيون اللغة لتهيئة الغرب الأوربي لشن حرب ضد المسلمين بشكل يناسب العقل الأوربي، واخلطوا الخطاب الديني بالسياسي وألحقوا بالمسلمين الصفات الحقيرة والعدائية، ووصفوهم بالكفار- عبدة صنم الرسول (ﷺ)، وفي المقابل تصف المسيحيين الكاثوليك بأنهم شعب الله المختار- الشجعان-جنود الرب-جيش المسيح-الحجاج، وتعدهم بملكية فلسطين ووصفت الحملات الصليبية برحلات الحج وربطتها بالصليب، وباقتناع الأوروبيين بهذه اللغة تجندوا للهجوم على المسلمين، الذين فهموا هم كذلك استعمال لغتهم بفضل الجهاد، بيت المقدس (الإسراء و المعراج)، وصف الفرنجة بالكفار وانتهى الصراع باسترداد عكا آخر المعاقل للصليبية في١٢٩١م.

٢- روجت الصهيونية في فلسطين لمصطلحات مظللة (أرض بلا شعب لشعب بلا أرض)، (وطن قومي لليهود)، (شعب الله المختار)، (الأرض الموعودة)، (عودة الشتات)، (حرب التحرير)، (الشرق الأوسط)، (قضية فلسطين)، (التطبيع)، واهتم العرب بالجانب العسكري فقط، وفشلوا في استخدام اللغة فتحدثوا عن النكبة واللاجئين، وأصر الجانب الإسرائيلي مؤخرًا على إلزام منظمة التحرير الفلسطينية بتغيير مفردات بميثاقها لتصبح قيودا تكبل الفلسطينيين، وظهرت مفردات العنف المتبادل؛ العمليات الانتحارية؛ الإرهابية، وفي مقابل فصاحة الخطاب الإسرائيلي نلاحظ عجز الخطاب العربي.

٧/١- التسامح... المعنى والمغزى

التسامح لغة هو التغاضي عن خطأ ارتكبه آخر والتساهل في حقه والصبر على إساءة، وفكرة التسامح تبدوا نابعة من ثقافة غير متسامحة في جوهرها، فالمنادون به يرون أنهم على حق وغيرهم على باطل ولكن الضرورة تفرض عليهم التسامح، فالمصطلح ذو منظور استعلائي، والتراث العربي الإسلامي لا يحتوي هذا المصطلح، إنما تسرب إليه نتيجة ترجمة الأعمال الغربية. الحضارة الإسلامية هي التي سمحت لغيرها بالعيش فيها والإبداع، والحضارة الغربية التي

علمية، عالمية، مُحكّمة، ربع سنوية | ISSN: 2090 – 0449

أفرزت مصطلح (التسامح) تقوم على فكرة استهلاكية مستمدة دينيا من فكرة "شعب الله المختار". الحضارة الغربية صاغت مفهوم التسامح لحل مشكلات ثقافية اجتماعية أوربية أواخر العصور الوسطى وفي بداية عصر النهضة بعد أن تفاقمت أزمتها، نتيجة الصراع بين الكنيسة الكاثوليكية والمتمردين، لكن أوربا مارست التسامح داخل بعض بلدانها فقط ولم تمارسه تجاه (الآخر) غير الأوربي وكذلك فعلت الولايات المتحدة الأمريكية بعد الحرب العالمية الثانية، ومع بداية تسعينيات القرن العشرون الميلادي صار الشعار مطروحًا بعد ما أثيرت مسألة "صدام - حوار الحضارات" فبعد سقوط الاتحاد السوفيتي وجد الغرب الرأسمالي نفسه بحاجة إلى اختراع عدو جديد هو المسلمون. وزادت أحداث سبتمبر٢٠٠١ هياج القوى المتشددة، ورأى أنصار نظرية صدام الحضارات دليل على صحة رأيهم، بينما نادى أنصار حوار الحضارات بالتسامح وفهم الآخر، ونلاحظ أن هناك حكومات إسلامية تدعوا للتسامح والحوار مع الغرب الغاصب رغم أن هذه الحكومات نفسها لا تمارس التسامح مع القوى السياسية الأخرى داخل بلادها، كما أنها تنكر وجود الأخر.

٨/١- الوعي بالتاريخ...الوعي بالذات

التاريخ مرتبط بالجماعة الإنسانية، والإنسان الذي يعرف نفسه يتصرف اتجاه الآخر بثقة في النفس لذا تسعى الجماعة الإنسانية إلى تلقين أبناءها تاريخ الأجداد، ومعرفة الماضي يقودنا إلى التصرف على نحو سليم في الحاضر ووضع خطط التنمية المستقبلية، فالمعرفة بالذات من خلال الوعي بالتاريخ تبعث على الثقة وتحول دون الاعتماد على الأخر. إن الاستبداد لم يكن من سمات العالم العربي، إنما كان هناك نوع من النظام التمثيلي وعند مجيء الاستعمار حاول تكريس نماذجه السياسية، وبعد الاستقلال لم يحاول العرب استعادة نظامهم السابق وتجديده إنما انتهجوا النموذج الأوربي وكان الحصاد مزيد من الاستبداد، وارتباط بالقوى الاستعمارية وخضوع لها، وفي المجال الثقافي نلاحظ ارتباك وعي العرب بتاريخهم وتجسد هذا في تلك الحركات السلفية التي انتشرت في الوطن العربي وكانت بمنزلة هروب إلى الماضي. التحول من مفهوم التاريخ العبء إلى التاريخ الحافز لا يزال في أطواره الأولى، فما حدث لفلسطين أيقظ نوعًا من الوعي بالذات وبالتاريخ.

٩/١- التاريخ و الرواية...تفاضل أم تكامل؟

بين الراوية والتاريخ تشابهات واختلافات من حيث تركيب كل منهما، ومنهجهما وطبيعة بنية كل منهما، والتاريخ شكل من أشكال الرواية لأحداث الماضي ونمط من الحكاية عن الأشخاص والظواهر الماضية والرواية هي تسجيل تاريخي لظواهر اجتماعية. في التاريخ الثالوث "الإنسان/الزمان/المكان" هو الذي يضفي على الحادثة التاريخية تاريخيتها؛ أما في الرواية فالإنسان هو صانع أحداثها وفق شروط الزمان والمكان مع ما تحمله من خيال. وقبل أن يتطور التاريخ إلى ما هو عليه اليوم كانت وظيفة المؤرخ لا تختلف عن وظيفة الراوي، إن الظروف هي من استدعت أن يكون المؤرخ آنذاك روائيا، ومن أهم أوجه الاختلاف بين الراوي والمؤرخ أن وظيفتهما مختلفة والإطار الذي يحكم عمل الروائي هو الفن، أما المؤرخ فهو المنهج العلمي، والروائي يستخدم الخيال والمؤرخ لا يستخدمه إلا عند الاستنباط والاستنتاج، وعلى المؤرخ تفسير الحادثة أما الروائي فعليه أن يحكي لا يفسر كما أنه يستطيع التعامل مع حركة الإنسان في الكون باعتبارها مادة خام يمكن تشكيلها، ليس على أنها مادة مشكلة كما يتعامل معها المؤرخ، والتاريخ يقدم لنا الماضي في صورة أكاديمية تناسب المؤرخين، والرواية تقدمه لنا في صورة حيوية تجذب كل شرائح المجتمع، فالعلاقة بينهما تكاملية.

١٠/١- تاريخنا... هل من الضروري إعادة كتابته؟

ما دامت الجماعة الإنسانية بحاجة إلى تجديد وعيها بتاريخها فقراءة وتفسير التاريخ تتعدد، فمهمة المؤرخ استقراء مصادره بشهاداتها، ثم الفهم والتفسير، وعند الوصول إلى نتيجة يمكن استخدامها لخدمة أهداف الجماعة الإنسانية، ففي كل مرة يتم قراءة التاريخ من جانب ما خدمة لأغراض المجتمع لمساعدته في التعامل مع حاضره، وإعادة قراءة التاريخ ليس تزويرا له إنما هي ممارسة فكرية لخدمة الحاضر. وهناك نقاط ايجابية تحسب للدراسات التاريخية العربية كالنجاح في تعريب بعض فروع التاريخ - تزايد عدد الجمعيات المهتمة **بالدراسات** الأكاديمية العربية الفاهمة لحقيقة الوظيفة التاريخية- نجاح المؤرخين العرب في إحداث شرخ في الصورة التي رسمتها القراءة الصهيونية الإستشرافية لدراسة الحضارة العربية الإسلامية، لكن هناك نقاط سلبية: (سيادة المفهوم الأوربي في تقسيم العصور التاريخية - تسلط المصطلحات الأوربية التي تخدم القراءة الأوربية- ضآلة الموارد المالية المخصصة- الخصومة بين الحكام العرب والبحث العلمي)، وما تم تحقيقه من إعادة قراءة التاريخ تم بجهود فردية وليس مؤسسية وهو ما أدى إلى عدم توفر الشروط، كما أن الاستبداد السياسي انعكس على الحرية الفكرية.

١١/١- هل هناك أفلام تاريخية عربية؟

السينما فن شامل وجمهورها كبير، وهي ذات تأثير في إشاعة المعرفة التاريخية، والفيلم التاريخي هو عمل فني يتخذ من التاريخ موضوعا له، ومادام القائمون على الفيلم التاريخي قد اختاروا التاريخ موضوعًا فلا يجوز لهم العبث بالحقيقة التاريخية لكن ذلك لا يعني أن يتحول الفيلم إلى محاضرة أكاديمية مملة. وتعرف السينما التاريخية نجاحًا وأرباحًا هائلة، وقد أنتجت السينما الأمريكية أفلامًا تاريخية فيها دقة تقرب من الحقيقة التاريخية في الشخصيات؛ الملابس؛ الديكور؛ لكن إذا اصطدمت الدقة التاريخية بالأرباح المالية فهوليود تختار الأخيرة، وقد تمكنت تقنيات الكومبيوتر من تصوير بيئة حقيقية للأوضاع التاريخية. إن الأفلام التاريخية في الإنتاج المصري مثلاً قليلة، وأول فيلم يحمل اسم تاريخي سنة ١٩٣٥ هو فيلم "شجرة الدر" الذي ابتعد إلى حد ما عن الحقيقة

علمية. عالمية. مُحكَمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

التاريخية، وأفلام ليلى البدوية؛ قيس وليلى؛ صلاح الدين الأيوبي؛ كليوباترا؛ ظهور الإسلام؛ انتصار الإسلام... وكلها بين (١٩٢٧-١٩٥١) وهي لا تتطابق مع الحقيقة التاريخية، ولا علاقة لديكورها بالديكور الحقيقي. إن الجماهير تقبل على معرفة التاريخ من خلال السينما أكثر من أي وسيط آخر، والفيلم التاريخي الحقيقي هو الذي يمكن من بناء الهوية الوطنية ويجب أن يكون على ثلاثية: العلم التاريخي؛ الفن السينمائي؛ الحبكة الدرامية.

المحور الثاني: تاريخنا مع الآخر

١/٢- أدب الشكوى عند يهود أوربا... قراءة تاريخية لقضية الهولوكوست

يمثل أدب الشكوى عند يهود أوربا شطرًا من التراث الأدبي، ويمثل القضية الخلفية التي خرجت منها حكايات الهولوكوست، ونشأ هذا النوع عند الطائفة الألمانية زمن الحروب الصليبية أواخر القرن الحادي عشر الميلادي، واستمر تراكمه إلى منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، فقد هاجم الصليبيون اليهود عند انطلاق الحركة الصليبية، ومذكرات "ماينس" نموذج من أدب الشكوى اليهودي حيث تتضمن أحوال اليهود بماينس الألمانية، وتضمنت مبالغات كثيرة. حرص اليهود على تسجيل معاناتهم على أيدي الكاثوليك أثناء الحروب الصليبية شكل نوعًا من التراث الثقافي والنفسي جعلهم يواصلون تغذية أدب الشكوى على مر العصور، وتصاعد هذا الحرص في العصر الحديث وحاولوا إدماجها في إطار "معادة السامية "**وابتزوا** بها الضمير الأوربي وأطلق الباحثون اليهود اسم "الهولوكوست الأول" على اضطهادات الصليبين على يهود أوربا، في موجة الغضب الدموي العارم ضد اليهود بالراين، وهو ما جعله اليهود من موضوعات أدب الشكوى وهو موقف إيديولوجي صهيوني حاول التحايل على الواقع التاريخي، ثم تحالفت الصهيونية والرأسمالية ضد النازية خلال الحرب العالمية الثانية وبعدها مما أكسبهم فلسطين، وأصبح اليهود يبتزون ألمانيا بـ "أسطورة الهولوكوست" والكلام حول الهولوكوست يعنينا لأن الترويج له يعني أرضًا مغتصبة، وشعبًا مشردًا، وتخلفًا عربيًا.

٢/٢- صليبيون...صهاينة...عرب: صور من القدس

في يوم الجمعة ١٥يوليو١٠٩٩م وقت الظهيرة (ساعة صلب المسيح عند المسيحيين) تمكن الفرنج من اقتحام القدس وأباحوها لثلاثة أيام للنهب، وأقام الصليبيون أداء الشكر في كنيسة القيامة، هذه الصورة تناقض مع صورتين وتتشابه مع صورتين: **الصورتان المتناقضتان**: ١- ترجع إلى النصف الأول من ق ٧م عندما سلم الخليفة عمر بن الخطاب المدينة بالأمان وحفظ العهد الذي أعطاه للنصارى وأصبحت مدينة للتسامح، إلى أن جاء الهجوم الصليبي، وأثبت الحكام العرب قصورهم وقام الفرنج بمذابحهم وطالب الرأي العام بالجهاد فخرج المجاهدون: عماد الدين ونور الدين زنكي، صلاح الدين الأيوبي، فاستردوا الرهائن، وفشلت الحرب الصليبية. ٢- الانتصار في حطين١١٨٧م، وعودة القدس إلى المسلمين يوم الجمعة ٠٢ أكتوبر ١١٨٧م، وخروج الفرنج من المدينة دون إسالة قطرة دم، وهي صورة مختلفة عما حدث قبل ٨٨ عام. **الصورتان المتشابهتان**: مع الصورة الوحشية الأولى في يوم ٠٧ يونيو١٩٦٧م احتلت إسرائيل القدس العربية القديمة وأعلن اليهود أنها عاصمتهم الأبدية، وطردوا السكان المجاورين وحولوا سكناتهم إلى مدارس يهودية، فالتاريخ يثبت أن العدوان لا يضمن البقاء، والمقاومة تنتصر في النهاية.

٣/٢- الحروب الصليبية... متى تكون النهاية؟

عرفت الحروب الصليبية في بدايتها بالحج، الحملة المقدسة، حملة الرب، وعرفها المؤرخون المسلمون المعاصرون بحركة الفرنج؛ ثم ظهر اسم الحروب الصليبية والصليبيون، ودل على الحروب الاستيطانية ضد المسلمين حتى القرن الثامن عشر الميلادي، وتبنى الاستعمار الانجليزي والفرنسي فكرة الحروب الصليبية. وبعد سقوط الاتحاد السوفياتي روجت الولايات المتحدة الأمريكية للخطر الإسلامي، وروج باحثون أن الصراع الإسلامي من جهة والمسيحي الصهيوني من أخرى حتمية تاريخية، إن مصطلح الحملات الصليبية مازال منتشرًا في أدبيات الغرب لكن بمدلول آخر فهو يوحي بالتضحية بالنفس والشجاعة واستقر في وجدان الغرب أن الحملة الصليبية حملة خيرة نبيلة القصد والهدف (رعاية المرضى، المنكوبين، جمع التبرعات) وربما الموروث الشعبي الأوربي المتداول حول الحروب الصليبية هو سبب هذه المعاني، فبوش (Bush) عند حديثه عن الحملة الصليبية ضد الإرهاب لم يكن خارجًا عن السياق العام لمفاهيم الثقافة الغربية.

٤/٢- الأنا و الآخر ...أو(نحن) و(هم)

التمسك بالخصوصية الثقافية لا يعني رفض الآخر إنما التعامل والتعاون والاعتماد المتبادل وصيغة الاعتراف والحوار هو ما يعبر عنه بالتسامح، والموقف الذي يقبل الآخر ويقر بحقه في الوجود والاختلاف نشأ عن التطورات التاريخية والتقدم العلمي. الانقسام الذي حدث في الغرب بسبب الحرب على العراق يكشف على أن (نحن) لم تعد في مواجهة (هم)، والمشكلة تكمن في ترجمة كلمة التسامح من اللغات الأوربية، ففي العربية المسامحة والسماح هي التساهل والكرم، والكلمة الأوربية (toleration) تعني التسامح على كره والتحمل، إن المظاهرات المعادية للعولمة التي اندلعت في معظم أنحاء العالم وحتى داخل أوربا والولايات المتحدة الأمريكية تعبر عن رفض (نحن) الناس العاديين لسيطرة (هم) أصحاب الاحتكارات الرأسمالية إذن هذه القسمة الجديدة نحن وهم لا تنادي بالتسامح إنما تطالب بحقوق، لم تعد (نحن) جزئية محلية إقليمية أو حتى ثقافية في مواجهة (هم) في المستويات نفسها، فالحديث عن نحن وهم غير ثابتين، إذ بعد أحداث سبتمبر٢٠٠١ هناك حكام وصفوا داخل دائرة نحن التي أرادها بوش لكنهم لا يعبرون عن رأي شعوبهم، فهل يمكن أن نتطلع إلى إقناع (الآخر) خارج حدودنا بأن (يتسامح) معنا على أساس فكرة الحوار، ونحن لا نؤمن بهذه الفكرة ولا نمارس الحوار والقبول بالآخر داخل بلادنا؟!.

علمية، عالمية، مُحكَمة، ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

٥/٢- عندما أثر العرب في أوربا

فتح المسلمون الشواطئ الشرقية والجنوبية للمتوسط وشبه جزيرة أيبيريا، ولم يكن الأمر مجرد غزو عسكري إنما استقرار وبناء وحققت الحضارة العربية الإسلامية إنجازًا معرفيًا هائلاً وامتدت تأثيراتها إلى الحضارات الأخرى، فوصلت الأرقام العربية إلى أوربا ودخلت مصطلحات تجارية عربية ومنسوجات عربية ونقلت تكنولوجيا الزراعة إلى أوربا الغربية والزجاج والفخار المطلي بالزجاج والورق، وأثر العرب في الهندسة الميكانيكية في أوربا الغربية في العصور الوسطى، رغم صعوبة إثبات تنقل الأفكار التكنولوجية لأنها تنتقل كأفكار وحكايات وتقليد، وأثرت الفنون التشكيلية الإسلامية في المشغولات المعدنية الأوربية الوسيطة من حيث النماذج والأشكال والتصميمات والتقنيات، كما تأثر الأوربيون في مجال الطلاء، أما في مجال الأدب فقد تأثر دانتي اليجيري (Dante Alighieri) في كوميديته الإلهية (القرن الرابع عشر الميلادي) بتأثيرات إسلامية، وتأثرت العادات والتقاليد بنظائرها العربية كالتنجيم وقراءة الطالع ذات الأصول العربية.

٦/٢- المسلمون يتعرفون على الأخر

كان موقف المسلمين من حضارة القدماء من أهم عوامل بناء حضارتهم فنقلوا علوم الفرس واليونان والهند وتعلموا منهم كثيرًا، وأدى انتشار الإسلام إلى انقسام عالم المتوسط إلى الحضارة البيزنطية/ الأوربية/ الإسلامية، وكان الصدام والتفاعل بينها أحد أهم موضوعات تاريخ العصور الوسطى ولا يزال يشكل الأساس التاريخي للعلاقات بين الإسلام والغرب حتى الآن. قامت الدولة الأموية بترجمة أعمال اليونان، وأصبحت العملية أكثر تنظيمًا في العصر العباسي، ولم يكن هناك تعصب من المسلمين اتجاه الكتاب الأجانب والقدماء وهو ما أسهم في بناء الحضارة الإسلامية، ويعرف القرن (٣هـ/٩م) بقرن نضج التفاعل بين ما جاء به الإسلام وبين حركة الترجمة والموروث الثقافي للشعوب التي اعتنقت الإسلام. وصارت مؤلفات أرسطو معروفة عند الغرب بفضل الترجمات العربية التي تتم فرديا، وكانت صقلية أهم مراكز الترجمة عن العربية إضافة إلى قرطبة وباقي مدن الأندلس وإقليم البروفانس، ونتيجة هذه الترجمة تحسنت الصورة عن الأخر ولم يعد ذلك المتوحش، وخلق ابن رشد تيارًا في الفلسفة الأوربية "الرشديين اللاتين". إضافة إلى الترجمة كانت التجارة إحدى سبل التعرف على الأخر وكانت لها تأثيرات ثقافية، فالترجمة لعبت دورًا هامًا في العلاقات بين الحضارات الثلاث، والتفاعل بين الحضارات هو البديل الوحيد المعقول لمنطق صراع الحضارات الذي يروج له بعض مفكري العولمة.

٧/٢- الوجه الأخر للحروب الصليبية... دموع المعتدين ومخاوفهم

ترتبط الحرب بكل مظاهر العنف، والحروب الصليبية ليست استثناء في ذلك، وكشفت مصادر تاريخ الحروب الصليبية التي كانت محل تفسير من الباحثين الأوهام والضبابية الرومانسية للحركة الصليبية في الثقافة الغربية الحديثة، وكانت الذريعة الدينية غطاء لأطماع الارستقراطية الإقطاعية في التوسع، والحروب الصليبية بالنسبة لنا عدوان وهي كذلك بالنسبة للدراسات الغربية الحديثة لكنها كانت تضحيات وبطولات في المجتمعات التي خرج منها الصليبيون آنذاك فقد انتشرت مشاهد الوداع بالدموع من أهل الصليبي وصورت الأشعار ذلك. وقد كان خطر الموت، الإصابة، أو الخراب المالي هاجس يراود كل صليبي إضافة إلى قلقهم على أسرهم وممتلكاتهم، فكان بعضهم يتبرع بأمواله للدير ويكثر الصلوات حتى يعود سالمًا، وهناك من يوصي على أولاده وممتلكاته لكن الكثير منهم تعرض لهم الطامعون.

٨/٢- أوربا والمسلمون...التطور التاريخي الآخر

كان الدين غطاءً لكثير من جوانب العلاقات بين المسلمين والمسيحيين، فكلا الطرفان يقدسان مزارات مشتركة ويجلون أبطال قصص الكتاب، ورغم أن الإسلام يتحدث باحترام عن مريم العذراء والسيد المسيح إلا أن هناك فروق جوهرية بين الديانتين تكون حواجز بين الأتباع كرفض المسلمين لألوهية المسيح والثالوث وحادثة الصلب وعدم اعتراف المسيحية بالإسلام ومحمد. (١) في الوقت الذي كان الإسلام ينتشر في أقوام وحضارات لها آداب مكتوبة كان الأوربيون يعملون على نشر المسيحية في أقوام الجرمان، وكانوا في حالة تلقي فقط. (٢) جاء الإسلام بلغة لم تكن منتشرة في العالم القديم وهي العربية، أما الكنيسة الكاثوليكية فقد حملت اللاتينية إلى أمم جديدة (الجرمان)، هذان السببان في التباعد بين المسلمين والمسيحيين في القرن (٢هـ/٨م)، ما عدا الوجود الإسلامي في الأندلس، فقد كان الجهاد والبعد أهم أسباب التباعد وعدم التواصل، وكان الجهل بالإسلام مطبقًا أمام رجال الكنيسة فوقفوا أسرى العداء ضد الإسلام، فنشر متعصبون منهم أفكار سلبية عنه، وميدانيًا كان نجاح الإسلام متجسدًا في وجوده القوي في عالم البحر المتوسط، أما في جانب المسلمين فلم تكن المشكلة المعرفية بهذه الحدة، فقد حمل القرآن الكريم الكثير من المعلومات عن الطرف الآخر، كما أن المسيحية كانت منتشرة بمناطق أصبحت إسلامية، وتحول بعض المسيحيين إلى الإسلام، كما ساهمت عملية الترجمة في معرفة المسيحي لكن معرفيًا كان الغرب الأوربي باستثناء إسبانيا، جنوب إيطاليا وجزر المتوسط منطقة مجهولة، فالمسلمون لم يشعروا بحاجة لمعرفة الفرنجي، فكلا الطرفين كانا مجهولان لدى الآخر ومشوش وغامض الصورة.

٩/٢- عن الشعر والحرب أغاني الحروب الصليبية

شهد القرن الثاني عشر الميلادي نجاح الحركة الصليبية في إقامة كيان استيطاني بمنطقة العرب ثم الانهزام في حطين، وظهر ما يعرف بنهضة القرن الثاني عشر الميلادي، لكن الأمية كانت سائدة، وفي ظل هذه الظروف كانت الأغاني وسيلة مهمة في مخاطبة الناس، والتي كانت تكتب لتدغدغ مشاعر أبناء الأرستقراطية ثم استجابت للحروب الصليبية، ومن منتصف القرن الثاني عشر الميلادي بدأت

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449



تظهر أخبار الحملات الصليبية في الأغاني المكتوبة باللغات المحلية. ولم يبق من الأغاني التي تتحدث عن الحملة الصليبية سوى أنشودة أنطاكية التي كتبت بالفرنسية، كما كانت هناك أغاني حول الحملة الصليبية الثانية وانتزاع المسلمين للرها، وكتب بعض هذه الأغاني قادة الحملات الصليبية، وورد فيها تبجيل للأرستقراطيين وتمييزهم عن باقي الطبقات كما خص الفرسان ببعض الأغاني، وهناك أغاني من وجهة نظر المرأة التي تركها الصليبي وراءه.

٢/١٠- التتار و العالم العربي: الوجه الآخر

يرتبط ذكر التتار في التاريخ غالبًا بالحرب، لكن هناك علاقات إيجابية على مستويات أخرى بين العالم العربي والتتار، مما جعل التتار القفجاق أقرب إلى العالم الإسلامي فأصبح الإسلام يجتذب أعداء الأمس الذين قضوا على الخلافة العباسية ثم أصبحوا من أشد المدافعين عن الإسلام، وكانت العلاقات تتوطد بين المماليك بمصر والشام والتتار، وكان اعتناق قازان (حاكم خرسان) للإسلام نقطة تحول في العلاقات، وكانت هناك ملامح ايجابية للعلاقة بين الطرفين:

١- أن السلطان المملوكي العادل زين الدين كتبغا (٦٩٤-٦٩٦هـ) كان من أصل مغولي.

٢- هناك الكثير من التتار الذين هاجروا إلى مصر من عهد بيبرس وخدموا السلطة.

٣- كانت هجرات التتار إلى مصر والشام مستمرة في عصر المماليك (الدولة الأولى)، ونظرًا لجمالهم أقبل الناس على الزواج بهم فاندمجوا في المجتمع.

٤- أسهم التتار في التصوف الإسلامي كالتتاري الشيخ "براق".

هذه الأمثلة الأربعة تؤكد أن التتار لعبوا أدوارًا مهمة في العالم العربي، وكان منهم كبار العسكريين وتأثروا بالحياة بمصر والشام، وكان التأثير المتبادل على مستوى العادات والتقاليد.

٢/١١- المسلمون في عيني أسير صيني

نشأت مشكلة دبلوماسية حينما رفض وفد من المسلمين السجود للإمبراطور الصيني من أسرة تانج وذلك سنة ٧١٣م، وكان أمراء الصغد (أوزباكستان) يرسلون السفارات لملك الصين ليساعدهم في التدخل لمساعدتهم ضد المسلمين، والمواجهة المباشرة الوحيدة بين الصين والمسلمين هي معركة طراز يوليو٧٥١م، وانتهت بانتصار المسلمين لكنهم لم يستغلوها ويتقدموا شرقًا، كما أنه لا توجد مصادر عربية عن المعركة. وتم أسر بعض الصينيين من الجنود، وقد ترك أحد هؤلاء الأسرى "توهوان" الذي نقل إلى بغداد وبقي بها (١١ سنة) تقريرًا عن الحياة في العراق بعد إطلاق سراحه وعودته إلى بلاده سنة ٧٦٢م، وهو يعبر عن رؤية أجنبي لعادات وتقاليد مجتمع مسلم، ويكشف في كتابه عن مجتمع مسلم ناضج وهي الصورة التي يعرفها الناس عن ذلك العصر، فيذكر حتى أخلاق المسلمين وعباداتهم وعاداتهم وعن خطبة الخليفة يوم الجمعة وما يدعوا فيها الناس، وقد رسم هذا الأسير صورة مجتمع مسلم ملتزم بتعاليم دينه كارتداء النساء الحجاب وتحريم الخمور، ومجتمع يعيش الرفاهية في جميع الطبقات في المدن والريف كما يشير إلى تأثير الصناعيين الصينيين في بعض الصناعات في العراق.

أهمية الكتاب

"إعادة قراءة التاريخ" للدكتور قاسم عبده قاسم كتاب ذوا قيمة وأهمية كبيرتين، ويمكن أن نلمس هذه الأهمية من خلال النقاط التالية:

- تكمن أهميته في أنه محاولة جادة لوضع أسس جديدة لإعادة قراءة وفهم وتفسير التاريخ عامة والتاريخ العربي والإسلامي خاصة، في ظل الحركية الكبيرة التي يشهدها علم التاريخ في الغرب، خاصةً وأن التاريخ يحتاج إلى إعادة قراءته كلما دعت الظروف والضرورة.
- الكتاب لا توجد فيه أحداث ووقائع، بل فيه وجهات نظر وتصورات، وهو المنهج الجديد في كتابة التاريخ، فالتاريخ عند الدكتور قاسم ليس كتابة أحداث وفق تسلسل زمني، إنما هو ممارسة تقوم على تصورات وافتراضات.
- جل المواضيع التي ناقشها الكتاب إن لم تكن كلها، هي مواضيع لا تزال تلقي بضلالها على الكثير من قضايا المسلمين وعلاقاتهم الخارجية، فالقضايا المطروحة وإن كانت تاريخية إلا أنها لا تقفز فوق الواقع الحالي، إنما تحاول تفسير الراهن بمعطيات تاريخية وهو الدور الفعلي للتاريخ.
- يحمل الكتاب الكثير من الأفكار والقضايا التي يمكن أن يغفل عنها الكثير من المؤرخين، ويمكن أن تكون هذه الأفكار منطلقات جديدة لأجيال المؤرخين الناشئين لدراستها والتعمق فيها نظرا لأهميتها وارتباطها بواقعنا وعلاقتنا مع الآخرين.
- يحاول صاحب الكتاب الكشف عن الجوانب الأخرى من أي حادثة تاريخية وغالبًا ما تكون هذه الجوانب مهملة من طرف المؤرخين سواء القدامى أو المحدثين، لكنها ترد في بعض الأدبيات لا على سبيل التأريخ إنما على أنها تأثير اجتماعي، منها على سبيل المثال لا الحصر، ما أورده الكاتب عن الوجه الأخر للحروب الصليبية أو التتار والعالم العربي.
- تركيز الكتاب على الكثير من الأدوات الأدبية التي يمكن للتاريخ أن يستفيد منها كالرواية والآثار والشعر والمأثور الشعبي، كما نبه إلى ضرورة نشر التاريخ عند الناس وذلك من خلال استغلال السينما والتلفزيون عن طريق الأفلام التاريخية التي تحترم الإطار العام للحادثة التاريخية، كما أنه انتقد السينما التاريخية العربية.
- يطرح الكتاب قضية حساسة في الوقت الراهن، وهي علاقة المسلمين بالأخر (الغرب) وكيف تشكلت هذه الصورة القاتمة في غالب الأحيان، وكيف وجه بعض المفكرين سياسة الغرب، وفي مقابل ذلك يقف المفكرون المسلمون يتفرجون دون الأخذ بسبل تنوير الرأي الخارجي.
- الكتاب ليس موجه فقط للمهتمين بالتاريخ، بل للسياسيين والمفكرين والمثقفين.
- كما أن أهمية الكتاب تكمن من خلال كاتبه المفكر المؤرخ الدكتور قاسم الذي له باع طويل في التأليف والترجمة واطلاع كبير على التاريخ وسيرته ومؤلفاته هي مَنْ تتحدث عنه، كما أنه من المفكرين الذين تجد أفكارهم صدى في الساحة الفكرية.

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

الرسوم والنقوش الصخرية في وادي حضرموت

الألف الثاني قبل الميلاد – الألف الأول الميلادي

دراسة أثرية – تاريخية

أطروحة ماجستير في الآثار

إعداد: حسين أبو بكر العيدروس

إشراف: أ. د. عبده عثمان غالب

كلية الآداب والعلوم الإنسانية– قسم الآثار

جامعة صنعاء – اليمن ٢٠١٠

عدد الصفحات : ٢٧٥

عرض

حسين العيدروس

مدرس مساعد الآثار القديمة

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة صنعاء – الجمهورية اليمنية

"الرسوم والنقوش الصخرية في وادي حضرموت" دراسة أثرية تاريخية. تُغطي الفترة الزمنية من الألف الثاني قبل الميلاد إلى الألف الأول الميلادي، وتتكون من خمسة فصول ومقدمة وخاتمة وعدد من الملاحق. الجدير بالذكر أن الباحث قد استثنى عددًا كبيرًا من المواقع المتعلقة بالرسوم والنقوش الصخرية في وادي حضرموت والتي يزيد عددها عن (٢٥ موقعًا)، على أساس أنها قد نُشرت من قبل الباحث من ذي قبل، ولذلك تم الاقتصار على المواقع الجديدة المكتشفة. في **المقدمة**: تحدث الباحث عن أهمية ومشكلة البحث، وأسباب اختياره لموضوع الدراسة وأهدافها، وفيها أيضًا يعرض لمنهجية البحث الميداني والمكتبي الذي استخدمه في جمع المعلومات ودراستها وتحليلها.

وفي **الفصل الأول**: قدم الباحث مدخلاً جغرافيًا يوضح تضاريس المنطقة، وفي الجانب التاريخي أوضح الباحث أهم الدراسات الأثرية السابقة في منطقة "حضرموت" بشكل خاص، مع بعض الإشارات لأهم الأعمال الأثرية في هذا الموضوع في مناطق أخرى من شبه الجزيرة العربية. وفي **الفصل الثاني**: استعرض الباحث الرسوم والنقوش الصخرية وعلاقاتها بالفنون الأخرى المشابهة كالرسم والنحت، واستعرض فيه جوانب من تاريخ نشوء الفنون القديمة كتمهيد لموضوعه، بالإضافة إلى التعريف بهذا الفن وأهميته.

وفي **الفصل الثالث**: يقدم الباحث قراءة جديدة للرسوم والنقوش الصخرية في منطقة الدراسة، ويعرض نتائج الدراسة التي أجراها في "وادي حضرموت" خلال الفترة من ٢٠٠٦- ٢٠٠٩م، والتي أسفرت عن العثور على (٢٧ موقعًا جديدًا) تحتوي على عدد كبير من الرسوم والنقوش، المنفذة بأساليب وطرق مختلفة. وخلال استعراضه لهذه الرسوم والنقوش، قام الباحث بمقارنتها مع الرسوم والنقوش الصخرية من مواقع أخرى في اليمن وشبه الجزيرة العربية، مما ساعده على معرفة الكثير من المعلومات المتعلقة بالأنماط والطرق، بالإضافة إلى التاريخ النسبي الذي اعتمد لهذه الرسوم والنقوش الصخرية اعتمادًا على درجة العتق "البلى" وأسلوب ونمط الرسوم، والنقوش بدرجة رئيسه على المقارنة بما يشبهها في مناطق أخرى في اليمن وشبه الجزيرة العربية.

وفي **الفصل الرابع**: استعرض الباحث المكونات والعناصر الأساسية لهذه الرسوم والنقوش، مبينًا تقسيماتها وأنواعها، ومواقع انتشارها، وقد تم تقسيمها على النحو الآتي: الرسوم الحيوانية - الرسوم الآدمية - الأدوات والأسلحة - الرموز والأشكال الأخرى - (النقوش) أو الكتابات. وفي **الفصل الخامس**: استعرض الباحث الجوانب التكنيكية، والتقنيات والوسائل المستخدمة في تنفيذ الرسوم والنقوش الصخرية، في منطقة الدراسة، وقام بتصنيفها، ومطابقتها مع ما يشابهها في مواقع أخرى مدروسة في اليمن وشبه الجزيرة العربية، ولاحظ وجود عدد من الطرق المختلفة، كالتوقيعات (الطغراء)، ووجود بعض حروف الكتابة بأشكال جديدة، وبعضها كتب بالخط الثمودي، وأخرى مكتوبة بخط الزبور اليماني، ووجد أن معظمها مكتوبة بحروف المسند.

المشكلة المطروحة

لم تحظ الرسوم الصخرية بالذات بعناية كما كانت تحظ النقوش أو (الكتابات) التي ارتبطت بها في مرحلة متأخرة من الألف الثاني قبل الميلاد، وظلت على هامش الدراسات التي تنشر من قبل متخصصين وهواة في علوم اللغات، وكانت بعض التفسيرات التي يتناولونها تركز على الجانب السحري أو الجانب الديني في هذه الرسوم فقط، بينما ثمة تفسيرات أخرى تركز على الأشكال الظاهرية للملابس، أو على شكل الشَعر، أو غير ذلك من العناصر التي تجسدت فيها، ولذلك لم تتوسع الدراسات في تفاصيل أكثر عند معظم الذين تناولوا هذا الموضوع إلا فيما ندر، واقتصروا على توثيقها بشكل عام. وقد نالت بعض مواقع الرسوم الصخرية في شبه الجزيرة العربية حظًا من الدراسات المتخصصة في وقت قريب، كما نالته مواقع محددة في اليمن مثل صعدة بدرجة رئيسة، ثم تلتها مناطق أخرى مثل الضالع، وبعض مناطق في حوض صنعاء. ونظرًا لأهمية هذه الرسوم والنقوش الصخرية في إعطاء الكثير من المعلومات عن حياة المجتمعات القديمة، ومعرفة الحياة البرية،

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية

ISSN: 2090 – 0449

ومعرفة لغتهم، وطرق معيشتهم، إلى آخره من المعلومات التي بلا شك ستكون رافدًا مهمًا في صياغة التاريخ، بالإضافة إلى أن ما تتعرض له مواقع الرسوم والنقوش الصخرية من تدمير وإزالة نتيجة للزحف العمراني واستخدام الصخور في البناء من أهم الدوافع للإسراع في توثيق ودراسة هذه المواقع.

أهداف الدراسة

- القيام بمسح واسع للمواقع الأثرية التي تتوقع بها رسوم ونقوش صخرية في "وادي حضرموت" وفروعه، وذلك بهدف توثيقها توثيقًا علميًا سليمًا يفيد البحث العلمي مستقبلاً.
- البدء بعمل خارطة أثرية لمواقع الرسوم والنقوش الصخرية، كجزء من الخارطة الأثرية العامة لليمن، بهدف معرفة مناطق انتشار هذا النوع من الفنون، وعلاقته بمناطق الجوار.
- فحص ودراسة محتويات هذه الرسوم، لمعرفة الجوانب المختلفة من حياة الإنسان في المنطقة، وربط المعلومات المستقاة منها بالمواقع نفسها، وبما جاورها من مناطق تدل بعض المؤشرات أن لها صلات بها، وإجراء الدراسات المقارنة.
- التعرف على المزيد من المعلومات عن الحياة القديمة مثل الحياة البرية السائدة في ذلك الوقت، حيث كانت توجد بعض الحيوانات والنباتات؛ كالوعول والنعام وغيرها، ولم تعد موجودة في الوقت الحاضر، أو أنها أصبحت نادرة. وهو ما يُفسر التغيرات المناخية التي سادت المنطقة. بالإضافة إلى إثراء معاجم اللغة اليمنية القديمة بالمزيد من الأسماء والمعلومات عن الكتابة وأشكالها.

المنهج

اعتمدت الدراسة المنهجين العلميين الأثري والتاريخي، فقد كانت الدراسة ميدانية بدرجة أساسية، ولذلك كان المنهج الأثري هو الأساس، إلا أنه كان لابد من الاستعانة بالمنهج التاريخي فيما يتعلق بالخلفية التاريخية ومعرفة الدراسات السابقة التي تمت. ومن خلال الدراسة التي قام بها الباحث في عدد من مواقع الرسوم بمنطقة الدراسة وغيرها، فقد استطاع تحديد (ستة أساليب) للرسوم والنقوش الصخرية، بناءً على الشكل الرئيس المستخدم، وتندرج تحت هذه الأساليب عدد من التقسيمات الأخرى تمثل الأنواع أو الأشكال والتي تحدد التفاصيل كطرق التنفيذ والمواد المستخدمة.

الأساليب الأساسية للرسوم والنقوش في منطقة الدراسة:

الرسم العودي: وهو أسلوب الرسم الشائع في منطقة الدراسة.

الرسم الإطاري: وهو أسلوب رسم غير شائع في منطقة الدراسة.

الرسم المصمت: وهو أسلوب رسم غير شائع في منطقة الدراسة.

الرسم الرمزي: وهو أسلوب رسم شائع في منطقة الدراسة.

الكتابة: أسلوب منتشر في معظم مواقع الدراسة، و أشكال حروفه متنوعة، كتبت بالخط المسند وبعض حروف من الثمودي، كما ظهرت أشكال جديدة للحروف والتوقيعات (الطغراء). وتم رسم أشكال بواسطة بعض الحروف.

الرسم والكتابة: وهو أسلوب يجمع بين الرسم والكتابة في آن واحد، وهذا الأسلوب شائع في منطقة الدراسة.

وهذه الأساليب غير مقتصرة على مواقع الدراسة بـ (وادي حضرموت) فحسب، ولكنها منتشرة في مرحلة العصر الحديدي وعصر الكتابة حتى بداية العصر الإسلامي، في مواقع شبه الجزيرة العربية بشكل عام.

أهم نتائج الدراسة

تم تسجيل وتوثيق (٢٧ موقعًا) جديدًا للرسوم والنقوش الصخرية في وادي حضرموت. وقد حصر الباحث في مواقع الدراسة ما يزيد عن (٢٢٣ نقشًا) بخط المسند معظمها أسماء أعلام، بالإضافة إلى بعض الحروف الثمودية وخط الزبور اليماني، وأشكال متنوعة للتوقيعات (الطغراء)، ومنها بعض الحروف المختلفة مثل الباء الذي تعلوه نقطتان في (نقش ٩٥)، وما يزيد عن (١٠٠ لوحة) مرسومة تحتوي على حوالي (١٧٧ عنصرًا) رُسمت بأساليب وطرق مختلفة، وقام بتوثيقها ومقارنتها بما يشابهها في المواقع التي سبق دراستها في وادي حضرموت واليمن ومناطق من شبه الجزيرة العربية.

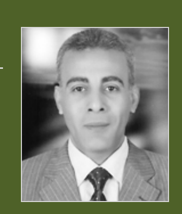
- وقد كشفت نتائج الدراسة عن وجود عدد من الأساليب الفنية الشائعة خلال مرحلة تمتد من الألف الثاني قبل الميلاد وحتى الفترة السبئية المتأخرة، وكان من الصعب القيام بتحديد جازم وأكثر دقة لتأريخ عدد من الرسوم وبعض النقوش بطريقة المقارنة أو أشكال الحروف فقط نظرًا لوجود أشكال متشابهة ربما تتكرر في مراحل مختلفة، وربما تظهر أشكال مختلفة لحروف كتبت في عبارة أو كلمة واحدة، وفي موقع واحد. وقد ينطبق الأمر ذاته على الرسوم في كثير من المواقع، إلا أن الإطار الزمني العام يتقارب في معظم مواقع الدراسة مع تميز بعض المواقع مثل موقع (شعب صياد) الذي حوى نماذج متنوعة وأساليب مختلفة، ومنها رسم الوعل بالأسلوب الإطاري والذي يشابه رسم موجود بموقع (وادي بني خروص في عمان) من الألف الثاني قبل الميلاد، وكذلك رسوم الجمال في (موقع شعب صياد) التي تشابه تمامًا رسوم الجمال في (موقع قبائل الصفاء) في شمال السعودية.
- وجد الباحث نماذج من النقوش المسندية معظمها أسماء أعلام، بالإضافة إلى بعض الحروف الثمودية وخط الزبور اليماني، وأشكال متنوعة للتوقيعات (الطغراء) ووجود بعض الحروف ذات أشكال مختلفة مثل حرف الباء في (رأب إل) في (نقش ٩٥)، وعدد من الرموز المألوفة في مواقع الرسوم الصخرية في اليمن وشبه الجزيرة العربية مثل طبعات الأيدي (الكفوف).
- يظهر من خلال المواقع أنه كان للطرق التجارية الواسعة في وادي حضرموت وعلاقتها بالمناطق المجاورة سواءً في اليمن أو في شبه الجزيرة العربية الأثر الكبير في وجود وتعدد هذه الأساليب المتنوعة خلال الفترة المحددة.

أهم التوصيات

- يوصي الباحث بالإسراع في حماية مواقع الرسوم والنقوش الصخرية لما تعرضت وما زالت تتعرض له من تدمير في معظم المناطق، مع تكثيف الجانب التوعوي المناسب لتلافي هذا التخريب مستقبلاً.
- يوصي بالإسراع في توثيق ما تبقى من مناطق يحتمل وجود مواقع للرسوم والنقوش الصخرية بها، وإجراء الدراسات باستخدام وسائل التأريخ الحديثة، حتى تكون النتائج أكثر دقة وفائدة.

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

The Impact of the Architectural Constructions in the Form and Ornament of Islamic Applied Arts from 2 Century to 8 AH / 8 - 14 AD



أ.د. عبد الناصر محمد حسن ياسين

أستاذ الآثار والفنون الإسلامية

وكيل كلية الآداب لشئون خدمة المجتمع

جامعة سوهاج – جمهورية مصر العربية

أثر المنشآت المعمارية في تشكيل الفنون التطبيقية الإسلامية وزخرفتها خلال الفترة ق ٢- ٨هـ/ ٨- ١٤م

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

عبد الناصر محمد حسن ياسين، أثر المنشآت المعمارية في تشكيل الفنون التطبيقية الإسلامية وزخرفتها خلال الفترة (ق٢ - ٨هـ/ ٨ - ١٤م).- دورية كان التاريخية.- العدد الثالث والعشرون؛ مارس ٢٠١٤. ص ١٤٦ – ١٦٦.

www.kanhistorique.org

كان التاريخية: رقمية الموطن .. عربية الهوية .. عالمية الأداء

مُلَخَّصٌ

ترتبط حياة الإنسان المسلم ارتباطًا وثيقًا بأنواع مختلفة من المنشآت المعمارية، كالأَدْوُر، والمساجد، والمدارس، والأضرحة. ومن الطبيعي أن تُؤثر هذه المنشآت بصورة أو بأخرى على أفراد المجتمع الإسلامي، ومنهم الفنان الذي استلهم منها بعض إبداعاته الفنية، فأقبل مجسمًا بعضها على هيئة تحف تطبيقية تارة، وأقبل على زخرفة بعض منتجاته الفنية بأشكال على هيئاتها تارة أخرى. وتهتم هذه الدراسة بإبراز أثر المنشآت المعمارية في تشكيل الفنون التطبيقية الإسلامية وزخرفتها، خلال الفترة المنوَّهِ إليها في عنوان هذا البحث. وقد تم تصنيف التحف المشكلة على هيئة منشآت معمارية وفق الأنماط المتعارف عليها في العمارة، فمنها تحف مشكلة على نمط منشآت معمارية ذات بدن مكعب تعلوه قبة مركزية وأربع قباب في الأركان. ومنها تحف مشكلة على نمط منشآت معمارية ذات بدن مكعب تعلوه قبة. ومنها تحف مشكلة على نمط منشآت معمارية ذات بدن متعدد الأضلاع تعلوه قبة. ومنها تحف مشكلة على نمط منشآت معمارية ذات بدن مكعب يعلوه غطاء هرمي. ومنها تحف مشكلة على نمط منشآت معمارية ذات بدن اسطواني تعلوه قبة. ومنها تحف مشكلة على نمط منشآت معمارية ذات بدن منشوري مشطوف تعلوه قبة. أما فيما يتعلق بالتحف التي زُخرفت بأشكال منشآت معمارية، فمنها ما زُخرف بأشكال منشآت معمارية مدنية، ومنها ما زُخرف بأشكال منشآت معمارية حربية، ومنها ما زُخرف بأشكال منشآت معمارية دينية، بعضها إسلامي، وبعضها الآخر مسيحي.

مُقَدِّمَةٌ

نالت العناصر المعمارية[1] التي زخرفت الفنون التطبيقية الإسلامية نصيبًا وافرًا من الاهتمام، حيث أفرد لها بعض العلماء دراسات مستقلة،[2] كما تعرض بعض الباحثين لجوانب منها،[3] في حين أن موضوع التحف التي شُكِّلَت على هيئات منشآت معمارية، أو زُخْرِفَت بأشكال على هيئات هذه المنشآت لم يزل بكرًا، وأحسب أن أهمية هذه الدراسة لا تقف عند هذا الأمر فحسب، أو عند كون التحف التي شُكِّلَت على هيئات منشآت معمارية، أو زُخْرِفَت بأشكال على هيئات هذه المنشآت، اشتملت على أنواع منشآت معمارية مختلفة –دينية، وجنائزية، ومدنية، وحربية- بل تتخطى ذلك، حيث إنها حاولت الربط بين أشكال هذه المنشآت المعمارية، وأشكال المنشآت المعمارية الحقيقية الباقية.

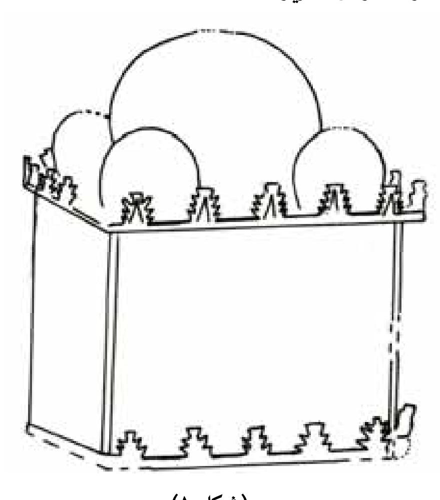
وعلى الرغم من تعدد السُّبُل التي يمكن من خلالها تناول الموضوع، محل الدراسة،[4] فقد فرضت طبيعة التحف، محل التناول، أن تتمحور الدراسة حول البُعْدَين الواردينِ في العنوان، فأتناول التحف التي شُكِّلَت على هيئات منشآت معمارية في محور، مصنفًا إياها إلى أنماط تقابل أنماط العمائر، موضحًا العلاقة بينها وبين المنشآت المعمارية الحقيقية الباقية، ثم أتناول التحف التي زُخْرِفَت بأشكال منشآت معمارية في محور آخر، مصنفًا إياها حسب نوع المنشأة المعمارية التي تُزخرف التحفة، موضحًا أيضًا علاقة هذه المنشأة بالمنشآت المعمارية الحقيقية الباقية.

أولاً: أثر المنشآت المعمارية في تشكيل الفنون التطبيقية

لهذا المحور من الدراسة أهمية خاصة، ليس لكثرة عدد التحف التي شُكِّلت على هيئات منشآت معمارية فحسب، أو لكون هذه التحف تُغطي معظم الفترة التاريخية، محل التناول، وإنما لأنها بوصفها تحفًا مجسّمة، فتبدو كأنها نماذج مصغرة لمنشآت معمارية متكاملة، ناهيك عن أن معظم التحف، محل الدراسة، لها ما يُقابلها في المنشآت المعمارية الحقيقية الباقية.

١/١- تحف مُشَكَّلة على نمط منشآت معمارية ذات بدن مكعب، تعلوه قبة مركزية وأربع قباب في الأركان:

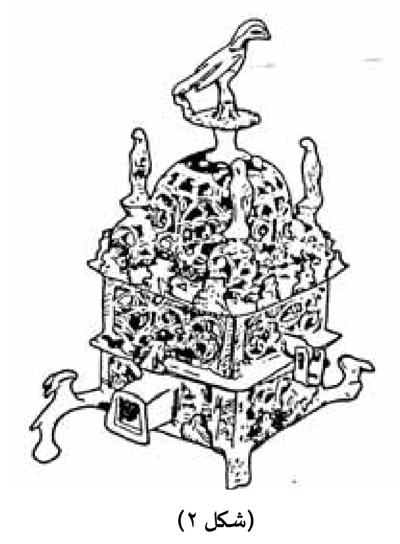
وصلتنا من هذه التحف مبخرتان من البرونز؛ تُعدان من بواكير التحف التي شُكِّلت على هيئات منشآت معمارية، أولاهما: (لوحة ١، شكل ١) محفوظة في معرض "فرير" للفن بواشنطن، وقد نسبها بعض العلماء إلى مصر حسب الطراز الأموي،[5] ونسبها آخرون إلى القطر نفسه في القرن ٢ أو ٣هـ/ ٨- ٩م،[6] أما ثانيتهما: (شكل ٢) فمحفوظة في المتحف القبطي بالقاهرة، وتُنسب أيضًا إلى مصر في تاريخ المبخرة الأولى نفسه[7]. ولكل من هاتين المبخرتين بَدنٌ مكعب الشكل، يعلوه غطاء على هيئة قبة مركزية كبيرة، وأربع قباب صغيرة في الأركان. وبينما يتقدم الحافة السفلية لبدن المبخرة الأولى صف من الشرافات المسننة، ويتوج هذا البدن صف آخر من هذه الشرافات، لا يظهر في المبخرة الثانية إلا صف الشرافات الذي يتوج بدنها. ومن الضروري التنويه إلى أن ثمة تأكيدًا من بعض العلماء على أن المبخرتين، محل التناول، من صناعة مصرية، حيث ظهر فيهما التأثير القبطي واضحًا في كثير من تفاصيلهما الزخرفية والفنية؛[8] كهيئة الزخارف النباتية التي تُزين القباب، وتماثيل الطيور التي تعلو القباب، هذا بالإضافة إلى هيئة رؤوس الأُسودُ في أرجل مبخرة معرض "فرير".[9]



(شكل ١)

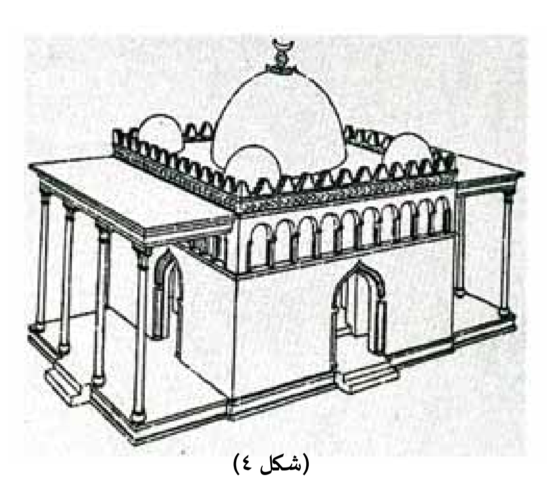
رسم لبدن وغطاء مبخرة من البرونز، بمعرض "فرير"، مصر ق ٢- ٣هـ. الباحث، انظر، Atil, 1975, pl. 8

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449



(شكل ٢)

رسم لمبخرة من البرونز، محفوظة في المتحف القبطي بالقاهرة، مصر ق ٢- ٣هـ عن، Allan, fig. 14



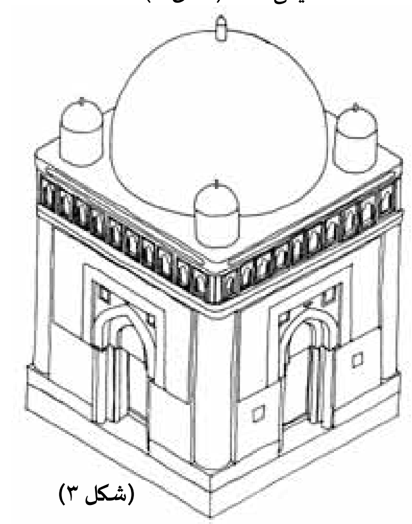
(شكل ٤)

تصميم مقترح لعرش كسرى "تخت التقديس"

عن، Hillenbrand 1994: fig. 7. 49.

ومن اللافت للنظر أن طريقة التغطية في هاتين المبخرتين، تُعد من الطرق غير المألوفة، سواء في المباخر القبطية، أو في المباخر الإسلامية، والتي كانت تأخذ إما الشكل الأسطواني المقبب، أو الشكل الهرمي. أما في هاتين المبخرتين فإن الغطاء يتكون من قبة مركزية، وأربع قباب صغيرة في الأركان، وهو في ذلك مطابق لهيئة التغطية في ضريح "إسماعيل الساماني" (لوحة ٢، شكل ٣) بمدينة "بخارى"؛[١٠] الذي ينُسب تاريخه إلى عام وفاة "إسماعيل الساماني" (٢٩٥هـ/ ٩٠٧م)، أو إلى ما قبل سنة (٣٣٢هـ/ ٩٤٣م) حسب اعتقاد بعض العلماء.[١١]

والحقُّ أن العلاقة واضحة بين الشكل العام، وهيئة التغطية في المبخرتين، محل التناول من ناحية، والشكل العام وهيئة التغطية في ضريح "إسماعيل الساماني" من ناحية أخرى، آخذين في عين الاعتبار أن النماذج الأصلية لضريح "إسماعيل الساماني" تتمثل في بعض المنشآت المعمارية الساسانية، ومنها البناء المعروف بـ "عرش كسرى"، أو "تخت التقديس".[١٢] (شكل ٤).



(شكل ٣)

رسم لضريح "إسماعيل الساماني"،

عن، Hillenbrand 1994: fig. 5. 44.

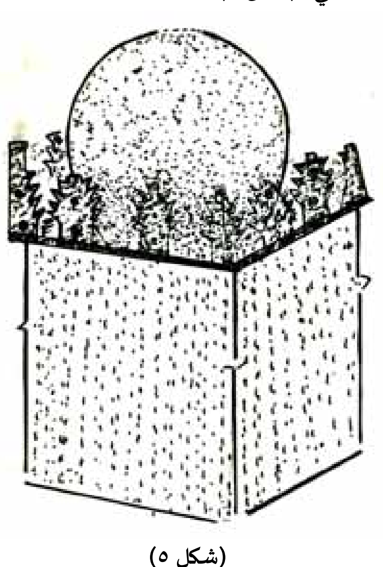
غير أنه لما كان تاريخ هاتين المبخرتين المنسوبتين إلى مصر، يرجع في أقصى تقدير إلى القرن ٣هـ/ ٩م، في حين أن ضريح "إسماعيل الساماني" بمدينة "بخارى" يرجع إلى نهاية القرن ٣، أو أوائل القرن ٤هـ/ ٩- ١٠م، فإنه ليبدو من الصعب الاعتقاد بأن هاتين المبخرتين متأثرتان بذلك الضريح، والأرجح أنهما متأثرتان بنماذج تسبق في تاريخها هذا الضريح، وهي لا شك النماذج الساسانية. وبناء على ذلك فهذا يدعونا إلى التساؤل عن إمكانية قيام بعض الفنانين الفُرس الذين تواجدوا بمصر في أوائل العصر الإسلامي،[١٣] بدور في تشكيل بعض التحف المصرية على هيئة منشآت معمارية ساسانية، ويستدعي هذا الأمر الإشارة إلى صينية من البرونز – سنتناولها فيما بَعْدُ- تُنسب إلى إيران، أو العراق في نهاية العصر الساساني، أو العصر الإسلامي المُبكر، مزخرفة بمنشأة معمارية على هيئة "عرش كسرى"؛ مما يعني أن تمثيل "عرش كسرى" على الفنون كان ملموسًا، قبل إنشاء ضريح "إسماعيل الساماني".

٢/١- تحف مُشَكَّلة على نمط منشآت معمارية ذات بدن مكعب تعلوه قبة:

وصلتنا من هذه التحف مجموعة من المباخر البرونزية، ترجع إلى إيران خلال الفترة من القرن ٣ - ٦هـ/ ٩- ١٢م، منها مبخرة محفوظة في المتحف الإقليمي بالسويد، تُنسب إلى القرن ٣هـ/ ٩م،[١٤] وهي ذات بدن مكعب الشكل تعلوه قبة نصف كروية، مستوحاة من هيئة ثمرة الرمان، ويُتوج بدن هذه المبخرة صفٌّ من الشرافات المسننة (لوحة ٣، شكل ٥). ومنها مبخرة أخرى محفوظة في متحف برلين، تُنسب إلى القرن ٥هـ/ ١١م،[١٥] وهي كالمبخرة السابقة ذات بَدَنٍ مكعب تعلوه قبة، إلا أن البدن يخلو من الشرافات المسننة، كما أن قبة هذه المبخرة غير مستوحاة من هيئة ثمرة الرمان. ومن هذه المباخر كذلك، مبخرة ثالثة، محفوظة في مجموعة "ناصر الخليلي" للفن الإسلامي في لندن، تُنسب إلى القرنين ٤- ٥هـ/ ١٠- ١١م،[١٦] وهي ذات بدن مكعب تعلوه قبة أقرب إلى الشكل الكروي، وتشترك هذه المبخرة مع المبخرة الأولى، في أن قبتها

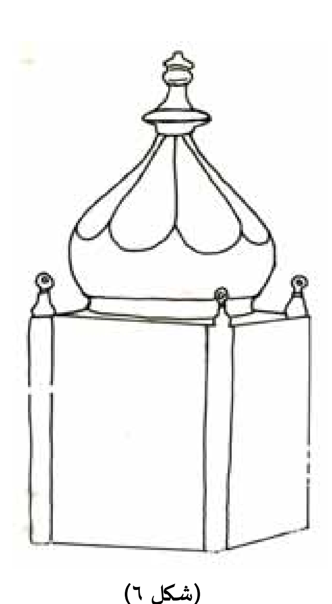
علمية. عالمية. مُحكَّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

مستوحاة من هيئة ثمرة الرمان، كما أن بدنها متوج بصف من الشرافات المسننة (لوحة ٤). ومنها أيضًا مبخرة أخرى (لوحة ٥ ، شكل ٦)، محفوظة أيضًا في مجموعة "ناصر الخليلي"، وهي ترجع إلى القرن ٦هـ/ ١٢م،(١٧) وذات بَدَنٍ مكعب الشكل أيضًا، تعلوه قبة بصلية الشكل،(١٨) تحتوي على زخرفة تُعطي إيحاءً بأنها على هيئة القباب المفصصة، ويُلحظ أن بدن هذه المبخرة مزود في أركانه بأربعة أعمدة مدمجة، وهذه الميزة وجدناها من قبل في ضريح "إسماعيل الساماني" (شكل ٣).



(شكل ٥)

رسم لبدن وغطاء مبخرة من البرونز، بالمتحف الإقليمي في السويد، إيران، ق ٣هـ الباحث، انظر، عبد الرازق، ٢٠٠١م، لوحة ٦٢.



(شكل ٦)

رسم لمبخرة من البرونز، بمجموعة ناصر الخليلي للفن الإسلامي بلندن، إلى خراسان، ق ٦هـ الباحث، انظر، Piotrovsky, pl. 184

ومن الواضح أن جميع المباخر السابقة الذكر مُشكَّلة على هيئة منشأة معمارية ذات بدن مكعب الشكل، تعلوه قبة، وهي بذلك تتبع نمط التخطيط الذي يعتمد على المساحة المربعة التي تعلوها قبة، والذي يمتد - حسبما يرى بعض العلماء- بجذوره إلى بعض منشآت الساسانيين المعمارية، ولاسيما قصورهم، ومعابدهم.(١٩)

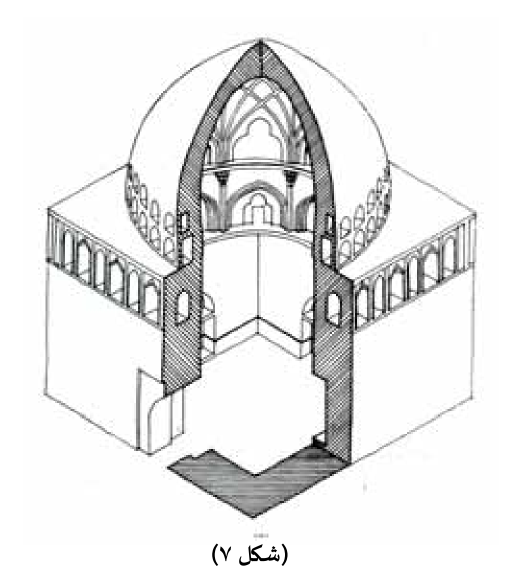
ومن المعروف أن ذلك الشكل المعماري الذي قوامه بناء مكعب الشكل تعلوه قبة، عُرف في العصر الإسلامي منذ العصر الأموي، إذ وصلتنا من ذلك العصر حجرات مربعة التخطيط، مسقوفة بقباب، إلا أن هذه الحجرات تُمثل وحدة من منشأة معمارية.(٢٠) ومع أننا نفتقد منشآت معمارية أموية مستقلة تتكون من حجرة مغطاة بقبة، فمن المؤكد أن المسلمين عرفوا هذا الشكل من المنشآت المعمارية المستقلة بعد القرن ١هـ/ ٧م؛ وذلك في الأضرحة ذات القباب،(٢١) وقد انتشر هذا الشكل من المنشآت المعمارية في كثير من البقاع والعصور الإسلامية، ولعل أقرب نماذجها إلى العصر الأموي، بعض قباب جبانة أسوان، التي يُنسب بعضها إلى العصر العباسي.(٢٢)

وعلاوة على ذلك؛ فإن التكوين العام للمباخر السابقة الذكر؛ لا يختلف في شيء عن نوع من المساجد المعروفة باسم "المسجد القبة"، والذي يعتمد تخطيطه على مساحة مربعة تعلوها قبة، وقد وصلتنا إشارات تاريخية تُفيد بأن بعض مساجد القبائل العربية في الفسطاط كانت مصممة وفق هذا التخطيط،(٢٣) أي أن هذا النمط من المساجد عُرف في فترة مبكرة من التاريخ الإسلامي. وإذا كان الشكل العام للمباخر الإيرانية، محل التناول، هو ذاته شكل الأضرحة، والمساجد ذات التخطيط الذي يعتمد على مساحة مربعة تعلوها قبة، فمن الضروري التنويه إلى أن هذا الشكل من المنشآت المعمارية شاع استعماله في الأضرحة، والمساجد الإيرانية. وفيما يتعلق بالأضرحة فمن المعتقد أن هذا التخطيط اتُّبع فيها على أقل تقدير في أوائل القرن ٤هـ/ ١٠م، وظل مستخدمًا بعد ذلك، ومن أمثلته هناك، ضريح "أرسلان" في "Sangbast" جنوبي "مشهد"، الذي يرجع إلى ما بين (٣٨٧- ٤١٩هـ/ ٩٩٧- ١٠٢٨م)،(٢٤) وضريح "Duvazdah –i- Mam" في "يزد"، الذي يرجع إلى سنة (٤٢٩هـ/ ١٠٣٧م)،(٢٥) وضريح "سرخ" في "مراغة" الذي يرجع إلى سنة (٥٤٢هـ/ ١١٤٧- ٨م)،(٢٦) وضريح السلطان "سنجر" (شكل ٧) في "مرو"، الذي يرجع إلى سنة (٥٥٢هـ/ ١١٥٧م)،(٢٧) وغير ذلك.

أما بالنسبة لاستعمال هذا الشكل من المنشآت في المساجد الإيرانية، فثمة إشارة تُفيد بأن إيران تملك بوجه عام، أقدم المساجد الباقية التي اتبعت هذا الشكل من المنشآت المعمارية، وإن كان يتقدم المساحة المربعة رواق خارجي، أو سقيفة،(٢٨) ومن أمثلته المبكرة في إيران جامع "يزد خاص- Yazd-i- Khast" الذي يُنسب إلى أواخر القرن ٤هـ/ ١٠م،(٢٩) وجامع "Qurva"،(٣٠) وجامع "سُجاس" في في "زنجان"، الذي يُنسب إلى أوائل القرن ٥هـ/ ١١م،(٣١) (شكل ٨)، مع الأخذ في عين الاعتبار أن المساحة المربعة المغطاة بقبة، أو القبة

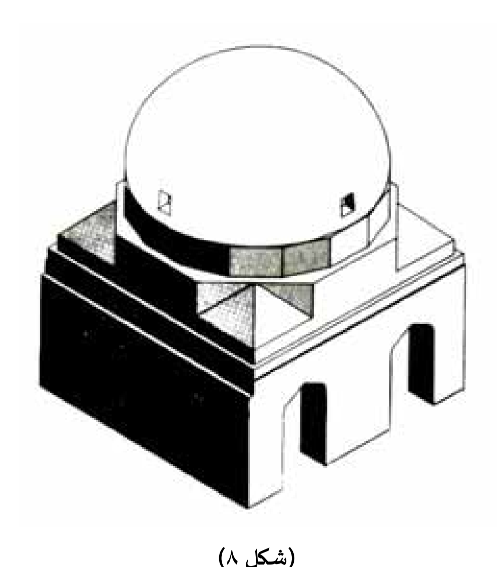
علمية، عالمية، مُحكّمة، ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

التي تعلو مساحة مربعة، كانت ملمحًا مهمًّا في المساجد السلجوقية الإيرانية، التي اتبعت نظام الأواوين.(٣٢)



(شكل ٧)

رسم لضريح "سنجر" في مرو، عن، Hillenbrand 1994: fig. 2. 66



(شكل ٨)

رسم لمسجد "سُجاس"، عن، Hillenbrand 1994: fig. 2. 251

٣/١- تحف مُشَكَّلة على نمط منشآت معمارية ذات بدن متعدد الأضلاع تعلوه قبة:

تُعَّد هذه التحف أكثر ما بين أيدينا من التحف المشكلة على هيئات منشآت معمارية -بوجه عام- وباستثناء تحفة واحدة من الخشب ترجع إلى الأناضول في القرن ٨هـ/ ١٣م، فجميع التحف الأخرى معدنية، وهي ترجع إلى بقاع وعصور مختلفة، فمنها ما يُنسب للعصر الأموي (٤١- ١٣٢هـ/ ٦٦١- ٧٥٠م)، ومنها ما يرجع إلى إيران في القرن ٨هـ/ ١٤م، ومنها ما يرجع إلى الأناضول في العصر السلجوقي (٤٧١- ٧٠٨هـ/ ١٠٧٨- ١٣٠٨م). وبينما لا تُمثل التحف الأموية إلا تحفة واحدة، ولا تُمثل التحف الإيرانية أيضًا إلا تحفة واحدة، فقد تعددت التحف السلجوقية الأناضولية. وأقدم نماذج هذا النمط تتمثل في مبخرة تُنسب إلى العصر الأموي، عُثر عليها في منطقة "Crikvine" بـ "Dalmatia"،(٣٣) وتتميز هذه المبخرة ببدن مسدس الشكل، يعلوه غطاء على هيئة قبة أقرب إلى الشكل المخروطي المضلع، تعتمد على بائكة ذات عقود حدوية الشكل (شكل ٩)، تذكرنا بكثير من مثيلاتها المنفذة على عديد من التحف، والمنشآت المعمارية الأموية.(٣٤)



(شكل ٩)

رسم لمبخرة من البرونز تُنسب إلى العصر الأموي، عن، Allan, fig. 17

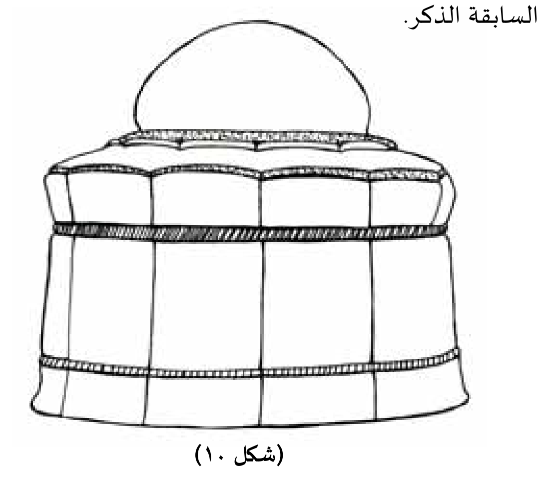
وفيما يتصل بعلاقة هذه التحفة بأشكال المنشآت المعمارية، يجب أن نقر بادئ ذي بدء، أننا نفتقد - في حدود ما أعلم- منشآت أموية ذات بدن مسدس الأضلاع تعلوه قبة، ولكن من الثابت - بوجه عام- أن المنشآت المعمارية ذات البدن المتعدد الأضلاع، الذي تعلوه قبة، كانت شائعة عند الرومان،(٣٥) كما عرفها المسلمون منذ العصر الأموي، ولعل أشهر أمثلتها في ذلك العصر قبة الصخرة (٧٢هـ/ ٦٩١- ٢م) (لوحة ٦)، وعلى الرغم من أن الجدران الخارجية لهذا الأثر مثمنة الأضلاع، والقبة فيه لا تعتمد على هذه الجدران، مختلفة في ذلك عن المبخرة محل التناول. فيُلحظ أن القبة في قبة الصخرة تعتمد على ما يُشبه دائرة مركزية من الدعامات والأعمدة،(٣٦) وهذا التكوين مشابه إلى حد ما لتكوين القبة في المبخرة محل التناول، ومع هذا التشابه في تلك النقطة، يجب أن نقر بأن أوجه الشبه ليست كبيرة بين هذه المبخرة، وقبة الصخرة، ولكن هذا لا ينفي احتمال تأثر هذه المبخرة بالشكل العام لبعض المنشآت المعمارية، خاصة الرومانية ذات البدن المضلع المسقوف بقبة، تعلو البدن مباشرة.

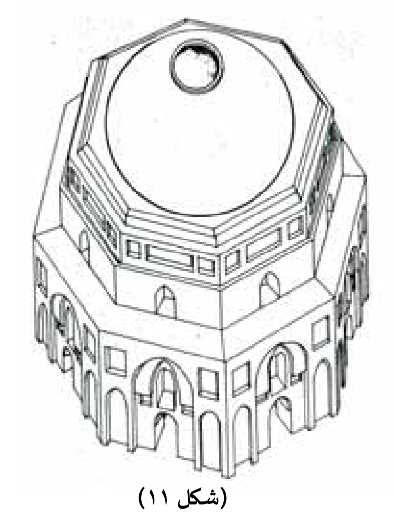
ومن التحف المعدنية المهمة التي شُكِّلَت على هيئة منشآت معمارية تتبع النمط محل التناول، عُلبة محفوظة في متحف اللوفر بباريس، ترجع إلى إيران في القرن ٨هـ/ ١٤م، ولهذه العُلبة بَدَنٌ

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

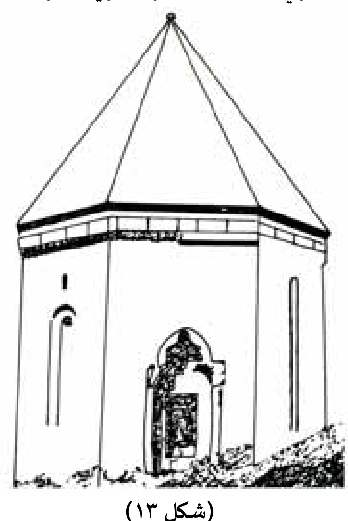
مثمن الأضلاع، يعلوه غطاء على هيئة قبة نصف كروية الشكل[٣٧] (لوحة ٧، شكل ١٠)، وقد زَخَرَت العمارة الإسلامية بأشكال تتفق في تكوينها العام مع شكل هذه العُلبة، كقبة الصخرة في "القدس" (٧٢هـ/ ٦٩١- ٢م)، وقبة الصليبية في "سامراء" (٢٤٥هـ/ ٨٦٢م)،[٣٨] ومن المهم هنا التأكيد على أن هذا الشكل المعماري كان شائعًا في كثير من الأضرحة الإيرانية، وذلك منذ القرن ٥هـ/ ١١م،[٣٩] وتميزت هذه الأضرحة بعدم ارتداد القبة كثيرًا عن الجدران -كما هو الحال في العُلبة محل التناول- ومن أمثلة الأضرحة الإيرانية التي تأخذ هذا الشكل: "Gunbad-I 'Ali" (٤٨٨هـ/ ١٠٦٥- ٥٧م) في "أبرقوة"،[٤٠] وضريح "Jabal- i- Sang" (شكل ١١) في "كرمان" من حوالي القرن ٥هـ/ ١١م،[٤١] وضريحان في "خرقان" يرجعان إلى ما بين (٤٦٠-٤٨٦هـ/ ١٠٦٧- ١٠٩٣م) (لوحة ٨)، وغير ذلك من الأمثلة الباقية التي ترجع إلى ما قبل عصر المغول.[٤٢] كما أن ضريح السلطان المغولي "ألجايتو" بمدينة سلطانية، الذي شُيد فيما بين (٧٠٤-٧١٥هـ/ ١٣٠٤- ١٣١٥م)، اتبع هذا التخطيط نفسه، وقيل إنه تأثر في ذلك بقبة الصخرة من ناحية، وبخيام المغول من ناحية أخرى.[٤٣] ومن اللافت للنظر أن التكوين العام لهذا الضريح يُعد الأقرب شبهًا للتحفة محل التناول من سائر الأضرحة الإيرانية السابقة الذكر.

ومن التحف المُشَكَّلة أيضًا على هيئة منشآت معمارية ذات بدن متعدد الأضلاع تعلوه قبة، غلاف قنديل من النحاس الأصفر، محفوظ في مجموعة "كير"، يُنسب إلى الأناضول في العصر السلجوقي،[٤٤] ولهذه التحفة قاعدة مسدسة الشكل، يقوم عليها بدن مسدس الأضلاع، تزدان أضلاعه بعقود مدببة، ما عدا ضلعًا واحدًا به فتحة الباب، وتتوج هذا البدن قبة مخروطية مضلعة (لوحة ٩، شكل ١٢). وقد أكد بعض العلماء أن هيئة التحفة محل التناول، تتفق مع شكل الضريح السلجوقي بكافة عناصره، وتفاصيله المعمارية،[٤٥] وقد وصلنا كثير من الأضرحة السلجوقية - خاصةً في الأناضول- التي تميزت بشكلها المضلع، وبسقفها المخروطي المضلع، ومن أمثلتها ضريح "ست الملك" (شكل ١٣) في "ديوريكي" (٥٩٢هـ/ ١١٩٥م)،[٤٦] وضريح "قلج أرسلان" في "قونة" (ق٦هـ/ ١٢م)،[٤٧] وضريح "كيكاوس الأول" في "سيواس" (٦١٤هـ/ ١٢١٧م)،[٤٨] وضريح "خداوند خاتون" (لوحة ١٠) في "نيكدة" (٧١٢هـ/ ١٣١٢م)،[٤٩] وغير ذلك من الأمثلة،[٥٠] التي تؤكد أن الفنان المنفذ للتحفة محل التناول، استوحى تصميمها العام من أشكال بعض الأضرحة السلجوقية.


(شكل ١٠)
رسم لعلبة معدنية، محفوظة بمتحف اللوفر بباريس، إيران ق ٨هـ/ ١٤م، عمل الباحث، انظر، Migeon ,II, fig. 236


(شكل ١١)
ضريح "Jabal- i- Sang" في كرمان .Hillenbrand 1994: fig. 5. 102

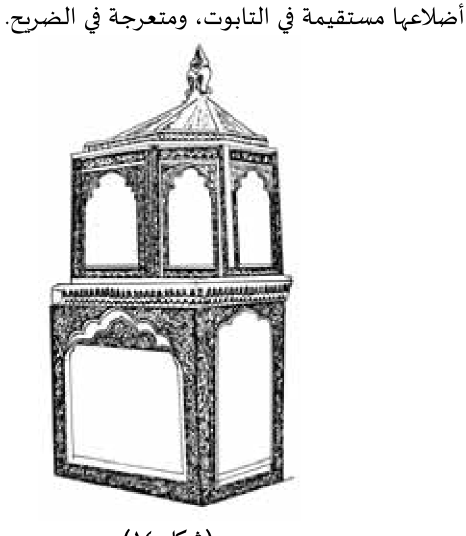

(شكل ١٢)
رسم لغلاف قنديل من النحاس، بمجموعة كير، الأناضول، العصر السلجوقي، الباحث، انظر، صوي، صورة ١٦٥.


(شكل ١٣)
رسم لضريح "ست الملك"، الباحث، انظر، آصلان آبا، شكل ٦١.

علمية. عالمية. مُحكَّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449



ومن التحف السلجوقية الأناضولية التي يمكننا إدراجها كذلك تحت هذا النمط محل الدراسة، تابوت "شرف الدين" (اللوحتان ١١أ، ب) المحفوظ في المتحف الإثنوجرافي بأنقرة، والذي يرجع إلى سنة (٧٥١هـ/ ١٣٥٠م)،[٥١] إذ يُلحظ أنه تعلو التابوت منطقة مثمنة الأضلاع، يتوجها غطاء أقرب إلى هيئة قبة مخروطية ذات أضلاع ثمانية (لوحة ١١ب، شكل ١٤)، ولا يختلف التكوين العام لهذه المنطقة من التابوت عن التكوين العام لهيئة بعض الأضرحة السلجوقية في الأناضول، كضريح "خداون خاتون" (لوحة ١٠) - مثلاً- الذي سبقت الإشارة إليه. وعلاوة على ما تقدم، فيُلحظ من ناحية أخرى، أن المنطقة المثمنة السابقة الذكر، تقوم على قاعدة مستطيلة الشكل، وقد وجدنا الأمر نفسه، في الضريح الملحق بمسجد "كوك مدرسة" (شكل ١٥) في "أماسيا" (٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م)،[٥٢] كما تعلو هذه المنطقة المثمنة في كل من مقدم التابوت، والضريح المذكور، قبةٌ مخروطية مضلعة، وإن كانت أضلاعها مستقيمة في التابوت، ومتعرجة في الضريح.



(شكل ١٤)

رسم لمقدم تابوت شرف الدين، بالمتحف الإثنوجرافي في أنقرة، الأناضول، ٧٥١هـ الباحث، انظر، Firat,

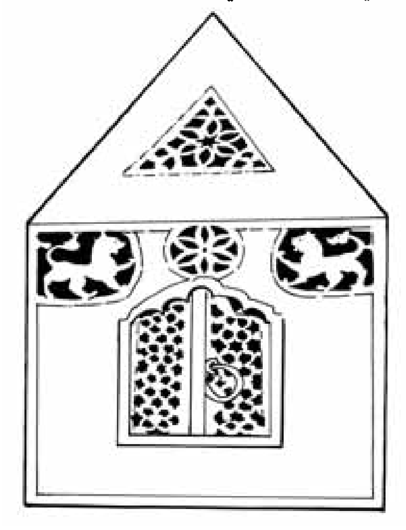


(شكل ١٥)

رسم للضريح الملحق بمسجد "كوك مدرسة"، عن، Hillenbrand 1994: fig. 4. 92.

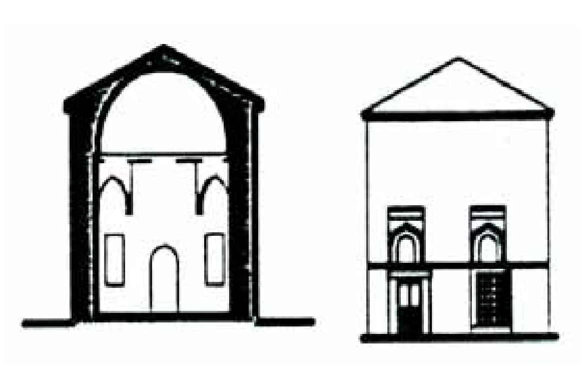
٤/١- تحف مُشَكّلة على نمط منشآت معمارية ذات بدن مكعب يعلوه غطاء هرمي:

يُمثل هذا النمطَ تحفتان معدنيتان إحداهما ترجع إلى الأناضول في العصر السلجوقي، والثانية تُنسب لشمال أفريقيا، أو الأندلس في القرن ٨هـ/ ١٤م، وتحفة الأناضول عبارة عن غلاف قنديل من البرونز محفوظ في متحف "مولانا" بـ "قونية"،[٥٣] ويتميز بدن هذه التحفة بأنه مكعب الشكل، يعلوه غطاء هرمي ذو أربعة أضلاع (لوحة ١٢، شكل ١٦)، والراجح أن هذا الشكل مستوحى من هيئة بعض المنشآت المعمارية الأناضولية، فعلى الرغم من أن معظم ما وصلنا من الأضرحة السلجوقية في الأناضول كانت إما مستديرة، أو مضلعة، وتغطيها قباب مخروطية، فإن ثمة نماذج أخرى لأضرحة ذات تخطيط مربع، وسقف هرمي الشكل، وقد يكون هذا السقف غلافًا خارجيًا لقبة من الداخل.[٥٤] وعلاوة على ذلك؛ فإن طراز "مساجد القبة"، ذا المساحة المربعة والقبة، والذي يأخذ شكل مبنى مكعب تعلوه قبة، عُرف أيضًا في الأناضول، ووصلتنا منه عدة أمثلة،[٥٥] وقد تميزت قباب بعض هذه المساجد (شكل ١٧) بأن لها غلافًا خارجيًا هَرَمِيَّ الشكل،[٥٦] وتدل هذه الأمثلة على أن التحفة محل التناول قد تكون متأثرة بأشكال بعض المنشآت المعمارية السلجوقية في الأناضول.



(شكل ١٦)

رسم لثريا من البرونز، بمتحف مولانا في قونية، الأناضول، العصر السلجوقي، الباحث، انظر، صوي، صورة ١٩٦a



(شكل ١٧)
قطاع رأسي لمسجد آقشهر، عن، Öğeler, F. Ç., fig. p. 217.



(شكل ١٩)
أحد هيئات قباب الأندلس، عن، Marçais, fig. 251 C

وبالإضافة إلى ما تقدم؛ يؤخذ في عين الاعتبار كذلك تشابه مدخل التحفة محل التناول، مع بعض مداخل المنشآت المعمارية الأناضولية، وفوق ذلك فإن هيئة الأَسَدَيْن اللذين يعلوانِ جانبي هذا المدخل، يُذَكِّراننا بهيئة الأُسُود التي تكون أعلى جانبي المداخل، أو يكتنفانها في بعض المنشآت المعمارية السلجوقية في الأناضول.(٥٧) أما بالنسبة للتحفة المنسوبة لشمال أفريقيا، أو الأندلس، فهو عبارة عن غلاف قنديل أيضًا(٥٨) ذي بدن مكعب مسقوف بغطاء هرمي الشكل (لوحة ١٣، شكل ١٨). ومن اللافت للنظر أن هيئة أرجل هذه التحفة، والأشكال المقببة التي تبرز عند أركان غطائها، وكذلك القمة المقببة التي تتوج غطاءَها؛ تكاد تكون مطابقة لمثيلاتها في غلاف القنديل السلجوقي الأناضولي الأسبق ذكرًا (لوحة ٩، شكل ١٢)، إلا أنه من حيث التكوين العام (بَدَنٌ مكعب يعلوه غطاء هرمي) مماثل لغلاف القنديل السلجوقي الأناضولي السابق (لوحة ١٢، شكل ١٦).

وبغض النظر عن العلاقة بين شكل غلاف القنديل محل التناول، وشكل غلافي القنديلين الأناضوليين، فإن التكوين العام لغلاف القنديل المنسوب لشمال أفريقيا أو الأندلس، مُشَابِهٌ في التكوين العام لبعض المنشآت المعمارية في هاتين البقعتين، ومن ذلك –على سبيل المثال- مصلى الجنائز في جامع القرويين بـ "فاس"،(٥٩) ومصلى قصر البرطل بـ "الحمراء" في الأندلس،(٦٠) وبعض أضرحة الأندلس،(٦١) (شكل ١٩) وجميع هذه الأمثلة من المنشآت المعمارية تتكون من بدن مكعب مسقوف من الخارج بغطاء هرمي الشكل، كغلاف القنديل محل التناول.



(شكل ١٨)
رسم لتنور من النحاس الأصفر، المغرب أو الأندلس، ق ٨هـ
الباحث، انظر، Ward, pl. 74

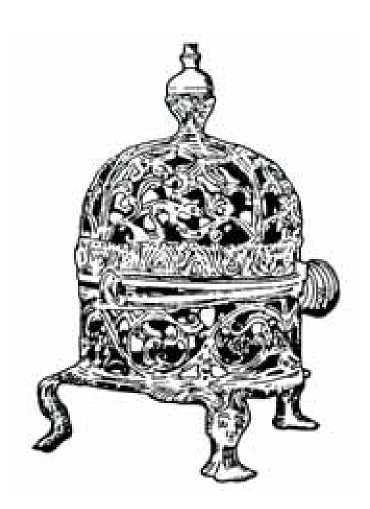
٥/١- تحف مُشَكَّلة على نمط منشآت معمارية ذات بدن أسطواني تعلوه قبة:

وصلتنا من هذه التحف عدة نماذج، بعضها يرجع إلى مصر، وسوريا، وشمال أفريقيا في العصر الأموي، وبعضها الآخر يرجع إلى إيران، وبلاد الجزيرة، والأناضول، وسوريا، ومصر، في عصور مختلفة. وعلى الرغم من أننا نفتقد منشآت معمارية معاصرة لبعض هذه التحف، يمكن اعتبارها نماذج مؤثرة في تشكيلها، فمن حسن الطالع أنه وصلتنا نماذج لمنشآت سابقة لها، أو لاحقة عليها، يمكن أن نتخذ منها قرينة على أن هذه التحف شُكِّلَت على هيئات منشآت معمارية.

وتتمثل التحف الأموية في مجموعة من المباخر، تميزت ببدن أسطواني، يعلوه غطاء على هيئة قبة، منها مبخرة من مصر (شكل ٢٠) محفوظة في مجموعة "Lederer"، ذات بدن أسطواني، يعلوه غطاء على هيئة قبة نصف كروية،(٦٢) ومبخرة أخرى من شمال أفريقيا،(٦٣) (شكل ٢١) قريبة في شكلها العام من المبخرة المصرية، إلا أن غطاءها أقرب إلى الشكل البيضاوي، كما أنها أوفر حَظًّا من الناحية المعمارية، إذ تقوم القبة على بائكة، تتكون من عقود حدوية الشكل ترتكز على أعمدة، ومنها مبخرة ثالثة (شكل ٢٢) عُثِر عليها في عَمَّان، تتميز أيضًا بأن قبتها تقوم على بائكة ذات عقود نصف مستديرة الشكل، ترتكز على أعمدة،(٦٤) وقد سبقت الإشارة عند تناول إحدى المباخر الأموية الأخرى (شكل ٩)، إلى أن البائكات التي ظهرت في هذه المباخر الأموية، شاعت إلى حد كبير في زخرفة كثير من التحف، والعمائر الأموية.

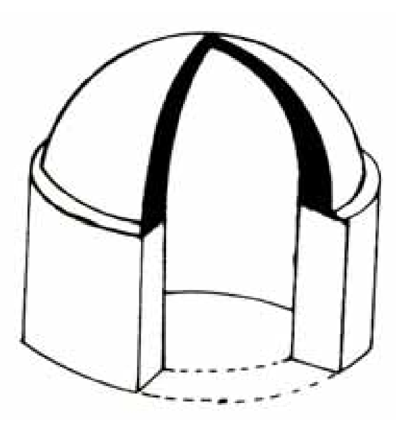
علمية، عالمية، مُحكَّمة، ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

ومن المعروف أن المنشآت المعمارية التي تعتمد على التخطيط الدائري، الذي تعلوه قبة نصف كروية، كانت شائعة عند الرومان (شكل ٢٣) حيث استعملوه في بعض معابدهم، ومقابرهم، ومن ذلك معبد البانثيون في روما، ومعبد "فستا" (شكل ٢٤) في روما،(٦٥) واستعمله كذلك البيزنطيون،(٦٦) وكما سيمر بنا فقد عُرِف هذا الشكل من المنشآت أيضًا، لدى الأتراك في وسط آسيا منذ العصور القديمة، أما في العصر الإسلامي فوصلتنا منه نماذج ترجع إلى ما بين القرنين ٥- ٩هـ/ ١١- ١٥م، ومن المرجح أنه عُرف لديهم قبل القرن ٥هـ/ ١١م، ولكن المنطقي أنه إن كانت هذه التحف الأموية متأثرة بأشكال منشآت معمارية، فلا بد أن تكون متأثرة بتلك المنشآت الرومانية، والبيزنطية.



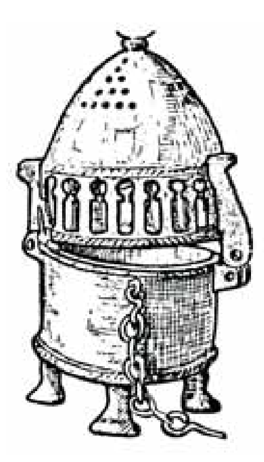
(شكل ٢٠)

رسم لمبخرة معدنية، مصر، العصر الأموي، عن، Allan, fig. 13



(شكل ٢٣)

رسم لمنشأة معمارية رومانية، عن، لمعي، لوحة ١.



(شكل ٢١)

رسم لمبخرة معدنية، شمال أفريقيا، العصر الأموي، عن، Allan, fig. 18



(شكل٢٤)

رسم لمعبد "فستا" في روما. عن، شافعي، شكل ٣٤.



(شكل ٢٢)

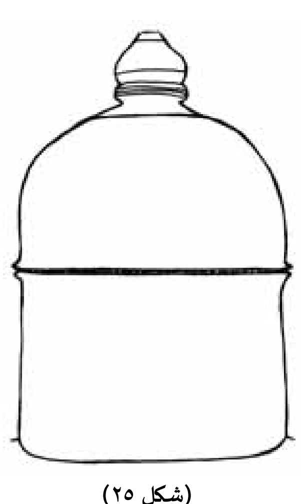
رسم لمبخرة معدنية، الشام، العصر الأموي، عن، Allan, fig. 19

علمية. عالمية. مُحكَّمة. ربع سنوية

ISSN: 2090 – 0449



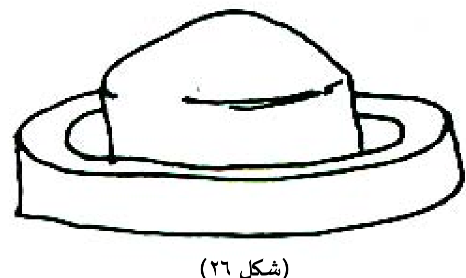
وإذا تركنا أمر هذه المباخر الأموية، فثمة تحف معدنية أخرى وصلتنا من بقاع وعصور إسلامية مختلفة، تتفق في أن تكوينها العام عبارة عن بَدَن أسطواني تعلوه قبة، وإن اختلف حجم هذا البدن من تحفة إلى أخرى، واختلف وضع القبة في بعضها عن الآخر. ومن هذه التحف تلك المباخر ذات البدن الأسطواني، الذي يعلوه مباشرة غطاء على هيئة قبة نصف كروية (شكل ٢٥)، وقد سبقت الإشارة إلى أن هذا الشكل من المباخر عرفه المسلمون منذ العصر الأموي، ولكننا في هذا الموضع تعنينا أمثلتها التي وُجدت في سوريا، والأناضول خلال القرنين ٥، ٦هـ/ ١١- ١٢م،[٦٧] ثم شاعت إلى حد كبير خلال القرنين ٧- ٨هـ/ ١٣- ١٤م في بلاد الجزيرة، وسوريا.[٦٨] (لوحة ١٤).



(شكل ٢٥)

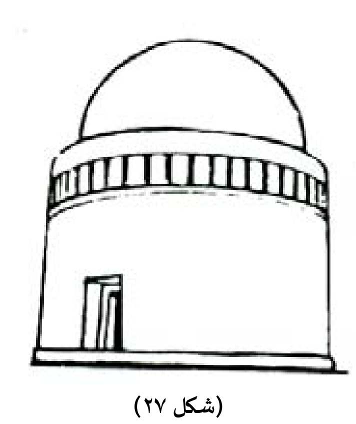
رسم لهيئة المباخر ذات البدن الاسطواني تعلوه قبة. الباحث. انظر، Atil, pl. 12

السلجوقية بإيران، حتى تساءل بعض العلماء قائلاً: أي نوع من النوعين كان الأقدم ظهورًا،[٧٠] كما كان كِلا الشكلين من الأضرحة معروفًا أيضًا عند سلاجقة الأناضول، مما يعني أن الأضرحة ذات الشكل المستدير كانت شائعة في إيران، والأناضول.



(شكل ٢٦)

نموذج من أضرحة الترك القديمة في تاغسكن، عن، Hillenbrand 1994: fig. 5. 152.



(شكل ٢٧)

رسم افتراضي لأحد أضرحة الـ "Sabin"، Hillenbrand 1994: fig. 5. 52.

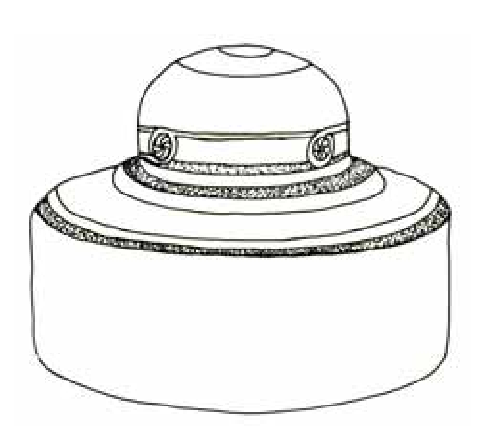
والسؤال الذي يطرح نفسه هنا، هو: هل تأثرت تلك التحف المعدنية بأشكال منشآت معمارية ذات بدن أسطواني تعلوه قبة، كما تأثرت غيرها من التحف التي سبقت دراستها بأشكال منشآت معمارية أخرى؟ وللإجابة عن هذا السؤال، ينبغي بادئ ذي بَدء الإشارة إلى ما سبق ذكره، من أن المنشآت المعمارية ذات البدن الأسطواني الذي تعلوه قبة كانت معروفة عند الرومان، والبيزنطيين، وأن المباخر الأموية ذات البدن الأسطواني الذي تعلوه قبة، قد تكون متأثرةً بأشكال هذه المنشآت المعمارية الرومانية، والبيزنطية، ومن ثم فربما تكون التحف محل التناول - خاصةً المباخر- استمرارًا لتلك التحفة التي كانت معروفة منذ العصر الأموي.

غير أنه وما دُمْنا بصدد الحديث عن تحف انتشرت بشكل خاص عند السلاجقة، ومَنْ تأثر بهم، فينبغي التنويه إلى أن الأضرحة ذات البدن الأسطواني الذي تعلوه قبة، كانت معروفة منذ العهود القديمة عند الأتراك في وسط آسيا[٦٩] (الشكلان ٢٦، ٢٧)، وقد شاعت مثلها مثل المنشآت ذات البدن المضلع في الأضرحة

وعلى الرغم من أن أكثر الأضرحة الإيرانية والأناضولية ذات البدن الاسطواني كانت تعلوها قبابًا مخروطية (لوحة ١٥)، فإننا لم نعدم وجود نماذج لأضرحة ترجع إلى عصر السلاجقة، ومن بعدهم في إيران، والأناضول، وغيرهما، ذات أبدان اسطوانية تعلوها قباب كروية، أو بيضاوية، كضريح "Chihil Dukhtaran" في "دامغان" (٤٤٨هـ/ ١٠٥٦م)،[٧١] وضريح في "بسطام" (٧١٣هـ/ ١٣١٣م)،[٧٢] وضريح "زينال بك" (لوحة ١٦) في حصن كيفا (٨٧٨هـ/ ١٤٧٣م).[٧٣] وبناءً على ما سبق؛ فمن غير المستبعد أن يكون ثمة تأثيرٌ للضريح السلجوقي ذي البدن الاسطواني الذي تعلوه قبة، على شكل التحف محل التناول. والجدير بالذكر أنه وصلتنا دواة من البرونز المطعم بالفضة،[٧٤] ترجع إلى إيران فيما بين سنتي (٩١٦- ٩٢٧هـ/ ١٥١٠- ١٥٢٠م)، تكاد تتطابق في هيئتها مع أحد أضرحة الترك القديمة (شكل ٢٧)، وبرغم أن هذا النموذج الإيراني متأخر عن الفترة قيد البحث، فهو قرينة قد تؤيد أن ثمة صلةً بين هذا الشكل من التحف المعدنية، والمنشآت ذات البدن الاسطواني الذي تعلوه قبة.

علمية. عالمية. مُحكمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

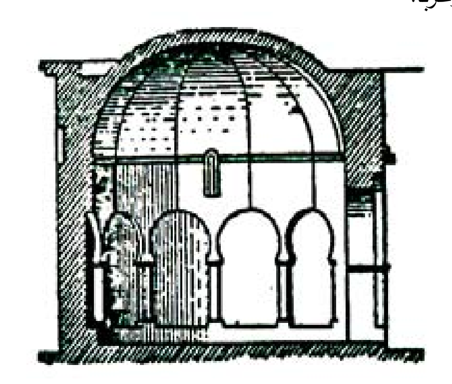
وعلاوة على المجموعة السابقة من المباخر، والعُلب المعدنية، أود الإشارة إلى مجموعة أخرى من التحف المعدنية أيضًا، تتمثل في عدة محابر (لوحة ١٧)، وعُلب ، جُلُّها يرجع إلى إيران، وبلاد الجزيرة في القرنين ٦، ٧هـ/ ١٢، ١٣م،(٧٥) ومنها عُلبة (شكل ٢٨، لوحة ١٨) ترجع إلى مصر في القرن ٨هـ/ ١٤م،(٧٦) ولجميع هذه التحف أبدان أسطوانية تعلوها هيئة قباب، إلا أن هذه القباب ترتد إلى الداخل عن سمت البدن، ومع أنها في وضع قبابها على هذا النحو، تختلف عن التحف المعدنية السابقة التناول، ومن ثَمَّ عن المنشآت المعمارية السالفة الذكر أيضًا، فهي من حيث الفكرة مشابهة لهما.

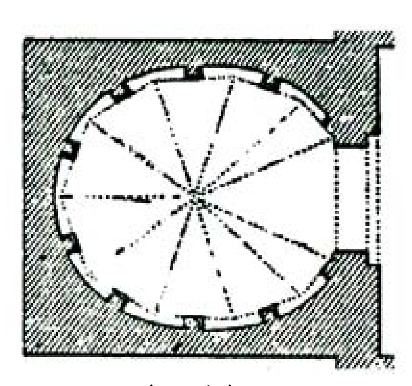


(شكل ٢٨)

رسم لعلبة معدنية، مصر، العصر المملوكي. الباحث، انظر، Piotrovsky, pl. 126

وما دُمْنا بصدد الحديث عن التحف ذات البدن الاسطواني الذي تعلوه قبة، فلا نستطيع إغفال الإشارة إلى العُلب العاجية التي ترجع إلى الأندلس في عصر الخلافة (٣١٦- ٤٢٢هـ/ ٩٢٩- ١٠٣١م)،(٧٧) والتي تميزت أيضًا ببدن أسطواني، يعلوه غطاء على هيئة قبة، أو كما يُقال "غطاء مقبب". وإذا كنا قد ربطنا بين التحف المشرقية التي تأخذ هذا الشكل مع المنشآت المشرقية التي على شاكلتها، فيُؤخذ في عين الاعتبار أن المنشآت المعمارية ذات البدن الأسطواني الذي تعلوه قبة، كانت معروفة في الأندلس، ونراها في كنيسة "سان باوديل برلانجا" (شكل ٢٩)، التي بناها المستعربون وتُنسب إلى القرن ٥هـ/ ١١م،(٧٨) مما يعني أن المنشآت المعمارية ذات البدن الاسطواني الذي تعلوه قبة، كانت منتشرة شرقًا، وغربًا.



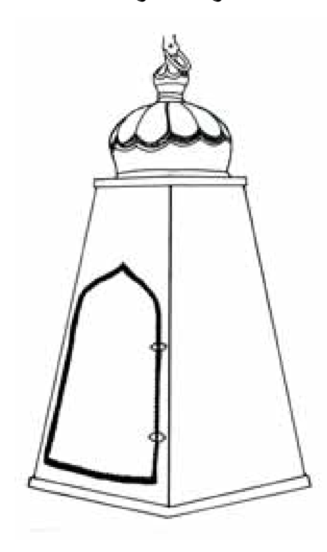


(شكل ٢٩)

قطاع وتخطيط كنيسة "سان بوديل برلانجا"، عن مورينو، ش ٤٥٥.

٦/١- تحف مُشَكَّلة على هيئة منشآت معمارية ذات بدن منشوري مشطوف تعلوه قبة:

هناك مجموعتان من الثريات المملوكية، يُمكن اعتبارهما متأثرتين بالعمارة؛ المجموعة الأولى: تلك التي تتميز ببدن متعدد الأضلاع - قد تكون ثمانية، أو اثنى عشر، أو ستة عشر ضلعًا- تعلوه قبة،(٧٩) والشكل العام لهذه الثريات لا يوحي بأنها متأثرة بأشكال منشآت معمارية، والأرجح أنها متأثرة بأشكال المآذن المملوكية. أما المجموعة الثانية: فهي تتميز بِبَدنٍ منشوري الشكل مشطوف، تعلوه قبة،(٨٠) (شكل ٣٠) ومع أن الشكل العام لهذه الثريات لا يختلف في تكوينه العام عن الأضرحة المملوكية، إلا في كون جدرانها مائلة، فيصعب الاعتقاد بأن هذه الثريات متأثرة بتلك الأضرحة المملوكية، ولكن يُؤخذ في الحسبان أن المنشآت المعمارية ذات البدن المنشوري الشكل، المشطوف، عُرِّفت خارج مصر، ونذكر من أمثلتها بوجه خاص، ضريح "غياث الدين تغلق" (شكل٣١) في "دلهي" في الهند،(٨١) الذي يرجع إلى سنة (٧٢٥هـ/ ١٣٢٥م). ومن اللافت للنظر أن الاتفاق بين الثريات محل التناول وهذا الضريح لا يقتصر على هذه الخاصية فحسب -البدن المنشوري المشطوف- بل إن التكوين العام لهذه الثريات يتفق مع التكوين العام لهذا الضريح، فهي مثله عبارة عن بدن منشوري الشكل مشطوف، تعلوه قبة.



(شكل ٣٠)

رسم لثريا من النحاس، مصر، العصر المملوكي، الباحث، انظر، Wite, G., pl. VIII.



(شكل ٣١)

رسم لضريح غياث الدين تغلق، الهند، ٧٢٦هـ الباحث، انظر، Blair and Bloom, pl. 195

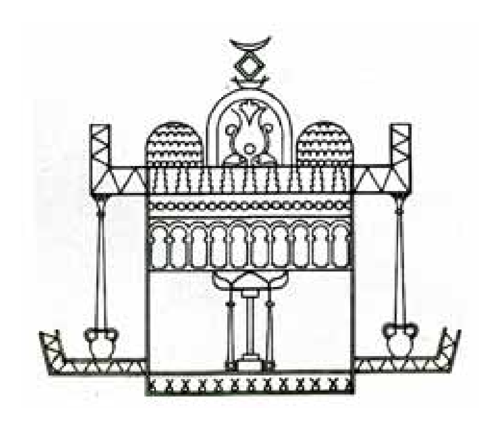
ثانيًا- أثر المنشآت المعمارية في زخرفة الفنون التطبيقية

إذا كانت معظم التحف المشكلة على هيئات منشآت معمارية تأثرت بوجه خاص بأشكال الأضرحة، وقليل منها قد يكون متأثرًا بشكل أحد أنماط المساجد، فقد تميزت المنشآت المعمارية التي زخرفت التحف محل الدراسة بتنوعها؛ إذ جمعت بين المنشآت الجنائزية، والدينية، والحربية، والمدنية، وقليل من هذه المنشآت من إرث ما قبل العصر الإسلامي، وأكثرها من العصر الإسلامي، وبعض من المجموعة الأخيرة تمثل منشآت دينية أو جنائزية إسلامية، وبعضها الآخر تمثل منشآت دينية مسيحية.

١/٢- المنشآت المعمارية المدنية:

ظهر هذا النوع من المنشآت يزخرف صينية من البرونز، محفوظة في متحف الدولة ببرلين، وهي تُنسب إلى إيران، أو العراق، في نهاية العصر الساساني، أو العصر الإسلامي المُبكر،[٨٢] وعلى هذه الصينية زخارف منفذة بالحفر، قوامها دائرة مركزية، محفور بداخلها رَسْمٌ يُمثل منشأة معمارية ذات قبابٍ وعقودٍ، وشرفاتٍ (شكل ٣٢)، ويحيط بهذه الدائرة شريط عريض يحتوي على بائكة، تتألف من مجموعة من العقود، على شكل حدوة الفرس.

إن التكوين العام للمنشأة المعمارية المنفذة على هذا الصحن، عبارة عن بناء مسقوف بقبة كبيرة في المنتصف، على جانبيها قُبتان صغيرتان، هذا حسب الرسم المسطح المنفذ، وعلى هذا النحو، قد تكون هذه المنشأة مشابهة للجزء الأمامي لبعض القصور الساسانية، كقصر "سرفستان"،[٨٣] وقصر "شيرين"[٨٤] (شكل ٣٣)، وغيرهما[٨٥]- مع الأخذ في الحسبان اختلاف عدد القباب وتفاصيلها في هذه القصور- إلا أن التخيل المجسم للمنشأة يُتصور معه أن تكون مسقوفة بقبة مركزية كبيرة، وأربع قباب صغيرة في الأركان، أي أنها تحاكي البناء الساساني المعروف بـ "عرش كسرى"، أو "تخت التقديس"[٨٦] (شكل ٣). وقد سبقت الإشارة إلى أن تصميم هذا البناء الساساني قد اتُّبِعَ في تشكيل مبخرتين (الشكلان ١، ٢) ترجعان إلى مصر في القرن ٢ أو ٣هـ/ ٨- ٩م، كما اتُّبِعَ كذلك في تصميم ضريح "إسماعيل الساماني" (لوحة ٢، شكل ٢) بمدينة "بخارى"، الذي يرجع إلى نهاية القرن ٣، أو أوائل القرن ٤هـ/ ٩- ١٠م.



(شكل ٣٢)

رسم على صحن من الفضة، إيران أو العراق نهاية العصر الساساني، أو العصر الإسلامي المبكر. عن، Hillenbrand 1994: fig. 7. 46



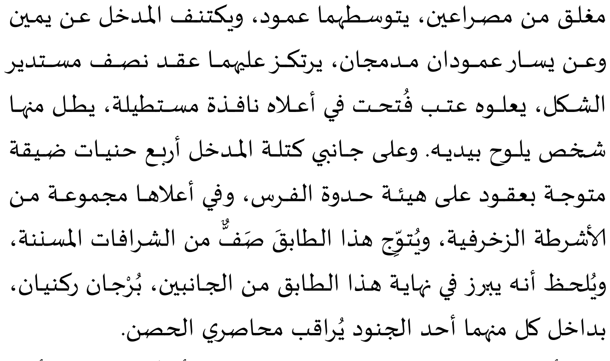
(شكل ٣٣)

تصميم مقترح للجزء الأمامي بقصر شيرين، عن، Pope, vol. I, fig. 159

٢/٢- المنشآت المعمارية الحربية:

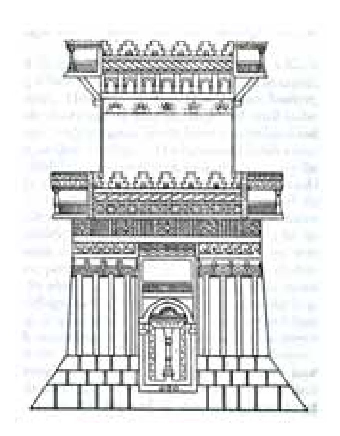
ظهرت هذه المنشآت على صحن من الفضة (لوحة ١٩، الشكلان ٣٤أ، ب)، محفوظ في متحف الهرميتاج، نسبه بعض العلماء إلى إيران في العصر الساساني،[٨٧] ونسبه آخرون إلى القطر ذاته في القرن ٣، أو ٤هـ/ ٩- ١٠م،[٨٨] وعلى هذا الصحن منظر منفذ بالحفر، يُمثل حصن تحاصره مجموعتان من الفرسان، ويتكون هذا الحصن من طابقين، الأول: مستطيل الشكل، قائم فوق ثلاثة مداميك حجرية مصفوفة بانتظام، ويتوسط هذا الطابق مدخل، يبدأ مستواه السفلي عند منتصف المدماك الأول. وبالمدخل باب

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449



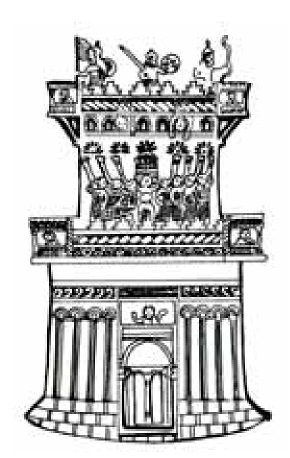
مغلق من مصراعين، يتوسطهما عمود، ويكتنف المدخل عن يمين وعن يسار عمودان مدمجان، يرتكز عليهما عقد نصف مستدير الشكل، يعلوه عتب فُتحت في أعلاه نافذة مستطيلة، يطل منها شخص يلوح بيديه. وعلى جانبي كتلة المدخل أربع حنيات ضيقة متوجة بعقود على هيئة حدوة الفرس، وفي أعلاها مجموعة من الأشرطة الزخرفية، ويُتوّج هذا الطابقَ صَفٌّ من الشرافات المسننة، ويُلحظ أنه يبرز في نهاية هذا الطابق من الجانبين، بُرْجان ركنيان، بداخل كل منهما أحد الجنود يُراقب محاصري الحصن.

أما الطابق الثاني: فهو مستطيل الشكل أيضًا، وإن كان أقل اتساعًا من الطابق الأول، لذا فهو يرتد إلى الداخل عن الطابق الأول، ويقف أمام هذا الطابق - أعلى سقف الطابق الأول- مجموعة من أفراد الموسيقى العسكرية، ينفخون في الأبواق، ويظهر أعلى جدار هذا الطابق خمس مناطق زخرفية إشعاعية، يعلوها شريطان زخرفيان، الأول مشغول بعدة دخلات، يكتنف كل منها عن يمين وعن شمال، عمودان مدمجان، يرتكز عليهما عقد نصف مستدير الشكل. أما الشريط الثاني، فمشغول بمناطق مستطيلة تُشبه قوالب الآجر، مرصوصة بعضها فوق بعض بمَيْلٍ، ويتوّجُ هذا الطابقَ صف من الشرافات المسننة، كالشرافات التي ظهرت تتوج الطابق الأول، ويظهر خلف هذه الشرافات ثلاثة جنود متسلحين بأنواع مختلفة من الأسلحة، هذا إلى جانب جنديان قتيلان، يتدلى جثمانهما من فوق السطح. كما يظهر أعلى جانبي الطابق الثاني برجان ركنيان في كل منهما أحد الجنود يراقب محاصري الحصن، ويُشبه هذان البرجان، البرجين اللذين ظهرا في الطابق الأول، ولكن يُلحظ أنهما يبرزان تمامًا عن سمت جدار الطابق الثاني، وقد دُعِّم كل برج منهما بدعامة ساندة (كابولي) تمتد من جدار الطابق إلى أسفل منتصف البرج، وهو حل معماري لضمان عدم ضعف هذين البرجين عن سمت الجدار.



(شكل ٣٤ أ)

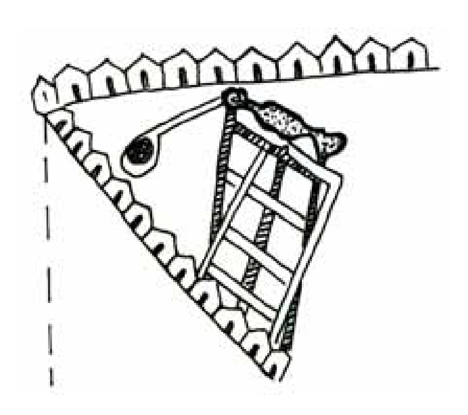
رسم لحصن على صحن من الفضة، إيران، العصر الساساني، أو ق ٣- ٤هـ عن، Pope, vol. I, 1939: fig. 149



(شكل ٣٤ب)

رسم للقلعة نفسها. الباحث

ومن التحف التي تضمنت رسومًا لمنشآت حربية أيضًا، سلطانية من الخزف المينائي، ترجع إلى إيران في أوائل القرن ٧هـ/ ١٣م، مصور عليها معركة حربية، تدور رَحَاها أمام قلعة (اللوحتان ٢٠أ، ب، شكل ٣٥). ومما يُؤسف له أنه لا يظهر من هذه القلعة سوى سطحها، الذي يبدو مستطيل الشكل، تتوج جدرانه شرافات على هيئة عقود منكسرة، تتوسطها فتحات رأسية، تُعبر عن مزاغل رَمْي السهام. ويُلحظ أنه يظهر على سطح القلعة بعض المعدات، والآلات الحربية، ويهمنا ذلك المنجنيق الذي يقف إلى جانبه المنجنيقي، وقد مُلِئَ المنجنيق بالمواد التي ستُلقى على الجيش المهاجم للقلعة، ومن المعروف أن المنجنيقات التي كان يستخدمها المهاجمون لدك القلاع والحصون، كانت توضع أيضًا فوقها للدفاع عنها، وفي هذا الصدد تنبغي الإشارة إلى أنه وصلنا رسم لمنجنيق مُركب فوق برج قلعة (شكل ٣٦)، وذلك في أحد تصاوير المخطوطات الحربية المملوكية.(٨٩)



(شكل ٣٥)

رسم لجزء من قلعة على صحن من الخزف المينائي، إيران القرن ٧هـ الباحث، انظر، عكاشة ٢٠٠١م، لوحة ٣٤م.

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية

ISSN: 2090 – 0449





(شكل ٣٦)
رسم لقلعة على أحد أبراجها منجنيق، مصر، القرن ٩هـ، عن، شوقي ١٩٩٥: شكل ١٢٠.

ومما يُؤسف له، أنني لم أقف على نماذج حقيقية لقلاع أو حصون إيرانية، ترجع إلى فترة التحفتين السابقتين، كما أن تصاوير المخطوطات المتاحة والتي تضمنت قلاعًا أو حصونًا، ترجع إلى فترة متأخرة نسبيًا، كما أن أوجه الشبه بينها وبين الحصن والقلعة السابقي الذكر، قليلة، ومن أمثلتها رسم لحصن في تصويرة من مخطوط "شاهنامة جوكي"، المحفوظ في المتحف البريطاني، والذي يرجع إلى هراة سنة (٨٤٤هـ/ ١٤٤٠م)،[٩٠] ويُلحظ أن هذا الحصن يتميز بأن جدرانه العالية تقوم على صف من المداميك الحجرية، كما هو الحال في رسم الحصن المنفذ على صحن الفضة (شكل ٣٤)، وعلاوة على ذلك فقد تُوِّجَت جدران هذا الحصن بصف من شرافات ذات مزاغل، تُشبه الشرافات التي ظهرت في القلعة المنفذة على صحن الخزف (شكل ٣٥).

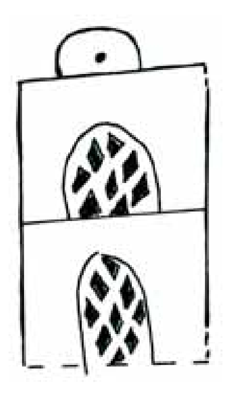
وقد تكررت الميزتان السابقتان - المداميك الحجرية، والشرافات- في بعض تصاوير المخطوطات الإيرانية الأخرى؛ إذ نجد مداميك الحجارة المستوية التي تقوم عليها جدران الحصن، في تصويرة تُمثل "جيش خسرو يحاصر قلعة أفرسياب"، وهي من مخطوط شاهنامة تبريز، المحفوظة في متحف طوبقابو سراي باستانبول، والذي يرجع إلى تبريز سنة (٧٧٢هـ/ ١٣٧٠م)،[٩١] كما نجد الشرافات ذات المزاغل التي تتوج جدران الحصون، في تصويرة تُمثل "مدينة تحاصرها جيوش جنكيز خان"، وهي من مخطوط جامع التواريخ، المحفوظ في دار الكتب القومية في باريس، وترجع إلى هراة فيما بين سنتي (٨٤٠- ٨٤٥هـ/ ١٤٣٥- ١٤٤٠م).[٩٢]

٣/٢- المنشآت المعمارية الدينية، والجنائزية:

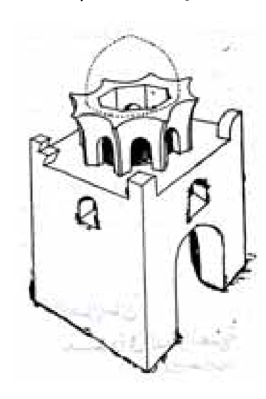
مُثلت هذه المنشآت على عدد لا بأس به من التحف، التي ترجع إلى الفترة قيد البحث، وبعض هذه المنشآت بسيط الهيئة، وأقرب ما يكون لشكل الضريح الإسلامي، وبعضها الآخر أكثر تعقيدًا، يُرجح أنها منشآت دينية مسيحية.

المنشآت الدينية الإسلامية:

وصلتنا مجموعة من شبابيك القُلَل المصرية، تُنسب إلى العصر الفاطمي، مُثِّلت عليها تكوينات معمارية، تُشير إلى تلمس منفذها لهيئة منشأة معمارية بعينها، ومنها مرشح قلة،[٩٣] مرسوم عليه تكوين معماري مكعب الشكل، تعلوه قبة نصف كروية ترتد إلى الداخل، والجزء المكعب من البناء مقسم إلى مستويين، شُغل منتصف كل منهما بما يُشبه حنية، تحتوي على مناطق هندسية مفرغة، ما هي إلا فتحات تسمح بتدفق المياه (شكل ٣٧). ومن الواضح أن الفنان تَلَمَّسَ في التكوين المعماري المنفذ على مرشح القلة السابق الذكر، هيئةَ منشأةٍ معماريةٍ، تتبع نمط التخطيط الذي يعتمد على مساحة مربعة، تعلوها قبة، وقد مر بنا أن هذا النمط عُرف في الأضرحة، والمساجد الإسلامية المبكرة، والراجح عندي أن الفنان استلهم في التكوين المعماري المنفذ على مرشح القُلة محل التناول، هيئة الأضرحة التي شاعت في مصر خلال العصر الفاطمي (شكل ٣٨)، ووصلتنا منها نماذج كثيرة،[٩٤] تتفق في تكوينها العام مع المنشأة المنفذة على ذلك المرشح، ويلفت النظر في هذه المنشأة هاتان الحنيتان. ويبدو لي أن الفنان قصد من الحنية السفلية التعبيرَ عن مدخل الضريح، وقصد من الحنية العلوية نافذةً بالضريح.



(شكل ٣٧)
رسم على مرشح قلة. مصر، العصر الفاطمي. الباحث، انظر، Olmer, pl. XLIX, A



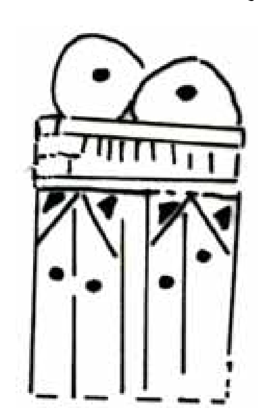
(شكل ٣٨)
رسم لأحد الأضرحة الفاطمية. عن، شافعي، ش٣٣٠.

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

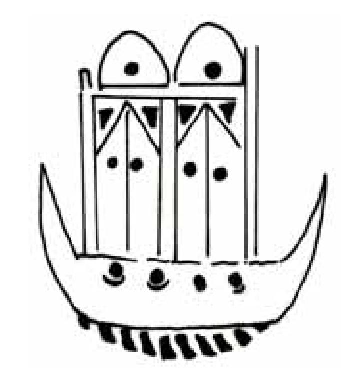


ومن هذه المرشحات أيضًا؛ مرشح ثان[٩٥] منفذ عليه تكوين معماري، قوامه بناء من طابق واحد مكعب الشكل، وهو مقسم إلى قسمين طوليين، يتوسط كل منهما خط رأسي، وكل قسم متوج بعقد مدبب، ويعلو هذا الطابق قبتان نصفا كرويتي الشكل (شكل ٣٩)، ومن غير المستبعد أن يكون الفنان قصد تمثيل منشأتين معماريتين متجاورتين، تُغطي كل منهما قبة، وهو ما يُمكن أن نتبينه من تصميم آخر، منفذ على مرشح قلة ثالث[٩٦] (شكل ٤٠)، وفي هذه الحالة يُمكننا القول: إن الفنان استوحى هنا هيئة منشأتين معماريتين متجاورتين، كضريحي "محمد الجعفري"، والسيدة "عاتكة"[٩٧] -على سبيل المثال- اللذان يعودان إلى العصر الفاطمي.

الجدير بالذكر؛ أن المنشأتين المنفذتَيْن على مرشح القلة الثالث (شكل ٤٠)، محمولتان على قارب، وهيئتهما لا توحي بأن المقصود منهما تمثيل بعض القُمرات التي تكون بالسفن. وعلى ضوء الاعتقاد بأنهما قد يُمثلان ضريحان، فأغلب الظن أنه لا توجد علاقة ترابطية بينهما وبين القارب، والأرجح أن القارب هنا يرتبط بالمياه التي تكون بداخل القُلَل. وأيًا كان الأمر؛ فربما يتساءل بعضنا عن الداعي وراء زخرفة الفنان لتلك المرشحات بمثل هذه المنشآت المعمارية. والحق أن الأمر ربما لا يخرج عن كون هذه المنشآت مجرد زخرفة، كغيرها من الزخارف المختلفة التي نُفذت على مرشحات القُلل، أو لعل القُلل التي ظهرت بمرشحاتها هذه المنشآت - المعتقد أنها أضرحة- كانت مخصصة لبعض الأضرحة، أي لكي يشرب منها زوارها.



(شكل ٣٩)
رسم على مرشح قلة. مصر، العصر الفاطمي. الباحث، انظر، Olmer, pl. XLIX, B



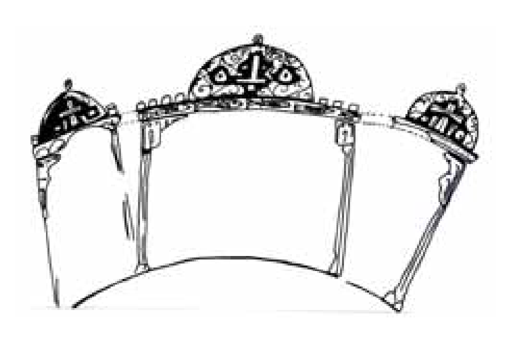
(شكل ٤٠)
رسم على مرشح قلة. مصر، العصر الفاطمي. الباحث، انظر، Olmer, pl. XLIX, D

المنشآت الدينية المسيحية:

بادئ ذي بدء ينبغي علينا الإشارة إلى أن الموضوعات ذات الصبغة المسيحية –بوجه عام- أخذت في الظهور على الفنون الإسلامية في مصر خلال العصر الفاطمي، ثم شاعت إلى حد كبير على الفنون الأيوبية، خاصة في بلاد الشام، ولعل من أهم أسباب ذلك تعدد سبل الاتصال حينئذ بين الشرق الإسلامي، والغرب المسيحي، بالإضافة إلى التواجد المكثف للأوربيين في بلاد الشام. ولكن ينبغي الأخذ في عين الاعتبار أن التحف التي ظهرت عليها تلك الموضوعات ذات الصبغة المسيحية، هي تحف إسلامية، قلبًا وقالبًا.

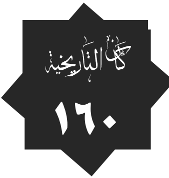
ونستهل حديثنا عن التحف التي ظهرت عليها بعض المنشآت الدينية المسيحية، بزمزمية من النحاس المكفت بالفضة، محفوظة في معرض "فرير" للفن بواشنطن، تُنسب إلى سوريا في منتصف القرن ٧هـ/ ١٣م،[٩٨] وقد ظهرت على هذه التحفة عدة مناظر مسيحية، يهمنا منها ذلك المنظر الذي يُمثل "عيد تجلي العذراء في الهيكل"، الذي صُور داخل كنيسة، مقسمة إلى ثلاثة أقسام، أو ثلاث بائكات، أوسطها هو أوسعها، وتظهر فيه السيدة "مريم" العذراء، والسيد "المسيح" الطفل، وبجوارهما أحد القديسين، كما ظهر في القسمين الجانبيين قديسان، ويعلو هذه الأقسام، أو البائكات الثلاث، ثلاث قباب، أوسطها هو أكبرها، وقد شُغلت كل قبة من الخارج بهيئة صليب (اللوحتان ٢١أ، ب، شكل ٤١).

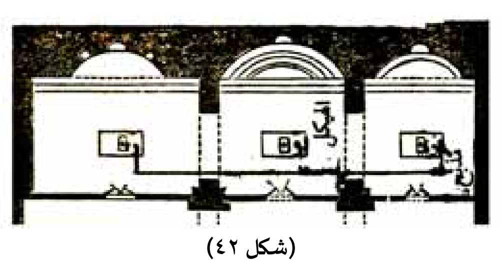
وعلى الرغم من أن الفنان مثل الكنيسة من الداخل -حيث كانت السيدة العذراء في الهيكل- فإن تمثيله للقباب الثلاث التي تعلو أقسامها الثلاثة، أعطى الإيحاء بتمثيله الكنيسة بأكملها، وبوجه عام فالعلاقة واضحة بين الرسم المنفذ على التحفة محل التناول، والكنائس (شكل ٤٢)، سواءٌ كان من حيث الشكل، أو التخطيط البازيلكي، الذي يعتمد على المساحة المستطيلة، المُقَسَّمة إلى ثلاثة أقسام، أو ثلاث بائكات، أوسطها أوسعها.



(شكل ٤١)
رسم على زمزمية من النحاس، بمعرض "فرير"، الباحث، انظر، Atil, pl. 82

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449





(شكل ٤٢)

جزء من تخطيط كنيسة يبين موقع الهيكل، عن، بتلر، أ. ج، الكنائس القبطية، ج ١، شكل ص ١٨٥.

كما ظهرت المنشآت المعمارية الدينية المسيحية أيضًا على عدة تحف زجاجية، منها قارورة ذات بَدَن كُمّثريّ الشكل، مزخرفة بأسلوب المينا، وهي تُنسب إلى سوريا في العصر الأيوبي،[٩٩] ومصور علي هذه التحفة عدة موضوعات ذات صبغة مسيحية، تُعبر عن جانب من الحياة اليومية داخل تَجَمُّعٍ من المنشآت المعمارية الدينية المسيحية (اللوحتان ٢٢أ، ب الشكلان ٤٣أ، ب).

وتقتضي الأمانة العلمية أن نُشير إلى أن الصور المتاحة من هذه القارورة لا تشمل جميع المنشآت المعمارية الممثلة عليها، فقد تضمن بعضها أجزاءً من أسوار، يبدو أنها تحيط بمنشآت لا تظهر في هذه الصور، ومن ثَّم لم أتمكن من دراستها، ومع ذلك فللأجزاء الظاهرة من هذه الأسوار أهميتها، إذ تضمنت أبراجًا في أركانها، وقد بُنِيَّ هذا السور وهذه الأبراج بحجارة مستطيلة الشكل، مرصوصة بشكل منتظم، والأبراج عبارة عن مبان مستطيلة الشكل، يسقف بعضَها قبابٌ مفصصة ذات قطاع بصلي، ويسقف بعضها الآخر أسقف جملونية الشكل، وقد تضمنت هذه الأبراج نوافذ بعضها دائري الشكل، وبعضها الآخر مستطيل الشكل (لوحة ٢٢ب، شكل ٤٣أ).

وبخلاف أجزاء الأسوار السابقة وأبراجها، لدينا منشأة معمارية كاملة، تُمثل أحد الأديرة بداخل ذلك التجمع المعماري المُمثل على هذه التحفة، وهذا الدير عبارة عن بناء مستطيل الشكل، يتكون من طابقين، الطابق؛ الأول: مبني بأحجار مستطيلة متساوية مرصوصة بانتظام، ويظهر في الجانب الأيمن من هذا الطابق مِصْرَاعَا بابٍ يتوسطهما عمود رفيع، وقد تضمن كل مصراع مطرقة دائرية الشكل، كما يظهر في الجانب الأيسر زخرفة قوامها نجمة سداسية الشكل داخل دائرة.

أما الطابق الثاني: فهو يبرز قليلاً عن مستوى الطابق الأول، وقد اشتمل على أربع مناطق مستطيلة الشكل، متساوية الحجم، المنطقة الأولى: تقع على اليمين وهي مبنية بالحجارة، وتتوسطها نافذة مستطيلة الشكل معقودة، أما المناطق الثلاث الأُخَر فهي مكشوفة، ومقسَّمة عن طريق أعمدة ذات قواعدَ وتيجانٍ، ويظهر بداخل كل منطقة قديس، أو راهب، يرتدي ملابس كهنوتية طويلة وفضفاضة، وحول رأسه هالة دائرية الشكل، تُشير إلى قُدْسيته. ويعلو الطابقَ الثاني ثلاثُ قباب مفصصة الشكل، كل منها تعتمد على جزء مبنيّ بأحجار غير متساوية الأحجام، وغير مرصوصة بانتظام، مختلفة في ذلك عن سائر المناطق الأخرى المبنية.





(الشكلان ٤٣أ، ب)

رسم لمنشآت معمارية على قارورة من الزجاج، سوريا، العصر الأيوبي، الباحث، انظر، L' Orient de Saladin, pls. pp. 28- 29

كما ظهرت بعض رسوم المنشآت الدينية المسيحية أيضًا على كأس من الزجاج المذهب والمطلي بالمينا (لوحة ٢٣)، محفوظ في متحف "ولترز" الفني بنيويورك، وهو يرجع إلى سوريا في حوالي سنة (٦٦٠هـ/ ١٢٦٠م)، وثمة إشارة تُفيد بأن هذه الكأس يحتوي على صور غير مألوفة، قوامها مجموعة من الأشخاص أشبه بالقديسين، مع أبنية مقببة تحيط بها جدران عالية، ومن المرجح أن هذه المشاهد تصور أديرة يسكنها الرّهبان، وإن كانت هناك صعوبة في فهم المغزى الدقيق لهذه المشاهد.[١٠٠]

على أية حال؛ فقد ظهر على هذا الكأس منشأتان معماريتان تحصران فيما بينهما شخصين، أمام كل منهما ومن خلفه شجيرة، ويرتدي هذان الشخصان ملابس كهنوتية طويلة، كما يظهر حول رأس كل منهما هالة دائرية الشكل، تُشير إلى قُدْسيتهما.

المنشأة الأولى: (لوحة ٢٤، شكل ٤٤)، تتكون من طابقين تعلوهما قبة، ويحيط بهذه المنشأة من أسفل تكوينٌ معماري مسدس الشكل، يظهر منه ثلاثة أضلاع؛ كل منها مشغول بِعِقْدٍ على هيئة حدوة الفرس، يرتكز على عمودين، ويتدلى من منتصف كل

علمية، عالمية، مُحكّمة، ربع سنوية

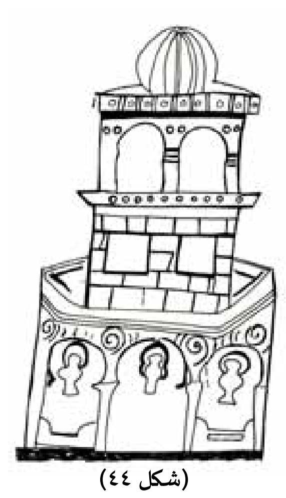
ISSN: 2090 – 0449



عِقد مشكاة، وشُغلت كوشات العقود بلفائف نباتية، ومن المعتقد أن الأضلاع الثلاثة الأخرى - غير الظاهرة- مماثلة لهذه الأضلاع. ويبدأ مستوى الطابق الأول من أعلى التكوين سابق الوصف، لكنه مرتد عنه إلى الداخل، وهو مربع الشكل تقريبًا، ومبنيّ من الحجارة، وقد تميز هذا الطابق ببساطة هيئته، وقلة عناصره، حيث لا يظهر منه شيء ما خلا نافذتين مستطيلتين فُتحتا في الضلع الظاهر منه.

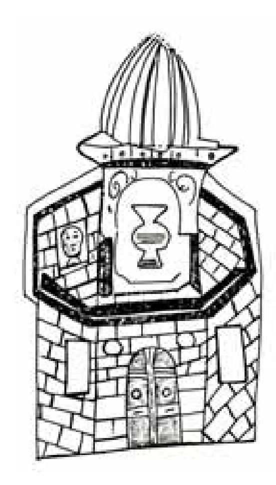
أما الطابق الثاني، فهو مشابه تقريبًا للطابق الأول من حيث الحجم، وتظهر لنا في الضلع الظاهر منه نافذتان معقودتان بعقدين مستديرين، يرتكزان على ثلاثة أعمدة، وتطل من كل نافذة منهما سيدة، والأرجح أن الأضلاع الأخرى -غير الظاهرة- في هذا الطابق فُتحت بها نوافذ معقودة على شاكلة النافذتين السابقتي الوصف. وقبة هذه المنشأة ذات شكل كروي مفصص، ويرى بعض الباحثين أنها على غرار القباب السمرقندية،[١٠١] ولكن يُلحظ أن السمة المميزة للقباب السمرقندية[١٠٢] هي طول رقبتها، وهذه مَيْزة لا تتوفر في القبة محل التناول، وواقع الأمر أن هذه القبة لا تختلف عن القباب المفصصة في بلاد الشام خلال العصر الأيوبي، كقبة مدرسة العالمة أَمَة اللطيف، وقبة المدرسة الركنية.[١٠٣]

المنشأة الثانية: (لوحة ٢٥، شكل ٤٥) يظهر منها مبنى ذو طابق واحد، تعلوه قبة، ويحيط بهذا المبنى سور مثمن الأضلاع، وقد بُنيت جدران هذا السور بالحجارة، وفُتح في الضلع الأوسط من الأضلاع التي تظهر في المواجهة، مدخلٌ به باب من مِصْراعين، وفُتحت في الضلعين اللذين على جانبي هذا الضلع، نافذتان مستطيلتان، كما فُتح في أحد الأضلاع التي تظهر بالخلف؛ نافذةٌ مستطيلة يطل منها أحد الأشخاص. ويظهر بأعلى مستوى السور السابق الذكر، مرتدًا إلى الداخل، ذلك البناء المنوَّه إليه من قبلُ، وهو عبارة عن تكوين مستطيل الشكل، يظهر منه ضلع واحد فُتحت فيه نافذة معقودة، يرتكز عِقْدها على عمودين، ومن المرجح أن الأضلاع الثلاثة الأخرى –غير الظاهرة- على الشاكلة نفسها، ويظهر بداخل هذه النافذة مشكاة، من المفترض أنها متدلية من صنجة العقد، وتعلو هذا البناء قبة مفصصة الشكل، ذات قطاع مدبب.



(شكل ٤٤)

رسم على كأس من الزجاج بمتحف "ولترز"، سوريا حوالي سنة (٦٦٠هـ/ ١٢٦٠م)، الباحث، انظر، أتيل، صورة ٤٤.

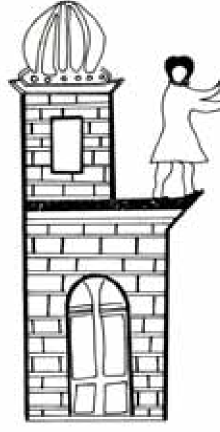


(شكل ٤٥)

رسم على كأس من الزجاج بمتحف "ولترز"، سوريا حوالي سنة (٦٦٠هـ/ ١٢٦٠م)، الباحث. انظر، أتيل، صورة ٤٤.

كما ظهرت المنشآت الدينية المسيحية كذلك على كأس زجاجي آخر، محفوظ في متحف "ولترز" (لوحة ٢٦)، وهو من نوعية الكأس السابق، ويرجع أيضًا إلى تاريخه، ومصدره،[١٠٤] وتتمثل هذه المنشآت في مبنيين يظهر بينهما شخص يمتطي أتانًا، وشخص آخر واقف مرتدي ملابس كهنوتية طويلة، وحول رأس كل من هذين الشخصين هالة مستديرة، كما يقف على شرفة الطابق الثاني بأحد المبنيين، شخص يُشير بيديه إلى الرجل الواقف، ومن المرجح أن الشخص الذي يمتطي الأتان يمثل السيد "المسيح" (عليه السلام)، والموضوع برمته يمثل دخول السيد "المسيح" إلى القدس.

على أية حال؛ فقد ظهر على هذا الكأس مبنيان (اللوحتان ٢٧، ٢٨ الشكلان ٤٦، ٤٧) من المرجح أنهما كالمبنيين اللذين ظهرا في الكأس السابق، أي يُمثلان ديرَيْن في تجمع مسيحي، والمبنيان المنفذان على الكأس محل التناول، متشابهان في التكوين العام، ويتكون كل منهما من طابقين مستطيلين، تعلو كل منهما قبة مفصصة، وفي حين فُتح في منتصف الطابق الأول مدخل؛ يغلق عليه باب من مصراعين، فُتح في منتصف الطابق الثاني نافذة مستطيلة الشكل.

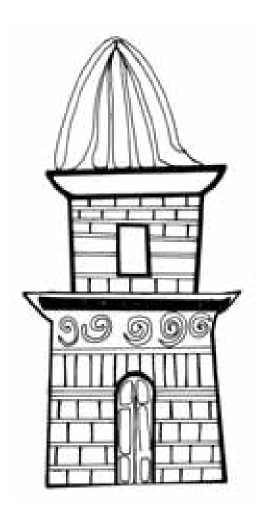


(شكل ٤٦)

رسم على كأس من الزجاج بمتحف "ولترز"، سوريا حوالي (٦٦٠هـ/ ١٢٦٠م)، الباحث. انظر، أتيل، صورة ٤٥.

علمية. عالمية. مُحكَّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449





(شكل ٤٧)
رسم على كأس من الزجاج بمتحف "ولترز"، سوريا
حوالي (٦٦٠هـ/ ١٢٦٠م)، الباحث. انظر، أتيل، صورة ٤٥.

وبالنظر إلى أشكال المنشآت المسيحية التي ظهرت على الكأسين محل التناول، يتضح أن أقرب شكل لها هي تلك المنشآت المسيحية السورية المعروفة باسم "برج البيعة"، أو "الصومعة"، التي كان يعيش فيها زُهَّاد النصارى في سوريا، والتي يعتقد بعض العلماء أن ثمة تشابهًا بينها وبين المآذن السورية الأولى.(١٠٥)

خاتمة

اتضح من خلال الدراسة أن المنشآت المعمارية أدت دورًا مهمًا في تشكيل الفنون التطبيقية الإسلامية وزخرفتها، خلال الفترة محل الدراسة، وقد تنوعت هذه المنشآت ما بين منشآت دينية، وجنائزية، ومدنية، وحربية، غير أن المنشآت الجنائزية كانت الأكثر تمثيلاً.

رجحت الدراسة أن التحف المعدنية المصرية المُشَكَّلة على هيئة منشأة معمارية، ذات قبة مركزية كبيرة وأربعة قباب صغيرة في الأركان، شُكِّلَت على هيئة بعض المنشآت الساسانية، كالبناء المعروف باسم "عرش كسرى"، أو "تخت التقديس"، وأنه يصعب الاعتقاد بأن هذه التحف متأثرة بضريح "إسماعيل الساماني" في مدينة "بخارى". وقد رجحت الدراسة أن بعض الفنانين الفرس الذين تواجدوا في مصر، خلال العصر الإسلامي المبكر اضطلعوا بدور في تشكيل هذه التحف المصرية، على غرار بعض المنشآت الساسانية، وقد دعم هذا التوجه أنه وصلنا رَسْمٌ لـ "عرش كسرى" منفذٌ على صينية من الفضة، ترجع إلى العصر الساساني، أو إلى العصر الإسلامي المبكر.

اتضح من الدراسة أن كثيرًا من التحف المعدنية الإيرانية، شُكِّلَت على هيئة منشأة معمارية ذات بَدَنٍ مكعب، تعلوه قبة، وهي بذلك تُشبه نمط الأضرحة، والمساجد ذات التخطيط المربع والقبة، الذي عُرف في مختلف أرجاء العالم الإسلامي، وكانت له أمثلة إيرانية معاصرة للتحف محل التناول. كما رجحت الدراسة أن التحف المصرية الفاطمية المزخرفة على هيئة منشآت، ذات بدن مكعب تعلوه قبة، متأثرةٌ بأشكال الأضرحة الفاطمية.

تبين من الدراسة كثرة التحف المُشَكَّلة على هيئة منشآت معمارية متعددة الأضلاع تعلوها قبة، وقد وصلنا منها نموذجٌ من إيران يرجع إلى القرن ٨هـ/ ١٤م، اتضح أنه يُشبه أحد الأضرحة الإيرانية المعاصرة، كما وصلتنا منها أمثلة كثيرة ترجع إلى بلاد الأناضول في العصر السلجوقي ، وقد اتفقت اتفاقًا واضحًا مع الأضرحة السلجوقية في الأناضول ذات الأضلاع المتعددة.

اتضح من الدراسة أن التحف السلجوقية الأناضولية المُشَكَّلَة على هيئة منشأة ذات بدن مكعب الشكل، يعلوها غطاء هرمي، لها ما يُماثلها في الأضرحة، والمساجد الأناضولية، كما تبين أن الشكل ذاته من التحف عُرف أيضًا في شمال أفريقيا والأندلس، وقد وصلتنا نماذج معمارية من هناك مشابهة لها.

اتضح من الدراسة أن الثريات المملوكية ذات البدن المنشوري المشطوف، الذي تعلوه قبة، تُشبه بوجه عام الأضرحة المملوكية، عدا في كون جدرانها مائلة. وعلى الرغم من أننا وقفنا على منشأة معمارية من الهند –ضريح غياث الدين تغلق- تتميز ببَدنٍ منشوري مشطوف، تعلوه قبة، مشابهة في ذلك لتلك الثريات المملوكية، فإنه يصعب الجزم بأن هذه التحف، شُكِّلَت على غرار هذه النوعية من المنشآت المعمارية.

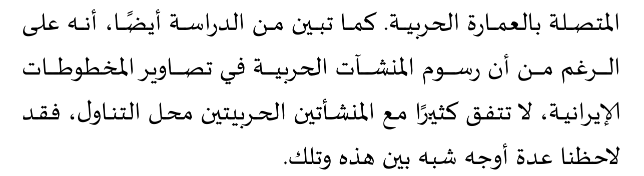
رجحت الدراسة أن التحف المعدنية الأموية ذات البدن المسدس الأضلاع الذي تعلوه قبة، أو ذات البدن الأسطواني الذي تعلوه قبة أيضًا، شُكِّلت على هيئة منشآت معمارية، حيث كانت المنشآت التي على شاكلتهما معروفة عند الرومان، والبيزنطيين.

رجحت الدراسة أن المباخر، والعلب المعدنية ذات البدن الاسطواني الذي تعلوه قبة، والتي شاعت في شرق العالم الإسلامي، قد تأثرت بأشكال المنشآت المعمارية ذات البدن الاسطواني الذي تعلوه قبة، والتي كانت معروفة في شرق العالم الإسلامي قبل الإسلام، واستمرت بعد ذلك، ووصلتنا منها أمثلة ترجع إلى إيران والأناضول. كما لم تستبعد الدراسة أن تكون التحف العاجية الأندلسية ذات البدن الأسطواني الذي تعلوه قبة، قد تأثرت أيضًا بهذا الشكل من المنشآت، حيث كان هذا الشكل معروفًا في منشآت الأندلس.

اتضح من الدراسة قلة نماذج المنشآت الحربية، إذ وصلنا منها منشأتان فقط، إحداهما عبارة عن حِصْنٍ يزخرف صحنًا من الفضة، يُنسب للعصر الساساني، أو للعصر الإسلامي المبكر، والأخرى عبارة عن جزء من قلعة تُزخرف صحنًا من الخزف، يرجع إلى العصر السلجوقي. وبرغم عدم توفر نماذج لمنشآت حربية حقيقية، يُمكن رد المنشأتين الحربيتين محل الدراسة إلى التأثر بها، فقد وقفنا من خلال هاتين المنشأتين على كثير من الملامح المعمارية

علمية. عالمية. مُحكَمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449





المتصلة بالعمارة الحربية. كما تبين من الدراسة أيضًا، أنه على الرغم من أن رسوم المنشآت الحربية في تصاوير المخطوطات الإيرانية، لا تتفق كثيرًا مع المنشأتين الحربيتين محل التناول، فقد لاحظنا عدة أوجه شبه بين هذه وتلك.

تبين من الدراسة كثرة المنشآت المعمارية المسيحية التي زخرفت بعض التحف الأيوبية، والمملوكية، فمنها كنائس، ومنها أديرة، ومنها كذلك صوامع في أديرة، وقد حوت هذه المنشآت كثير من التفاصيل المعمارية المهمة، ورجحت الدراسة أن هذه المنشآت مماثلة للمنشآت المسيحية التي كانت شائعة في بلاد الشام.

الهوامش:

(١) تتمثل العناصر المعمارية التي ظهرت تُزخرف الفنون التطبيقية الإسلامية في: العقود، والقباب، والأعمدة، والصنجات المزررة، والشرافات، والمحاريب، والمقرنصات.

(2) King, G., *The Architectural Motif as Ornament in Islamic Art,* the "Merwán II Ewer and Three Wooden Panels in the Museum of Islamic Art in Cairo", Islamic Archaeological Studies, vol. 2, Cairo, 1980, pp. 23- 27.

خليفة، ربيع، **العناصر المعمارية ودورها في مجال زخرفة الفنون التطبيقية العثمانية**، مجلة كلية الآثار، جامعة القاهرة، العدد السادس، ١٩٩٥م، ص. ص ٦٣- ١٤٤.

(٣) ياسين، عبد الناصر، **الفنون الزخرفية الإسلامية في مصر منذ الفتح الإسلامي حتى نهاية العصر الفاطمي (دراسة آثارية حضارية للتأثيرات الفنية الوافدة)**، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، ٢٠٠٢م، ص٤٧٢- ٤٧٤، ٥٥١- ٥٥٣.

(٤) سلكت في البداية تناول الموضوع في أربعة محاور، متتبعًا في كل محور منها، أثر نوع من المنشآت المعمارية على تشكيل الفنون التطبيقية وزخرفتها، فتناولت المنشآت الدينية التي شُكِّلَت التحف على هيئاتها، أو زُخْرِفَت بأشكال على هيئاتها في محور، ثم تناولت المنشآت الجنائزية التي شُكِّلت التحف على هيئاتها، أو زُخْرِفت بأشكال على هيئاتها في محور ثانٍ، وهكذا مع المنشآت المدنية، والمنشآت الحربية، إلا أن عدم التوازن بين أنواع المنشآت المعمارية - سواء تلك التي شُكِّلَت على هيئاتها بعض التحف، أو التي زُخْرِفت بعض التحف بأشكالها- حال دون الاستمرار وفق هذا المنهج، كما أن الصعوبة في تحديد نوعية بعض المنشآت بوجه قاطع، جعلت أيضًا من الصعب اعتماد هذا المنهج.

(٥) عبد الرازق، أحمد، **الفنون الإسلامية حتى نهاية العصر الفاطمي**، كلية الآداب، جامعة عين شمس، ٢٠٠١م، ص١١٤.

(6) Atil, E., *Art of the Arab World*, Washington, 1975, p. 28, pl. 8.

(7) Allan, J., *Metalwork of the Islamic World, the Aron Collection*, London, 1986, pp. 25- 26, fig. 14.

عبد الرازق، **الفنون الإسلامية حتى نهاية العصر الفاطمي**، ص١١٤، لوحة ٥٨.

(٨) يُؤخذ في عين الاعتبار أن الدراسة لن تنشغل بمثل هذه الأمور التفصيلية، وكل ما يعنيها في التحفة هو شكلها العام.

(9) Allan, p. 26

(10) Allan, p. 26

(11) Hillenbrand, R., *Islamic Art and Architecture*, London, 1999, p. 101

(12) Hillenbrand, R., *Islamic Architecture, Form, Function and Meaning*, Edinburgh University, 1994, fig. 749

(١٣) ياسين، **الفنون الزخرفية الإسلامية في مصر منذ الفتح الإسلامي حتى نهاية العصر الفاطمي**، ص١٢٢.

(14) Allan, p. 26.

عبد الرازق، **الفنون الإسلامية حتى نهاية العصر الفاطمي**، ص ١١٧، لوحة ٦٢.

(١٥) حسن، زكي، **أطلس الفنون الزخرفية والتصاوير الإسلامية**، القاهرة، ١٩٥٦م، شكل ٤٦٩.

(16) Piotrovsky, M., *Art of Islam, Heavenly Art, Exhibition Earthly Beauty*, Amsterdam, from 16 December 1999 to 24 April 2000, p. 211, pl. 183.

علمية. عالمية. مُحكمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449



(17) Piotrovsky, p. 212, pl. 184.

(١٨) كان هذا النوع من القباب شائعًا في بلاد فارس حتى إنه يُنسب إليها. نظيف، عبد السلام، **دراسات في العمارة الإسلامية**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٨م، ص١١٤.

(19) *Hillenbrand, Islamic Architecture, Form, Function and Meaning*, p. 101, fig. 2. 226.

(٢٠) سامح، كمال الدين، **تطور القبة في العمارة الإسلامية**، مجلة كلية الآداب، جامعة فؤاد الأول، مج ١٢، ج١، القاهرة، ١٩٥٠، ص٥.

(٢١) الحداد، محمد، **القباب في العمارة المصرية الإسلامية، القبة المدفن (نشأتها وتطورها) حتى نهاية العصر المملوكي**، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٩٣م، ص ٤١، ٤٢؛ عثمان، محمد، **موسوعة العمارة الفاطمية**، الكتاب الثاني، عمارة المشاهد والقباب في العصر الفاطمي، دار القاهرة، القاهرة، ٢٠٠٦م، ص٢٠٤.

(٢٢) شافعي، فريد، **العمارة العربية في مصر الإسلامية، عصر الولاة**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤م، ص ٥٥٣، عثمان، **موسوعة العمارة الفاطمية**، الكتاب الثاني، عمارة المشاهد والقباب في العصر الفاطمي، ص٢٠٨.

(٢٣) الحداد، محمد، **المجمل في الآثار والحضارة الإسلامية**، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ٢٠٠٦م، ص ٥٣٩.

(24) *Pope*, A., *A Survey of Persian Art from Prehistoric Times to the Present*, London, 1939, vol. II, pp. 923, 986, vol. V, pl. 260 C; Hillenbrand, *Islamic Architecture, Form, Function and Meaning*, pp.292- 293.

(25) *Hillenbrand, Islamic Architecture, Form, Function and Meaning*, p. 293, Fig. 5. 108; O'Kan, B., *The Gunbad- I Jabaliyya at Kirman and the Development of the Domed Octagon in Iran*, Arab and Islamic Studies in Honor of Marsden Jones, the American University in Cairo, 1997, p. 7.

(26) *Hoag*, J., *Islamic Architecture*, London, 1975, p. 100.

(27) *Hillenbrand, Islamic Architecture, Form, Function and Meaning*, p. 278, Fig. 5. 66; Hoag, p. 100, pls. 178- 179.

(٢٨) الحداد، **المجمل في الآثار والحضارة الإسلامية**، ص ٥٤٠.

(29) *Hillenbrand, Islamic Architecture, Form, Function and Meaning*, p. 100, fig. 2.222 ؛

جوادي، سيد، **مساجد إيران، دراسة تاريخية، حضارية، آثارية، فنية**، طهران، ١٩٩٦م، ص٩٦، ش٢٩.

(30) *Hillenbrand, Islamic Architecture, Form, Function and Meaning*, p. 100, fig. 2. 250; Pope, vol. II, pp. 1019 - 1020.

(31) *Hillenbrand, Islamic Architecture, Form, Function and Meaning*, p. 102, fig. 2. 251؛

جوادي، ص٢٦١.

(٣٢) جوادي، ص١٣٢، ٤٣١، شكل ٤٥.

(33) Allan, p. 27, fig. 17.

وفي حدود ما وقفت عليه، فإن "Dalmatia" هي كرواتيا الحالية، وعلى ذلك تكون "Crikvune" منطقة بها. ولم يُقدم Allan, p. 27 تفسيرًا للعثور على هذه التحفة هناك، آخذين في عين الاعتبار أنه كان لسهولة انتقال التحف من مكان إلى آخر، دور كبير في انتقال كثير من التحف الإسلامية إلى خارج النطاق الجغرافي للإمبراطورية الإسلامية، وبخاصة إلى أوربا.

(34) King, pp. 25- 26.

ياسين، **الفنون الزخرفية الإسلامية في مصر منذ الفتح الإسلامي حتى نهاية العصر الفاطمي**، ص٤٧٣، ٥٥١- ٥٥٣.

(٣٥) شافعي، ص١٠٣.

(٣٦) عثمان، محمد، **نظرية جديدة لتفسير كيفية تخطيط قبة الصخرة**، العصور، دار المريخ، لندن، ١٩٩٨م، مج ٣، ج٢، ص٢٣٨.

(37) *Migeon*, G., *Manuel d' Art Musulman*, Paris, 1927, Tom. II, p. 98, fig. 236.

(٣٨) بدر، منى، **المدارس التركية العثمانية ذات التخطيط المثمن، بالتطبيق على مدرستي قابي آغاسي بأماسيه ورستم باشا باستانبول**، ندوة الآثار الإسلامية في شرق العالم الإسلامي، كلية الآثار، جامعة القاهرة، ٣٠ نوفمبر- ١ ديسمبر، ١٩٩٨م، ص ٢٨٤، ٢٨٥.

(٣٩) مارسيه، جورج، الفن الإسلامي، ترجمة، عفيف بهنسي، دمشق، ١٩٦٨م، ص١٠٢.

(40) O'Kane, p. 2; Hoag, p. 98, pl. 176.

(41) *Pope*, vol. II, pp. 1016- 1018; O'Kane, p. 1, figs. 1-2.

(42) O'Kane, p. 2.

(43) *Hillenbrand, Islamic Art and Architecture*, p. 200, pl. 153.

(٤٤) صوي، أولكر أرغين، **تطور فن المعادن الإسلامي منذ البداية حتى نهاية العصر السلجوقي**، ترجمة، الصفصافي أحمد القطوري، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، العدد ٩٧٣، القاهرة، ٢٠٠٥م، ص. ص ٦٤٨- ٦٥٠، صورة ١٦٥.

(٤٥) خليفة، ص١٠٢، لوحة ٢٥.

(46) Hoag, p. 124, pl. 215.

(47) *Hillenbrand, Islamic Architecture, Form, Function and Meaning*, p. 309, fig. 5. 133

(٤٨) أصلان آبا، اوقطاي، **فنون الترك وعمائرهم**، ترجمة، أحمد عيسى، استانبول، ١٩٨٧م، ص١١٢، شكل ٦٥.

(49) *Hillenbrand, Islamic Architecture, Form, Function and Meaning*, p. 308, fig. 5. 130

(٥٠) خليفة، ص٩٩، ١٠٠.

(51) *Firat1*, S., *The Art of Seljuks*, Ankara, 1996, without p

(52) *Hillenbrand, Islamic Architecture, Form, Function and Meaning*, fig. 4.92

(53) *Ülker*, E., *Maden Sanati, Selçuklu Çağinda Anadolu Sanati*, Istanbul, 2002, p. 389؛

صوي، ص٨٤٠، صورة a ١٩٦.

(٥٤) أصلان آبا، ص١٠٨، ١٠٩.

(55) *Öğeler*, F., *Selçuklu Çağı Kentleri, Selçuklu Çağinda Anadolu Sanati*, Istanbul, 2002, pp. 151- 154

(56) Öğeler, p. 151, fig. p.151.

(57) Firat, without p.

بدر، منى، **أثر الحضارة السلجوقية في دول شرق العالم الإسلامي على الحضارتين الأيوبية والمملوكية بمصر**، ج٢، العمارة، زهراء الشرق، القاهرة، ٢٠٠٢م، ص ١٥٧، ١٥٨.

(58) *Ward*, R., *Islamic Metalwork*, London, 1993, p. 96, pl. 74

ISSN: 2090 – 0449



(٥٩) مورينو، مانويل، **الفن الإسلامي في أسبانيا**، ترجمة، لطفي عبد البديع، والسيد عبد العزيز سالم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٧م، شكل ٣٤٧.

(٦٠) الجمل، محمد، **قصور الحمراء ديوان العمارة والنقوش العربية**، مكتبة الإسكندرية، ٢٠٠٤م، ص ١٦١، لوحة ١١٧.

(61) *Marçais*, G., *L' Architecture Musulmane d' Occident*, France, 1954, p. 436, fig. 251

(62) Allan, p. 25, fig. 13.

(63) Allan, p. 25, fig. 13.

(64) Allan, p. 27, fig. 19.

(٦٥) شافعي، ص١٠٣، ١٠٤.

(٦٦) لمعي، صالح، **القباب في العمارة الإسلامية**، دار النهضة، بيروت، د. ت، ص١٨.

(٦٧) انظر، Allan, p. 30, fig. 22. وقد سبقت الإشارة إلى أن هذا الشكل من المباخر كان موجودًا منذ العصر الأموي، وذكر Allan, p. 28 أنه على الرغم من افتقادنا لنماذج منه، ترجع إلى العصر الفاطمي، فلا مُبرر للظن باختفائه في ذلك العصر.

(٦٨) Ward, p. 80؛ صوي، ص٥٦٩- ٥٧١، الصور ١٤٨- ١٥٠؛ ياسين، عبد الناصر، **الفنون الزخرفية الإسلامية بمصر في العصر الأيوبي**، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، ٢٠٠٢م، ص١٦٨، ١٦٩، لوحة ٦١؛ عبد الرازق، أحمد، **الفنون الإسلامية في العصرين الأيوبي والمملوكي**، كلية الآداب، جامعة عين شمس، ٢٠٠٣م، اللوحات ٥٠، ٥١، ٧٩.

(69) *Hillenbrand, Islamic Architecture, Form, Function and Meaning,* p. 527, fig. 5. 125, 282, fig. 5. 52.

(٧٠) كونل، أرنست، **الفن الإسلامي**، ترجمة، أحمد موسى، دار صادر، بيروت، ١٩٩٦م، ص ٦٠، ٦١.

(71) Pope, vol. V, pl. 340.

(72) Pope, vol. V, pl. 349.

(73) *Blair*, Sh., and Bloom, J., *The Art and Architecture of Islam 1250- 1800*, Yale University, 1994, pl. 71

(٧٤) عبيد، شبل، **الكتابات الأثرية على المعادن في العصرين التيموري والصفوي**، دار القاهرة، القاهرة، ٢٠٠٢م، لوحة ٣٥.

(٧٥) Piotrovsky, pp. 90- 92, pls. 27, 28, 29, 116, 117; Ward, p. 15, pl. 6؛ صوي ٢٠٠٥: ٤٦٤، صورة ١٢١.

(76) Piotrovsky, pl. 126.

(٧٧) سالم، السيد، **تحف العاج الأندلسية في العصر الإسلامي**، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٩٥م، الأشكال ٤، ٩، ١٣- ١٧، ٢٥، ٣٤.

(٧٨) (مورينو ١٩٩٧: ٤٦١، شكل ٤٥٥)

(79) Wite, G., Objets en Cuivre, *Catalogue Général du Musée Arabe du Caire*, le Caire, 1932, pls. VII, XII, XIV, XIX

(80) Wite, pls. VIII, XIV, XV, XVI, XVII

(81) Blair and Bloom, pl. 195.

(٨٢) حسن، شكل ٤٣٩؛ صوي، ص٢١١، صورة ١٧.

(83) Pope, vol. I, p. 518, fig. 142.

(84) Pope, vol. I, p. 553, fig. 159.

(85) لمعي: لوحة ٦.

(86) Pope 1939: I, 555, 556, fig. 160.

(٨٧) كريستنسن، أرثر، **إيران في عهد الساسانيين**، ترجمة، يحيى الخشاب، الألف كتاب الثاني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٨م، ص٢٠٣، شكل ١٢.

(٨٨) الباشا، حسن، **موسوعة العمارة والآثار والفنون الإسلامية**، الدار العربية للكتاب، القاهرة، ١٩٩٩م، لوحة ٩٠٥.

(٨٩) شوقي، جلال، **العلوم والمعارف الهندسية في الحضارة الإسلامية**، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، الكويت،١٩٩٥م، شكل ١٢٠.

(٩٠) عكاشة، ثروت، **موسوعة التصوير الإسلامي**، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ٢٠٠١م، لوحة ١٧٢.

(٩١) عكاشة ٢٠٠١: لوحة ١٥٣م.

(٩٢) عكاشة، ٢٠٠١: لوحة ١٣٥م.

(93) *Olmer*, M., *Les Filters de Gargoulettes, Catloge Général du Musée Arabe du Caire*, le Caire, 1932, p. 65, pl. XLIX, A

(٩٤) عثمان، **موسوعة العمارة الفاطمية**، الكتاب الثاني، عمارة المشاهد والقباب في العصر الفاطمي، ص٢١٤، ٢٤٩.

(95) Olmer, l. XLIX, B.

(96) Olmer, pl. XLIX, D.

(97) *Creswell*, K., *The Muslim Architecture of Egypt*, vol. I, khshids and Fatimids, A. D. 939- 1171, Oxford, 1951, pp. 228- 230, pl. 111, C.

(98) Atil, p. 65, pl. 28; Irwin, pp. 214- 215, fig. 180.

(99) L' *Orient* de Saladin, *L' Art des Ayyoubides, Axposition Présentée á l' Institut du Monde Arabe*, Paris, du 23 October 2001 au 10 Mars 2002, pls. pp. 28- 29.

عبد الرازق، **الفنون الإسلامية في العصرين الأيوبي والمملوكي**، ص٢٥١، ٢٥٢، لوحة ١٩٩.

(١٠٠) أتيل، اسين، **نهضة الفن الإسلامي في العهد المملوكي**، الولايات المتحدة الأمريكية،١٩٨١م، ٢٦، صورة رقم ٤٤.

(١٠١) عبد الرحيم، جمال، **الفنون الزخرفية الإسلامية في العصرين الأيوبي والمملوكي**، القاهرة، ٢٠٠٠م، ص٤٥.

(102) Hillenbrand, *Islamic Architecture, Form, Function and Meaning*, pls. 125, 166, 176, 184.

نومكين، فيتالي، **سمرقند**، ترجمة، صلاح صلاح، المجمع الثقافي، أبو ظبي، الإمارات، ١٩٩٦م، الصور ٣، ٤، ٢٠، ٣٣- ٣٥، ٤٦- ٤٨، ٥٣، ٧٣- ٧٥.

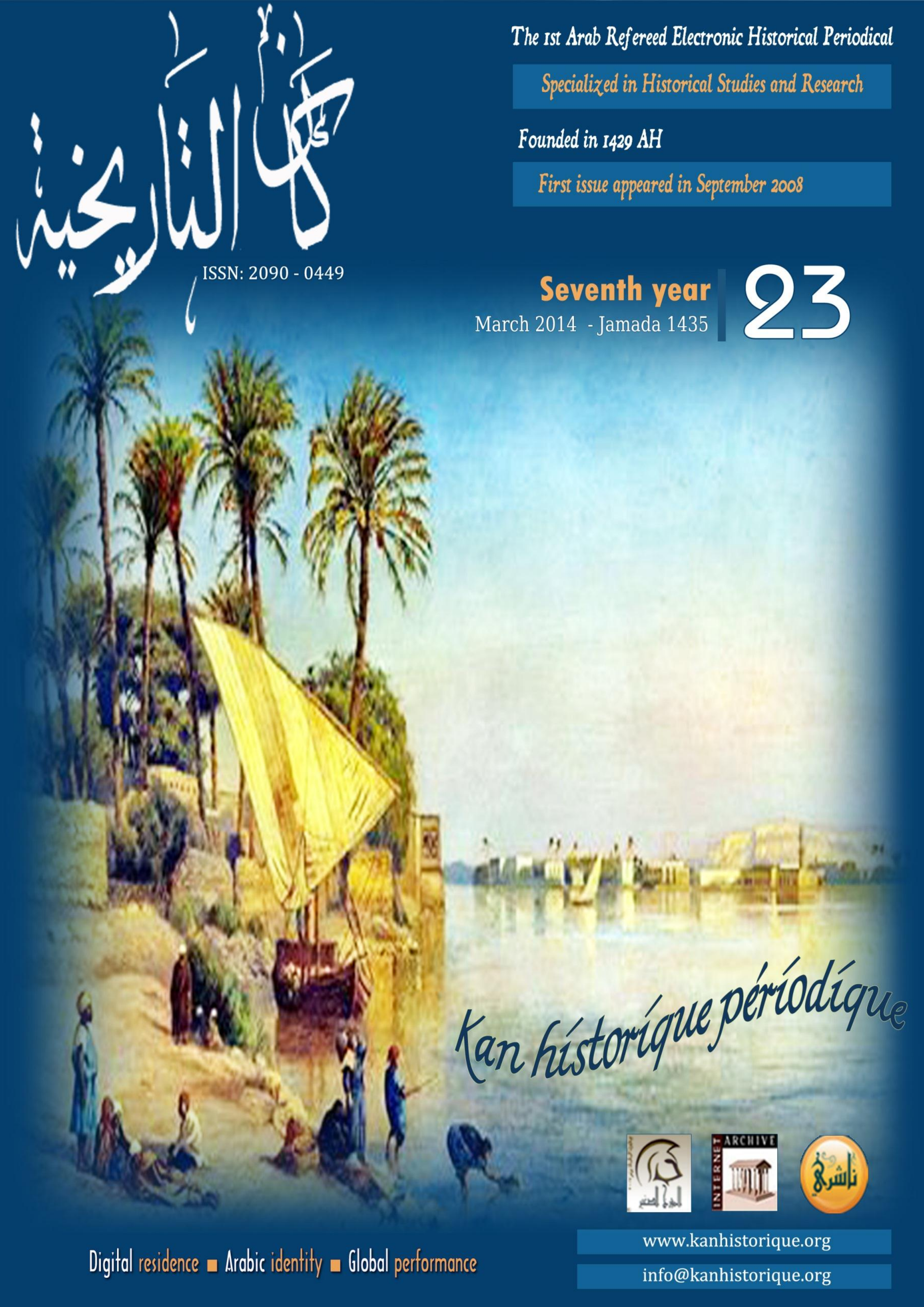
(١٠٣) الشهابي، قتيبة، **زخارف العمارة الإسلامية في دمشق**، ١٩٩٦م، ص اللوحتان ص٢٧٤.

(١٠٤) أتيل، ٢٧، صورة رقم ٤٥.

(١٠٥) سالم، السيد، **المآذن المصرية، نظرة عامة عن أصولها وتطورها منذ الفتح العربي حتى الفتح العثماني**، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، د. ت، ص٣.

علمية، عالمية، مُحكمة، ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449





كان التاريخية
ISSN: 2090 - 0449
The 1st Arab Refereed Electronic Historical Periodical
Specialized in Historical Studies and Research
Founded in 1429 AH
First issue appeared in September 2008
Seventh year
March 2014 - Jamada 1435
23
Kan historique périodique
INTERNET ARCHIVE
ناشري
www.kanhistorique.org
info@kanhistorique.org
Digital residence ■ Arabic identity ■ Global performance